



اللهم نجّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِأمة نبيّك
محمد ﷺ وارحمها وفرّج كربتها



عصر الطوائف في الأندلس من خلال رسائل ديوانية

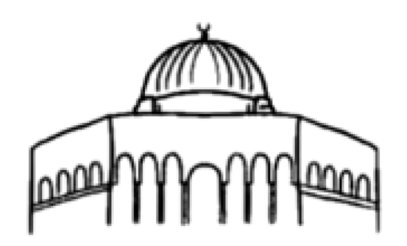
(القرن الخامس الهجري/11م)

دراسة وتحقيق

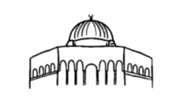
الطبعة الأولى

1434/ 2013





اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمـــد ﷺ وارحمها وفـــرّج كربتهـا



اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِأمة نبيّك
محمد ﷺ وارحمها وفرّج كربتها



عصر الطوائف في الأندلس
من خلال رسائل ديوانية

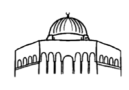
(القرن الخامس الهجري/11م)

دراسة وتحقيق

د. أحمد عزاوي

الطبعة الأولى

2012 /1434



اللهم نجّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بـ أمة نبيّك
محمد ﷺ وارحمها وفرّج كربتها

بسم الله الرحمن الرحيم

"وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما..."
(الحُجرات ، الآية 9)

رقم الإيداع القانوني:
2012 MO 3240
ردمك:
978 - 9954 - 31 - 731 - 0



صورتا الغلاف:
الواجهة الأمامية صورة خيالية للمعتمد بن عباد أحد أشهر ملوك الطوائف

الواجهة الخلفية ؛ خريطة للأندلس في مطلع عصر الطوائف

العنوان ؛ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة
ابن طفيل. القنيطرة- المملكة المغربية (ص.ب 190)
البريد الإلكتروني azzaouiahmed@yahoo.fr

الطبعة الأولى

2013 / 1434

تـــقديـــم

ما يزال فضيلة الأستاذ أحمد عزاوي، في مجهوده العلمي، يستقصي المظنّة ليغني، في صمت بين الفينة والأخرى، خزانة الغرب الإسلامي بالمصادر التي تقدّم، ولا شكّ، عوناً كبيراً للمؤرخين ولطلاب المعرفة من الطلبة. وتتميز النصوص- التي قدّمها فضيلته سواء في **رسائل موحدية** أو في **رسائل الغرب الإسلامي** أو في **رسائل ديوانية** أو في غيرها من الأعمال التي أضحت لا غنى عنها في كتابة تاريخ بلاد المغرب والأندلس- بتعدد مواردها التاريخية وتنوّع موادّها الإخبارية.

يضم هذا الكتاب، الذي يوجد بين أيدينا، بين دفتيه نصوصاً أندلسية مهمّة، وهي بالمناسبة لا تقل أهمية عن سابقاتها، وتكمن جدواها في كونها صادرة عن أولي الأمر في الجزيرة، وتكشف رغم قدمها عن حقائق ما تزال غير موظّفة بالشكل المطلوب؛ وقد عمد الأستاذ أحمد عزاوي إلى تقريب الاستفادة منها بوضع مقدّمة ودراسة ممهّدة بيّن من خلالهما الحيثيات السياسية التي مثّلت عاملاً من عوامل ضعف الخلافة في عهد هشام المؤيد (366- 399هـ) وطمع حاجبه عبد الرحمن شنجول في خلافته، وما تبع ذلك من فتنة خلال القرن الخامس عرف عصرها بعصر الطوائف.

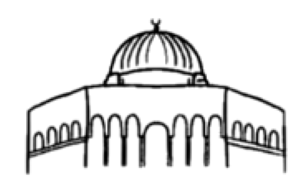
عمد الأستاذ أحمد عزاوي - على عادته في كل أعماله العلمية – إلى تقريب الفائدة من طالبها بإنجاز تحليل موسوعي لكل مملكة من ممالك الطوائف، وأعطى كلا منها حيّزاً سَهّل به أمر التعرف عليها، ابتداء بحمّوديي مالقة وسبتة وانتهاء ببني زيري الغرناطيين ومروراً ببني جهور وبني عباد وبني الأفطس وبني ذي النون وبني المنذر وبني هود والعامريين وبني رزين وبني صمادح. وتتميز هذه الفترة من تاريخ الأندلس بالصعوبة في الدراسة لغناها بالأحداث وتشعّب مسالكها السياسية التي خطّتها العلاقات الأندلسية - الأندلسية والعلاقات الأندلسية - النصرانية. ورغم أن هذه الرسائل المتوفرة هي غالباً مبتورة الأول والآخر وأحياناً الوسط ، باعتبار أنّ الغرض الأساسي من تسجيلها أصلاً هو التعريف بإنتاج الأدباء وإبراز مكانتهم الأدبية وليس حفظاً لتاريخ المرحلة،- حتّى إنّ ما يعرف عنها أدبياً ربما هو أكثر ممّا يعرف عنها سياسياً-، فإنها بفضل ما قدّمه صاحب الرسائل من مجهود بجعلها في إطارها الزمني وإكمال اختصاراتها تعطي انطباعاً بقوة الالتزام العلمي، لهذا الرجل، الذي يعكسه عمله الجديد.

ساهم الأستاذ أحمد عزاوي - بلمّه شتات هذه المجموعة الجديدة من الرسائل - في إضافة لبنة جديدة داخل صرح موسوعته الرسائلية، التي لم يأمل منها منذ البداية

إلاّ توفير المادة الكافية لبناء أبحاث جادّة. وفي الواقع فإنّ دراسة التاريخ اعتماداً على النصوص الرسمية - كانت رسائل أو ظهائر أو تقارير- هي من أفضل الوسائل للوصول إلى نتائج طيّبة، رغم ما يمكن أن يحيط بهذه الرسائل والظهائر من شكوك؛ ولذلك، لا يتمتّع هذا النوع من الأدوات بالمصداقية إلاّ إذا تعهّدته أيدي تكون على قدر عال من المعرفة بخصوصية هذا النوع من الوثائق الذي يتميز في الغالب بغرابة اللفظ فيخفي في طياته أشياء قلّما تجود مصادر أخرى بمثلها.

إن الجهود التي بذلها الأستاذ أحمد عزاوي والتي لا يزال يبذلها في تحقيق هذا النوع من المصادر الرسمية تجعله حجّة من الدرجة الأولى في ميدانه ومرجعاً لا يمكن تجاوزه في كتابة تاريخ الأمبراطورية الموحدية أو الدولة المرينية أو تاريخ علاقات الغرب الإسلامي بالغرب المسيحي. ويقتضي الواجب العلمي التنويه بمثل هذه المنجزات والاعتراف لأصحابها بالفضل.

سلا في 10 محرم 1434/ 25 نونبر 2012
ذ. محمد الغرايب



اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمـــد ﷺ وارحمها وفـــرِّج كربتهـــا

مقدّمة المؤلف

عرفت الأندلس الإسلامية عصور طوائف كان أشهرها ما حدث في القرن الخامس الهجري بعد نهاية دولة الخلافة الأموية، فقد نشأت هذه الدولة سنة 138 هـ على يد عبد الرحمن الأول (الداخل) الذي قدِم إلى الأندلس فاراً من العباسيين بعد استيلائهم على منصب الخلافة الأموية في المشرق وتتبّعهم أبناء الأسرة الحاكمة بالتنكيل والقتل. استمرّ حكم عبد الرحمن الداخل وذرّيته في الأندلس إلى أوائل القرن الخامس، وقد احتفظوا بلقب الإمارة حتى سنة 316 مراعاة لرأي المجتمع الذي كان يرفض وجود أكثر من خليفة للمسلمين، وأنّ الأحق بلقب الخلافة هو من يشرف على الحرمين الشريفين. لكن في نهاية القرن الثالث خرق العبيديون الفاطميون الذين ظهروا في إفريقية هذه القاعدة باعتبار زعمائهم الأحقّ بالإشراف على العالم الإسلامي فتسمّوا بالخلفاء، فرأى عبد الرحمن الثالث الأموي (300- 350) أنّه أجدر بذلك وإحياء لخلافة أجداده في دمشق، فتسمّى بالخليفة وأمير المومنين واتّخذ لقب الناصر لدين الله.

تسلسلت الخلافة بعد الناصر في ابنه الحَكم المستنصر بالله 350- 366) ثم حفيده المؤيّد هشام بن الحكم (366- 399)، الذي طغا عليه نفوذ حاجبه المنصور ابن أبي عامر، حتّى إنّ عبد الرحمن (المدعو شنجول) ابن هذا الحاجب عندما تولّى الحجابة للخليفة هشام سنة 399 فرض عليه تنصيبه وليّاً للعهد (انظر الرسالة الأولى)، وهذا يعني إمكانية نقل الخلافة من البيت الأموي القرشي إلى بيت يماني، وهو أمر لم يكن مقبولاً لدى المجتمع آنذاك، فكان سبباً في مقتله وضعف مركز الخلافة الأموية حتى تمّ إلغاؤها سنة 422، ليبدأ بشكل رسمي ما سمّي بعصر الطوائف أي حكام المدن والجهات المستقلة عن بعضها البعض، والمتنازعين فيما بينهم لتوسيع نفوذهم مع الاستعانة بالنصارى في ذلك[1]، ممّا أضعف قوتهم وسهّل على الإسبان الاستيلاء على كثير من مدن وحصون الثغور إلى أن احتلوا طليطلة عاصمة مملكة بني ذي النّون سنة 478 ، مما دفع إلى الاستنجاد بالمرابطين وإنقاذ البلاد من التهديد النصراني.

حاولنا في هذا البحث المتواضع عن عصر الطوائف أن نوثّق الرسائل الديوانية الصادرة عن ملوك الفترة لفهم جوانب من الأوضاع السياسية والعسكرية لها، مع

---

[1]- بدأ عصر الطوائف من الناحية العملية مع مطلع القرن الخامس، لكن مع الاحتفاظ بتبعية رمزية لخليفة مرواني أو حمودي حتى سنة 422.

العلم أنّ الرسائل المتوفرة هي غالباً مبتورة الأول والآخر وأحياناً الوسط، باعتبار أنّ الغرض الأساسي من تسجيلها هو التعريف بإنتاج الأدباء وإبراز مكانتهم الأدبية وليس حفظاً لتاريخ المرحلة، ولذا فإنّ ما يعرف عنها أدبياً ربما هو أكثر ممّا يعرف عنها سياسياً خصوصاً وأنّ هذا الجانب كان مليئاً بالسلبيات، وعلى هذا فإنّ الرسائل لا تحمل تواريخ محدّدة، فحاولنا وضعها في الإطار الزمني المناسب أو في فترة قريبة محصورة بين تاريخين، كما حاولنا تتميم الاختصارات التي وضعها جامعو الرسائل عند تقديمهم لكل رسالة حرصاً على إفادة القرّاء، فإذا حدث منّا خطأ في هذا الشأن فإننا نرجو المعذرة والتصويب ممّن له دراية في الموضوع. أمّا المصادر التي استخرجنا منها هذه الرسائل فهي بالدرجة الأولى كتاب "**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**" لابن بسّام الشنتريني[1]، و"**قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**"[2] للفتح بن خاقان، تليها مصادر أخرى توزعت خلالها جملة من الرسائل، وقد سجلنا في الهامش بالنسبة لكل رسالة المصدرَ المأخوذة منه.

وضعنا في البداية تقديماً عامّاً للفترة، ثمّ قدمنا لرسائل الجهات الرئيسية تقاديم مناسبة حتّى يمكن فهم موضوعها، وألحقنا بالرسائل الديوانية الصادرة عن الملوك والأمراء مجموعة من الرسائل الموجّهة إلى بعض الأمراء لما رأينا فيها من إضافة مفيدة، وتجنّبنا الخوض في الرسائل المرابطية لأنها خارجة عن موضوعنا[3]، واكتفينا بالرسائل الصّادرة عن ملوك الطوائف إلى السلطة المرابطية حتى نهاية عصر الطوائف بضمّ سرقسطة إلى الحكم المرابطي سنة 503 [4].

نرجو من الله السّداد والتوفيق، والحمد لله ربّ العالمين.

القنيطرة في فاتح محرم 1434 / 16 نونبر 2012

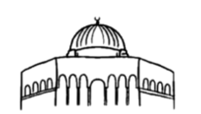
---

[1]- المؤلف هو أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني المتوفى سنة 542، الشهير بابن بسّام، وكتابه "الذخيرة" من تحقيق د. إحسان عبّاس، طبع في أربعة أقسام كل قسم في مجلدين، المجموع ثمان قطع، وذلك بدار الثقافة ببيروت سنة 1997.

[2]- المؤلف هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي المشهور بابن خاقان، المتوفى سنة 529 ، مؤلف كتاب "القلائد"، حققه د. حسين يوسف خربوس، ونشرته جامعة اليرموك في مجلد واحد يضم جزءين، وطبعته طبعة أولى مكتبة المنار بالزرقاء- الأردن. سنة 1989.

[3]- نستثني من هذا رسالتين عن يوسف بن تاشفين حول معركة الزلاقة أتينا بهما للمقارنة مع بعض رسائل المعتمد بن عباد حول نفس الموضوع.

[4] - هذا بالنسبة لرسائل المتن التي بلغ عددها 106 رسائل، وألحقنا بها 26 رسالة موجّهة إلى ملوك الطوائف، فيكون المجموع 132 رسالة، وتتخلل البحث أربع خرائط، وثلاث جداول نسب، ولائحة مفصلة لممالك وملوك الطوائف.



اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمد ﷺ وارحمها وفـرِّج كربتها



القسم الأول

نهاية فترة الخلافة المروانية في قرطبة وتجربة الخلافة الحمودية

(422 - 399)

قراءة تاريخية مختصرة للقرن الخامس

أولاً : مرحلة احتضار الخلافة في قرطبة (399- 422)[1]

1- خضع عصر الخليفة هشام الأموي (366- 399) لحجابة المنصور ابن أبي عامر، فحاول هذا أن يركز نفوذه ونفوذ أسرته على حساب الأطراف الأخرى المحيطة بالخليفة معتمداً على قوة جيشه المكوّن من الصقالبة والبربر (المغاربة)، وعند وفاته خلفه ابنه **عبد الملك المظفر** (393- 399) في الحجابة التي مارسها ست سنوات ونصف، محاولاً السير على نهج أبيه. وعندما تولى هذه المهمّة أخوه **عبد الرحمن** المدعو شنجول طمع في منصب الخلافة نفسه، حيث لم يُبق للخليفة هشام أية سلطة، وعزم على تحويلها إليه، ففرض عليه القبول بجعله ولياً للعهد، وهذا يعني انتقال الخلافة من البيت الأموي القرشي إلى بيت قحطاني يمني، وهو أمر لم يكن مقبولاً في عرف المجتمع، فكان عمله هذا بداية "الفتنة" التي عرفتها الأندلس، حيث قُتل الحاجب عبد الرحمن في نفس السنة 399 خلال عودته من غزوته الوحيدة، فافترق الأمر بين من يدعمه جيشُ الصقالبة (المعروفين بالعامريين نسبة إلى الحاجب ابن أبي عامر) ، ومن يدعمه العنصر العربي، ومن يدعمه العنصر البربري؛ فقد حاول الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبّار ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر – بعد خلع الخليفة هشام- أن ينقل إليه الخلافة وتسمّى **بالمهدي في** 16 جمادى الثانية 399 لكنه لم ينجح في المحاولة، لكونه أراد الانتقام من الجند البربري[2] ، حيث بايع هؤلاء الأمير سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذي استعان بفرقة من النصارى فدخل قرطبة في أواسط سنة 400 وتسمّى **بالمستعين بالله**. ثم تمكن المهدي بن عبد الجبار ثانية من اقتحام قرطبة بدعم أحد قادة الفتيان العامريين (واضح حاكم طليطلة) وفرقة من الإسبان مستفيداً من الدعم المعنوي للخليفة هشام الفاقد لأيّة سلطة ماديّة، لكنّ عزم المهدي على مقاتلة البربر حيثما وجدهم أدّى إلى هزيمته ثانية وعودة **المستعين** مرّة أخرى إلى خلافة قرطبة، إذ دخلها في 27 شوال 403، وفرّ العامريون إلى الشرق الأندلسي، بعد فشلهم في إقناع الخليفة هشام للحركة معهم قبل اختفائه عن الأنظار، فلجأ بعضهم إلى مساعدة بني حمود ضد المستعين، فوصل هؤلاء إلى الخلافة بقرطبة كما سنرى.

خلال **خلافة المستعين** الأولى القصيرة (سنة 400) عيّن ابنه محمداً وليّا للعهد، وفي ولايته الثانية وزّع القبائل البربرية في البلاد إرضاء لرغبتها من جهة، وإرضاء لأهل قرطبة في إبعاد العنصر البربري عنهم، وحتّى لا يكون هو تحت رحمة هذا العنصر من جهة أخرى، ومن هذه القبائل بنو زيري الصنهاجيون في إلبيرة (منطقة غرناطة)، وبنو

---

[1] - ملاحظة: التقديم الوارد قبل نصوص الرسائل لا يمثل تاريخاً مكتملاً ولكنه تقديم لفهم مضامين هذه الرسائل.

[2] - كان المروانيون ومن حولهم ينقمون على البربر كونهم السبب في قوة الحاجب المنصور وتسلّطه على منصب الخلافة فكرهوهم، فحرموا من الخدمة العسكرية، وتعرضت دورهم للنهب بقرطبة، فاجتمع جند البربر على المستعين وبايعوه، ودعّمته فرقة من النصارى فدخل قرطبة، وأخذ الخلافة بها.

برزال اليفرنيون في منطقة جيان، وبنو حمود في الجزيرة الخضراء وسبتة وطنجة وأصيلا، وبنو دمّر وازداجة في شذونة ومورور[1]....

2 - سبق ذكر دعم العناصر المضادّة لسليمان بن الحَكم المستعين بالله بأن شجعوا بني حمود الأدارسة على الوصول إلى الحُكم في قرطبة، كان منهم **علي بن حمّود** في جنوب المضيق (سبتة، طنجة، أصيلا) وأخوه القاسم في شماله[2]، فتحرّك عليّ من سبتة إلى مالقة، مدعّماً من خيران العامري أمير ألمرية، ومن جيرانه الصنهاجيين أصحاب غرناطة وما حولها. وجرت في جهات مالقة حرب مع المستعين قتل خلالها، وانتقل علي بن حمود إلى قرطبة معلناً الخلافة بها لنفسه، حيث بويع يوم الاثنين 23 محرم 407. وكان دعم خيران له من أجل إظهار الخليفة هشام من جديد وبيعته، فلمّا لم يُعثر له على أثر وأعلن علي بن حمّود الخلافة لنفسه انحرف عنه خيران[3]، وقد ذُكر أنّ الخليفة هشام الأموي كان كتب ولاية عهده لابن حمود وأوصاه بالثأر له[4]، فأصبحت هذه الولاية مبرّراً لسعيه إلى منصب الخلافة[5].

بعد استقرار علي ابن حمود في منصب الخلافة بقرطبة قصد خيران الجهة الشرقية ودعا كافة العامريين لبيعة أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر وهو **عبد الرحمن** بن محمد بن عبد الله بن الناصر ولقب **بالمرتضى**، مما شجّع بعض الفتيان الصقالبة (العامريين) في قصر قرطبة على تدبير قتل ابن حمّود في ثاني ذي القعدة 408 [6]. فاستدعى جندُ زناتة بها أخاه أبا محمد **القاسم** بن حمود من ولايته بإشبيلية، وبايعوه بالخلافة فتلقب **بالمأمون**[7]. غير أنّه أصبح مهدّداً من طرف المرتضى خليفة الشرق وبميل القرطبيين نحوه، إضافة إلى انحراف منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة وكذا صاحب طليطلة الذين اتفقوا جميعاً على إعادة الخلافة الأموية، فبايعوا عبد الرحمن المرتضى المذكور [8] ، وعزموا على إنهاء القوة السياسية البربرية من الأندلس بدءً بغرناطة (حيث قوة جند صنهاجة) ثم قرطبة (حيث قوة جند زناتة)، لكن المرتضى قتل في المواجهة مع جيش أمير غرناطة زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي، فكانت هذه الهزيمة سبباً في رسوخ قدم بني حمود في قرطبة فترة أخرى .

---

[1] - راجع تفاصيل هذه الأحداث عند ابن عذاري: **البيان** 3/ 91 وما بعدها، 113- 119 تح. بروفنصال)؛ ابن الخطيب في: **أعمال الأعلام** 2/ 109 وما بعدها (تح. بروفنصال. بيروت 1956)؛ ابن خلدون: **العبر 4**، ط. بيروت 1968 ، ص 323 وما بعدها

[2] - قال ابن حيان : "وكان هشام عندما رآه من اضطراب أمره وتيقّنه من انصرام دولته،- بما مُنيَ به قديماً وحديثاً من تمالؤ بني عمّه آل الناصر عليه، وقيامهم واحداً بعد واحد في خلعه- صيّر إلى علي بن حمّود ولاية عهده، واوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله بذلك إلى سبتة ... وولاّه طلب ذحْله [دمه] واستكتمه السرّ فيه إلى أوانه" (ابن حيان: **من نصوص كتاب المتين**، تحقيق عبد الله محمد جمال الدين، طبعة مدريد 1997، ص 28)

[3] - ذكر ابن سعيد أن خيران فرّ من قرطبة بعدما استشعر الغدر به، فبايع المرتضى، وخيران هو الذي دبّر من قتله خلال الحملة على غرناطة (المغرب في حلي المغرب 194/2. ط. القاهرة 1980).

[4] - **المتين** ص28

[5] - انظر ترجمة علي بن حمود في **الذخيرة** ق1/م1/ 96- 102؛ **البيان** 3/ 119- 124؛ **جذوة المقتبس** 21 (القاهرة 1372هـ)؛ **أعمال الأعلام** 2/ 128- 129؛ **العبر** 4/ 330- 336 (عن بني حمود).

[6] - خلال نفس السنة 407 بويع بشرق الأندلس المرتضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الخليفة النّاصر دعماً من خيران العامري وبقية العامريين بالشرق، بدعوى منع تحوّل الخلافة عن البيت الأموي الذي هم مواليه ، ودعّمهم المنذر صاحب سرقسطة وكذا صاحب طليطلة (راجع **البيان** 3/121-122).

[7] - **البيان** 119 وما بعدها، **المتين** 79- 80

[8] - اسمه كذلك في **البيان** 3/ 121؛ وهو عند ابن الخطيب: عبد الرحمن بن محمد (بن عبد الملك) بن عبد الرحمن الناصر (**أعمال الأعلام** 2/ 130).

استمرّ **القاسم** (المأمون) في الإمارة نحو ثلاث سنين إلى أن تخلّى عنه الجند البربري لصالح ابن أخيه أمير سبتة يحيى بن علي (الملقب **بالمعتلي بالله**)[1] فلجأ القاسم إلى إشبيلية مقرّ ولايته السابق في ثامن ربيع الثاني 412، فاجتمع الأندلسيون من أهل قرطبة وأعمالها مع البربر حول الأمير يحيى، وكانت بيعته يوم فاتح جمادى الأولى من سنة 412، واستوزر له الكاتب أبا جعفر أحمد بن برد الكبير، (هو منشئ جملة من رسائل هذا البحث)، فحسنت سيرته أولا، وهادن عمّه القاسم صاحب إشبيلية، ثمّ ساءت أحواله بتغيّر موقف أهل قرطبة منه، وهم المعروفون بتقلب مزاجهم السياسي، فساءت معاملته لهم، وعندما لم يطمئنّ إليهم خرج إلى مالقة فاستدعى أهل قرطبة عمه القاسم ثانية في ذي القعدة 413، فضمّ إشبيلة إلى قرطبة، ولم يلبث أن خلعه أهلها في جمادى الأخرة 414، فخرج منها إلى ولايته السابقة مدينة إشبيلية، لكنّ أهلها رفضوا استقباله بتدبير قاضيها محمد بن إسماعيل بن عبّاد ليهيئ أمر إشبيلية لنفسه[2]، فلجأ القاسم إلى شريش للاستقرار بها، وكانت تابعة ليحيى ابن أخيه (صاحب مالقة) فتغلّب عليه وأسره.

لم تستقرّ أحوال أهل قرطبة بعد خروج القاسم الحمّودي منها، حيث قدّموا عليهم في رمضان سنة 414 خليفة من الأمويين هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار (أخو المهدي) ولقبوه **بالمستظهر**، وبعد شهرين بايعوا **المستكفي**[3] محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الخليفة الناصر، ثم خلعوه سنة 416، عندما زحف إليهم **يحيى المعتلي** الحمّودي من مالقة، واقتحم قرطبة في رمضان من السنة فبايعه اهلها[4]. وفي مطلع السنة اللاحقة (417) ذهب المعتلي إلى زيارة مالقة وترك قرطبة بيد وزيره وكاتبه أبي جعفر أحمد بن برد، وبينما كان في مدينة قرمونة مطمئنًا إلى ابن عبّاد قاضيه على إشبيلية، دبّر هذا في الهجوم عليه بها فقتل المعتلي في المعركة بين الطّرفين (سنة 417)[5]، وتمكّن محمد بن **عبد الله البرزالي** (من قادة جند المعتلي) من الاستيلاء على قرمونة. وانتهى أمر بني حمود ثانية وبصفة نهائية من قرطبة، واضطربت أحوالها، ثم انتقل أمرها إلى آخر المروانيين وهو هشام بن محمد بن عبد الله بن الناصر الملقب **بالمعتدّ بالله**، وهو أخو المرتضى المذكور[6]. واستمرّ حكم بني حمّود في مالقة والجزيرة وجنوب المضيق إلى أواسط القرن في إطار ملوك الطوائف، واستقلّ القاضي ابن عباد بإشبيلية، متظاهرا بالبيعة للخليفة هشام لدعم سلطانه في وجه بني حمّود، ثم انتهت دعوة هشام المرواني هذا بخلعه سنة 422 ، فانقرض أمر الخلافة المروانية[7].

---

[1] - بينما انتقل هو إلى مالقة طالباً الخلافة انتقل أخوه إدريس منها إلى سبتة.

[2]- انظر ترجمته وترجمة ابنه المعتضد وحفيده المعتمد في **الذخيرة** ق2/ م1/ ص13وما بعدها

[3]- هو والد الأديبة ولاّدة، وكان عبد الرحمن أبوه قتله المنصور ابن أبي عامر لسعيه في الخلاف (**نفح** 4/ 437)

[4]- **أعمال الأعلام** 2/ 136- 137

[5]- قام الوزير أبو محمد بن جهور ببيعة هشام بن محمد أخي المرتضى في ربيع الأول سنة 418 وكان عند ابن هود في لاردة أو في البونت، وتلقّب بالمعتدّ بالله، وبقي يتنقّل في الثغر ولم يدخل قرطبة إلا في آخر سنة 420، ثم خلعه الجند سنة 422 وفر إلى لاردة وبقي بها إلى وفاته سنة 428 (**العبر** 4/ 329- 320).

[6]- وصلته بيعات شكلية من بعض الأمراء مثل عبد العزيز صاحب بلنسية وسليمان بن هود صاحب لاردة وغيرهما... انظر التفاصيل عن فترة خلافة هشام في **الذخيرة** ق3/ م1/515 وما بعدها؛ **جذوة المقتبس** 26-27؛ أعمال **الأعلام** 2/ 138- 140

[7]- **المتين** 60- 61، 80- 83 ، 152؛ **البيان** 3/ 188 وما بعدها

ثانياً: عصر ملوك الطوائف

من إمارات الطوائف إمارات أكبر مساحة، وأخرى متوسطة، وثالثة أصغر تشمل مدينة وناحيتها، وسنعالج ما تبقى من عصر الخلافة بقرطبة وعصر ملوك الطوائف من خلال تتبّع الرسائل الديوانية الصادرة عن الخلفاء والأمراء خاصة بالنسبة للإمارات الكبرى التي سمّي زعماؤها بالملوك، وعرف آخرون باسم الرؤساء، واتّخذ الجميع الألقاب الملوكية، كما حمل ولاة العهد أحياناً لقب الحجاب، ومن هؤلاء الملوك والأمراء بعد عصر الخلافة[1]:

1 - <u>بنو حمّود في مالقة وسبتة</u>

بعد خروج الخليفة **يحيى المعتلي** الحمودي من قرطبة سنة 417 لجأ إلى مالقة محتفظاً بلقب الخليفة، فوجد الدّعم من جاريْه أميري غرناطة حبّوس بن ماكسن الزيري وأمير ألمرية. وكانت مدينة قرمونة شرق إشبيلية تحت سلطة الخليفة الحمودي، ووقعت خارجَها سنة 427 معركة مع ابن عباد قتل فيها هذا "الخليفة" الحمّودي، وتحرك أتباعه وحلفاؤه إلى أحواز إشبيلية يعيثون فيها بعد أن بايعوا بالخلافة أخاه **إدريس المتأيّد**. ووصلت الدعوة إلى أهل قرطبة لبيعة هذا الخليفة الحمودي باعتباره معروفاً بشخصه ونسبه عوض خليفة مشكوك في أمره في إشبيلية نصبه ابن عبّاد، ومن ذلك رسالة من زهير العامريّ أمير ألمرية إلى أهل هذه المدينة. ولهذا اعتبر ابن عبّاد الحمّوديين ألدّ أعدائه الذين يعرقلون مساعيه في توسيع مملكته ومحاولة إسباغ الشرعية على أعماله العسكرية؛ فقد نصب بإشبيلية سنة 426 للخلافة شخصاً على أنّه هشام المؤيّد الأموي، مدّعياً أنه أفلت من يد المستعين واختفى لسنوات طويلة. كما وطّد ابن عباد علاقاته مع أمراء سرقسطة للتّخفيف من منافسة جاريه الشماليّيْن ملكي طليطلة وبطليوس رغم تظاهرهما بالبيعة للخليفة المزعوم.

ورد في البيان المغرب نقلاً عن ابن حيان الوضع بالأندلس في الثلاثينيات، فميّز بين اتّجاهين مختلفين: بنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، والعامريون في الشرق يبايعون للمزعوم هشام بإشبيلية (426 - 451)؛ أمّا ابن صمادح بألمرية وأمراء البربر في غرناطة وأقصى الجنوب فيبايعون للخليفة إدريس الحمودي.

ظلّ بنو حمّود محتفظين بلقب الخلافة في أقصى الجنوب، فبعد وفاة إدريس المتأيّد سنة 431 بويع بالخلافة **حسن المستنصر** ابن أخيه يحيى المعتلي (431- 434)[2]. وأشهر أمراء مالقة وسبتة بعده أخوه **إدريس العالي** بالله (434- 438) ، ثم القائم عليه **محمد المهدي** ابن عمّه إدريس المتأيّد (438 - 444). وبنهايته انقسم الحموديون إلى أكثر من

---

[1] - راجع عن الموضوع بشكل مختصر ما كتبه ابن خلدون في **العبر** 4/ 321- 356

[2] - هذا حسب رواية الحميدي المعاصر للحدث في كتابه **جذوة المقتبس** ص 30- 31، وكانت هناك محاولة لتقديم يحيى بن إدريس الهالك ففشلت. قارن مع **أعمال الأعلام** 2/ 140- 141؛ **البيان** 3/ 289- 292

أمير: ففي مالقة **محمد المستعلي** بن إدريس العالي، إلى أن أخرجه باديس بن حبّوس من مالقة واستولى عليها في في آخر ربيع الثاني سنة 448 [1]، وفي الجزيرة الخضراء بويع بالإمارة ثم بالخلافة بنو القاسم (خليفة قرطبة السابق) أولهم **محمد المعتصم بن القاسم** ثم ابنه **القاسم (الواثق) بن محمد** الذي أخرجه ابن عبّاد من مدينته وضمّها إلى مملكته سنة 450 على الأرجح[2]، وسارت سبتة نحو الانفصال تحت قيادة الحاجب سكّوت البرغواطي إلى أن قضى المرابطون على هذه الإمارة بعد موته في السبعينيات.

2 - بنو جهور في قرطبة

تناوب على حكم قرطبة الخلفاء الحموديون والمروانيون إلى أن خُلع المعتدّ هشام المرواني بتدبير من بعض قرابته سنة 422، فتخلّت العامّة عن فكرة الخلافة المروانية، وأسندوا أمرهم إلى "شيخ جماعتهم" **أبي الحزم جهور** بن محمد بن جهور من بني أبي عبدة، فانتعشت قرطبة بحسن تدبيره إلى وفاته في 6 محرم 435، فخلفه ابنه **أبو الوليد محمد**، لكنه جعل الولاية إمارة متوارثة بتنصيب ابنه الأصغر عبد الملك وليّاً للعهد، وكانت علاقة أبي الوليد سيئة مع جاره الشمالي ابن ذي النّون ملك طليطلة، فتحالف مع ملك إشبيلة، وكلاهما كان يطمع في الاستيلاء على قرطبة، غير أنّ المعتمد ملك إشبيلية الجديد (461 - 484) الذي دُعيَ لإنقاذ قرطبة من ابن ذي النّون بسط عليها نفوذه بتآمر مع بعض قادتها، فانتهى بذلك حكم بني جهور منها (463)، فجعل عليها المعتمد ابنه سراج الدولة المظفّر عبّاد[3]. غير أنّ أحد قادة الثغور الجنوبية في مملكة المأمون ابن ذي النّون وهو حَكَم بن عكاشة استطاع دخول قرطبة وقتل واليها ابن المعتمد وتحويل بيعتها إلى ملك طليطلة، الذي زارها في أواخر جمادى الثانية سنة 467، فلمّا توفّي في أواخر ذي القعدة من نفس العام مسموماً بتدبير المعتمد، أعاد هذا بسط نفوذه على قرطبة، وولى عليها ولده المأمون، فبقي بها إلى أن دخلها عليه المرابطون سنة 484 [4].

3 - بنو عباد (مملكة إشبيلية)

عند اندلاع الفتنة الطائفية كانت إشبيلية ولاية تابعة لبقية الخلفاء في قرطبة من المروانيين والحمّوديين، ولمّا ثار أهلها على يحيى المعتلي الحمّودي سنة 417 استقلّ

---

[1] - النباهي: **المرقبة العليا** فيمن يستحق القضاء والفتيا ، أو تاريخ قضاة الأندلس (بيروت 1983) ، ص 91

[2] - توقّفت رواية الحميدي حوالي سنة 445، وورد في العبر أنّ سقوط الجزيرة في يد ابن عباد كان سنة 450، بعد سقوط مالقة سنة 448 في يد صاحب غرناطة حسب النباهي الذي حدد شهر ربيع الأول وهو الراجح، أو 449 حسب ابن خلدون (**المرقبة العليا** 91؛ **العبر** 335/4)، وهذا ما يتفق مع مقارنات أخرى على خلاف ما يظهر من **أعمال الأعلام** 2/ 142؛ **والبيان** 3/ 188- 192، 216 وما بعدها: 230- 231 ، 242- 243 .

[3] - كان هذا الفتح من حظّ المعتمد وفي أول حكمه (**أعمال الأعلام** 2/ 138 ، 145- 152؛ **البيان المغرب** 2/ 232- 234 ؛ **كتاب المتين** ص89 - 92 وفيه نبذة عن بني جهور). كان ابن عباد استولى في منتصف الأربعينيات على إمارات البكريين والبربر في أقصى الجنوب الغربي: (لبلة، شنتمرية الغرب، شلب...)

[4] - ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** 2/ 156- 159

القاضـي **محمـد بـن إسـماعيل بـن عبّـاد** بإشـبيلية. وتأكيـداً لاسـتقلاله عـن خلافـة الحموديين في مالقة لجأ إلـى البحث عمّن يدعم شرعية حكمه في وجههم، فنصب شخصاً للخلافة سنة 426 ادّعى أنه هشام المؤيّد المرواني كما ذكرنا[1]. واستمرّ علـى هـذه السياسة ابنـه **المعتـضد عبـاد** (433 - 461) فـازدادت مكانتـه لاحتـضانه هـذا الخليفة المزعوم، ممّا شجّعه علـى المزيد من توسيع مملكته وخاصـة علـى حساب طرفين: الإمارات الصغيرة في جنوب غرب الأندلس فجعلها جزء من مملكته فـي أواسط الأربعينيـات، بعد الهدنـة التـي وقعت بينه وبين منافسه وجاره المظفّر ابن الأفطس ملك بطليوس سنة 443 [2]، ثم انشغل بالإمارات الصغيرة المرتبطة بعضها رمزيّاً بالبيعة للحموديين أو المتحالفة معهم مثل قرمونة ومورور وأركش[3]، كما وضـع المعتضد حدّاً للخليفة الحمودي من بنـي القاسم فـي الجزيرة الخضراء فـي منتصف القرن[4]، بعد أن كـان أمير غرناطة باديس بن حبوس استولى علـى مالقة المركز الأساسـي لبنـي حمود، بحيث امتدّ نفوذه إلـى المضيق ودخل فـي نزاع مع سكوت البرغواطي صاحب سبتة، فطالبه بتسليمها له لكونها من ممتلكات بني القاسم أصحاب الجزيرة، بينما طالبه سكوت بإرجاع الجزيرة لكونها كانت مِلكاً لمواليه من بني القاسم بن علي بن حمّود.

في مطلع الخمسينيات وبعد توسيع مملكة إشبيلية رأى المعتضد أنه فـي غير حاجة إلى التمويه بخلافة المزعوم هشام، فألغى الدعاء له آخر سنة 451 مدّعياً أنـه سبق أن توفي ولم تكن الظروف مناسبة لإعلان وفاته. وكما سبق أن خطط للعمل ضد بني حمود حتى سنة 450 فأصبحت حدود مملكته تطلّ مباشرة علـى المضيق، فإنّه أصبح مهتمّاً بتوسيع نفوذه في جهات أخرى بدءً **بقرطبة** التي كان ينافسه عليها المأمون ابن ذي النّون ملك طليطلة، مما جعل بنـي جهور أمراء **قرطبة** (422 - 463) يميلون تارة إلى بني ذي النّون لإيقاف أطماع ابن عبّاد، وتارة أخرى إلى ابن عبّاد لردّ بني ذي النون عن قرطبة، فنشبت حروب بين المتنافسيْن، إلـى أن تمكّن المعتضد بن عبّاد - بالتحايل على عبد الملك بن جهور - من الاستيلاء علـى قرطبة وبتعاون بعض رجالها معه، ثم استولى عليها المأمون ابن ذي النون واستقرّ بها إلـى

---

[1] - كان هذا الوضع مناسباً له لمواجهة بني حمود، كما ناسب في البداية ابن جهور لمواجهة طمعهم في قرطبة (ابن بسّام نقلاً عن ابن حيان: **الذخيرة** ق2/ م1/ ص18)

[2]- كان ذلك في ربيع الأول بعد حروب بينهما (ابن حيان: **نصوص من كتاب المتين** ص 117)

[3]- جعل صاحب كتاب المتين نهاية الحموديين سنة 449 أو 450 (**المتين** 118- 119). وأخّرها ابن عذاري إلى سنة 465 (**البيان** 3/ 218)، وورد عند النباهي سقوط مالقة في أخر ربيع الأول سنة 448 نقلا عن ابن عسكر في تراجمه لعلماء مالقة (**المرقبة العليا** 91).

[4]- **الذخيرة** ق2/ م1/ ص38- 40

وفاته سنة 467 [1]، ثم عادت وبصورة نهائية ومنذئذ إلى سلطة **المعتمد** بن عباد (461- 484)، فعيّن عليها أحد أبنائه، إلى أن دخلها المرابطون في نفس السنة التي دخلوا فيها إشبيلية وهي سنة 484.

كانت أطماع بني عباد في التوسّع على حساب **الإمارات الغربية** وعلى ثغور ابن الأفطس (ملك بطليوس) الجنوبية الغربية عاملاً في النزاع شبه المستمر بين الطرفين؛ كان النزاع بينهما أولاً حول **مدينة باجة**، وتمكن ابن عباد من طرد قوات ابن الأفطس منها حوالي سنة 420، ثمّ انتقم ابن الأفطس لهزيمته من ابن عباد سنة 425 حيث كانت هزيمة ابنه إسماعيل شرّ هزيمة غرست عداوة بين الطرفين طال زمانها[2].

استمرّت العداوة بين بني عبّاد وابن ذي النّون ملك طليطلة خاصة في عهد ملكها المامون بن ذي النون، ولمّا كان القشتاليون يمهّدون لحصار طليطلة في عهد القادر توسّع **المعتمد** ابن عبّاد في القسم الجنوبي الشرقي من مملكته إلى أن ورثه المرابطون. وامتدّ نفوذه شرقاً إلى **جيان** سنة 466 وذلك على حساب مملكة غرناطة. ثم أوصل نفوذه إلى البحر شرقاً على حساب بني طاهر أمراء **مرسية** سنة 471 [3]، واستمرّ الأمر كذلك إلى سقوط مملكة إشبيلية في يد المرابطين سنة 484.

وقفت **مملكة غرناطة** شوكة في حلق بني عباد ضدّ مشروع توسّعهم في الجنوب الشرقي خاصة بتحالفها مع أمير ألمرية، ومساعدة الظروف الطبيعية وصمود الجند البربر والسوداني. وكان المعتضد بسط نفوذه على الجزيرة الخضراء الحمودية سنة 450 وعلى رندة بعد ذلك، فانفتحت له الطريق من أجل بسط نفوذه على إمارة مالقة الحمودية التي كان استولى عليها باديس ملك غرناطة. وشجعت خيانة أهلها - بحكم الميل للعصبية الأندلسية- على محاولة اقتحام مدينة مالقة، فوقعت هزيمة شنيعة على الجيش العبادي خارج قصبة مالقة واضطرّ للتراجع بعدما ترك القتلى والأسرى والغنائم في ميدان المعركة، وقد ذكر عبد الله بن بلكّين أمير غرناطة أنّ عامل التوتّر بين ابن عبّاد وغيره من الأمراء كان سببه وزيره ابن عمّار، ثم حسُنت العلاقة بعد مقتله بين ابن عباد وعبد الله أمير غرناطة[4]. لكنّ هذا المبرّر غير كاف لتعليل سوء العلاقات، فقد كان بنو عباد منذ عهد جدّهم يعملون على توسيع إمارتهم على حساب الإمارات الأخرى كما رأينا، مما أدّى إلى ظهور حالات من التحالف مع البعض والتوتّر مع البعض

---

[1]- **الحلة السيراء 2**/ 176- 177؛ وفي **العبر 4**/ 344 أنه دخل قرطبة سنة تسع وستّين؛ ولا يخفى ما يقع من خلط بين رقمي سبعة وتسعة كتابة بالحروف.

[2] - **الذخيرة** ق2/ م1/ 19-22

[3] - حاول قائده ابن عمّار الاستقلال بها لكنه تمكّن من القبض عليه وقتله.

[4]- عبد الله بن بلكّين الزيري: **التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة**، المنشور تحت عنوان: مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة، ن. بروفنصال. القاهرة 1955 (80-82، 96)

الآخر، وربّما كان تخوّف ابن عبّاد من طامع آخر أكبر منه وهو ألفونسو السادس دافعاً لمحاولة تلطيف الأجواء مع جيرانه في نهاية الأمر أي عند بداية حصار طليطلة أو بعد سقوطها.

وبالنسبة **للعلاقة مع القشتاليين** كان المعتمد - وقبله أبوه المعتضد- يدفع لهم جزية سنوية، ويظهر أنّه عقد مع ألفونسو حلفاً يجدّد بمقتضاه الالتزام بدفع الجزية له، وبعدم التّدخل لمنع تحرّك قوات قشتالة في الأراضي الشمالية لمملكة طليطلة، مقابل عدم اعتراض ألفونسو على عمل ابن عباد في الأراضي الجنوبية الشرقية لهذه المملكة، ممّا فتح للقشتاليين الطّريق لاقتطاع الأراضي الشمالية منها قطعة بعد أخرى دون أي تحرّك من ابن عبّاد من أجل دعم ملك طليطلة[1]. غير أنّ الخطر أخذ يتجاوز مملكة بني ذي النون إلى مملكة إشبيلية نفسها، وقد بدأ هذا يظهر قبيل سقوط طليطلة، بتصاعد مطالب ملك قشتالة بالانتقال من عدم قبول الجزية إلاّ من عيار ذهبي جيّد، إلى طلب سفن المملكة جزية، ثم طلب تسليم جملة من المدن والحصون بعد سقوط طليطلة[2]، وأخيراً اقتحام مملكة إشبيلية حتى المضيق، وإبلاغ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من هناك رسالة استفزازية بعدما علم بطلب الأندلسيين منه تقديم الدّعم لهم. فكانت هذه الأعمال مؤدّية إلى اصطدام المعسكرين الإسلامي والنصراني في معركة الزلاقة سنة 479 التي استنشق الأندلسيون بفضلها نسيم الحياة بعد أن كانوا قد فقدوا الأمل في البقاء بالأندلس.

4 - بنو الأفطس (مملكة بطليوس)

ينتسب بنو الأفطس ملوك بطليوس إلى قبائل مكناسة البربرية ممّن نزلوا أولا بفحص البلوط شمال قرطبة، ولمّا تفرّق أمر الخلافة كان جدّهم عبد الله بن مَسلمة أحد خدّام فتى من العبيد الصقالبة العامريين من قواد الثغور الشمالية الغربية للأندلس، ولمّا مات الفتى ترك ولدين لم يكونا في مستوى حزمه، فاستبد **ابن مسلمة** بالأمر عليهما، وتلقب بالمنصور، إلى أن توفي سنة 437[3]، فخلفه ابنه **المظفر** محمد بن عبد الله (437 - 461)، فأصبح يعاني من عدوّين: المعتضد ابن عبّاد جنوباً والنصارى القشتاليون شمالاً، ومن نتائج هذا الضغط عليه عجزه عن دعم الإمارات الصغيرة في أقصى الجنوب الغربي لعرقلة امتداد نفوذ المعتضد جنوب مملكته، حيث وقعت عليه أكبر هزيمة عند يابرة سنة 442 اضطرّ بعدها المظفر إلى مهادنة المعتضد[4]، وكانت الهدنة في صالح ابن عباد لينشغل بالإمارات الصغيرة المذكورة

---

[1] - في الرسالة رقم 95 لاحقاً اعتراف ابن عباد بتهاونه في دعم صمود طليطلة في وجه حصار ألفونسو القشتالي حفاظاً على ما بينهما من عهود، انظر أيضاً **الذخيرة** ق4/ م1/ 164- 166؛ **دول الطوائف** 71 وما بعدها.

[2] - الرسالة رقم 95 لاحقاً؛ **التبيان عن الحادثة..** (ص 101- 102)

[3] - انظر **الذخيرة** ق2/م2/ 640 - 641

[4] - ابن بسّام: **الذخيرة** في محاسن أهل الجزيرة، ط بيروت 1997، ق1/ م1/ 386- 388 ؛ **دول الطوائف** 83- 84.

ليبدأ في ضمّها إليه، وفي صالح ابن الأفطس لينشغل بالحرب مع جاره الشرقي المأمون بن ذي النّون ملك طليطلة، ومواجهة الحملات النصرانية على ثغوره الشمالية الغربية.

كانت سنة 449 بداية تراجع المظفّر ابن الأفطس أمام القشتاليين حيث سقطت مدن الثغر الشمالي الغربي، ومنها خاصة المدينة الكبرى **قلمرية**[1] (سنة 456) التي كانت من فتوحات المنصور ابن أبي عامر في القرن السابق ، وكان من حسن حظّ ملك بطليوس أن توفي الملك القشتالي فرناندو بعد أخذه قلمرية بسنتين فقط. لكنّ المظفّر توفي بعده أيضاً (سنة 461) وتنازع ولداه فيما بينهما على العرش وبتحريض من ملك قشتالة، فمال عمر أمير يابرة والقسم الغربي من المملكة إلى المعتمد بن عباد، ومال يحيى أمير بطليوس إلى المأمون ابن ذي النّون ملك طليطلة[2]، ثم مات يحيى وتوحّدت المملكة في يد عمر **المتوكّل** (464 - 488)، فحاول الحفاظ على علاقة مهادنة مع المعتمد، خصوصاً وأنّ النصارى أخذوا يتهيّأون لحروب "استرداد" جديدة بعد فترة من الحرب الأهلية داخل قشتالة دامت حوالي سبع سنوات، استقرّت بعدها الأحوال للملك ألفونسو السادس، وكان العمل الذي دشّن به ألفونسو المرحلة الجديدة لتوسّعه هو احتلاله **مدينة قورية** (سنة471)[3] الواقعة شمال نهر التاجُه في أقصى الثغور الشمالية لمملكة بطليوس كخط دفاع أمامي؛ وأخذ يخطط بعد هذا للعمل ضدّ مملكة طليطلة التي سبق أن احتضنته لاجئاً أيام حكم أخيه سانشو، إلى أن تمكّن من دخول عاصمتها سنة 478، دون أن يجدي جيش بطليوس نفعاً لمنعها من السقوط. وشعر المتوكّل ابن الأفطس بتزايد الخطر عليه، فسارع مع ابن عباد إلى الاستنجاد بالمرابطين، وربما استنجد المتوكّل بهم قبل سقوط طليطلة أي بعد سقوط قورية[4]. وكان من جملة الرؤساء الأندلسيين الذين تراجعوا أمام صدمة الجيش القشتالي الأولى التي صمد لها المعتمد في معركة الزلاقة سنة 479.

عندما أحسّ المتوكّل باشتداد ضغط المرابطين عليه سنة 487 بعد سقوط مملكة ابن عبّاد في يدهم، استنجد بملك قشتالة وتنازل له عن شنترين وأطمعه في مدينة بطليوس، فاتّصل أهلها بالقادة المرابطين القريبين من المنطقة وفتحوا لهم أبواب المدينة فقُبض على المتوكل وقُتل مع ولديه وذلك في السنة اللاحقة 488[5].

5- بنو ذي النّون (مملكة طليطلة)

ذُكر أنّ بني ذي النّون (أو بني زنّون) ملوك طليطلة برابرة من جملة الجند الذين كانوا في خدمة المنصور ابن أبي عامر بالثغور، وكان مستقرّهم آنذاك بمنطقة السهلة (شنتمرية

---

[1] - هناك مَن ذكر موت المظفّر سنة 456 (ابن الآبار: **كتاب الحلة السيراء**. ط القاهرة 1985 2/ 97 – الهامش) ؛ وإذا صحّ هذا تكون وفاته وتنازع ولديه بعده على خلافته أهمّ مساعد للنّصارى على اكتساح الشمال الغربي من المملكة. انظر عن سقوط قلمرية **أعمال الأعلام** 2/ 184؛ **دول الطّوائف** 85.

[2] - من نصوص كتاب **المتين** ص 123

[3] - حسب **دول الطوائف** 110

[4] - انظر رسالته إلى ابن تاشفين رقم 91 لاحقاً

[5] - راجع **التبيان** 172- 174؛ **أعمال الأعلام 2**/ 182 وما بعدها ؛ وقارن مع **الحلة السيراء** 96/2

الشرق)، وكان على طليطلة خلال الفتنة أحد العامريين لم يرض أهلها عن سيرته فاستدعوا عبد الرحمن بن ذي النون[1]، فأرسل إليهم ولده إسماعيل الذي لقب **بالظافر** (427 - 435)؛ وكان اعتماده في تسيير البلد على أحد أشياخها وهو أبو بكر بن الحديدي[2]. وعندما توفي الظافر خلفه ابنه يحيى الملقب **بالمأمون** (435 - 467)، فساءت علاقته مع جاره الشرقي المقتدر ابن هود خاصة بسبب النزاع على مناطق الثغور[3]، فاستعان كلّ منهما بفريق من الإسبان لنهب وتخريب بلد الآخر خصوصاً فيما بين سنتي 435 و438، وحاول المأمون خلال ذلك تحسين علاقته مع ابن عباد بالارتباط بدعوة المدعو هشام المنصوب للخلافة في إشبيلية (426 -451)[4]. ثم دخل في نزاع مع جاره الغربي المظفر ابن الأفطس صاحب بطليوس. ومدّ نفوذه شرقاً إلى بلنسية بعد وفاة أميرها عبد الملك بن عبد العزيز سنة 456[5]، فأصبح أبو بكر بن عبد العزيز نائباً عنه فيها؛ ثمّ أخذ المأمون يهدّد بدخول قرطبة على بني جهور، وقد كان ابن عبّاد يطمع فيها أيضاً كما سبق الذكر، فلمّا استنجد بنو جهور به ضد المأمون استولى عليها لصالحه وأنهى حكم الجهوريين سنة 463؛ ثمّ سقطت المدينة سنة 467 / 1075م في يد ابن ذي النون بواسطة قائده ابن عكاشة أحد قادة الحصون القريبة من قرطبة، حيث تمكن من دخولها بتآمر مع بعض حرّاسها، وقتلَ واليَها سراج الدولة عبّاداً ابن أمير إشبيلية، واستقرّ بها المأمون صاحب طليطلة إلى وفاته في أواخر السنة[6]، فأعاد المعتمد بن المعتضد بسط النفوذ عليها بصورة نهائية إلى أن دخلها المرابطون سنة 484 [7].

بعد وفاة المأمون خلفه حفيده **القادر** يحيى بن إسماعيل (467 - 478)، وقد عرفت المملكة في عهده ارتماءً في أحضان القشتاليين، خصوصاً بعد مقتل وزيره ابن الحديدي سنة 468، الذي كان ذا وزن لدى أهل طليطلة، فتصاعد التوتر في العلاقة بينه وبين المقتدر صاحب سرقسطة ممّا زاد في اعتماده على الجيش القشتالي لمواجهة أعدائه، وهذا ما أثار ضده أهل طليطلة، ففرّ منها إلى بعض حصون شرق المملكة (كونكة)، واستدعى أهلُ المدينة ابن الأفطس ملك بطليوس لتسيير أمورها، فوصل إليها أخرَ سنة 472 [8]، وكان أمير

---

[1]- ذكر ابن بسّام قيام ابن يعيش بطليطلة وقت الفتنة، وسماه المحقق: يعيش بن محمد بن يعيش، وأنّ أهل المدينة أخرجوه واستدعوا إسماعيل بن ذي النون (**الذخيرة** ق2/م1/ 16 وهـ 3)

[2] - ذكره ابن سعيد في **المُغرب في حلى المغرب**، ط القاهرة 1978؛ 2/ ص13

[3] - إضافة إلى كون ابن هود حلّ في مملكة قريبِ ابنِ ذي النون التي كان يطمع في ضمّها إليه

[4] - أظهره ابن عباد بإشبيلية سنة 426 وبايعه، ثم وصلته بيعة العامريين أصحاب بلنسية ودانية وطرطوشة إضافة إلى ابن جهور في قرطبة، ثم وصلته بيعة المأمون بن ذي النون سنة 436 (**البيان** 188، 190، 220)

[5] - وصل خبر وفاته إلى إشبيلية في العشر الأواخر من جمادى الأخرة سنة 456 (كتاب **المتين** 133)

[6]- جعل ابن الأبار سقوطها في يد ابن عكاشة سنة 467، ثم استقر بها ابن ذي النون حوالي ستة أشهر قادماً من بلنسية إلى أن مات في ذي القعدة فحمل إلى طليطلة، وسمى ابن عكاشة: حريز بن حكم بن عكاشة (**الحلة السيراء 2**/ 176- 177)

[7]- ابن بسّام: **الذخيرة** في محاسن أهل الجزيرة، ط بيروت 1997، ق 2/م1/ 268 - 272؛ **أعمال الأعلام** 2/ 158- 159؛ **دول الطوائف** 61، 101 ، 103

[8]- **الذخيرة** ق4/م1/ 159. يظهر أنّ تأخّره في الوصول إليهم راجع إلى ضغط القشتاليين على ثغوره في منطقة قورية التي سقطت سنة 471؛ وخلال مقامه في طليطلة الذي دام عشرة أشهر طاف بثغور مملكتها "يدعو اهلها للدخول في طاعته، فأجابته حاشا وادي الحجارة... وكان زعيمها يومئذ والقائم

مرسية أبو بكر بن عبد العزيز أيضاً أعلن خلع طاعة القادر، فأصبح هذا محصوراً في ثغور مملكته الشرقية، فطلب الدّعم من ألفونسو ملك قشتالة ليعود إلى طليطلة، مقابل الالتزام بدفع الجزية التي تزايدت قيمتها، والتنازل له عن جملة من الحصون، بل وعده إذا دخل طليطلة "أن يخلّي بينه وبينها"[1]. فوصل إليها القادر مع الجند القشتالي وشدّد عليها الحصار إلى أن دخلها سنة 474، بعد تغلبه على مقاومة سكانها "وشروطٍ للنّصارى لا يطاق حملها[2]"، وعندما فشل أهل طليطلة في الثورة على القادر ثانية في عيد الأضحى من نفس السنة 474، انتقم منهم شرّ انتقام، ولم تنفعهم استغاثتهم بألفونسو الذي بدأ خطته لأخذ المدينة بإفقار ما حولها حتى يضطرّ الجوع أهلها للاستسلام. ومما أورده ابن بسّام أنّ أهل طليطلة طلبوا الميرة من ملوك الطوائف فلم يتوصّلوا بشيء، وفي الشتاء عندما انقطعت الميرة عن جيش قشتالة المحاصِر للمدينة توصّل بما يحتاجه من المذكورين[3]، فلمّا اشتدّ الحصار وعدمت المرافق في طليطلة تمكّن الفونسو من دخولها وذلك أوائل سنة 478. وحاول تعويض ابن ذي النون عن مملكته فساعده على امتلاك بلنسية (478- 485)، أملاً في أن يتمهّد له الاستيلاء عليها. لكنّ طمع ألفونسو بعد ذلك في بقية الممالك حرّكها للخروج من التردّد في مسألة الاستنجاد بالمرابطين، فوقع الاتّفاق على استدعائهم [4].

6 - بنو المنذر ثم بنو هود (ملوك سرقسطة)

شهد مطلع القرن الخامس اندلاع الفتنة في الأندلس فاستقلّ كل وال أو قائد بجهته، وقد استقلّ بسرقسطة منذر بن يحيى التجيبي الملقب **بالمنصور** (408 - 414)، ثم ابنه يحيى **المظفر** (414 - 420)، وكان آخرهم **منذر بن يحيى** الملقب **بـمعزّ الدّولة** (420 - 430) الذي خذل الخليفة هشام المخلوع (سنة 422)[5]، وهادن الممالك الإسبانية دفعاً لضررها، لكنه اغتيل في أواخر سنة 430 من طرف أحد أقربائه هو **عبد الله بن حكيم**، الذي استولى على سرقسطة، فأساء السيرة فيها، فقام عليه أهلها واستدعوا صاحب مدينة لاردة سليمان بن هود[6] وقدّموه عليهم في مطلع سنة 431 فتلقب بالمستعين بالله[7].

استمر حكم أسرة بني هود من سنة 431 إلى سنة 503، وأول أمرائها جدّهم سليمان **المستعين بالله** المذكور، وكان له خمسة أولاد كلف كلّ واحد منهم بجهة من جهات الثّغر استبدّ

بأمرها من أهلها حامد بن مسرّة الفقيه"، ويظهر أنّ هذه الحركة حدثت اواخر سنة 473 قبل أن يعود ابن الأفطس إلى بطليوس عندما سمع بتحرك ابن ذي النون وحليفه ملك قشتالة نحو طليطلة. انظر **الذخيرة** ق3/م2/ 776 ؛ ق4/ م1/ 159.

[1]- **الذخيرة** ق4/ م1/ 162: **أعمال الأعلام** 2/ 181

[2]- **أعمال الأعلام 2/** 181

[3] - **الذخيرة** ق4/ م1/ 165- 167.

[4] - عبد الله بن بلكين: **التبيان عن الحادثة**، ص 102- 103؛ **أعمال الأعلام** 2/ 176- 182

[5] - انظر عنه **البيان** 3/ 197 وما بعدها ؛ القلقشندي: **صبح الأعشى** 5/ 246 (بيروت1987)

[6] - ورد ذكره أميراً في لاردة حوالي سنة 420 حيث بعث ببيعته إلى هشام المعتدّ آخر المروانيين بقرطبة (**الذخيرة** ق3/م1/ 516- 517). وجعله القلقشندي صاحب لاردة وتطيلة (صبح الأعشى 5 /246)

[7] - **المتين** ص 52- 53: **البيان** 3/ 175- 180، 192.

بها بعد وفاة أبيه، فكان أحمد (المقتدر)على سرقسطة العاصمة، ويوسف على مدينة لاردة، ومحمد على قلعة أيوب، ولبّ على مدينة وشقة، والمنذر على مدينة تُطيلة. وكانت علاقة ابن هود مع جاره ملك طليطلة سيئة، فكان كلّ منهما يجرّ النصارى للغارة على بلد الآخر، ومن عواقب هذا على مملكة سرقسطة سقوط قلعة قلهرّة[1] الحصينة في الثغور بيد النصارى سنة 437 [2]، ولم ينته النزاع بين الجانبين إلا بسقوط طليطلة في يد القشتاليين سنة 478 .

عندما توفي المستعين سنة 438 تحايل **أحمد (المقتدر)** أمير سرقسطة على إخوته بالغدر والقتل حتى استولى على ولاياتهم ما عدا يوسف صاحب لاردة، وكان أكبرَهم سنّاً وهو الملقب بحسام الدولة ثم **المظفر**، بحيث تمكن من الدفاع عن جهته[3]، ولمّا رأى أهل الثغر غدر أحمد بإخوته كرهوه وبايعوا أخاه يوسف صاحب لاردة، فلم يبق لأحمد المقتدر غير سرقسطة، ممّا جعله يربط علاقات مع جيرانه النصارى الأركونيين ضد أخيه إلى أن تمكن من استعادة سلطته على بقية الجهات ما عدا لاردة[4]، واستولى بعد هذا على طرطوشة التي كانت في أولها بيد لبيب العامري حتى وفاته ثم بيد مقاتل العامري (سيف الملة) إلى وفاته أيضاً، فتمكن أحمد (المقتدر) ابن هود من أخذها من يد نبيل العامري سنة 452 [5].

حدثت في عهد المقتدر محاولتان للأركونيين ضد مملكته؛ الأولى محاولة لاحتلال مدينة وشقة كانت فاشلة، ثم وقع الانتقال إلى مدينة بربشتر وحصارها من طرف النورماند والفرنسيين والإيطاليين القادمين من وراء البرنيس مع من انضاف إليهم من الإسبان، إلى أن تمكنوا من احتلال المدينة سنة 456 وقتل آلاف من أهلها وأسر آلاف أُخَر، فاستنجد أهلها بالمسلمين من رعايا ملوك الطوائف[6]، ووقع الاستنفار في مملكتي المقتدر وابن عباد، فتمكنت قواتهما من استعادة المدينة في أواسط السنة اللاحقة (457)[7]. وتعرّضت مدن أخرى بالمملكة إلى الحصار من طرف الجيش القشتالي المرتفع المعنوية بعد احتلاله قورية في أقصى الغرب، فوصل إلى بلنسية وحاصرها، ولم يتراجع الملك فرناندو القشتالي عنها إلا عندما بدأه المرض الذي مات منه سنة 458 .

وفي علاقات المقتدر ابن هود مع جيرانه المسلمين، فقد تميّزت بالتوتّر مع أمير دانية إقبال الدولة علي بن مجاهد الذي دخل معه في الحرب حتى استولى على إمارته سنة 468 . كما تميّز عهده بالنزاع الدائم مع ملوك طليطلة من بني ذي النون وتحالف كل منهما مع النصارى

---

[1] - قلهُرة Calahorra قلعة حصينة قرب الضفة الجنوبية لأعالي نهر سرقسطة (إبرو) وهي إلى الشمال الغربي منها وشمال مدينة سرية. انظر **نزهة المشتاق** 2/ ص 554.

[2] - **أعمال الأعلام** 2/ 178.

[3] - ورد في صبح الأعشى أنّ يوسف المظفّر صاحب لاردة هو ابن المقتدر وأنّ هذا ولاه على لاردة (5/ 246)

[4] - **البيان** 3/ 222 وما بعدها؛ **راجع الذخيرة** ق3/م1/ 423 عن محاولة أخرى للغدر بأخيه صاحب لاردة سنة 450، والرسالة رقم 48 لاحقاً.

[5] - **البيان** 250/3، 302؛ **العبر** 4/ 352 (جعل ذلك سنة 453).

[6] - توجد لاحقاً رسائل تتعلق بالموضوع.

[7] - **الذّخيرة** 3/ 1/ 179 وما بعدها؛ **البيان** 3/ 225- 228.

لتخريب بلاد الطرف الآخر حتى ضعفا معاً ويسّرا على النصارى الطمع في بلادهما، هذا إضافة إلى التزامهما بدفع جزية لهم مقابل ذلك. قال ابن عذاري: "ثم إنّ الروم دمّرهم الله استطالت أيديهم في مدّة ابن هود على بلاد المسلمين بالثّغر الأعلى، فأخذ معهم ابن هود في إعطاء الجزية ... ولم يزل المقتدر بالله ابن هود يضعف والروم يتقوّون عليه إلى أن رماه الله بعلّة في جسده... فتوفي سنة 475"[1]، بحيث يمكن اعتبار المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة والمأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة وخاصة ابنه القادر أقوى العوامل التي جرّأت النصارى على الاندفاع في حرب "الاسترداد" بشكل عنيف خاصة بعد انتهاء الفتنة بين أبناء الملك فرنادو التي قامت إثر موته سنة 458/ 1065م، وقد استمرّت هذه الفتنة حوالي سبع سنوات، فلمّا استقر الوضع لصالح ألفونسو السادس استأنف حرب "الاسترداد". وكانت أولاها على حساب مملكة سرقسطة باحتلال مدينة **سريّة** في أقصى الثغر الغربي سنة 671.

ترك المقتدر ابن هود لابنه **يوسف المؤتمن** (475 - 478) بلاداً ضعيفة تزايدت أطماع القشتاليين فيها، غير أنّهم انشغلوا مؤقتاً بحادث الزلاقة وامتداد النفوذ المرابطي إلى الأندلس، وأصبح أكبر همّهم محاولة إيقاف تقدّم المرابطين شمالاً. وحدث اندفاع القشتاليين بواسطة قائدهم الكمبيطور نحو بلنسية والاستيلاء عليها، وهو ما دعا المرابطين إلى الاقتناع بالإبقاء على إمارة بني هود شرط حماية جهتهم وإيقاف تقدّم النصارى منها[2]، وقد تمكّن أحمد **المستعين الثاني** (478 - 501) من إحداث نوع من التوازن خلال فترة قوة المرابطين، فلمّا خلفه ابنه **عماد الدولة** وتبيّن عجزه سنة 503 عن حماية سرقسطة فأصبحت مهددة بالسقوط، استدعى أهلها المرابطين وأدخلوهم المدينة[3]، فانتهى بهذا حكم بني هود بصفتهم آخر أمراء الطوائف بالأندلس[4]، على أنّ المدينة لم تبق في يد المرابطين إلا سنوات قليلة، حيث سقطت سنة 512 في يد الأركونيين، في الوقت الذي أخذ المرابطون يدخلون مرحلة الضعف منذ حوالي سنة 510.

7 - العامريون في شرق الأندلس

عند استيلاء المهدي (ابن عبد الجبار) على الخلافة سنة 399 وقتله للحاجب عبد الرحمن ابن المنصور كما رأينا، ثم سيطرة البربر على قرطبة دعماً للخليفة سليمان المستعين، لجأ معظم الصقالبة العامريين (نسبة إلى مولاهم المنصور ابن أبي عامر) إلى الشرق خوفاً من الانتقام منهم، فاقتسموا المنطقة: فمنهم مجاهد صاحب دانية والجزر

---

[1] - البيان 3/ 229

[2] - انظر لاحقاً رسالتين بهذا الشأن عن بني هود.

[3] - انظر رسالة عن عماد الدولة إلى الأمير علي المرابطي لمحاولة منع جيشه من الوصول إلى سرقسطة.

[4] - هذا في البرّ، أما الجزر الشرقية فقد عاملها المرابطون كما عاملوا بني هود إلى أن عجز حكامها عن حمايتها من السقوط في يد حملة صليبية فجعلها المرابطون تحت حكمهم المباشر سنة 509.

الشرقية، ولبيب الذي استقلّ بطرطوشة، ومظفّر ومبارك اللذان استقلا ببلنسية، ونبيل الذي استبدّ بأمر شاطبة، وخيران الذي غلب على ألمرية ومرسية وأريولة[1].

كان أبو الجيش **مجاهد** - وهو من أشهر القادة العامريين- والياً سابقاً للحاجب المنصور ابن أبي عامر على **دانية**، فبسط نفوذه عليها سنة 400، ثم استولى على الجزر الشرقية (405) وتسمّى **بالموفق** بالله، بعد أن قدّم للخلافة في جمادى الآخرة من هذه السنة أحد الفقهاء من المروانيين وهو الفقيه عبد الله المعيطي، فحمله معه لفتح دانية، ثمّ لفتح سردانية، ولم يلبث أن تخلّى عنه بدعوى استبداده فأخرجه إلى إفريقية[2]، وكان الغرض من مبايعته معاكسة المستعين خليفة قرطبة المتعمد على العنصر البربري[3]. وعندما بايع العامريون في بلنسية سنة 411 أحد أحفاد المنصور ابن أبي عامر وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن، عاكسه مجاهد في دانية ببيعة ابن عمٍّ له ليعرقل به توسيع نفوذه، ولم يدم الأمر طويلاً لدى الطرفين. وكان مجاهد أميراً يجمع بين الشجاعة والعلم والتقوى والمجون، وقد تمكن من حماية إمارته، بل كان يغزو جزيرة سردينية من حين لآخر[4]، ممّا حرّك ضدّه البابوية والقوى النصرانية المتأثّرة بغزواته (بروفانص، جنوة، بيزا..).

وبعد موته خلفه ابنه عليّ الملقب **بإقبال الدولة** (436 - 468)، وقد نجا من محاولة اغتيال من طرف أحد إخوته، نافسه على العرش باعتباره ولياً للعهد قبل أخيه علي، وكانت المؤامرة مدبّرة مع أمير إشبيلية ابن عباد، لكنّها انتهت بالفشل. وتجاوزت علاقات إقبال الدولة بلاد الأندلس إلى إفريقية الزيرية[5]، وكذا مصر الفاطمية عند حلول سنوات الجفاف الطويل والمجاعة بها في أواسط القرن، حيث وجّه إلى مصر مركباً كبيراً محمّلاً بالمؤونة، فرجع إليه هذا المركب خلال سنة 447 بالياقوت والجوهر والذهب والفضة وذخائر أخرى[6]، وفتحت هذه الهدايا باب المراسلات الوديّة بين الطرفين[7].

استمر إقبال الدولة في الإمارة إلى أن هاجمه المقتدر **ابن هود** واستولى على دانية سنة 468 ونقل ذخائره إلى سرقسطة[8]، ممّا مكّنه من القوة الماديّة التي استعملها لدفع الجزية للنّصارى ولقاء دعمهم له ضدّ أعدائه من المسلمين. ويبدو أنّ امتداد نفوذ المأمون ابن ذي النون

---

[1] - راجع عنان: **دول الطوائف** 156.

[2] - **البيان** 116 ؛ **دول الطوائف** 185، راجع حديثاً عن مجاهد في **الذخيرة** ق3/م1/ 227- 228

[3] - راجع **الذخيرة** ق1/ م1/ 41 ؛ **البيان** 3/ 116

[4] ـ **البيان** 3/ 155- 156؛ كانت أولى غزواته لها بعد استقلاله بالجزر سنة 406حيث تمكّن آنذاك من الاستيلاء عليها في أواسط 406/ 1015م، وشرع في بناء مدينة يستقرّ بها (**المغرب** 2/ 401- 402؛ عنان: **دول الطوائف** 186- 189).

[5] - كثرت حملات ابيه على سردانية، فوقع علي هذا في في يد النصارى في إحدى الغزوات، إلى ان افتكّه من الأسر أحد ملوك بني حماد (**الذخيرة** ق4/م1/265)، ولدينا رسالة واحدة تخص علاقته بإفريقية الزيرية.

[6] - **البيان** 3/ 228

[7] - استمر هذا القحط خلال فترتين الأولى بين سنتي 446 و 454، والثانية بين سنتي 459 وبين 464؛ انظر لاحقاً بعض المراسلات من دانية إلى مصر ؛وعن المجاعة حسن إبرهيم حسن: **تاريخ الإسلام السياسي** والديني والثقافي والاجتماعي 4/ 180- 181(القاهرة 1967).

[8] - **الذخيرة** ق4/ م1/ 265- 268؛ **البيان** 3/ 155 ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 217- 222

ملك طليطلة على إمارة بلنسية في الخمسينيات كان دافعاً قوياً لابن هود لبسط نفوذه على إمارة دانية. أمّا ميورقة التي كان يشرف عليها نيابة عن إقبال الدولة واليها عبد الله المرتضى فقد أعلن هذا استقلاله بها بعد سقوط دانية في يد ابن هود، ولكنّها أصبحت هدفاً للحملات تاصليبية، فقد تعرّضت إحدى جزرها للتخريب خلال حملة ملك النرويج ضد سواحل الأندلس الغربية والجزر الشرقية، كما كانت تتعرّض لحملات القراصنة النصارى من بحّارة برشلونة غرباً حتى بيزا شرقاً وبدعم من البابوية، حدث هذا بعد الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشّام. وكانت الحملة الصليبية الكبرى على ميورقة سنة 508، بدعوى وقف القرصنة الإسلامية ضدّ الشواطئ النّصرانية، ومات أمير ميورقة المرتضى خلال الحصار، ولم ينقذها غير تقدّم الأسطول المرابطي نحوها، في الوقت الذي حاصر الجيش المرابطي البرّي مدينة برشلونة للضغط على قواتها لتنسحب من ميورقة. وقبل وصول الأسطول المرابطي إليها سنة 509 / 1116م انسحب منها الصليبيون، فكانت آخر إمارة طائفية ترتبط بالمرابطين، ويظهر أنّ هؤلاء لم يحاولوا فتحها باكراً كما فعلوا مع بني هود إلى أن عجز الطرفان أمام الضغط النصراني[1].

ومن الإمارات العامرية الأخرى **إمارة بلنسية** ، وقد استولى على الحكم فيها الفتيَان العامريّان **مظفّر ومبارك**، وقد عقدا سنة 408 تجمّعاً للعامريين انتهى ببيعة **المرتضى** المرواني أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر وذلك رفضاً لبيعة علي بن حمود في قرطبة، واجتمعت على المرتضى كل الإمارات العامرية من بلنسية إلى ألمرية (مضافاً إليها منذر التجيبي صاحب سرقسطة). وقد انتهى الحال بتنظيم حملة ضد البربر موجّهة أولاً نحو غرناطة (حيث القوة الصنهاجية) ثم قرطبة (حيث الجند الزناتي)، لكن الهزيمة حلّت بجيش العامريين خارج غرناطة وقتل المرتضى 409. وبنهاية الفتَيَيْن مظفر ومبارك اشترك في تسيير شؤون بلنسية كل من **مجاهد ولبيب العامريَيْن** إلى غاية سنة 411 ، حيث طرد أهل بلنسية لبيب لسوء سيرته وخضوعه للنصارى الأركونيين، وتوتّر علاقته مع مجاهد، ثمّ بايعوا أحد أحفاد الحاجب المنصور هو عبد العزيز بن عبد الرحمن المستقرّ بسرقسطة، فتخلّى مجاهد عن بلنسية، ولقب عبد العزيز بالمنصور، واستمرّت إمارته 40 سنة (411 - 452)[2].

لم تكن علاقة عبد العزيز **المنصور** مع جاره مجاهد صاحب دانية حسنة، خصوصاً وأنّ نفوذ المنصور كان يصل قبل الثلاثينيات إلى مرسية وألمرية، أي في حالة تطويق لإمارة دانية برّاً، فاستغلّ مجاهد حوالي سنة 430 غياب المنصور في ألمرية للقيام بمحاولات فاشلة لتوسيع نفوذه شمالاً نحو شاطبة وجنوباً نحو لورقة. وقد استعان المنصور بقوات من ملك قشتالة فرناندو الأول لمواجهة جيش صاجب دانية في معركة فاصلة سنة 433 [3].

---

[1] - راجع **المغرب** 467/2

[2] - راجع **دول الطوائف** 191- 192

[3] - **البيان** 3/ 302 ؛ عنان: **عصر الطوائف** 193، 209- 213

ارتبط عبد العزيز المنصور في أول أمره بالبيعة لخليفة قرطبة القاسم بن حمّود، فسمّاه هذا بالمؤتمن[1] فتوطّدت سلطته، وطال حكمه إلى وفاته آخر سنة 452. ثمّ خلفه ابنه **عبد الملك** (452 - 456) باجتماع أصحاب أبيه على تقديمه، "واستقرّ أمره، على ضعف ركنه لعدم المال، وقلّة الرّجال، وفساد أكثر الأعمال"[2]، وكان يجد السّند من صهره المأمون يحيى بن ذي النّون ملك طليطلة، فالقوات التي أرسلها إلى بلنسية هي التي ساعدت (المظفر) عبد الملك بن عبد العزيز (452 - 456) على إخماد تحرّك أهل المدينة ضدّه، وهناك حادث خطير وقع في أواخر عهد هو الكارثة التي حلت بأهل بلنسية عند هجوم النصارى عليهم سنة 455 لعدم استعدادهم للمواجهة[3]، ويظهر أنّ هذه الحملة تدخل في إطار تحرّك النورمان بتوجيه الكنيسة لاكتساح بلاد المسلمين في الأندلس، حيث انتهى الأمر بسقوط بربشتر في يدهم في العام اللاحق (456)، وسنرى رسائل في هذا الشأن.

يظهر أنّ دعم المأمون ابن ذي النون المشار إليه لصهره كان ظاهرياً، فبعد موت عبد الملك أصبح ابنه **أبو بكر** (456 - 478) مجرّد نائب في بلنسية عن المأمون، ربما حدث هذا بعد تزايد أهمّية هذا الأخير إثر تحرير بربشتر من يد النصارى بدعم من ابن عباد سنة 457، فلمّا توفي المأمون ثار أبو بكر - ربّما بتحريض من ابن ذي هود حسب القلقشندي[4]- على القادر سنة 467 قبل ثورة أهل طليطلة عليه أيضاً، خصوصاً وأنه ازداد ارتماءً في أحضان النصارى. وبعد أن أخرجه القشتاليون من طليطلة سنة 478 ساعدوه على العودة إلى بلنسية برفقة القائد القشتالي المعروف بالكمبيطور. ولمّا اقترب هؤلاء من بلنسية سنة 485 قام أهلها بزعامة القاضي ابن جحّاف على النصارى وابن ذي النون مستعينين بفرقة مرابطية، لكنّ الكمبيطور تحايل على القاضي الذي كان يأمل في إبعاد الفرقة المرابطية ودعم استقلاله، فتمّ **للكمبيطور** الاستيلاء على بلنسية والانتقام من القاضي وعائلته وجملة من أهل المدينة فأصبحوا بين قتيل وسجين (أواسط 487)، واستمرّ بها إلى أن دخلها المرابطون سنة 495.[5] كما دخلوا الإمارتين الجبليتين ألبونت والسهلة (شنتمرية الشرق) بين 495 و 497، ثم سرقسطة عاصمة بني هود سنة 503، فانتهى بذلك عصر الطوائف بالأندلس[6].

ومن الإمارات العامرية الأخرى إمارة **مرسية والمرية** اللتين استبد بأمرهما الفتى الكبير **خيران العامري** قائد الصقالبة في العهد المنقرض، وكان قد فرّ عند قيام الفتنة من قرطبة إلى الشرق الأندلسي، وتلاحق به كثير من بني جنسه، فاستولى على مرسية (سنة 403)، ثم على

---

[1] - **المغرب** 300/2 (لم يذكر له لقباً)؛ وعند عنان أن الذي سمي بالمؤتمن ثم بالمعتصم هو ابن عمه محمد بن عبد الملك بن المنصور الذي بايعه خيران في مرسية (**دول الطوائف** 159).

[2] - **البيان** 3/ .165

[3] - **الذخيرة** ق3/ م2/ 854 - 857

[4] - **صبح** الأعشى 5/ 245، فمن شأن امتداد نفوذ ابن ذي النون في إمارة بلنسية أن يعرقل مساعي إمارة سرقسطة للامتداد جنوباً، وستقوم فعلاً ببسط نفوذها على إمارة دانية سنة 468.

[5] - **أعمال الأعلام** 2/ 203- 205

[6]- راجع عن أحداث بلنسية **القلائد** 170- 172 ؛ **الحلة السيراء** 2/ 116 ؛ **البيان** 3/ 155 وما بعدها؛ 164-166 ؛ ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 203- 205 (عن ابن حجاف)

ألمرية (405) من يد أحد قادة الفتيان (أفلح الصقلبي)، واقتصر من الألقاب على لقب الفتى الكبير الذي كان معروفاً به. وأصبحت إمارته تشمل من المدن الكبرى ألمرية ومرسية وأريولة وبسطة وجيان، وأصلح قصبة ألمرية الشهيرة للدفاع عنها، وكان مهاب الجانب من جيرانه فلم يطمع أحد في إمارته[1]. غير أنّ علاقته ببقية العامريين لم تكن على ما يرام، فبعدما بايع أهل بلنسية عبد العزيز حفيد المنصور سيّد الموالي العامريين خشي خيران من تقلّص نفوذه فبايع ابن عمّ للمذكور هو **محمد بن الحاجب المظفر** بن المنصور ولقبه بالمؤتمن ثم **المعتصم** وجعل مقرّه مرسية[2]. وبعدما ثارت شاطبة على المنصور عبد العزيز ولجأ إلى بلنسية، توتّر الجوّ بين خيران وأميره محمد المعتصم فضيّق عليه حتى أخرجه من إمارته سنة 413 [3].

وعندما توفي خيران في جمادى الأولى سنة 419 قدّم أهل الحل والعقد الفتى **زهير** وكان نائباً عنه بمرسية، فامتدّت ولايته عشر سنين (419 - 429)، ومن منشآته بألمرية مسجدها الجامع. واتّسع نفوذه إلى بياسة وجيان وما حولهما وإلى "الفجّ من أول طليطلة". وخضعت له قرطبة مدة 15 شهراً ونصف شهر. ثم فسد ما بينه وبين حليفه أمير غرناطة بتدبير وزيره الكاتب أحمد بن عبّاس، حين دفعه إلى غزو غرناطة طمعاً في الاستيلاء عليها، فكانت الهزيمة عليه وقُتلا معاً[4]، فاستولى بنو طاهر على إمارة مرسية، واستولى بنو صمادح التجيبيون على إمارة ألمرية.

عند ظهور علي بن حمّود وقف خيران العامري إلى جانبه مدعّماً لوصوله إلى قرطبة ضد المستعين لأجل إظهار الخليفة هشام المرواني، فلمّا لم يُعثَر له على أثر وأعلن ابن حمّود الخلافة لنفسه تراجع عنه خيران إلى بيعة المرتضى الذي قدّمه مجاهد العامري خليفة في الشرق. ولما انقضت الخلافة المروانية في قرطبة وقف زهير العامري إلى جانب إدريس المتايّد الحمودي مع الأمراء الزناتيين جنوب قرطبة وإشبيلية وخاصة أمير غرناطة الصنهاجي، وتواجهوا مع جيش إشبيلية سنة 428. ثم دخل زهير في صراع مع جاره أمير غرناطة باديس بن حبّوس، فقتل في المعركة سنة 429 كما ذكرنا، فاستدعى فتيان ألمرية عبد العزيز بن أبي عامر أمير بلنسية إليهم، فوصلها وأقام الدعوة لهشام المزعوم الذي نصبه ابن عبّاد خليفة في إشبيلية[5]. ثم ترك عبد العزيز ألمرية في يد ابنه عبيد الله الناصر، فلم يلبث أن مات

---

[1] - عنان: **دول الطوائف** (159- 160)

[2] - العبر 4/ 349

[3] - حاول عبد العزيز اكتساب الشرعية بالبيعة للخليفة الحمودي في قرطبة فمنحه لقب المؤتمن، ربما حدث هذا بعد إبعاده من شاطبة إلى بلنسية، ويظهر أنّ خيران مال بدوره إلى الخليفة الحمّودي لاكتساب الشرعية، وهو النهج الذي سار عليه خلفه زهير العامري. راجع الأحداث في: **البيان** 164-165: **أعمال الأعلام** 2/ 195:**العبر** 4/ 348- 349: **دول الطوائف** 210 - 211 .

[4] - **أعمال الأعلام** 2/ 216، **البيان** 3/ 191

[5] - قال الحميدي : إنّ أهل إشبيلية ومن كان على رأيهم.. لمّا ضيّق عليهم يحيى بن عليّ الحسني وخافوا أمره، أظهروا أنّ هشام ابن الحكم المؤيد حي، وأنهم ظفروا به فبايعوه وأظهروا دعوته، وتابعهم أكثر أهل الأندلس (**جذوة المقتبس** 28)

بها ووضع عبد العزيز مكانه صهره **معن بن صمادح** التجيبي[1]، فمهّد الوضع بها للانفصال عنه سنة 433، وأصبحت الإمارة وراثية في سلالته إلى أن أسقطها المرابطون سنة 484.

أما مرسية، فإنّها انتقلت بمقتل أميرها زهير العامري إلى حكم **بني طاهر**، وهم "بيت أعلام، وحملة سيوف وأقلام"، أولهم **أبو بكر بن طاهر** صاحب خطة المظالم (429 - 455)، وقد حكم مرسية باسم الأمير عبد العزيز صاحب بلنسية رمزياً، ثم ورث عنه ابنه الأديب الشهير **أبو عبد الرحمن محمد** بن طاهر رئاسة المظالم وكذا إمارة مرسية (455 - 471)، وحافظ على تبعية شكلية لصاحب بلنسية. غير أنّ علاقة ابن طاهر مع جيرانه ساءت، فدبّروا أمرهم مع المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فوجّه إليه جيشاً مع وزيره **ابن عمّار**، وكذا القائد عبد الرحمن ابن رشيق صاحب حصن بلج روبيو الذي حرّك سكّان مرسية للثورة على ابن طاهر، فتمكّن جيش إشبيلية من دخول مرسية سنة 471، واعتُقل في حصن أقوط إلى أن فكّ أسره فلجأ إلى صاحب بلنسية وعاش في كنفه[2]. فأصبحت مرسية تابعة لابن عبّاد، حيث وصل نفوذه إلى البحر شرقاً بعد أن بسط نفوذه على منطقتي جيّان وقرطبة (466 - 467). غير أنّ ابن عمّار استبدّ بمرسية لنفسه إلى أن تحايل عليه ابن عباد مع صاحب شقورة فقُبض عليه وقتل، لكنّ القائد ابن رشيق استبدّ أيضاً بمرسية إلى أن قُبض عليه سنة 483 خلال حصار الجيش المرابطي لحصن أليط قبيل انتقال المنطقة إلى النفوذ المرابطي[3].

8 - بنو رزين (إمارة السهلة أو شنتمرية الشرق)

عُرف بنو رزين ببني الأصلع، وكان جدّهم **هذيل بن عبد الملك** ابن رزين من أكابر برابر الثغور، أصلهم من بربر هوارة، وقد استقل بمنطقة السهلة سنة 403 واستمرّ بها إلى سنة 436، وكان الموقع الجبلي الحصين وشجاعة البرابرة مساعداً على استمرار استقلال الإمارة إلى نهاية القرن، فهي تُحدّ من الشمال بمملكة سرقسطة، ومن الغرب بمملكة طليطلة، ومن الجنوب بإمارة البونت الجبلية، ومن الشرق بإمارة بلنسية، وكانت عاصمتها هي شنتمرية الشرق التي عُرفت

---

[1] - كان أبوه يحيى بن أحمد بن صمادح صاحبَ مدينة وشقة وأعمالها، ظهرت مكانته في عهد هشام المؤيّد، وجدّد له سليمان الولاية عليها، ثم وقع تنافس وحرب بينه وبين ابن عمّه منذر التجيبي صاحب سرقسطة بعد عصر الخليفة سليمان، وعجز ابن صمادح أمام المنذر فلم يبق له مكان بالثغر (**البيان** 173)، ذكر صاحب الأعشى أنّ صمادح وابنه معن كانا يتولّيان حروب المنصور مع مجاهد العامري؛ وحضر معن مع عبد العزيز في حركته إلى المرية، وفي غيابه تحرّك مجاهد نحو بلنسية غيرة منه لاستدعاء فتيان المرية لعبد العزيز، فعجّل الرحيل وترك معن نائباً عنه بألمرية فاستقلّ بها (انظر **البيان** 3/ 173 ؛ 192)؛ واشتهر ابنه محمد المعتصم وطال حكمه بالمرية إلى وفاته في ربيع2/ 484 (انظر ترجمة له في **الذخيرة** 1/ 729 وما بعدها؛ **القلائد** 146 وما بعدها ؛ **التكملة** 1/ 324- 325؛ تح الهراس)؛ **الحلّة السيراء** 2/ 78- 88 ، **البيان** 3/ 173- 175؛ **المغرب** 2/ 195- 198؛ **أعمال الأعلام** 2/ 190- 192؛ صبح الأعشى 5/ 244.

[2] - **القلائد** 170 وما بعدها ؛ **الحلة السيراء** 2/ 116 وما بعدها ؛ **المغرب** 2/ 247- 248؛ **أعمال الأعلام** 2/ 201- 202 (وفيه أنّ الذي استولى على مرسية هو أبو عبد الرحمن نفسه وليس أباه) ؛ **دول الطوائف** 64- 66.

[3] - انظر ترجمة لابن طاهر في **الذخيرة** ق3/ م1/ 24 وما بعدها؛ ص 91 وما بعدها.

لاحقاً بشنتمرية بني رزين[1]. ورغم حصانة الإمارة فقد حافظ هذيل على طاعة الخليفة هشام المؤيد المرواني، وعندما بويع المستعين بقرطبة أقرّه على إمارته لعجزه عن عزله، وطمع صاحب سرقسطة منذر بين يحيى (408- 414) في ضمّ الإمارة إلى نفوذه، لكنّه عجز عن ذلك مما دفع هذيل إلى التحالف مع العامريين أعداء منذر[2]. وُصف هذيل بكونه من رجال الأدب والسياسة على عكس ابنه الذي خلفه في الإمارة وهو أبو مروان **عبد الملك حسام الدولة** (636 - 496)، الذي كان أطول حكماً، وكلّما شعر بقوة أحد من أمراء الطوائف اتّقاه بالدّعاء له، وقد وصفه ابن حيّان بالجهل والإعجاب بالنفس[3]، وربما كان هذا من العوامل التي جعلت ابن طاهر بعد خروجه من الأسر الثاني- إثر سقوط بلنسية في يد الكمبيطور- لا يلبّي دعوة ابن رزين عندما استدعاه للكون عنده[4]. وقد سقطت إمارة ابن رزين في يد المرابطين في عهد ابنه **يحيى** (496 - 497) الذي عُرف بالمجون وضعف العقل وسوء التسيير[5].

9 - بنو صمادح التجيبيون (مملكة ألمرية)

سبق أن رأينا مقتل زهير العامري في حربه مع أمير غرناطة سنة 429، واستدعى فتيان ألمرية المنصور عبد العزيز بن أبي عامر أمير بلنسية إليهم، فقدّم عليهم للنيابة عنه صهره **معن بن صمادح** التجيبي[6]، فمهّد الوضع بها للانفصال عن صاحب بلنسية سنة 433.

كان محمد بن صمادح والد معن أميراً على وشقة وأعمالها، ، وكان جاره القوي وابن عمّه المنذر صاحب سرقسطة يضايقه في مدينته حتّى تغلّب عليها، وانحاز ابن صمادح إلى صاحب بلنسية. وتولى ابنه **معن** الوزارة له وتصاهر معه، فوثق بإسناد النيابة إليه في ألمرية بعد مقتل زهير. لكنّه استفاد من بُعد المسافة بين ألمرية وبلنسية، ووجود إمارة مجاهد عدوّ أمير بلنسية فاصلة بينهما، فأعلن استقلاله سنة 433، وأيّده في هذا جاره صاحب غرناطة[7]،

---

[1] - لا زال اسمها إلى اليوم يحمل اسم بني رزين (Albarracin)، انظر عن صاحبها **الذخيرة** 3/1/ 109 وما بعدها ؛ **الحلة السيراء** 2/108- 115؛ **المغرب** 2/ 428 ؛ **البيان** 181- 184؛ 309- 310؛ **أعمال الأعلام** 2/ 201- 202، 205- 207).

[2] - انظر **كتاب المتين** ص139- 140؛ **الذخيرة** ق3/ 1/ 110 (هذا على عكس اتجاه منذر بن يحيى الممالئ للخليفة هشام).

[3] - ابن حيان: **كتاب المتين** 140- 141 (ذكره تحت لقب: ذي الرئاستين)، ونقل عنه **صاحب الذخيرة** 3/1/ 112- 113؛ قارن مع **القلائد** ص 157.

[4] - قدّم صاحب القلائد لرسالة ابن رزين في استدعاء ابن طاهر بما يلي: "وخاطب ابنَ طاهر مستدعياً إلى الكون لديه برسالة تدلّ على إنافته في الفخر، دلالة النسيم على الزّهر، والشاطئ على النّهر، وتشهد له بالعلاء والمجد، شهادة النّار بطيب النّدّ، وكرم الزّند، فإنّه استدعاه والآذان قد صُمّت عن دعائه، وحكّمه في ملكه والكلّ قد ضن عليه بما في وعائه"، وسيأتي نص الرسالة مرتبة مع بقية الرسائل.

[5] - **البيان** 2/ 307- 311

[6] - كان أبو يحيى محمد بن أحمد بن صمادح صاحبَ مدينة وشقة وأعمالها، ظهرت مكانته في عهد هشام المؤيد، وجدد له سليمان الولاية عليها، ثم وقع تنافس وحرب بينه وبين ابن عمه منذر التجيبي بعد عهد الخليفة سليمان، وعجز ابن صمادح أمام المنذر فلم يبق له مكان بالثغر، وأصبح ابنه معن من قواد عبد العزيز وكان معه في حركته إلى ألمرية، وفي غيابه تحرّك مجاهد نحو بلنسية غيرة منه لاستدعاء فتيان ألمرية لعبد العزيز، فعجّل الرحيل وترك ابنه عبد الله الناصر سنة 430 ودعا لهشام المنصوب للخلافة في إشبيلية، ولم يلبث أن مات فقدم المنصور صهره معن نائباً عنه بألمرية (انظر: **نصوص من كتاب المتين** 101 – 102؛ **البيان** 3/ 173 : 192)

[7] - **كتاب المتين** 102؛ **البيان** 3/ 172 ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 217 .

فاستمرّت بينهما علاقات المودّة إلى وفاته سنة 443، وخلفه وليّ عهده ابنه محمد، وتلقب بالمعتصم بالله، وكان عمره آنذاك ثمان عشرة سنة.

استمرّت في بداية عهد **المعتصم بالله** علاقات المودّة بينه وبين جاره باديس أمير غرناطة، بينما كانت علاقاته سيئة مع خاله عبد العزيز صاحب بلنسية الذي ربّما كان وراء ثورة ضده قادها ابن شبيب في لورقة سنة 443، فوجد المعتصم الدّعم من باديس لإخماد الثورة وإعادة المدينة وحصونها إلى نفوذه[1]. ثم تمكن هذا الثائر من الانفصال بلورقة، وأعلن طاعته لابن عبّاد هو ومَن خلفه من الأخوة الذين تعاقبوا على حكمها[2] ليتقوّى به في وجه أمير ألمرية. ومن المحتمل أنّ انفصال لورقة تمّ خلال بعض النزاعات التي كانت تنشأ أحياناً بين غرناطة وألمرية، فلم تجد هذه دعماً لها. ذلك أنّ وزراء السوء كانوا وراء تغيّر العلاقات بين الجهتين، فقد كان وزير غرناطة اليهودي ابن نغرالة يحثّ المعتصم على أخذ غرناطة، فتحرّك إليها بجيوشه سنة 459 ، وباءت العملية بالفشل[3]، وفقد المعتصم نتيجة هذه المغامرة حصن وادي آش ومدينة جيان وما حولهما من الحصون حيث استولى عليها باديس أمير غرناطة، إلاّ أن ابن صمادح استرجعها بعد ذلك مؤقتاً، ثمّ سقطت جيان في يد المعتمد ابن عباد. وبعد وفاة باديس أمير غرناطة سنة 465 وتولّي حفيدِهِ عبد الله بن بلكّين ظهر نزاع حدودي بين الطرفين كان وراءه الوزير السابق في غرناطة سماجة اللاجئ إلى ألمرية حيث أخذ يثير المعتصم على أميره عبد الله صاحب غرناطة[4]، ولم تهدأ الأحوال بينهما إلاّ بتحطيم عبد الله الحصون على الحدود بينهما تأكيداً على حسن نواياه من جهته؛ وتحدّث ابن بسّام عن طبيعة المعتصم الوادعة وأنّه إنّما استُدرج إلى الحروب وأُكره عليها إكراهاً[5].

عندما استدعى أمراء الطوائف المرابطين إلى الأندلس كان المعتصم أقلّ حماسة لذلك، لتخوّفه من سوء المصير بيد المرابطين، ولكون الضغط القشتالي كان بعيداً عن مملكته، ولكنه شارك بقواته في الزلاقة بواسطة أحد أولاده، ثمّ شارك بفعالية في حصار **حصن أليط** (Aledo) لقربه من حدوده وتأثر أطراف مملكته بهجوم نصاراه عليها، وكان القشتاليون استولوا عليه بعد سقوط طليطلة تمهيداً لما سيأتي من توسّعات خاصة في الجهة الجنوبية الشرقية. وتتحدّث الروايات عن موت المعتصم في ربيع الآخر 484 قبل تحرّك المرابطين ضدّه أي بعد سقوط غرناطة في يدهم، وخلفه ابنه أحمد الملقب **بعز (او**

---

[1] - **دول الطوائف** 164

[2] - **دول الطوائف** 164

[3] - وهذا حسب **البيان** 3/ 266 ؛ أمّا ابن الخطيب فقد جعل ذلك "سنة 469 وقيل 465" (**أعمال الأعلام** 2/ 233)؛ انظر أيضاً **التبيان** 53؛ والتاريخ الأول لا يستقيم لأنّ باديس الذي وقعت في عهده الحادثة توفي سنة 465 وليس بعدها، والراجح أن يكون ما في البيان أصح، فقد أكّد هذا في الصفحتين 275- 276 ضمن حولياته.

[4] - **التبيان** 88

[5] - **الذخيرة** ق1/م2/ 239 ؛ **القلائد** 47 . كذلك كان ابن عمار سبباً في توتّر العلاقة مع جاره الغرناطي كما يذكر عبد الله بن بلكين في مذكراته (**التبيان** 80- 82، 96)

معزّ الدولة بضعة أشهر، ثم فرّ - بعد سقوط إشبيلية وبوصية من أبيه- إلى مملكة بجاية قبل وصول الجيش المرابطي إلى ألمرية في نفس السّنة[1].

10 - بنو زيري (مملكة غرناطة)

وفدَ على الحكّم المستنصر ثم على الحاجب المنصور في القرن الرابع مجموعات من القبائل المغربية كان منها جماعة من صنهاجة إفريقية مع زعيمهم زاوي بن زيري (دخل الأندلس سنة 491)، واهتمّ الحاجب المنصور بعنصر القبائل البربرية في جيشه. ولما وقعت الفتنة في مطلع القرن الخامس واستبد كلّ زعيم وقائد بجهته، وخاف البربر من نقمة ابن عبد الجبار الملقب بالمهدي، اجتمعوا على دعم سليمان المستعين وأدخلوه قرطبة، وعندما قسم الولاة على البلاد جعل **زاوي بن زيري** على كورة إلبيرة (غرناطة) وجيان، وعندما تقدّم علي بن حمّود من سبتة نحو قرطبة وجد الدّعم من صنهاجة، ولمّا تحرّك المرتضى خليفة العامريين في الشرق لحرب البربر بادئاً بغرناطة لقي حتفه في المعركة أمامهم سنة 409. ورغم انتصار زاوي في هذه المعركة فقد فضّل العودة إلى إفريقية في السنة اللاحقة [2]، فخلفه على إمارة غرناطة ابن أخيه **حبوس بن ماكسن** (411 - 428)، وظلّ مرتبطاً بالدّعوة للحمّوديين باعتبار العصبية البربرية التي تجمعهم رغم الأصل الإدريسي لهؤلاء، وقاد جيشه في الحملة إلى جهات إشبيلية سنة 428 انتقاماً لمقتل الخليفة يحيى المعتلي الحمودي ودعماً لخلفه وأخيه إدريس المتأيّد. وكان يدعمه في الحملة زهير الفتى صاحب ألمرية وعبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ولدينا رسالة عن حبوس في الدعوة للالتفاف حول المتأيّد الحمّودي وأخرى عن زهير صاحب ألمرية في دعوة أهل قرطبة لـ "لزوم الجماعة" أي طاعة الخليفة الحمودي؛ وإن كانت النتيجة هي تقهقر إدريس الحمودي إلى مالقة والاستقرار بها حيث بدأت كفّة ابن عبّاد وخليفتِه المموّهِ به في التزايد.

بعد موت حبوس تولّى ابنه باديس الملقب **بالمظفر** والناصر (428 -465)، واتّسع ملكه في إقليم مالقة، وانتصر على زهير العامري صاحب ألمرية بعدما ساءت علاقتهما بسبب إيوائه لأحد المنافسين له[3]، فقتل زهير في المعركة بأحواز غرناطة سنة 429 كما ذكرنا، ونتيجة لهذه الهزيمة توسّع باديس في أراضي زهير المتاخمة لمملكته وهي مدينة **جيان**

---

[1] - **أعمال الأعلام** 2/ 193؛ راجع أيضاً **دول الطوائف** 156- 170

[2] - ذكر الأمير بلكين في مذكراته أنّ قومه من صنهاجة كانوا عزموا على الرحيل عن الأندلس بسبب الفتنة، غير أنّ أهل إلبيرة خافوا على أنفسهم ولم يكن لهم من يدافع عنهم فرغبوا من زاوي وقومه في البقاء بأرضهم ومشاركتهم في خيراتهم والدفاع عنهم، فبنوا غرناطة لتكون حصناً منيعاً، فتراجعت أهمية إلبيرة (**التبيان عن الحادثة** 469 - 483 ؛ **كتاب المتين** 71 وما بعدها ؛ **دول الطوائف** 121.

[3] - **البيان** 3/ 169 وما بعدها ، راجع على التوالي ترجمتي زهير العامري ووزيره أبي جعفر أحمد بن عباس في **الإحاطة** ، ط القاهرة 1973، 1/ 517- 520 ؛ 259- 262.

وأعمالها (أو أنه استرجعها)، وفي جزء من ولاية قرطبة الجنوبية[1]، وكان العدوّ الحقيقي للإمارات البربرية هو ابن عباد، الذي تمكن من الاستيلاء على قرمونة من عبد الله البرزالي سنة 428 ، إلى أن قدم باديس بن حبّوس وحلفاؤه الحموديون فأنقذوها من يد ابن عبّاد حيث قتل ابنه قائد الحملة في المعركة في المحرم سنة 431[2].

وعلى الحدود الغربية من مملكة باديس كانت إمارة بني حمّود في **مالقة**، فبدأ في الأربعينيات يتدخّل في شؤونها لإضعافها والاستيلاء عليها ليكون زعيم البربر الوحيد في جنوب الأندلس، وقد ازداد طمعه بعد موت محمد المهدي الحمودي سنة 444، حيث خلفه أمراء ضعاف، فأمكنه الاستيلاءُ على مالقة سنة 448 وطردُ أميرها المستعلي منها[3]، وجعل واليه عليها ابنه بلكين وليّ عهده إلى أن مات مسموماً سنة 456 [4]

طمع ابن عباد في احتلال مالقة بتدبير مع جملة من سكانها- لكراهتهم لحكم البربر فيما قيل-، وأرسل إليها جيشه بقيادة ولديه، فصمدت حاميتها من البربر والسود المتحصّنين في القصبة، ووصل الدعم من غرناطة، فانهزم العباديون وذلك سنة 458. وانتقل الصراع بين الطّرفين إلى **مدينة أركش** حينما قرر صاحبها البربري تسليمها لباديس بعد عجزه عن مقاومة حصار جيش ابن عباد، فتمكّن هذا الجيش من اقتحام المدينة وضمها مع إقليمها إلى مملكة إشبيلية سنة 461[5]، وكان ابن عبّاد قد استولى في السنة الفارطة على آخر مركز للحموديين وهو الجزيرة الخضراء.

كان الوزير اليهودي **ابن نغرالة** في غرناطة عنصر توتّر بين باديس وجاره الشرقي أمير ألمرية، خاصة وأنه كان وراء مقتل ولي عهده أمير مالقة، وتيسير أمر احتلاله لوادي آش، فلمّا أحسّ بتغيّر ملكه عليه لفعله مع ولي عهده، ولاستبداده بأمور البلاد واستعانته ببني ملّته خاصة في الأمور المالية وكرهِ الرعيّة لهم، حرّض أمير ألمرية سرّا على أخذ غرناطة، وكادت المؤامرة تنجح لولا يقظة بعض مشايخ صنهاجة، فهاج الناس، وقتلوا اليهودي وأعوانه ومعهم أكثر من 3000 يهودي، وتراجع جيش ابن صمادح نحو ألمرية[6]، كان ذلك سنة 459 [7]. وأمكن لباديس **استرجاع وادي آش** بدعم من قوات أرسلها المأمون بن ذي النون، لكنّه أخذ مقابل هذا الدعم مدينة بسطة، ثم عاد الوفاق بين صاحبي ألمرية وغرناطة.

---

[1] ـ ابن عذاري: **البيان** 3/ 128 ؛ ربما كان توسّعه في جهة جيان باعتبار أنها تدخل في إطار الجهة التي أذن لهم المستعين بالاستقرار فيها عندما قسم البربر على الجهات.

[2] - ورد ذكره في **البيان** 199، 316 (نقلاً عن ابن القطّان) على أنه إسماعيل؛ وما ورد في رسائل لاحقة أنّ إسماعيل قتل سنة 450 بأمر من أبيه بعد فشل مؤامرته ضده.

[3] - ذكر ابن عذاري أنّ آخر أمراء بني حمود في مالقة غلام اسمه يحيى بن إدريس بن علي، خُطب له على المنابر باسم أمير المومنين (**البيان** 266/3)، ويظهر أنّ في هذا خلطاً مع من سمّي بيحيى القائم بن إدريس بن علي الذي ولي الإمارة في محرم 431 ثم أخذ منه الإمارة عمُّه حسن المستنصر (قارن مع **البيان** ص 192، **وأعمال الأعلام** 2/ 140- 142)

[4] - **البيان** 265- 266

[5] - **البيان** 294

[6] - **التبيان** 54 ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 233 ؛ **البيان** 3/ 266، 275 ، 276؛ **دول الطوائف** 130- 135

[7] - هذا حسب **البيان** 3/ 266 ؛ أمّا ابن الخطيب فقد جعل ذلك "سنة 469 وقيل 465" (**أعمال الأعلام** 2/ 233)؛ والتاريخ الأول لا يستقيم لأنّ باديس الذي وقعت في عهده الحادثة توفي سنة 465 وليس بعدها، والراجح أن يكون ما في البيان أصح، فقد أكّد هذا مرة أخرى في الصفحتين 275- 276 ضمن حولياته.

وتمكن باديس من استرجاع **جيّان** من يد أحد القرابة المتمرّد فيها، وتجاوزها بإضافة مدينة **بياسة** إلى نفوذه بعد معارك[1]، فشملت مملكته قبيل موته سنة 465 ما بين بسطة شرقاً حتى أستجة وحدود رندة غرباً ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً.

عندما توفي باديس سنة 465 قدّم أشياخ صنهاجة حفيده **عبد الله بن بلكين** للإمارة ولقبوه **بالمظفر** بالله والناصر لدين الله (465 - 483)، بدلاً من عمّه صاحب جيّان لـ"سوء سلوكه"، أو ربّما لصعوبة التحكم في أموره، فقد كان عبد الله عند ولايته لم يبلغ الحلم، وكان مربّيه **الوزير سماجة** يقوم بأمره بحزم إلى أن بلغ رشده فتوجّه إلى ألمرية عندما أحسّ بتضايقه منه، وهناك أخذ يحرّض أمير ألمرية ضدّ غرناطة، فوقعت مناوشات على الحدود، ثم تمّت المصالحة بين الطّرفين[2]. أمّا أخوه **تميم والي مالقة** فقد استبدّ بها لنفسه معتمداً على تحالفه مع ابن عبّاد. وفشل منافسُه حاكم جيان عمُّه ماكسن في الاستقلال بها. وكان ابن عباد طمع في مملكة الأمير عبد الله لصغر سنّه، فاستولى على مدينة **جيان سنة** 466، ثم تقدّم جيشه لحصار غرناطة دون طائل لقيام الوزير سماجة آنذاك بدوره الدفاعي ضد جيش إشبيلية، ولم يستطع عبد الله استرجاع جيان وإنّما استرجع حصن قبرة من جملة حصونها بعد قيامه بغارة في أراضي إشبيلية ومعه جملة من المرتزقة القشتاليين[3]. وتناوب الطّرفان المتعاديان (ابن بلكين وابن عباد) على التحالف مع ملك قشتالة مقابل الجزية، والاستعانة بفرقة من جيشه، ولمّا لم يتمكّن أحدهما من غلبة الآخر، اضطرا في النهاية إلى المهادنة في أواخر سنة 477 بعد مقتل ابن عمّار المتّهم بإساءة العلاقة بين الطّرفين[4]، وظهور أطماع الك قشتالة، ومكّنت المهادنة من ضبط ثغور غرناطة الشمالية الغربية حول أنتقيرة الواقعة على حدود مملكة إشبيلية بتفاهم مع المعتمد[5].

وكان سقوط طليطلة في السنة اللاحقة (478) كالصاعقة التي أفاقت ملوك الطوائف من غفلتهم، فقرّروا الاستنجاد بالمرابطين لإيقاف أطماع ألفونسو[6]. لكنّ انتصار الزلاقة أصبح مهدّداً بالضياع الذي بدأت معالمه بمناسبة حصار المرابطين لحصن أليط (Aledo) سنة 481 [7] حيث أدّى خوف ملوك الطوائف من المرابطين إلى عقد تحالفات سرّية مع ملك قشتالة لمنع

---

[1] - وسقوط بياسة لاحقاً في يد المعتمد سيفتح له الطريق نحو البحر شرقاً بأخذ مرسية من يد بني طاهر.

[2] - **التبيان** 88- 89

[3] - **دول الطوائف** 141. ربّما كان تحالفه مع المأمون بن ذي النون عدو بني عبّاد مساعداً على هذا التحرّك، خاصة وأنّ نفوذه كان يشمل منطقة قرطبة، فلمّا مات المأمون سنة 467 وسقطت قرطبة في يد ابن عباد، فقدَ سنداً قوياً، ولم تهدأ الأحوال بين غرناطة وإشبيلية إلا بظهور تحرّك الفونسو في مملكة طليطلة وتهديد باقي الملوك.

[4] - **التبيان** 80- 82؛ 96 (يتحدّث عن صلاته بملك قشتالة وإشعال الفتنة أينما حلّ).

[5] - **التبيان** 95- 96

[6] - كان أول من طلب الدعم من المرابطين هو أمير مالقة ولكن ضدّ أخيه ملك غرناطة ليستردّ منه بعض الممتلكات دون أن يستجيب له ابن تاشفين (**التبيان** 102). راجع عن مملكة غرناطة: **البيان** 3/ 262 وما بعدها، 316 ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 230- 236؛ **دول الطوائف** 118- 144

[7] - اتضح خلال الحصار النزاعات القائمة بين الملوك ومنها ما كان بين المعتمد وأمير المرية وبينه وبين ابن رشيق المتهم باقتطاع مرسية من ممتلكات ابن عبّاد بصورة غير شرعية، فجمعت التهم ضدّه لتقديمه إلى عدوّه، مما أغضب القادة المرسيين من أتباعه وانسحابهم وقطع المؤونة عن الجيش المحاصر للحصن.

إمكانية تقدم الجيش المرابطي القادم من المغرب، كما أهملوا تقديم المؤونة للحاميات المرابطية التي بقيت في الثغور لمواجهة احتمالات عدوان النصارى، فأخذ رعايا الملوك وعلى رأسهم فقهاؤهم يحرّضون يوسف بن تاشفين على إنهاء وجودهم، وكان أول من بدئ بإزاحته عن عرشه هو عبد الله بن بلكّين أمير غرناطة[1] وأخوه تميم أمير مالقة وذلك في أواسط سنة 483 [2]، فكانت هذه بداية إنقاذ الأندلس بقدوم جيش المرابطين إليها.

سمّي عصر الطوائف في زمنه بعصر الفتنة، وقد أبرز بعض الكتّاب والعلماء مساوئه وعواقبه الوخيمة على المسلمين في بلاد منقطعة عن بقية البلدان الإسلامية يصعب الدّفاع عنها. وممّن ذكر هذه الفتنة الكاتب المعاصر أبو حفص أحمد بن محمد **ابن بُرد** المعروف بالأصغر حفيد ابن برد الأكبر، وقد وزر لصاحب ألمرية معن بن صمادح (433- 443)[3] ، فقال بعد التذكير بقول الله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله﴾[4]... إنّ الحرب متلفة للنفوس، متلفة للأموال، مجلبة للندامة في العواقب، تلذّ مباديها للأشرار، وتُنحي كلاكل عاقبتها على الأخيار... فأصحُّ النّاس لبّاً وأبعدهم نظراً.. من حضّ على الصّلح... ولم يألُ إرشاداً وتبصيراً، ومن سوء العواقب تخويفاً وتحذيراً، وبادر نار الفتنة بالإطفاء... وشوكة الحرب بالخضْد، فحقن الدّم، وحمى الحُرَم... فقد آن توقظوا سواهي العقول.. وتغمدوا الصّوارم، وتعيدوا السهام في كنائنها... وتعلموا أنّ الله القادر عليكم والآخذ بنواصيكم له غضبات أقلّها استئصال آثار النّعم عليكم، وسطوات ابرزُها تحكّمث ايدي البلاء فيكم...فكم صالٍ بناركم لم يُشرككم في قدْحها، وشقيٍّ بفتنتكم ولم يغمس معكم يداً فيها... اما والله لتَجرعُنّ الخُطبان، ولتقرعُنّ الأسنان، ولتحاولُنّ الأوبة ولا مآب لكم، والتّوبة ولا قبول منكم"[5]. وسواء كان كلام ابن بُرد تعبيراً عن رأي أحد رجال السياسة الحاكمين ممن كتب عنهم (مثل ابن صمادح)، أو كان تعبيراً عن رأيه وما يراه من احتمالات قادمة سيئة، فإنّ الذي حدث هو ما حذّر منه من زحف النصارى على كثير من الأراضي الإسلامية في الأندلس وخضوع الحكام لهم بدفع الجزية والاستعانة بهم ضد بعضهم البعض حتّى أصبح سقوط طليطلة نذيراً بسقوط الأندلس كلها.

---

[1] - وصل الخبر من حاشيته إلى يوسف بن تاشفين بما عقده مع النصارى؛ واعترف هو في مذكّراته بأنه التزم لملك قشتالة بدفع الجزية، ويظهر أن هذه مقابل الحماية من أعدائه (**التبيان** 75_ 76؛ **دول الطوائف** 326- 327).

[2] - أعمال **الأعلام** 2/ 227 – 236؛ **دول الطوائف** 118 وما بعدها

[3] - **الذخيرة** ق1/ م1/ 499؛ وذكر الحميدي معاصره (ت488) أنه رآه بالمرية بعد سنة 440؛ وهذا يتفق مع ما ذكره ابن بسّام من وزارته لمعن بن صمادح؛ أمّا ابن سعيد فقد ذكر وزارته للمعتصم بن صمادح ثم خدمته لمجاهد العامري صاحب دانية؛ ويظهر أنّه خلط بين معن بن صمادح وابنه المعتصم، وخلط بين مجاهد المتوفى سنة 436 وابنه علي إقبال الدولة (436- 468). انظر: **جذوة المقتبس** ص 107 ؛ **المغرب** 1/ 86- 91

[4] - من الآية 9 من **سورة الحـــجرات**

[5] - **الذخيرة** ق1/ م1/ ص 497- 498 (لم يرد فيها تاريخ وفاته)

ووصف العالم **ابن حزم** (ت 456) استهتار ملوك الطوائف وتضييعهم لأمور البلاد والعباد، وتعاونهم مع النصارى خصوصاً ملوك الثغور، قبل أن يستفحل الوضع في الربع الثالث من القرن الخامس، فقال عن ملوك الطوائف : "واللهِ لو علموا أنّ في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدّون النصارى، فيمكّنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحشرهم معهم آمنين، وربّما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً، فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنّواقيس، لعن الله جميعهم، وسلّط عليهم سيفاً من سيوفه"[1]

ومع تجدّد نشاط حركة "الاسترداد" في أواسط القرن الخامس وما انتهت إليه من فقدان أقصى الثغر الشمالي الغربي مع عاصمته قلمرية سنة 456، وسقوط بربشتر في أقصى الشمال الشرقي في نفس العام، والهجومات النصرانية على مدن أخرى تحدّث أحد رجال العصر وهو المؤرخ **ابن حيّان** (ت 469) عن موقف كبار القوم من أمراء وفقهاء وعدم اتّعاظهم بما حدث لبربشتر على سبيل المثال، فقال: "خصّ الله سبحانه هذا القرن [الخامس] الذي نحن فيه من اعوجاج هاذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه؛ **فالأمراء** القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطّريق ذياداً عن الجماعة وجرياً إلى الفرقة، **والفقهاء** أئمّتهُم صُموت عنهم، صُدُفٌ عمّا أكّده الله عليهم من التّبيين لهم، قد أصبحوا بين آكلٍ من حلوائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتَهم أخذ بالتّقيّة في صدقهم... ولقد طمّ العجب لهؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء في **بربشتر** إلا الفزع إلى حفر الخنادق، وتعلية الأسوار، وسدّ الأركان، وتوثيق البنيان[2]، كاشفين لعدوّهم عن السَّوءة السّوداء، من إلقائهم يومئذ إليهم أمور[كذا] قبيحات الصّور، موذنات الصّدور بأعجاز تُحلّ الغِيَر... فدهرنا هذا قد غربل أهليه أشدّ غربلة، وسفسف أخلاقهم، وخبّث أعراقهم، وسفّه أحلامهم، واحتوى عليهم الجهل، فلبثوا في غير سبيل الرشد يعللون أنفسهم بالباطل، وذلك من أدلّ الدلائل على فرط جهلهم، واغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، وغفلتهم عن سدّ ثغرهم، حتّى ظلّ عدوّهم الساعي لإطفاء نورهم يتبجّح عِراص دورهم، ويستقري بَسائط بقاعهم، يقطع كلَّ يوم منهم طرفاً ويُبيد أمّة، ومَن لدينا وحوالينا صُموتٌ عن ذكرهم، لهاةٌ عن بثّهم؛ ما أن يُسمَع بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكّر لهم أو داعٍ لهم فضلاً عن نافر إليهم أو مواسٍ لهم حتّى كأنّهم ليسوا منّا، أو كأنّ فتقهم ليس بمفضٍ إلينا..."[3].

---

[1] - **دول الطوائف** ص 406 (نقلا عن مقال لـ بلاثيوس في: مجلة الأندلس **Al-andalus** . ano 1934. p.37)

[2] - في رسالة عن ابن عباد يذكر ضعف العزائم لدى ملوك الطوائف في مواجهة النصارى (الرسالة الجوابية على رسالة الهوزني الحاملة رقم 51). ربما حدث انتقاده لغيره من الملوك قبل أن يدخل بدوره في زمرة من يدفع الجزية للقشتاليين.

[3] - **البيان المغرب** 3/ 254

وبعد اشتداد الخطب بسقوط طليطلة مركز البلاد الأندلسية سنة 478 بدأ الناس يفقدون الأمل في البقاء في الأندلس حتى قال أحد رجالهم:

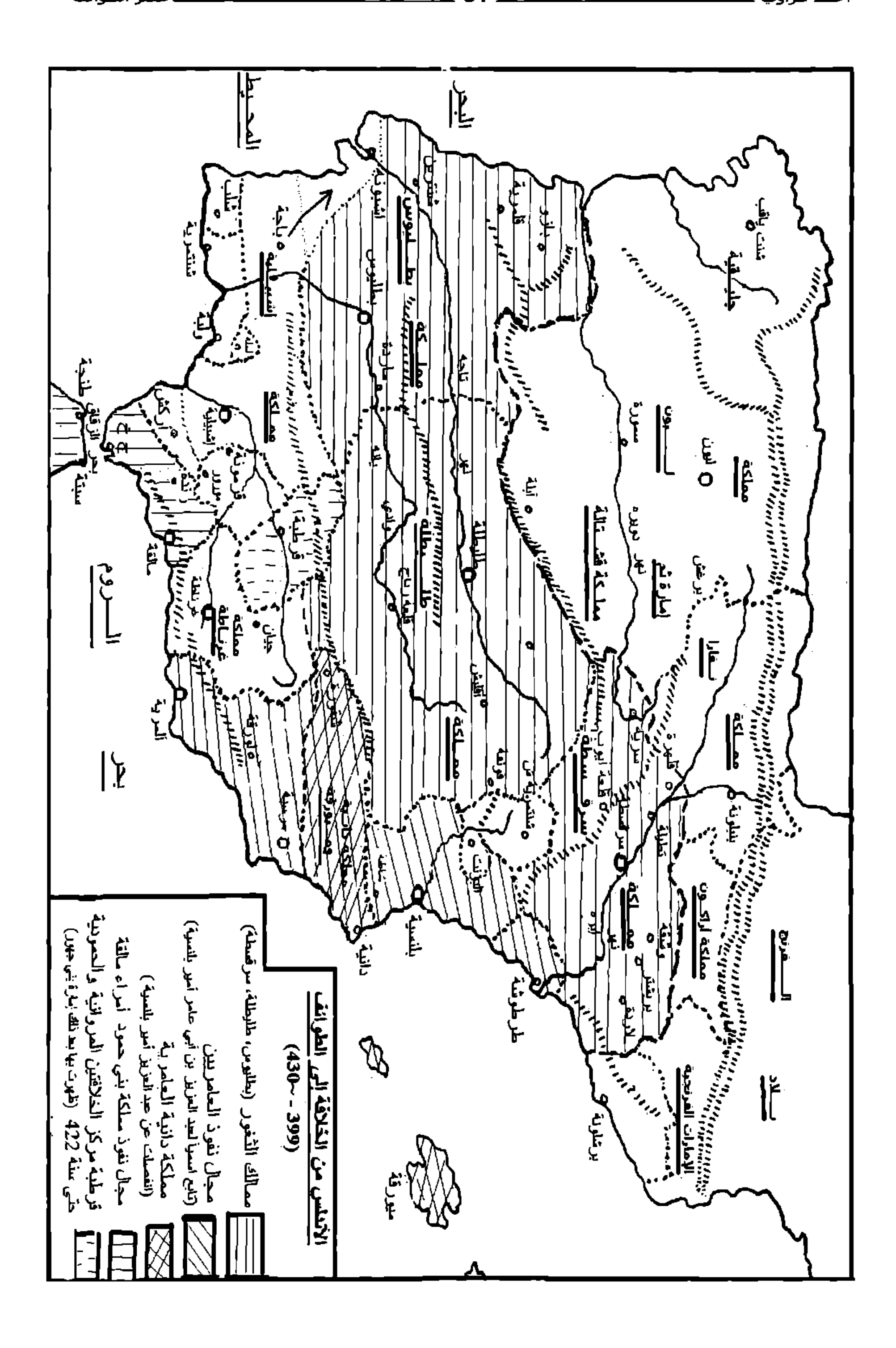
يا أهل أندلسٍ حثّوا مطيّكم == فما المُقام بها إلا من الغلط
فالثوب ينسِل من أطرافه وأرى == ثوب الجزيرة منسولا من الوسط[1]

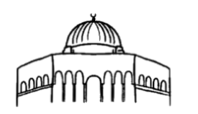
إذا حاولنا إجمال الحديث عن عصر الطوائف يمكن القول إن بداية الكوارث على البلاد أخذت معالمها تظهر على الخصوص منذ أواسط القرن الخامس، فمن جهة استمرّ التنازع بين ملوك الطوائف خاصّة بسعي بني عبّاد في توسيع مملكتهم على حساب الإمارات الأخرى وخاصة الصغيرة والمجاورة، ومن جهة أخرى بدأت مرحلة جديدة من حروب "الاسترداد" تدعمها الكنيسة لإنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس استغلالاً لما حدث فيها من انقسامات وتنازع فيما بين أمرائها كما حدث في الحملة النصرانية على بربشتر وما حولها وعلى الثغور الشمالية الغربية. ومن الصعب أن نحمّل كافة المسؤولية لممالك الثغور، فهي لم تجد من يدعمها للوقوف في وجه النصارى المحليين أو القادمين من وراء البرنيس، وكانت طليطلة في عصر آخر ملوكها (الملقب بالقادر) الضعيف المحتمي بملك قشتالة هي نقطة الضعف الأساسية، فإضافة إلى سعي ملك قشتالة لاقتطاع حصون ومدن من هذه المملكة، لم يتورّع ملك إشبيلية في أخذ نصيب من مملكة طليطلة أيضاً، ومن غير المستبعد أن يكون ملك بطليوس أيضاً استغلّ الوضع لتوسيع إمارته على حسابها، خاصة بعد أن تبيّن أنّ طليطلة في طريق السقوط بيد النصارى، اللهمّ إلاّ في المرحلة الأخيرة خلال حصار القشتاليين لها، حيث أرسل جملة من قواته للدفاع عنها لم تُجدِ نفعاً، لكونه أحسّ - متأخراً- بالخطر المباشر عليه في حالة سقوط طليطلة. وربّما أمكن أن نحمّل المسؤولية الكبرى لابن عباد لكونه أهم وأقوى ملوك الطوائف، فهو إلى جانب توسيع مملكته حتى ربطت بين البحرين غرباً وشرقاً والمضيق جنوباً، وأضاف إليها ما اقتطعه من أراضي مملكة طليطلة، فإنّه أخذ مع غيره من الملوك يُمير جيش قشتالة المحاصر لها خلال فصل الشتاء عندما انقطعت الميرة عن هذا الجيش، بينما امتنعوا عن تقديمها لأهل طليطلة تقرّباً إلى ملك قشتالة. ولم يشعر ابن عباد بالندم إلا بعد أن استولى ألفونسو القشتالي عليها، وأصبح يطالبه هو وغيره بتسليم المدن والحصون إلى رجال دولته، إلى أن حدث التدخّل المرابطي لإنقاذ البلاد من الوقوع في يد الإسبان، وإخلائها من الملوك والأمراء العابثين بمصالح الإسلام والمسلمين.

وفيما يلي نصوص الرسائل المتعلقة بأواخر الخلفاء المروانيين تليها رسائل ملوك الطوائف مرتبة ترتيباً زمنياً حسب الجهات الرئيسية.

---

[1] - صاحب هذا النّداء هو أبو محمد العسّال أحد زهاد طليطلة (**المغرب** 2/ 21)


الأندلس من الخلافة إلى الطوائف
(399 - ~430)
ممالك الثغور (بطليوس، طليطلة، سرقسطة)
مجال نفوذ العامريين
(تابع اسمياً لعبد العزيز بن أبي عامر أمير بلنسية)
مملكة دانية العامرية
(انفصلت عن عبد العزيز أمير بلنسية)
مجال نفوذ مملكة بني حمود أمراء مالقة
قرطبة مركز الخلافتين المروانية والحمودية
حتى سنة 422 (ظهرت بها بعد ذلك إمارة بني جهور)
مملكة جليقية
مملكة ليون
مملكة نفارا
مملكة أراكون
الإمارات الفرنجية
بلاد الفرنج
إمارة ثغر
مملكة قشتالة
مملكة سرقسطة
مملكة طليطلة
مملكة بطليوس
مملكة إشبيلية
مملكة غرناطة
البحر المحيط
بحر الروم
شنت ياقب
ليون
برغش
سمورة
نهر دويره
قلهرة
تطيلة
وشقة
بربشتر
لاردة
برشلونة
بنبلونة
سرقسطة
قلعة أيوب
نهر إبرة
طرطوشة
شنتمرية
قونقة
البونت
أقليش
أبلة
طليطلة
نهر تاجه
قلعة رباح
ماردة
بطليوس
أشبونة
شنترين
قلمرية
بازو
باجة
شلب
شنتمرية
ولبة
إشبيلية
قرمونة
مورور
رندة
أركش
قرطبة
جيان
غرناطة
مالقة
المرية
لورقة
مرسية
بلنسية
دانية
شاطبة
ميورقة
سبتة
طنجة
بحر الزقاق

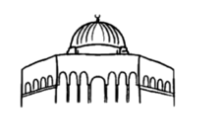




القسم الثاني

نصوص الرسائل

(الصادرة عن الخلفاء في مطلع القرن الخامس، وعن ملوك
الطوائف ، وهي مرتّبة ترتيباً زمنياً في إطار الجهات الرئيسية)



اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمد ﷺ وارحمها وفرِّج كربتها



أولاً؛ رسائل عن خلفاء قرطبة

المروانيين والحموديين
(399 - 422)

1 - محاولة نقل الخلافة من البيت الأموي
(عقد ولاية العهد للحاجب ابن أبي عامر)[1] (ربيع1/ 399)

[2] "هذا ما عهد به أمير المومنين **هشام المؤيّد بالله** - أطال الله بقاءه - إلى النّاس عامّة وعاهد الله عليه من نفسه خاصّة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة (عامّة) تامّة[3] بعد أن أمعن النّظر، وأطال الاستخارة، وأهمّه ما جعل الله له من إمامة المسلمين، [وعصب به من إمرة المومنين][4]، واتّقى حلول الأجل[5] بما لا يؤمَن، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرَف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمّة علماً تأوي إليه، [ولم يوجرها[6] ملجأ تنعطف عليه]، أن يكون بلقاء الله [تعالى] مفرّطاً فيها ساهياً عن أداء الحقّ إليها؛ ونظر [7] عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرها ممّن يَستحقّ أن يُسنَد الأمر إليه، ويُعوّلَ في القيام به عليه [ممّن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه ورغْيه]، بعد اطّراح الهوادة، والتبرّؤ من الهوى، والتحرّي للحقّ، والتزلّف إلى الله جلّ جلاله[8] بما يرضيه وإن قطع الأواصر وأسخط الأقارب، عالماً أن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصّالح، وموقناً أن لا وسيلة إليه أزكى من الدّين الخالص؛ فلم يجد أحداً هو أجدر أن [يقلّده عهده، ويفوّض أمر الخلافة إليه بعده][9]، في فضل نفسه وكرم خِيَمه، وشرف مرتبته[10]، وعلوّ منصبه مع تقواه وعفافه، ومعرفته وإشرافه، وحزمه وثِقافه، من المأمون الغيب، النّاصح الجيب، النّازح عن[11] كلّ عيب، ناصر الدّولة أبي المطرّف **عبد الرحمن** بن المنصور بن أبي عامر وفّقه الله، (إذ كان أمير المومنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً إلى الخيرات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات، وارثاً للمكرمات، يجذب بضبْعه إلى أرفع منازل

---

[1]- افتتحنا عصر الطوائف بهذه الرسالة لكونها فاتحة عهد الفتنة المسمى عصر الطوائف، بمحاولة نقل الخلافة من المروانيين القرشيين إلى الحاجب عبد الرحمن بن المنصور ابن أبي عامر وهو من غير القرشيين وقد لقب نفسه بالناصر، وهو المعروف بشنجول.

[2] - ورد نص الرسالة في **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ق1/ م1/ 104- 105 (ط. بيروت 1997)؛ وفي **البيان المغرب** 3/ 44- 46، و وقد اعتمدنا عليهما في المقارنة؛ كما وردت في **العبر** 4/ 321- 323 (مع اختلاف وبتر)، وكذا في **نفح الطيب** 1/ 424- 425. والرسالة من إنشاء أبي حفص أحمد بن برد الأكبر (توفي سنة 418)، كان صاحب ديوان الإنشاء في دولة المنصور ابن أبي عامر سنة 394، وكتب عن خلفاء وأمراء عصر الفتنة وخاصة عن سليمان المستعين بالله، ترجمته في **الذخيرة** قبل نص الرسالة ؛ وعند الحميدي: **جذوة المقتبس** (الخانجي، القاهرة) ص111 ؛ والضّبّي: **بغية الملتمس** رقم 387، ص 148 (بيروت 1997).

[3] - ما بين هلالين (....) ناقص في الذخيرة

[4] - ما بين معقفين [....] ناقص في البيان مضاف من الذخيرة؛ وعند المقري: وعصب به من أمر المومنين

[5] - في الذخيرة: حلول القدر

[6] - في أعمال الأعلام: لم يوردها

[7] - في الذخيرة: وتقصى

[8] - في الذخيرة: إلى الله تعالى

[9]- في البيان : أجدر أن يقلّده الخلافة في فضل...

[10] كذا في بعض نسخ البيان؛ وفي ط. بيروت والذخيرة: مركبه

[11]- في الذخيرة : على

الطّاعة، ويسمو بعينيه إلى أعلى درج النّصيحة، {أب منقطع القرين، وصنوٌ معدوم الغريم}[1] ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه[2]، فلا غرو أن يبلغ من سُبل البرّ مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه)[3]، مع أنّ أمير المومنين- أبقاه الله- لكثرة[4] ما طالعه من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، أمّلَ أن يكون وليّ عهده القحطاني الذي [حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة إلى] النبيّ[5] ﷺ "لا تقوم الساعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس[6] بعصاه". فلمّا استوت له به الأخبار[7]، وتقابلت [عنده] فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً[8]، خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته، وفوّض إليه النّظر في أمور[9] الخلافة بعد وفاته[10]، (طائعاً، راضياً، مجتهداً، {غير مُحابٍ له ولا مائلٍ بهواه إليه، ولا شرك كذا نصح الإسلام وأهله فيه، وجعل إليه الاختيار لهذه الأمّة بولاية عهده فيها إن رأى ذلك في بقاء أمير المومنين - أعزه الله- وبعده}[11]، وأمضى أمير المومنين - أعزه الله- عهده هذا وأنفذه وأجازه وبتله[12]، لم يشترط فيه مثنوية[13] ولا خياراً، وأعطى على الوفاء بذلك في سرّه وجهره، وقوله وفعله، عهدَ الله وميثاقه، وذمة نبيّه ﷺ وذمم الخلفاء الراشدين من آله وآبائه وذمّة نفسه، بأن لا يبدّل، ولا يغيّر ولا يحوّل، ولا يتأوّل[14]؛ وأشهدَ الله على ذلك وملائكته وكفى بالله شهيداً، وأشهدَ مَن أوقع اسمه في هذا الكتاب، وهو أبقاه الله جائز الأمر، ماضي القول والفعل، بمحضر مَن وَلِيَ عهده المأمون ناصر الدّولة أبي المطرّف عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله وقبوله لما قلّده والتزامه لما التزمه[15]، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثلاثمائة[16]".

---

[1]- بياض في البيان ، والتعديل من أعمال الأعلام.

[2]- تولّى المظفّر الحجابة - بعد أبيه- للخليفة هشام، ولم يجرؤ على فعل ما فعل أخوه عبد الرحمن بعده من محاولة تحويل الخلافة إليه.

[3]- العبارة بين هلالين عُوّضت في الذخيرة بعبارة "وفي فصل منه: مع أنّ أمير المومنين..."

[4] - في الذخيرة: أيده الله بما طالعه.

[5] - اختصر هذا في البيان هكذا: القحطاني الذي جاء فيه الأثر عن النبي...

[6] - كذا في الذخيرة؛ وفي البيان : "رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه" (3/ 45).

[7]- ورد في البيان: فلما استولى عنده الاختيار، وتقابلت فيه الآثار.

[8]- في البيان: معرجاً

[9]- في الذخيرة: خرج إليه عن تدبير الأمور في حياته، وفوّض إليه النظر في أمر الخلافة

[10]- هنا انتهى ما ورد في الذخيرة

[11] - ما بين قوسين {....} ناقص في العبر

[12] - بتل الشيء: قطعه أو ميّزه عن غيره (**القاموس المحيط**)

[13] - في العبر: ثنياً

[14] - في العبر: ولا يزول

[15] - في العبر: الله تعالى، وقيد له ما قلده وألزمه نفسه ما في الذّمة

[16] - في العبر: سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ؛ وكذلك في نفح الطيب وكان التعليق فيه على العقد بما يلي: "وهذا الكتاب نسختان أول الشهود فيه قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ويليه من الوزراء خاصة أسماء تسعة وعشرين رجلاً منهم يليهم أسماء مائة وثمانين رجلاً (في **البيان** 186 رجلاً) من أصحاب الشرطة وسائر أهل الخدمة من الحكّام والقضاة والفقهاء المشاوَرين وغيرهم"، واختصر ابن خلدون هذا بعبارة "وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم، وتسمّى بعدها بولي العهد.

2 - تنصيب المستعين بالله ابنه محمداً وليّاً للعهد[1]

(15 جمادى2/ 400)

أمّا بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين- لِما جبله الله عليه، وحبّبه إليه، من الاجتهاد للمسلمين، والنّظر لهم، والفكر في عواقبهم، والحرص على مصالحهم، والإشفاق من اختلافهم، وافتراق كلمتهم-، رأى أن يجتهد لهم لمماته كما اجتهد لهم في حياته، بأن يرفع لهم عَلماً يهتدون به، وينصبَ لهم وَزَراً يلجأون إليه، وموئلاً يتعطفون عليه، يؤلف شملهم، ويجمع كلمتهم، ويلمّ شعثهم، ويسكّن نفرتهم،ويؤمّن روعتهم، مقتدياً في ذلك بالأئمّة المهتدين، والخلفاء الرّاشدين الّذين نظروا للأمّة من بعدهم، وأشفقوا من اختلاف كلمتهم، وتفرّق مذاهبهم، عندما يفجأهم ما لا محيدَ لهم عنه، ولا بدّ منه من بغتات الأقدار، ونفاد الأعمار، الليل والنّهار؛ فأطال استخارةَ الله - عزّ وجهه- والرّغبة إليه في إمداده بتوفيقه، ومعاضدته بتسديده، وحملِه على ما فيه الخِيَرةُ له ولجميع المسلمين وجميلُ العاقبة في الدّنيا والآخرة؛ فألقى الله في روْعه، وثبّت في خلده، وقرّر في نفسه، أنّ محمداً بن أمير المومنين أوْلى أهل بيت الخلافة بولاية عهد المسلمين غير مُحابٍ له ولا أخذٍ بهوادة فيه، بل لِما قد عِلِمته الخاصّة والعامّة من تكامل خلال الخِيَرة له، واجتماع أدوات الفضل فيه، وما هو عليه في دينه وهدْيه، وورعه وفضله، وطهارة أثوابه، وعفاف مذهبه، وصلب نفسه، واكتمال حلمه، وسعة علمه، وكمال أدبه، واضطلاعه بأعباء الخلافة، ومعرفته بمعاني السياسة، ونفاده في التّدبير والإدارة، **فأمضى أمير المومنين** ما استخار اللهَ تعالى فيه وعزم عليه، وجعل **ولاية عهد المسلمين إلى محمد بن المستعين** بالله أمير المومنين، وهو يعتقد أنّه قد خرج لجماعة المسلمين عمّا ألزمه الله من حقهم وتبرّأ إلى الله مما كلّفه من أمرهم، وأدّى الأمانة التي حمّله الله في الاجتهاد لجماعتهم، وقضى ما وجب عليه من الاحتياط في الاختيار لإمامتهم، مبتغياً بذلك ثواب الله العظيم، وفضله الجسيم، ونظراً لأمّة محمد ﷺ وتحصيناً عليها، واحتياطاً لها، وهروباً من التقصير من حقها؛ والله يُريهِ وجماعة المسلمين الخيرَ والخِيَرةَ واليمن والبركة، والسّعادة والغبطة، فيما وفق أمير المومنين له وألهَمَه إليه،

فاعلمْ ذلك من عقد أمير المومنين وعهده، وما أنفذه من فعله، وتقدّمْ إلى أصحاب الصلوات في جوامع عملك بالدّعاء له في خطب الجُمَع بما أدرجناه طيَّ كتابنا هذا. واللهَ يسألُ أميرُ المومنين أن يتولاه في جماعة المسلمين بما فيه الخير والخيرة لهم، وجميلُ العاقبة في دينهم ودنياهم، وأن يقارضه بجميل نيّته لهم، وكريم مذهبه فيهم، إنّه وليّ المجازاة بالإحسان عن الإحسان، والممتنُّ بالفضل والامتنان، إن شاء الله.

وكُتب في النصف من جمادى الآخرة سنة أربعمائة[2]".

---

[1] - هو سليمان بن الحكَم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، تلقّب بالمستعين بالله. قام على المهدي ابن عبد الجبار وتولّى الخلافة سنة 400، فسارع إلى تنصيب ابنه محمد وليّاً للعهد ، ثم لم يلبث في نفس العام أن غلب عليه المهدي المذكور واستولى على الخلافة حتى سنة 403 حين تمكّن المستعين من استرجاع منصب الخلافة إليه (**أعمال الأعلام** 114/2 وما بعدها). وردت رسالة تعيين ولي العهد في **أعمال الأعلام** 2/ 126- 127 ؛ قد تكون من إنشاء أبي حفص بن برد الأكبر.

[2] - كتبت السنة في الأصل المعتمد بالأرقام المشرقية

3 - محاولة خليفة قرطبة المستعين بالله[1]
استمالة الجند من الموالي (الصقالبة) [2] [400- 407]

"إن الله تعالى قسم لأهل بيتنا بني أميّة من السلطان الموصول لهم بخلافة النّبوّة ما حازه لهم دون سائر قريش، وسَراةُ رجالها وافرة، وبيوت شرفها عامرة؛ فكان أوّل من أجمع عليه خيارُ الصّحابة بالشّورى والاختيار عثمان بن عفّان أمير المومنين ذو النّورين، وصهرُه عليه السّلام مرّتين، فلم يُنكر فضله هاشميّ، ولا دافعَ إمامته قرشيّ، ولا نازعه الخلافة عربيٌّ ولا عجميّ[3]؛ ثمّ غلب الشّقاء على أقوام فنالوا منه ما انفتح عليه باب الفتنة إلى يوم القيامة، فيا لها مصيبة صدعت شمل المسلمين، وأوهنت أركان الدّين، وافترق أهل الإسلام بعده فرقتين؛ ثمّ لم تجتمعا إلاّ على رجل منّا لرضاء الله عن سيرتنا، وأنس المسلمين إلى حسن مأخذنا وفضل سياستنا؛ فكانت الجماعة على معاوية بن أبي سفيان كاتبِ الوحي وصهره عليه السّلام ورديفه، فبلغ من ضبط الأمور ولين الولاية وجهاد العدوّ وجباية الفيْء وبثّ العدل وإدرار العطايا ما لا يجهله مِلّيٌّ ولا ذمّيّ، وورثه ابنه وابن ابنه؛ ثمّ صيّر الله تعالى خلافته إلى مروان بن الحكم جدّنا الأعلى أمير المومنين، دَوسر قريش المفتى بتوفيقه، والحاكم في الأمّة بتسديده، فألقت إليه بالمقاليد الكافةُ، وتداولها بنوه آباؤنا الخلفاء الراشدون بالمشرق والأندلس إلى يومنا هذا، والله متمّ نعمته علينا كما أتمّها على آبائنا من قبلُ، إنّ ربّنا حكيم عليم.....[4]

ولم تزل الأئمة منّا مقبلة على مواليها، مختصّة لعبيدها، تقدّمهم في الثّقة، وتقرّبهم بالمودّة، وتُعدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولّون من اجتهادهم لهم ما أوجبت لهم منهم المحبّة الخالصة، حتى شرُف القوم ونَبُلوا، وسما ذكرُهم ونُسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم، فهم الذين تسمعون عنهم وتعرفون رئاستهم كآل خالد وبني أبي عَبدة، وبني شُهيْد، وبني بَسيل، وبني حُدَير، وغيرهم من أشراف موالينا.

وقد أفضى الأمر إليكم ، معشرَ الموالي، فهذا اسمكم إذ قد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم من رقّ المَلكة، وصيّركم منّا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاءُ لُحمة، فمولى القوم منهم، وملعونٌ من انتمى إلى غير أبيه، وادّعى إلى غير مواليه، هذا حكم الديانة على لسانه عليه السلام؛ وأمّا حكم الدّنيا وسِيَرُ أهل السّداد والصّلاح فيها فلا يخرج

---

[1] - صدرت الرسالة عن المستعين بالله من إنشاء كاتبه أبي حفص ابن برد الأكبر كما وردت في **الذخيرة** ق1/م1/ 109- 112، توجد ترجمة الكاتب في ص 103؛ وترجمة المستعين في ص 35- 48 من نفس المصدر.

[2] - سمّوا في **الذخيرة** بالعبيد (قسم1/م1/ ص109- 112، 112- 114)، والمقصودون هم العامريون أي الصقالبة الذين لجأوا إلى شرق الأندلس معاكسين لسلطة المستعين الذي استعان بالبربر في خلافته، ولم نتأكّد ما إن كانت الرسالة كتبت في خلافة المستعين الأولى سنة 400 أو الثانية بين 403 - 407.

[3] - يشير بهذا إلى شرعية حكم عثمان وعائلته من بني أمية دون سائر القبائل والأجناس قديماً وكذا في عهد المستعين، لا ينافسه بربر ولا صقالبة ولا عرب من غير الأسرة الأموية.

[4] - بتر عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

أيضاً أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا، وتعصّبكم لنا، فنحن أحقّ النّاس بكم وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم، من مواليهم الذين أجرينا ذكرهم، فإن نقمتم حالاً مَزّقت الشّملَ، ونعَيتم أمراً صدَع الجمع، فتلك الفتنة التي يعُقّ فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه، أجارنا الله وإياكم منها، وكشف لنا ظلمتها....[1]

ولعلّنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجعُ قلوباً، وأشدُّ غموماً، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا فيكم، وعرّفكم إشفاقنا عليكم؛ وكيف لا يكون ذلك كذلك وما زلتم الشّعار والدّثار، لا نؤثر عليكم، ولا نثق إلاّ بكم، فإن يكن الشّيطان قد نزغ بما نزغ به بين ابني آدم فمن بعدَهما من ذرّيته، فقد آن أن تثوب الحلوم فتعودَ السّيوف في أغمادها، والنّبال في كنائنها، ونحن نعاهد الله ألاّ نؤاخذ أحداً بذنب، ولا نناله بعقوق له ولا بأذى، ولا ننطوي له على إحنة، بل نغفر ونصفح، ونزيد في العطاء ونترككم بمواضعكم التي ارتضيتموها، تَدِرّ عليكم جباياتها[2]، وتخصّكم منافعها، ولا نُنسئ في أموركم إذا سمعتم وأطعتم..."

4 - ردّ الخليفة المستعين على امتنان الموالي (العامريين) بفضلهم على الدولة الأموية[3]

[400- 407]

"زعم كاتب صحيفتكم أنّه ما دامت خلافة سلفنا إلاّ بطبقتكم، ولا عزّت إلاّ بدعوتكم؛ وهذا قولُ من لا عِلم له، فلم تظهر طبقتكم إلاّ حديثاً، ولا كَثُر عددكم إلاّ قريباً، ولم تزل الخلافة عزيزة، والسلطان قائماً بأولياء الحقّ وأنصار الدّين، العارفين بفضل الطّاعة وموقعها من رضاه تعالى، وبنقص المعصيّة وموقعها من سُخطه؛ والمنّة عليكم لمن عرّفكم - معشر العبديّ- بالله وأدخلكم في دينه، واستنقذكم من الضلالة، وأخرجكم من الكفر[4]، ثمّ اصطنعكم ونوّه بكم بالتصرّف في الخدمة، فنِلتم بذلك البغية؛ وهيهات أن تقضُوا الحقّ كله، فأقصِروا عن شأوكم، فذلك أولى بكم....[5]

وأقسمتم على أنّ من حسبناه من رؤسائكم كان أولى بالسّياسة، فأنّى لهم ذلك وما أنتم منه! وإنّما أنتم مدبّرون مسوسون، أتباع مربوبون، وسرّ التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم؛ ومتى بلغكم قطّ عن عبد ثرّب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبّره فأنجح، والحقّ لا يَضرّه قلّة أهله، والباطل لا ينفعه كثرة جمعِه، فإنّ العاقبة للمتّقين،

---

[1] - بتر عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

[2] - هذا نوع من الإقطاع العسكري حيث يستفيد الجند من جبايات المنطقة التي يوجدون بها مقابل حفظ الأمن بها، وكانت منطقة الشرق التي استقرّ بها العامريون (الصقالبة موالي الأمويين) ذات خيرات زراعية وتجارية مهمّة.

[3] - الرسالة في **الذخيرة** ق1 م1/ ص112- 114 ومن إنشاء ابن برد المذكور سابقاً؛ ويظهر أنّ المستعين ينس من استمالة الموالي "العبيد".

[4] - يشير إلى الأصل المجوسي أو المسيحي للصقالبة.

[5] - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)

وحزب الله هم الغالبون؛ مع أنّ سفهاء كلّ طبقة أكثر من حلمائها، وقد رأيتم قديماً نتيجة آراء السّفهاء، وكيف أخْنى على أهله بموتٍ ذلك التّدبير؛ وطالما جهدنا في الصّلاح، وحاولنا قطع الشّغب، ودفع الفتنة، فأبى الله إلاّ ما أراد على أيدي رؤسائكم الذين أتيتم على عهدهم[1]؛ وأمّا من طلبنا من أصحابكم فإنهم قوم خدموا العمالات، وتصرّفوا في الولايات، وعابوا على الجباة، وخلدت عليهم في الدّيوان الحسبانات، فهم الذين طولبوا في سبيل الحقّ، ورُمِيَ منهم دون الكلّ بالبعض[2]، وأُخِذَ فيهم وفي أسبابهم بالرّفق دون العنف فاعتدّوه ظلماً، وإلى صلاح مآلُ أمرهم إذا قوربوا، والجميع على ذلك في خير من العافية، وبحظ من الكافية، وأمَدٍ من النّظرة إلى أن يأذن الله ببلوغ ما يشاء من المدى؛ وليس كلّ ما يَبلغكم من التّشنيع ويتّصل بكم من الإرجاف يَلتفت إليه ذوو العقول، ولا يُصغي إليه أهل التحصيل....[3]

وأمّا ما ألصق بكم كاتبُ صحيفتكم إذ قال: إن لم يُعمَلْ بما أردتم أجبتم دعوة من يناديكم؛ فليت شعري من ذا المنادي الذي إليه تُلوَى الأعناق عنّا، أم إلى من تَفزعون إن فارقتم عصمتنا؟ أمَا إن غرّكم الشّيطان، وأسلمكم الخذلان لتقرعُنّ من النّدم الأسنان، بحيث لا ينفعكم أسف، ولا يُجدي عليكم لهَف، والله تعالى ودينه وخلافته في غنىً عمّن عنَدَ عليه وحادّه، وألحَدَ في الإسلام عنه وشاقه، وخرج عن الجماعة، وشقّ عصا الأمّة، واستخفّ بحقوق الأئمّة، ونازع الأمرَ أهله، واعترض من الرأي فيما ليس من شأنه على من صيّره الله إليه، وأسلمه في يديه، واجتباه واصطفاه على علم به؛ ولولا أنّ أمير المومنين[4] عرف أنّ ملأكم لم يجتمع على هذا الكتاب، ويتيقن أنّ أهل السَّداد منكم لم يرضَوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظرٌ يُقيم الأوَدَ ويَعدل الميل، مع أنّ الحِلم والكظم من أخلاقه، والرّفق والأناة من شِيَمه؛ فاقبَلوا أدبَه، وانتفِعوا بموعظته، فلو كُشف لكم الغطاء، واجتُليَ عليكم الغيب، لعلمتم أنّ أمير المومنين لا ينام عن مصالحكم، ولا يَني في منافعكم، ولا يسعى إلاّ فيما يردُّ أُلفتكم، ويجمع كلمتكم..."

5 - رسالة عن المستعين إلى هذيل ابن رزين أمير السهلة يحثّه على طاعته[5] [403- 407][6]

"... أمّا بعدُ، - آتاك الله رشدك، وأجزل من توفيقه قسطك -، فإنّ الله تعالى خلق الخلق غنيّاً عنهم، وأنساهم بمَهَل غيرَ مُهمل بل ليحصيَ آثارهم، وليبلوَ أخبارهم، وجعلهم

---

[1] - يظهر أنّه يقصد قادة الجهات من الموالي الذين استقلّوا بجهاتهم بعد اضطراب شؤون الخلافة.
[2] - إشارة إلى أنّ من أسباب اتّجاه قادة الجهات للاستقلال ما استغلّوه من ميزانية بيت المال لحسابهم الخاصّ، حتى لا يتعرضوا للمحاسبة.
[3] - بتر في الأصل المعتمد عوّض بعبارة (وفي فصل منها).
[4] - يقصد المستعين نفسه.
[5] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق1. م1/ ص108 من إنشاء ابن برد الأكبر؛ وهي موجّهة إلى ابن رزين الذي كان أمير منطقة السهلة التي مركزها شنتمرية الشرق، وقد رفض التخلي عن طاعة الخليفة هشام المؤيّد والدّخول مع منذر التجيبي صاحب سرقسطة وغيره في تأييد دعوة المستعين إلى أن توفي هشام أو اختفى، فبايع ابن هذيل المستعين فعقد له على ما بيده (انظر **البيان** 3/ 181)، وقد أورد صاحب الذخيرة الرسالة على أنها مكتوبة عن المظفر ابن أبي عامر، ولا يبدو ذلك.
[6] - سنة 403 تاريخ بدء حكم هذيل بن رزين والفترة الثانية لحكم المستعين، وسنة 407 نهاية حكم المستعين.

أخيافاً متباينين ، وأطواراً مختلفين، فمنهم المختصّ بالطّاعة، ومنهم المبتلى بالمعصيّة، وبين الفريقين أقوام ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم﴾[1]، ولو شاء الله لكان النّاس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم[2]، والسّعيد من خاف ربّه، وعرف ذنبه، وبادر بالتّوبة قبل فوتها، واستعطى الرّحمة قبل منعها؛ وإن كنتَ تركت قصدك، **وخالفت رُشدَك، ونكبتَ عن سبيل سلفك**، فلم يوحشْك ممّن شردت عليه مكروه نالك به، ولم يؤنسك ممّن جنحت إليه أمل لم تطمع فيه إلاّ لديه، بل كنت آمناً من المخاوف، بعيداً من المكاره، قريب المكانة، رفيع الدّرجة، مصدَّراً في أهل النّصيحة والثّقة، خلا أنّه حدث بينك وبين **الحاجب** ما لم يزل يحدث بين القواد والعمّال على قديم الزّمان ممّا لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأي الأصيل عن طبقته، ولا يجاوزُ أن يزيد المُحنق على المحْك في خصومته، والله عليم أنّ **أمير المومنين** لم يَبخسك في تلك الهبات حظّاً، ولا أوْلاك إعراضاً؛ ولقد اعتنى بمصلحتك، وعزم على إزاحة علّتك، حتّى يتهيّأ من ذلك ما يفي بأملك لو انتظرتَه، واستقام فيه ما يزيد على طَلِبتك، لو صبرتَ عليه، ولك في القدَر المقدور فسحة، وفي القضاء المحتوم مندوحة؛ ولن تضيق بك السبيل عند أمير المومنين، **وأنت بين طاعة سالفة واستقامة موروثة، وبين إنابة منتظرة وتوبة مستقبَلة**، فإحدى الحالتين تحطّ الذنوب الكبيرة، وتغطّي على العيوب الكثيرة.

فالآن - عصمك الله - واللّبَب رَخِيٌّ، والمركب وطِيٌّ، وبابك إلى رضى أمير المومنين مفتوح، وسبيلك إلى حسن رأيه سهْل، ولا يذهبْ بك اللّجاج إلى عار الدّنيا ونار الآخرة، إيّاك ومصارعَ النّاكثين، وحذار مَوارطَ الغادرين..."

6 - رسالة أخرى عن الخليفة المستعين إلى [ابن رزين؟] ربّما في موضوع سابقتها[3]

[403 - 407]

"... ويجب أن تزيد في رتبتك، وتهذّب جمال جهتك، وتسعى في توفير محاسنك، وتكثير مناقبك، وإن كنتَ بحمد الله ومنّه كاملَ الأدوات، كثير الحسنات، ولكنّ الزّيادة من فضل الله محبوبة من النّجباء، مطلوبة من النّبلاء، وأنت صدرُهم السابق وهاديهم المبرّز؛ وقد نبذنا إليك في كتابنا مع فلان نبذة لم نضعها دون غاية البيان، ولم يسعنا إلاّ إيضاح الدّليل وإقامة البرهان..."

[1] - من الآية 103 من **سورة التوبة**

[2] - اقتباس من الآية 118 من **سورة هود**

[3] - رسالة أخرى عن المستعين بالله إلى ابن رزين فيما يبدو وهي مبتورة البداية والنهاية، قد يكون تاريخها غير بعيد عن تاريخ إعلان طاعة ابن رزين للمستعين. ورد هذا المقطع من الرسالة من إنشاء الكاتب أبي حفص بن برد الأكبر كما في **الذخيرة** ق1. م1/ ص116 أوردها ابن بسّام بعد الرسالة اللاحقة ورأينا تقديمها عليها لكون اللاحقة كتبت في فترة نذير الحرب بين المستعين وعلي بن حمود التي انتهت بمقتل المستعين.

7 ـ رسالة عن المستعين إلى ابن [رزين] حول قيام مجاهد العامري وعلي بن حمود ضدّه[1]

[407]

"إنّ العاقبة للتّقوى، وإنّ كلمة الله هي العليا، ولا تبتئس فإنّ الحقّ دامغُ الباطل، وإن لاحت للكذب بارقة، وهبّت له نافحة، فإنّما ذلك استدراج لأهله، وإملاء لحزبه، ثمّ يأخذهم بما اجترحوا، ويوبقهم بما اكتسبوا؛ وقد علم النّاس أنّ هاذين الخارجيْن علينا الناكثيْن بيعتنا، موسومان بإحساننا[2]؛ أمّا **الطالبيّ**[3] فرفعناه من أوضع مَلاحق الجند إلى أعلى مراتب أهل الخُطط، ونوّهنا بذكره، وأشدنا باسمه، وأشركناه في سلطاننا، وصرفنا إليه طائفة من جندنا، ووثقناه فيما همّ من أعمالنا؛ وأمّا **المعيطيّ** فإنّ البلاد نبت بجَدّه فلفظته إلى جدّنا رضي الله عنه[4]، فآواه وواساه، وامتثلنا مثل ذلك في هذا الضّعيف المتعيّر، فوهبنا له خطير ما استوهب، ويسّرنا عليه عسير ما طلب، وألحقناه بثقاتنا.

فاستبقا[5] في ميدان الغدر وجمحا إلى مدى الغمْط والكِبْر، جاحديْن بحقنا، منتحليْن لِما لم يجعلهما الله له أهلاً؛ وأمير المومنين دافعٌ لهما بحقه عليهما، ومستعين بالله ثمّ بإحسانه إليهما...[6]

وأمّا ما وصفتَ به نفسَك، وعرضته علينا من مجاهدة المارقين، ومناضلة النّاكثين، وضمِنتَه من حشد الأجناد قِبَلك، واستنفار أهل عملك، وما سمحتَ به من الإنفاق على جميعهم من مالك، فأنت أهلٌ لكلّ ذلك، وخليق بالوفاء به، وقد بذلتَ جهدك، وقضيتَ حقّ إمامك، فأرضيتَ ربّك، وزكّيتَ نفسك، ورفعت في الغابرين ذكرك، وصدّقت ظنّ أمير المومنين وحققتَ تفرّسه فيك، وهو يرجو أن يجتزئ بمن حوله من أنصاره، ويكتفي بمن في حضرته من الأجناد، فهم على أجمل بصيرة في نصره، وعلى أثبتِ نيّة في الذّبّ عن سلطانه، والله يعينه وإياهم ويؤيّده معهم؛ وإن احتاج إليك فما أطيبَ نفسه عليك، وأوثقه بإجابتك أو دعائك، بارك الله فيك، ومتّعه بك، فأنت سيفه الفاصل، وسهمه النّافذ..."

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن برد الأكبر كما في **الذخيرة**، ق1/م1/ 114- 116، غير أنّ اسم المكتوب إليه غير وارد بسبب طمس في الأصل.

[2] - يظهر أنّ أحدهما هو مجاهد العامري الذي قدّم للخلافة الفقيه المسمى المعيطي وهو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي الأموي، قدّمه مجاهد في جهته الشرقية ودعا له بالخلافة سنة 405 (**البيان** 3/ 116؛ **أعمال الأعلام** 2/ 220 (سماه ابن الخطيب: أبو عبد الله بن عبيد الله بن الوليد المعيطي المديني"كذا" ولم يسمّه "المرواني" بل جعله من الفقهاء المشاوَرين سابقاً في قرطبة)، ولم يلبث مجاهد أن نفاه إلى إفريقية لمحاولته الاستبداد عليه (ذكر ابن بشكوال وفاته سنة 432 (**الصلة** 1/ ص296، ط. القاهرة 1966)

[3] - يقصد علي بن حمّود والي سبتة، وكان القائد الأعلى لجيش البربر التابع للمستعين، ثم ولّاه على سبتة وإقليمها (طنجة، أصيلا..) وولّى اخاه القاسم ما شمال المضيق (الجزيرة وما جاورها)، وقيل إنّ الخليفة هشام كتب له بولاية عهده لشرف أسرته ولكون هشام لم يخلّف وريثاً للعرش (**البيان** 3/ 120). فخرج على المستعين وحاربه في أحواز مالقة بمن اجتمع حوله من صنهاجة إضافة إلى خيران العامري صاحب مرسية والمرية أملاً في دعن الخليفة هشام، فانتصر ابن حمّود على المستعين ودخل قرطبة وأعلن الخلافة الحمودية العلوية سنة 407 ؛ غير أنّ خيران العامري فرّ عنه إلى الشرق لمّا لم يجد هشام حيّاً. راجع عن علي ابن حمود **الذخيرة** 1/1/ 96 وما بعدها، وعن ابنه يحيى ص316،436، وعن القاسم بن حمود ص481- 486

[4] - جد المعيطي اسمه الوليد، وجد المستعين (المقصود هنا) هو عبد الرحمن الناصر والد جدّه سليمان، فهو المستعين سليمان بن الحَكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر.

[5] - المقصودان هما علي بن حمّود والمعيطي

[6] - في الذخيرة : (وفي فصل منها)

8 - رسالة عن المستعين خليفة قرطبة إلى منذر بن يحيى صاحب سرقسطة مشيراً إلى اختلاف أهواء الرعية [1]

[407][2]

"... وأمّا أمر **عليّ بن حمّود** فعلى ما أعلمناك به من الضّعف والوهن، وإنّما يطمع في مَن عندنا[3]، والله يبطل طمعه.

وقد أوحشنا بطءُ أخبارك عنّا، وإن كنّا لا نشكّ في أنّك على جميع ما تصرّفت به، وفي كلّ ما تقلّبت فيه، كما نحبّه ونهواه، فذاك حظّك منّا، وموقعك من ثقتنا، وعلى ذلك فإنّ بواعث الإشفاق جمّة، وعوارض التّوقي كثيرة، وقد توالت المحن، وطالت الفتن، ونجم النّفاق[4]، وشاع الخلاف بين أهواء أوليائنا...."

9 - إقرار خليفة قرطبة (الناصر) علي ابن حمود للمنذر بن يحيى على ما في يده من ثغور منطقة سرقسطة[5]

[407 - 408]

"... وما أنكرنا شيئاً ممّا ذهبت إليه من التأنّي والتثبّت، ولا اعتقدنا إلاّ رأيك في نظر الاجتماع وترقّبِ الالتئام، لترتفع الشبهة وينجليَ الشّكّ، وإن كان مذهبنا في هذه الأمّة مشهوراً، واحتسابنا الأجر في صلاحها معروفاً، وقيامُنا لنصرها، وسخاؤنا بأنفسنا وأموالنا لاستنقاذها، لا ننوي إلاّ وجهه تعالى، وإلاّ فقد علَم مَن عرفنا، وأيقن مَن أنصفنا، أنّنا كنّا في عيش هنيّ، ولبَبٍ رَخِيّ، وعمل واسع[6]، ومالٍ وافر، وجند مطيع، وحصن منيع[7]؛ وفي دون ذلك ما أقنَعَ مَن عَرف الدّنيا بحقيقتها، وأجزأ مَن أنزلها منزلتَها، وما كفى من لا يعدل بالسّلامة ولا يبيع بالغَبن، ولا يركب الأهوال، ولا يقتحم المهالك، مغرِّراً بدمه، مخاطراً بنفسه لحطام تافه، وظلّ زائل، ومتاع قليل؛ وإنّا لنرجو منه تعالى أنّه لم ييسّر ما يسّر من آمالنا إلاّ عند اطّلاعه على نيّتنا فيها، فنحن بعين الله ونَواصينا بيده، والملك والأمر له....[8]

والشّروط التي خططتَّها بيدك، وأردتَ معرفة رأينا بإمضائها، فإنّها - لعمر الله- قليلة في استحقاقك، ولو اتّسعت البلاد لأضعاف ما تليه لكنتَ لذلك عندنا أهلاً في كفايتك وضلاعتك

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن برد المذكور كما وردت في **الذخيرة** ق1/م1/ص 116، وكان منذر من قادة البربر، وقد استقر في حكم سرقسطة، وعامل زعماء النصارى معاملة ودّية لإبعاد أطماعهم في مملكته إلى حين قتله آخر سنة 430 (**البيان** 3/ 175- 178 ؛ **أعمال الأعلام** 2/ 119.

[2]- افترضنا هذا التاريخ لأنّ الأول هو بداية حكم المنذر بن يحيى ونهاية فترة المستعين (403 - 407).

[3] - أي أنّه ينتظِر ثورة أهل قرطبة ضدّ المستعين، وقد عرف أهل هذه المدينة بسرعة تقلّب أهوائهم السياسية

[4] - هذا ما يرجّح كون تاريخ الرسالة بعد سابقتها أو في فترتها حيث الإشارة هنا إلى المحن التي أصبح يعاني منها المستعين من جراء العامريين شرقاً وابن حمّود جنوباً وعدم الثقة في موقف أهل قرطبة نحوه.

[5] - كان المنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة (408- 414) غدر بمحمد بن المستعين (ولي عهد أبيه) عندما استجار به فقتله وهو ضيفه (**البيان** 3/ 176)؛ ولا يظهر أنّ المنذر كان مؤيداً لابن حمود ولا لابن مجاهد وإنّما كان يحاول الموازنة بين الطّرفين رغم تظاهره في البداية بدعم خلافة المروانيين. وردت الرسالة في **الذخيرة** ق1/ م1/ ص 117- 119، من إنشاء الكاتب أبي حفص أحمد بن برد.

[6] - أي منطقة إمارته السابقة جنوب المضيق.

[7] - سبتة معروفة بحصانتها بالنسبة لأي عدوّ يأتيها من البرّ.

[8] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

وضبطك وحزمك؛ فأمّا الاعتماد عليك في الرأي، والقصدُ إليك بالمشورة، فهو الذي لا نعدوه بك ولا نُجاوزه فيك، ونحن بذلك أحظى، والفائدة لنا فيه أعلى؛ **وقد أنفذنا كلّ ما دعوتَ إليه من تنفيذ سجلاّتك على ما في يديك من الأعمال**، واعتقدنا لك ولجميع أهل الثّغور - حرسهم الله - الأيمان المنعقدة والأقسام المغلّظة لا تدخل عليهم داخلة يكرهونها، ولا يكلّفون كلفة يستثقلونها، ولا يخالف بهم طريقة يرضَونها ما سمعوا وأطاعوا....[1]

ووصيّتك بأهل قرطبة وغيرهم مقبولة، ونصيحتك فيهم متبوعة، ولن يروا منّا ولن تسمع فيهم عنّا إلاّ كما يعجبك ويسرّك، ويُجذلك ويُبهجك[2]، وإنّما هدى الله أولهم بأوّلنا، وأسبغَ النّعم على سلفهم بسلفنا؛ وهل يؤمّلون أحنى عليهم وأرأفَ بهم منّا؟ أم هل لمن آتاه الله رشده وشرح بالإيمان صدره رغبة عنّا؟ وهل يُنكِر فضلنا إلا جاهل مكابر، أو يدافع حقنا إلاّ معاند خاسر؟..."

10 - رسالة عن [علي بن حمّود]؟ في عتاب من تخلّى عن بيعته[3]

[407- 408]

"... بلغنا جوابك **ناكباً عن الحقّ**، بعيداً من الإنصاف، خِلواً من حسن المعاملة، بداية بالامتنان بما كان منك، بما لو اقتنعت فيه بما بذلنا من الشّكر لركبتَ سَنن المنصفين، وسلكتَ سبيل المحسنين، فقد قيل: إنّ الشّكر وإن قلّ ثمنٌ لكلّ نوال وإن جلَّ، كما قيل: إنّ المنّة تفسد الصنيعة[4]؛ ولو نظرتَ في أخبار الماضين، وكشفت عن سيَر الأوّلين، لوجدتَ ملوك الأمم على قديم الزّمان قد تعاملت بالتعاون، وتواصت بالتّرافد، وإن شحطت ديارُها، واختلفت أديانُها، وجعلت ذلك بينها حقوقاً تُقضَى، وفروضاً تؤدّى، فالدّهر أطوار، والأيّام دول؛ **وقد علمتَ أنّ الذي سامحتنا فيه لم تُقدم إليه إلاّ على شروط اشترطتَها**، وأطماع استدعيتَها، فقضيناك كلّ ما ملكناه، ولم نَمطُلك بشيء أدركناه؛ وذكرتَ أنّك فعلت بنا ما فعلت دون معرفة تقدّمت، ولا صحبة سَلفت، ولو هربت عن هذا الجفاء دهرَك، وأنفقتَ في السّلامة من هذا الخطل عمرَك، لكنتَ لنفسك ناظراً، وفي صفقتك تاجراً؛ فإن كنت أردتَ معرفة العِيِّ كفى بذلك عِيّاً من القول وزللاً من الرأي؛ **وإن قلتَ إنّك لم تعرف مكاننا من الخلافة** ووراثتنا الإمامة عن أسلافنا الماضين وأجدادنا الأقربين، وجهلتَ أنّنا في نصابها وذروتها، وأقعدُ النّاس بها وأقواهم عليها، فقد كابرتَ العِيان، ودافعتَ البرهان...."

---

[1] - بعد هذا بتر في الرسالة بالذّخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

[2] - سار ابن حمّود في أهل قرطبة سيرة محمودة في البداية إلى أن أحسّ منهم الاعوجاج عنه فغيّر سلوكه معهم.

[3] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق1/م1/ 119- 120، من إنشاء أبي حفص بن برد الأكبرالتي قدّم لها ابن بسام بعبارة "وله من أخرى" (والضمير يعود على ابن برد)، ويظهر أنّ المكتوب عنه هو علي بن حمود والمكتوب إليه هو خيران العامري صاحب ألمرية الذي حرّضه على الانتقال من سبتة إلى قرطبة ودعّمه في هذا الشأن مع الصنهاجيين أمراء غرناطة وما قاربها حتى تمكّن من دخول قرطبة فبويع بالخلافة (**البيان** 3/ 120)، ولم يلبث خيران ومجاهد صاحب دانية وباقي العامريين في الشرق أن انقلبوا على ابن حمّود ببيعة المرتضى المرواني عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر.

[4] - هذا يؤكّد أن المخاطب قد يكون هو خيران العامري باعتبار أصله من الموالي كباقي العامريين

11 - رسالة عن [ابن حمّود؟] إلى ابن صمادح حول ناكث خاب مسعاه[1] ؟[407 - 408]

"... وإنّ للبغي مَصارعَ لا تعدو أهله، وللنّكث عواقبَ لا تخطي معتقِدَه، وقد علمت الكافة ما أولاه أمير المومنين فلاناً من إحسانه، وأفاضه عليه من معروفه، فرفعه من الحضيض، وانتعشه عند الجريض، ونوّه به بعد الخُمول، وكثّره وهو قليل، فلم يشكر لله نعمة، ولا وفى له بذمّة، وظلّ يبني الغدْرة على غير أسّ فخرّ بناؤه، وانتضل في الرّميات في غير هدف فصافت[2] سهامُه، وأصحابه يتساقطون علينا في كلّ حين أفواجاً، ويتتابعون إلينا نُزّاعاً أرسالاً، لِما يبدو من ضعف آرائه، وخُبث مذاهبه، وقُبح غدره، وتناكبِ أمره، حتّى اتّسع عليه الخرق، وأعضله الفتق، واستنفر له وجه الخلائق، وأسلمَه غرور الشّيطان فأصبح نادماً سادماً، وأمسى حائراً بائراً، ونكالُ الله تعالى نازلٌ به، وسُخطه منزَلٌ عليه، وبأسه منصرف إليه..."

12 - رسالة عن علي بن حمّود إلى والي جيان في جمع الواجبات الزراعية نقداً لا عيناً [407- 408][3]

"إن الله تعالى قلدني من رعاية عباده، وحمّلني من سياسة خلقه، وعصب بي من تدبير أمورهم وإصلاح شؤونهم، وألزمني من النّظر لهم والعمل بما يُصلحهم ما لا حولَ لي فيه ولا قوّة عليه إلا بعونه وتأييده، ولا هداية إلا بتوفيقه وتسديده؛ وإنّ الرعيّة من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، صلاحهُما وفسادُهما متّصلان، ونماؤهما ونقصانهما منتظمان، إذ كانت الرّعية عنصر المال ومادّة الجباية، بها قوام المُلك وعزُّ السلطان، ورزق الأجناد التي بها يُقاتَلُ العدوّ، ويُنصَر الدّين، وتُحمَى الحُرَم؛ ولمّا تأمّلتُ أحوال أهل **عملك من كورة جيّان وذواتها**[4]، وحصّلتُ ما يلزمهم أداؤه هذا العام من الطّعام في العشور الواجبات، تَكَنَّفَهم من شفقتي وأحاط بهم من عواطفي ما أدّى إلى رفع مؤونة طعامهم، وإعفائهم ممّا يلحَقهم فيه من العنت، ويرجع

---

[1]- الرسالة من إنشاء ابن برد المذكور كما وردت في **الذخيرة** ق1/ م1/ 116- 117؛ قدّم لها ابن بسّام بقوله: "وله (أي ابن برد) من أخرى إلى ابنِ صمادح..."؛ وكان ابن صمادح الجدّ أبو يحيى محمد بن أحمد والياً على وشقة وأعمالها للخليفة هشام المؤيد، وجدد له سليمان [المستعين] هذه الولاية. فهل يكون المكتوب إليه هو صاحب وشقة المذكور بعد موت المستعين فيمكن حصر تاريخ الرسالة بين 407 و 408 أي في بداية عهد علي بن حمود؟ (راجع **الذخيرة** ق1/م2/729- 730؛ **البيان** ص 173؛ **أعمال الأعلام** 2/ 189).

[2] - صاف: انحرف

[3] - حدث مقتل علي بن حمّود على يد بعض غلمانه من الصقالبة بعد أن كان يستعدّ للحرب مع المرتضى القائم في الشرق بدعم الصقالبة العامريين، (**البيان** 3/ 122، 213؛ **العبر4**/ 335- 336؛ مقال: سكوت البرغواطي ملك سبتة، **مجلة تطوان** ع11/ 1971، ص 95 (لصاحبه بيرميخو، خواكيس فالفي).

[4] - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي حفص ابن برد عن علي بن حمّود كما وردت في **الذخيرة** ق1/ م1/ 120؛ يظهر أنها موجّهة إلى صاحب جيان من بني برزال الذي كان تابعاً لخليفة قرطبة علي بن حمود.

عليهم من الدّرك، وكُلف الحمولة إلى الأهراء، وما يتبع ذلك من الانتقاص، ويتّصل بالكيل من التّطفيف، وتسقط التّبعات ويَخفّ الثّقل.

فانظر عندما يرد كتابي في توزيع ما يجب على أهل عملك من النّاض عن كذا وكذا من القمح والشعير حسابُ كلّ مُدْيٍ من القمح ستّة دنانير، ومن الشعير ثلاثة؛ واشمَلْ بتوزيعها النّاس كافة غير محاشٍ منهم أحداً؛ وليكن ذلك على العدل وتحرّي الحقّ واعتماد الصّدق، بمشاهدة قاضي الجهة، وموافقة شيوخ الرعيّة ووجوهها، وأهل المعرفة بمواقع وظائفها، إن شاء الله".

13 - رسالة عن أحد الخلفاء [الحموديين]؟ حول انحراف من كان موضع ثقة[1]

[... - 417][2]

"... أنالك في فلتات تحجب حسن الظّنّ بمن أُسبغتْ عليه النّعمة، ووجَبت لربّه الحجّة في أداء النّصيحة؛ وقد اندرجت في أثناء هذه الفتنة خطوب استعمل فيها أمير المومنين الثّقة بمن لم يتّق الله في النّصيحة له ولرسوله عليه السلام ولخليفته ولجماعة المسلمين، ولم تَصدُق نيّتُه ولم يصحَّ خبرُه؛ ولا رأيَ لمكذوب فأوطأه عشوة، وزخرف له كِذبة على إثر كِذبة، ومنّى الأماني، وقرّب المواعيد، ونمّق الزّور، ولبّس الأمور، وأمير المسلمين[3] يوجس الخيفة، ويخشى الخديعة، ويرى أعلام الرّيبة، حتّى وضَح الفجر، وصرّح عن زبدته المحْض؛ وليس هو بأول من أحسنَ فضاع إحسانُه، واصطنع فسقطت صنائعه؛ وفي فضل الله عِوضٌ من كلّ فائت، وفي جزائه خلفٌ من كلّ ضائع، وفي إقبال رحمته غِنىً عن كلّ مدْبِر، وللأيّام عُقَب تُديل الكُره بالرّضى، وتنسخ الشّدّة بالرخا[4]..."

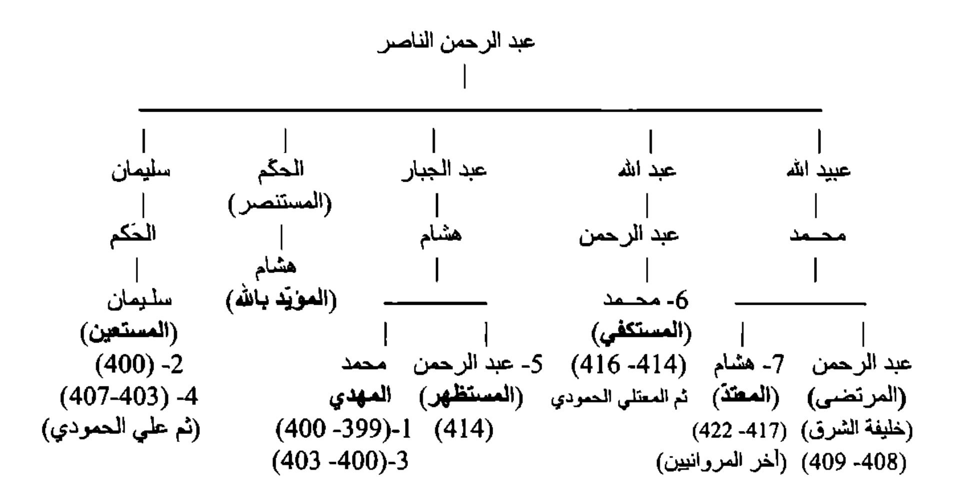
[1] - الرسالة من إنشاء ابن برد كما وردت في **الذخيرة** ق1/ م1/ ص 117- 119، لم يورد صاحبها اسم المكتوب عنه ولا اسم المكتوب إليه (أو إليهم)، قد يكون المكتوب عنه أحد الخلفاء الحموديين بقرطبة، هو : علي بن حمود (407 - 408)، أو أخوه القاسم (407 - 412، ثم 413 - 414)؛ أو يحيى بن علي المعتلي (412 - 413 ثم 416 - 417).

[2] - سنة 417 هي نهاية خلافة الحموديين بقرطبة (توفي ابن برد منشئ الرسالة سنة 418).

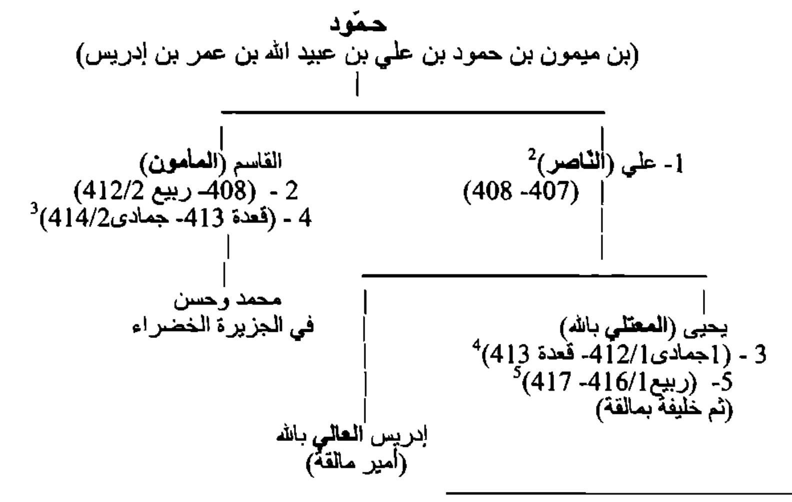
[3] - كذا؛ ولعل الصواب هو أمير المومنين، حيث لم يتسمّ أحد آنذاك باسم أمير المسلمين.

[4]- بعد خلع القاسم بن حمود سنة 414 أراد أهل قرطبة تقديم سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالمرتضى من بني أميّة، ففاجأهم عبد الرحمن بن هشام أخو المهدي بن عبد الجبار، فأطاعوه عن رضى أو كره، وتلقّب **بالمستظهر بالله**، ثم قتل في قعدة من السنة ، وبايعوا محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ولقب **بالمستكفي** (414- 416)، وعاد يحيى الحمودي إلى خلافة قرطبة بعد بضعة أشهر ثم خلعوه وبايعوا آخر المروانيين هشام بن محمد **المعتدّ بالله** (417 - حجة 422)، وبخلعه انتهت الخلافة الأموية وانتقل الأمر إلى الوزراء من بني جهور (**الذخيرة** ق1/ م1/ 48 وما بعدها؛ **جذوة** المقتبس 24- 27 ؛ **البيان** 3/ 133 وما بعدها، 140- 145)

أواخر الخلفاء من بني أمية في قرطبة



بنو حمود الأدارسة خلفاء قرطبة [1]



---

[1] - اعتمدنا أساساً في سلسلة النسب على **البيان** 3/ 119، وكتاب **المتين** 38

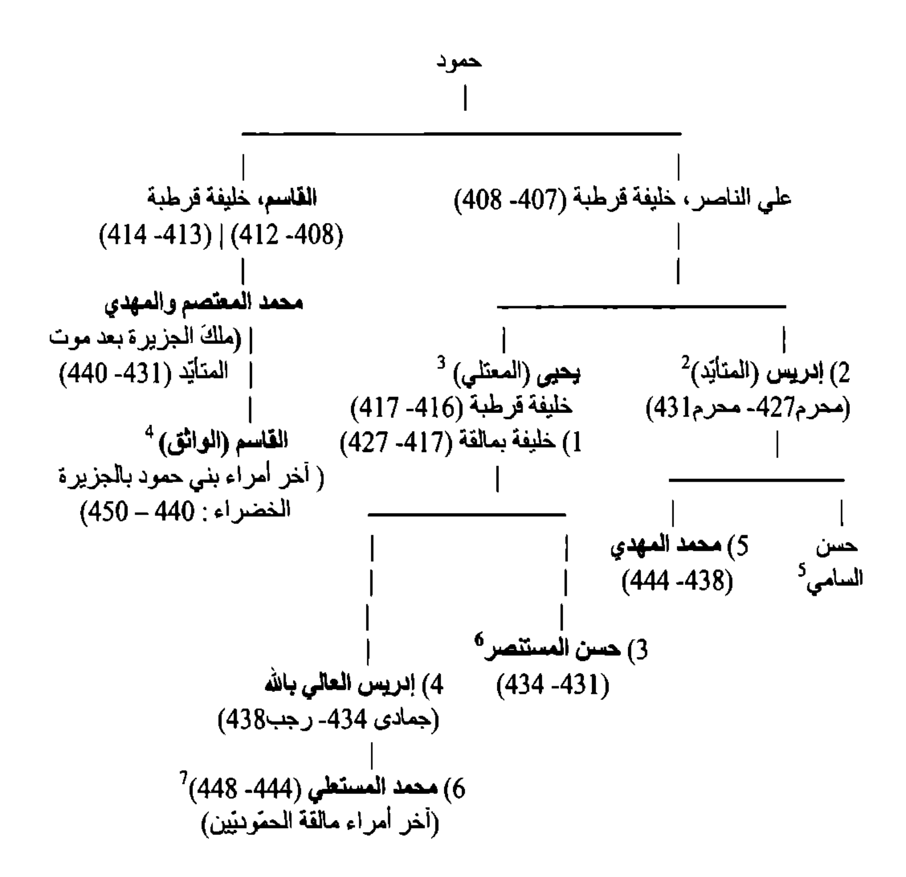
[2] - عن بني حمود انظر **البيان** 3/ 122 وما بعدها

[3] - بين الولايتين الأولى والثانية بايع أهل قرطبة عبد الرحمن بن هشام المستظهر بالله، ثم **المستكفي** (414 - 416)، ثم **يحي الحمودي**، ثم المرواني هشام **المعتدّ بالله** (417 - حجة 422)، ثم تولّى بنو جهور من أمراء الطوائف (انظر **البيان** 3/ 133 وما بعدها، 140- 145)

[4] - انتقل بعد خلعه إلى مالقة وجُدّدت له البيعة بالخلافة وتسمى بالمعتلي بالله، وبايعته شريش والمرية وسبتة إضافة إلى مالقة، ثم عاد يحيى إلى قرطبة في نفس السنة 417 وبقي حوالي أربعة أشهر (**البيان** 3/ 135- 145)

[5] - خرج يحيى إلى مالقة، ولمّا وصل العامريان مجاهد وخيران إلى قرطبة قتل أهلها من كان بالمدينة من البربر من جند يحيى الحمودي (**البيان** 3/ 143)

بنو حمّود ملوك مالقة والجزيرة[1]



---

[1] - تسمى أمراء بني حمّود بالخلفاء سواء في قرطبة أو في مالقة؛ وقد اعتمدنا في هذا الجدول أساساً على الحميدي في **جذوة المقتبس**(28- 34) وذلك لمعاصرته للأحداث، مع الإضافة أو التعديل من **البيان المغرب** 3/ 188، 190- 192، 213، 217- 218، 230، 266) والذيل على البيان ص 289- 291) ؛ **وأعمال الأعلام** 2/ 142- 143؛ **والعبر** 4/ 335- 336؛ **ونفح** 4/ 432.

[2] - في البيان: بعد وفاة إدريس المتأيّد بويع أخوه حسن بن علي بسبتة وتسمى بالمستنصر، ودخلت في طاعته مالقة ورندة والجزيرة الخضراء (**البيان** 190- 192، **نفح** 4/ 432).

[3] - كان خليفة بقرطبة مرتين كما في الجدول السابق؛ وأثناء خلافته بمالقة خضعت له قرمونة شمالاً، وبخارجها قتله جيش ابن عباد في المحرم 427 (**البيان** 3/ 188 - ...).

[4] - اختُلف في تاريخ نهاية الحموديين في الجزيرة الخضراء على يد بني عبّاد، وكذا سقوط مالقة في يد صاحب غرناطة، والراجح أن سقوط مالقة حدث سنة 448، وسقوط الجزيرة سنة 450.

[5] - في بعض المصادر جُعل السامي لقباً لإدريس بن يحيى القائم بن إدريس المتأيّد، وقد اعتمدنا رواية الحميدي المعاصرة للأحداث.

[6] - بعض المصادر تجعله أخاً لإدريس المتأيّد.

[7] - هذا آخر أمراء مالقة الحمّوديّين حيث سقطت مدينته في يد أمير غرناطة، فانتقل المستعلي إلى مليلة شمال المغرب فبايعته بالإمارة (456- 460).

لائحة بأسماء ممالك وملوك الطوائف[1]

- **في الشمال الأوسط** : **مملكة طليطلة،**
استقلّ بها أحد الفتيان العامريين إلى وفاته، ثم أصبحت بيد بني ذي النون: **الظافر** إسماعيل (427- 435)؛ ثم ابنه **المأمون** يحيى (435- 467)، ثم أخوه يحيى **القادر** (467- 478)

- **في الشمال الغربي**: **مملكة بطليوس**: مملكة بني الأفطس:
عبد الله بن محمد **ابن مسلمة** المنصور (413- 437)؛ ابنه محمد **المظفر** (437 - 461)؛ ابنه **المنصور** يحيى (461- 464)؛ أخوه **المتوكّل** عمر بن محمد (464- 488)

- **في إشبيلية والغرب** **مملكة بني عباد**: القاضي **محمد بن إسماعيل** (414- 433)؛ ابنه **المعتضد** عباد (433- 461)؛ ابنه **المعتمد** محمد بن عبّاد (461-484)

- **في الشمال الشرقي** : **مملكة سرقسطة** :
منذر بن يحيى التجيبي، المنصور (408- 414) ؛ يحيى بن منذر، المظفر (414 - 420) ؛ منذر بن يحيى **معز الدولة** (420- حجة430)[2]. ثم **بنو هود**: سليمان بن محمد **المستعين** (محرم431- 438)[3] ، ابنه أحمد **المقتدر**(438- 475)، **المؤتمن** يوسف بن المقتدر (475- 478) ابنه أحمد **المستعين** الثاني (478- 501)، ابنه عبد الملك **عماد الدولة** (501- 503).

- **في الشرق** : العامريّون (الصقالبة) من طرطوشة شمالاً حتى ألمرية جنوباً مع الجزر الشرقية (حتى سنة 468 حيث استقلت بسقوط دانية في يد ابن هود)

* **في بلنسية** : الفتيان العامريون: **مظفر ومبارك** (400- 408)، **لبيب** (408- 411)
ثمّ **المنصور عبد العزيز** (411- 452)، وهو ابن عبد الرحمن الناصرا بن الحاجب المنصور، قدّمه العامريون عليهم، ثم خلفه ابنه:
نظام الدولة عبد الملك بن عبد العزيز (452- 457)، ثم ابنه **أبو بكر بن عبد العزيز** (نيابة عن المأمون بن ذي النون :457 – 478)، (ثار على ابن ذي النون)،
ثم **عثمان** بن أبي بكر :478) ؛ ثم استولى على الإمارة :
القادر ابن ذي النون (478 - 485) مدعوماً من قشتالة، بعد إخراجه من طليطلة
ثم القاضي بن جحاف (485- 487) ؛ ثم الكمبيطور والقشتاليون (487 – 495)

* **في دانية والجزر**: **(الموفق) مجاهد العامري** (400- 436)؛
ابنه علي **(إقبال الدولة)** (436- 468) في دانية والجزر، ثم أخذ منه دانية:
المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة (468- 474)؛ ثم **المنذر** بن هود (474- 484)
وبسقوط دانية في يد ابن هود استقلت **الجزر** سنة 468 إلى أن دخلها المرابطون سنة 509 بعد تعرّضها لحملة صليبية فحرّروها.

---

[1] - اقتبسنا هذه اللائحة أساساً من ابن عذاري في: **البيان المغرب** (ج3) ،ومن ابن حيان في: **نصوص من كتاب المتين** ؛ **وأعمال الأعلام** (ج2)، ومن عنان في: **ملوك الطوائف** (437)

[2] - اقتصر صاحب البيان على ذكر الأميرين الثاني والثالث.

[3] - ورد في **الذخيرة** وجوده حاكماً في لاردة خلال سنة 420 (ق1/3/ 516- 517)؛ أما في البيان المغرب فورد استيلاؤه على لاردة سنة 431 (3/ 222)، وانه استولى على سرقسطة سنة 436 (**البيان** 4/ 54)، وهذا خلاف ما في **المتين** ص 53 ، فابن حيّان أقرب إلى الحدث زمانياً ومكانياً.

* **في مرسية** : العامريان: **خيران** (403- 419)؛ **زهير العامري** (419- 429)
ثمّ **أبو بكر بن طاهر** (429- 455) ؛ ثم ابنه أبو عبد الرحمن **بن طاهر** (455- 471)
(كلاهما باسم عبد العزيز صاحب بلنسية)، ثم استيلاء ابن عباد عليها (471)

* **في المرية**: العامريان صاحبا مرسية: **خيران** (405- 419)، ثمّ **زهير**(419- 429)
ثم **معن بن صمادح** التجيبي (433- 443) ، ابنه محمد **المعتصم** (443- 484)،
ثم ابنه أحمد **معز الدولة** (484).

- **في غرناطة** : **مملكة بني بني زيري** (403- 483)؛
زاوي بن زيري (403- 410)، ابن أخيه **حبوس** بن ماكسن (411- 428)،
ابنه **باديس المظفر** (428- 465)، حفيده عبد الله **بن بلكين** (465- 483)

- **في قرطبة** (بعد نهاية الخلافة): **مملكة بني جهور** (422- 461)
أبو الحزم جهور(422- 435)، ابنه **محمد**(435- 457)، **عبد الملك** بن محمد (457- 463).
سقطت قرطبة بيد عباد المعتضد ملك إشبيلية، ثم المأمون ملك طليطلة، ثم المعتمد بن عباد.

- **مملكة بني حمود**: **في مالقة** وسبتة (المشاهير)
يحيى **المعتلي** (417-427)، إدريس **المتأيّد** (427 - 431)، حسن **المستنصر** (431- 434)، إدريس **العالي** بالله (434- 438)، محمد **المهدي** بن المتأيّد (438- 444)، محمد **المستعلي** بن العالي (444- 448) أخرجه باديس بن حبوس من مالقة، فانتقل المستعلي إلى مليلة فبايعه أهلها (456)، بعد أن رفض استقباله نائبه على سبتة الحاجب سكوت البرغواطي مستقلاً بها.
في الجزيرة الخضراء: **القاسم** بن حمّود (413- 414، خليفة قرطبة سابقاً)، ابنه محمد **المهدي** (....- 440)، ابنه القاسم **الواثق بالله** (440- 450 ، تاريخ سقوط الجزيرة بيد ابن عباد).

إمارات صغيرة في الغرب استولى عليها المعتضد ابن عباد

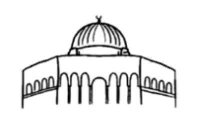
- **في قرمونة: إمارة بني برزال** (404 - 459)
- **في أركش: إمارة بني حزرون** (402- 461)
- **في رندة : إمارة بني يفرن** (406-457)
- **في موررور: إمارة بني دمر** (403- 458)
- **في لبلة : إمارة بني يحيى** أو بني يحصب (414- 445)
- **في ولبة (أونبة) وجزيرة شلطيش : إمارة عبد العزيز البكري** (403- 443)[1]
- **في شنتمرية الغرب : إمارة بني هارون** (417- 443)
- **في باجة وشلب : إمارة بني مزين** (... – 455)

إمارتان في الشرق

- **في ألبونت : إمارة بني قاسم** (400- 495)
- **في السهلة (شنتمرية الشرق) : إمارة بني رزين** (403- 497)

[1] - انظر عنهم فصلاً في **الذخيرة** ق2/ م1/ 233- 235





ثانياً

رسائل عن ملوك الطوائف

أ - إمارات الجنوب الشرقي والشرق

تقديم[1]

مع اندلاع الفتنة في مطلع القرن الخامس استقلّ القادة من عنصر الصقالبة في جيش المنصور ابن أبي عامر سابقاً بالمناطق التي كانت تحت نفوذهم، وخاصة من حدود إمارة برشلونة النصرانية شمالاً حتى ألمرية جنوباً مع الجزر الشرقية، ونظراً للولاء الذي كان يربطهم بالحاجب المنصور ابن أبي عامر فقد عُرفوا بالعامريين. وفي أوائل عهدهم جمعتهم الحمية لمواجهة جيش البربر الملتفين حول بني حمود حتّى يتجنّبوا التعرّض لانتقامهم، وخاصة عندما كانوا يجدون من يتبعونه رمزياً ومؤقتاً من بقايا المروانيين - حقيقة أو زيفاً- ضدّ أعدائهم، وفي هذا الإطار وجدوا من يتّفق معهم في الهدف لمواجهة بني حمّود وتكوين ملك خاص مثل القاضي ابن عبّاد في إشبيلية. لكنّ النزاع نشب أيضاً بين المجموعة العامرية خاصّة عندما انحاز عامريو منطقة بلنسية إلى مبايعة أحد أحفاد المنصور بن أبي عامر وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور، فاستقرّ أولاً بشاطبة، ثم انتقل إلى بلنسية[2].

فخيران العامري صاحب مرسية ولورقة وألمرية وهو كبير العامريين منذ عهد الحاجب المنصور كان من أتباع المنصور في البداية، ولكنّه أصبح يتخوّف من إمكانية تقلّص نفوذه تدريجياً، ممّا جعله يقدّم أحد أحفاد الحاجب المنصور من أبناء عمومة عبد العزيز المذكور وهو محمد بن الحاجب المظفر، فلقبه **بالمؤتمن والمعتصم بالله**. وبينما طرد أهل شاطبة عبد العزيز فلجأ إلى بلنسية، أخرج خيران أميره المعتصم من مرسية سنة 413 [3]، وظهر له أن يكتسب الشرعية رمزياً بالارتباط بالخليفة الحمودي متحالفاً مع القوى البربرية الممثّلة في بني حمود خلفاء قرطبة ثم أمراء مالقة وسبتة. وتجدّد هذا التحالف بين أخيه أبي القاسم زهير خليفته بعده مع أمير غرناطة من بني زيري الصنهاجيين كما ظهر في عملياتهم ضد أمير إشبيلية حليف بقية العامريين.

غير أنّ مقتل زهير سنة 429 واستدعاء العامريين لعبد العزيز لتعيين من ينوب عنه في ألمرية أثار مخاوف أمير دانية مجاهد من تطويق إمارته، ممّا جعله يقوم

---

[1] - يوجد بعض التكرار في هذا التقديم لما سبق قوله، مع إضافات تتناسب مع موضوع الرسائل اللاحقة عن المنطقة المشار إليها. أما الدراسة السابقة فهي تعريف مختصر بأحداث القرن الخامس في الأندلس قبل دخول المرابطين.

[2] - تمّت بيعته بشاطبة ثم ثار عليه أهلها فلجأ إلى بلنسية (**العبر** 4/ 348)

[3] - **أعمال الأعلام** 2/193- 194 ؛ **دول الطوائف** 210- 211.

بمحاولات توسيع مجاله البرّي بعد أن عجز عن توسيعه بحراً في سردانية، لكنّه انهزم سنة 433 أمام قوات عبد العزيز. وكانت مرسية تابعة لزهير وينوب عنه أحد أعيانها من العلماء وهو أبو بكر بن طاهر، فتركه عبد العزيز في مهمّته يعلن بتبعية شكلية ويمارس استقلالاً في الواقع، وهذا نفس الأسلوب الذي اتّبعه ابنه الأديب أبو عبد الرحمن بعد وفاة أبيه سنة 455، إلى أن استولى المأمون بن ذي النّون على بلنسية سنة 457 فأعلن أبو عبد الرحمن استقلاله بإمارة مرسية ومن مدنها أريولة ومولة وكتندة. ومنذ وصول نفوذ ابن عباد إلى نهر شقورة ولورقة أصبحت مرسية مهددة بالسقوط في يده خاصة وأن لابن طاهر أعداءً داخل المدينة، استدعوا ابن عباد لدخولها ونجح قائده ابن عمّار في ذلك سنة 471، بحيث امتدّ نفوذ مملكة إشبيلية من المحيط غرباً إلى البحر المتوسط شرقاً. ومن الملاحظ أنه في أغلب المعارك في الشرق كان عنصر الجند الأجنبي حاضراً للاستعانة به على الطرف الآخر.

وفيما يلي جملة من الرسائل تعالج موضوع الجنوب الشرقي والشرق أي المنطقة التي كان يغلب عليها نفوذ غرناطة الزيرية والعامريين:

14 - رسالة عن حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله أمير قرمونة في دعوة إلى لزوم أمر الجماعة[1] [428][2]

بعدما أُخرج الخليفة الحمودي يحيى المعتلي من قرطبة سنة 417، استقر في مالقة محتفظاً بلقب الخليفة، وكانت دعوته تشمل مدينة قرمونة (شرق إشبيلية)، وحدث أن قُتل يحيى المعتلي خارجها في معركة مع ابن عباد صاحب إشبيلة سنة 427، فتحرّك أتباعه وحليفاه حبوس بن ماكسن أمير غرناطة وزهير العامري أمير ألمرية وعاثوا في أحواز إشبيلية وبايعوا بالخلافة إدريس المتأيّد الحمّودي أخا الهالك، ودعوا الناس إلى بيعته، ومن ذلك رسالة عن حبوس أمير غرناطة إلى ابن عبد الله البرزالي - الذي كان استولى على قرمونة - للتّمسّك بطاعة الخليفة الحمودي بعد أن كان حليفاً لابن عبّاد في المعركة السابقة، ورسالة أخرى عن زهير أمير ألمرية إلى أهل قرطبة يدعوهم للتخلّي عن دعوة هشام المزعوم - المنصوب من طرف ابن عباد بإشبيلية- إلى طاعة الخليفة الحمودي المعروف نسبه، وهذان نصا الرسالتين المذكورتين :

نص رسالة الأمير حبوس

"من النّصح تقريع، ومن الحفاظ تضييع، ولكلّ مقام مقال، إذا عُدِّيَ به عنه استحال؛ ووصل [إليّ] منك كتاب طمستَ منحاه، وعمَّيتَ معناه، أومأتَ فيه إلى النّصح، ودللتَ على سبيل النّجح؛ فوقفتُ على فصوله ومعانيه، وأحطتُ علماً بـ[جميع] ما فيه، ولم يكن لمن أوحشتْ جهتُه، وتغيّرت مودّتُه، أن يدخل مدخل النّاصحين، وقد خرج من جملة المشفقين[3]؛ وكان بالجملة أوّله سباب، وآخرُه إعجاب، والسّباب لا ينطق به كريم، والإعجاب لا يرضَى به حليم، وقد نزّهني الله عن المقارضة بهذا ومثله، وما أحسن قول القائل:

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا == ونشتم بالأفعال لا بالتّكلم

---

[1] ـ **ملاحظة**: من الناحية الزمنية توجد رسائل يفترض تقديمها على هذه الرسالة والتي تليها، وقد فضلنا تقديمهما لارتباطهما بموضوع خلافة بني حمّود.؛ وأمير قرمونة المشار إليه هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله البرزالي الزناتي، بويع بها سنة 404، وخضع للخلفاء من بني حمود، وعندما غدر ابن عباد بيحيى بن حمود آخر سنة 427 استقل ابن برزال بقرمونة إلى أن توفي سنة 434 ؛ (**البيان** 3/ 189، 311 ؛ عنان: **دول الطوائف** 434)؛ وردت الرسالة أعلاه في **الذخيرة** ق1/ م2/ 625 – 626؛ ومقطع منها في **المغرب** 444/1- 445؛ وهي من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أحمد البزلياني المالقي، كان في خدمة الأمير حبوس بن ماكسن، ثم انتقل إلى خدمة بني عبّاد. وكانت مدة إمارة حبوس في غرناطة بين 411 و 428، وهو ثاني أمرائها بعد زاوي بن زيري (403- 410)؛ ويظهر أنّ الموضوع هنا يخصّ الدعوة إلى الالتفاف حول العصبية البربرية التي يمثّلها الخليفة الحمودي المستقرّ في مالقة رغم أصله الإدريسي.

[2] - سنة 428 هي تاريخ وفاة الأمير حبوس الذي كان في طاعة الخليفة الحمودي بمالقة يحيى المعتلي (417 - 427) وهو هنا يحرّض محمداً بن عبد الله بن برزال (ت 434) على طاعة الخليفة الحمودي الجديد إدريس المتأيّد أخي المعتلي، فاجتمعت العصبية الصنهاجية واتباع زهير العامري صاحب المرية مع الحموديين، وقاموا بحملة في أحواز إشبيلية وبايعوا في حصن القصر بأحوازها الخليفة الحمودي الجديد إدريس المتأيد (427-431)، وهكذا يكون تاريخ الرسالة لا يتجاوز سنة 428 التي توفي فيها حبوس المكتوب عنه.

[3] - هنا انتهى المقطع الوارد في المغرب نقلاً من الذخيرة، وقد جعلنا بين معقفين [...] ما هو ناقص فيه، وذكر ابن سعيد أن بزليانة من حصون مالقة على بحر الزقاق.

فإن كنتَ أردت أن تستصلح منّي بسبّك فاسداً، وتستقربَ من ودّي باستطالتك مباعداً، فما هذه شيمٌ يقضي بها الفضلُ، ولا سياسةٌ يحكم بها العقل، وإن كنتَ أردت التّخويف والإيعاد، والإبراق والإرعاد، فقد كفاني بيت الكميت[1]:

أبرقْ وأرعِد يا يزيـ == ـد فما وعيدُك لي بضائرْ

وأنا أحد البرابرة، لا أخرج عن جماعتهم، ولا أبعُد عن موافقتهم، ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم.

وما أنا إلاّ من غزيّة إن غوت == غويتُ وإن ترشُد غزيّة أرشُدِ

وفي لزوم الجماعة السّداد والرّشاد، والغيّ في الانفراد والاستبداد.

وأمّا قولك: "فمن كان متبوعاً قلما يستقيم أن يكون تابعاً، ومن عُرف في النّادي مطاعاً لم ينقلب مُطيعاً، إلا أن يصادف هَذْيَ العمَرَين، وأجدِرْ بذلك أن يبعُد !" فقد أزريتَ على كلّ خلافة، وبيّنتَ أنك خارج عن كلّ فرقة، وأنّ غرضك المحاماة عن عزّك، والمراماة دون حِرزك، وليس هذا نظرَ مشفق، ولا قولَ محقّق، **إذ لا تتمّ ديانة إلاّ بإمامة يُدعَى إليها**، وتجريَ السّننُ عليها، إلاّ في مذهب نافع بن الأزرق وعبد ربّه[2] وأشباههما....[3]

... وما ذكرتَه من الذي بين الطّائفتين من بني عمّنا بالعُدوة[4] فكلُّ أمر بقدَر، ولكلّ نبإ مستقرّ، والدّنيا أحوال، والحرب سِجال، وخيرهم وشرّهم عنّا بعيد، وكلّ مَن نصرك وأيّدك فهو القريب الودود، وإن تفرّقت الآباء والجدود، **ومن شذّ عن الجماعة وفارقها**، ونابذها وشاقها، فهو الجاني على نفسه وعليها، والجارُ سوءَ العاقبة إليه وإليها، وأكثرُ الوبال واقع على الظّالم، ونازل بالجارم؛ والله وليُّ التّوفيق، والهادي إلى سواء الطّريق..."

15 - دعوة صاحب ألمرية زهير الفتى [العامري] أهلَ قرطبة للتخلي عن بيعة هشام [المزعوم] إلى طاعة المتأيّد إدريس الحمودي[5] [428- 429][6]

"... أنتم - معشر الأعلام، وأكابر الرجال-، غُرر المصر، وبقايا هذا العصر، وموضع اقتباس النّور والرأي، والملأ المقتدَى به والمشار إليه، من حاط هذه الملّة،

[1] - هو الكميت بن زيد الأسدي من شعراء العصر الأموي، كان متشيّعاً لآل البيت، قتل سنة 126هـ). ويحمل هذا الاسم أكثر من شخص، واقتصر صاحب **لسان العرب** على القول: "الكميت بن معروف شاعر معروف".

[2] - نافع هو الإمام الأول للأزارقة الخوارج، وكان عبد ربه الكبير من روساء الأزارقة وقد قتله الحجاج بطبرستان، وعبد ربه الصغير وكان ممن قتلهم المهلّب بن أبي صفرة؛ والإشارة هنا إلى اعتبار هؤلاء خوارج عن الجماعة الإسلامية، فسمّوا خوارج.

[3] - بعد هذا بتر كتب مكانه عبارة (وفي فصل منها)

[4] - يقصد الانقسام الحاصل بين إمارتي بني زيري في إفريقية وبني حماد في المغرب الأوسط، وهما في الأصل إمارة واحدة، وكانتا في الغالب في نزاع بينهما.

[5] - رسالة من إنشاء البزلياني كما وردت في **الذخيرة** ق1/ م2/ ص650- 652؛ عن بيعة إدريس بن علي بن حمّود بحصن القصر من أحواز إشبيلية واستقراره بقرمونة، وكان زهير العامري صاحب ألمرية ممّن دعّم بيعته، وفي هذه الرسالة يدعو أهل قرطبة لبيعة إدريس الحمودي، والتخلّي عن دعوة المدعو هشام المؤيّد - زعماً- الذي أظهره ابن عباد ابتداء من سنة 426 لينافس به الحموديين، وكان هشام المرواني المعتدّ بالله قد خلع بقرطبة سنة 422. (راجع الحدث في **البيان** 190- 191).

[6] - كانت خلافة الحموديين انتهت بقرطبة، أما خارجها فقد استمرّت في مالقة خاصة، وأما زهير العامري فقد قتل سنة 429، انظر عن هذا كتاب **الذخيرة** 1/ 2/ 656 (نقلا عن ابن حيان).

وانتُدب لصالح الأمّة، ومَخَضَ الرأيَ وهذّبه، وألقحَ عقيمه ونتّجَه، ورفع عن هذا العالم أسباب الشّبهة، وكشف لهم عن غطاء الهداية، فقد طالما خبطوا عشواء، وأخذوا بغتة، وكلب عليهم من بني زمانهم مَن انتُدب لتجويز المحال؛ ولو أخذنا في عدّهم، وبسطِ أوّلهم وآخرهم، لخرجنا عن غرض الخطاب إلى التأليف، وجانبنا سير القصد في الأمور إلى التّصنيف، وأشدّ هذه **العصابة المشؤومة ابن عبّاد** الذي سلّ سيف الفتنة والبغي من قِرابه، وأثار بعيرَ الظلم من مَبركه، وانتزى ببطنته أشراً، ومشى في الأرض مرَحاً، وظنّ أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً، فغزا أهل الإسلام في عقر دارهم، وأسقط عن نفسه حرمة الله فيهم، وأذهب ذمّته، وبنى أمره على دعامة زيت، وأتى لشأنه من ظهر بيت، **واستعار اسم الشّهيد هشام المؤيّد بالله لغير أهله**، وعزاه إلى مَن ليس من شكله، فضاعف السّيّئة، وجاهر بالمعصية، واتّبع الرّسم الدّاثر، وجعل حظّ النّاس فيه التمثيل في اسم كاذب، واعترض على منكريه بكِهانة شقّ وسطيح[1]، وآيات طسم وجَديس، واحتجّ بكتب الجَفر، ودان بالتناسخ؛ وأضاف إلى هذه الغرائب قراعَ أسماع الأغمار بها يُريهم وجوه الاستبصار، فضلاً عمّن تدرّج في طبقات المعرفة، وجرى على وتيرة الدّراية، وسبقت له قدم الصّدق في الرّواية؛ ثمّ رفع السوط للسيف، فأوجع قلوب المسلمين باللّسان واليد، يَحكم كيف شاء في أبشارهم، وصارفهم صرف الدّينار بالدراهم في أموالهم، لا تتخلّل الموعظة قلبه، ولا تقرَع التذكرة سمعه، فتارة يأخذ النصارى واليهود بذنب التوراة والإنجيل، وأخرى يقول للمسلمين توبوا ممّا عسى أن يكون؛ (.........)[2] فإن كان كاذباً فيا لها حسرة، وإن كان صادقاً فما أحوجَ المُلكَ إلى قطرة.

وكتابي هذا إليكم وقد اتّفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على كاهله، ونصل الإمامة في نصابه، وأعدنا الحقّ إلى أهله، وأصفقنا على بيعة رضىً واتّفاق وطاعة **لعبد الله أمير المومنين إدريس المتأيّد بالله** - أيده الله - وطهّرنا المنابر من دنس تلك الدّعوة المستعارة، وهتفنا بها هتْف التباشر، وقامت بها الخطباء على المنابر، وانجلت الغيابة عن فلق الصبح، وأقلعت الظلمة عن وضح الشمس، وأزاح بفضله تعالى غصّة الشّكّ وشجى الإفك.

فاعتبروا بما ألقينا إليكم اعتبار من يحتاط لدينه وتقواه، ويرغب عن الهضيمة بنفسه في دنياه؛ والرّمز يكفيكم، والإيماء يغنيكم، ولم نجهل علمكم بحال الموصوف لمعرفتنا بمكانكم من التحصيل، إذ أنتم أهل النّظر والتأويل؛ ولمّا استوثق الأمر على منهاجه، واستتمّ الرأي على أدراجه، هززناكم هزّة التّذكير، ورمينا إليكم بنبذ يسير ..."

---

[1] - سطيح بن ربيعة: هو كاهن بني ذئب في الجاهلية سمّي بذلك لأنه كان إذا غضب قعد منبسطاً... وقيل لأنه لم يكن له بين مفاصله قَصَب تعمِده، فكان أبداً منبسطاً على الأرض، وقيل كان لا عظم فيه سوى رأسه، قيل إنه مات ليلة مولد الرسول (ص). وشقّ: اسم عُرف به عرّافان قبل الإسلام صورتهما غير طبيعية، وهو أيضاً جنس من أجناس الجنّ (**لسان العرب، القاموس المحيط؛ المنجد** في الآداب والعلوم).

[2] - في الذخيرة: وفي فصل منها؛ فإن كان كاذباً...

16 - رسالة ودّية عن حبوس أمير غرناطة إلى صاحبي شاطبة[1] [411؟]

"... وقد عقد الله بيننا عقوداً قادها للاختيار، وفي طول الأمد وتصرّم المُدد وتباعدِ الدّيار، وتقلّبِ الليل والنّهار، ما يُحيل الأحوال، ويقطع الآمال، ويُشفق منه الضّنين، وتسوء منه الظّنون، لاسيّما إلى هذه الفتنة التي تبلّد الحليم، وتخلط الصّحيح بالسّقيم؛ وأنا لكما الصّفيّ الذي لا تقدح الأيّام في وُدّه، والوفيّ الذي لا يخشاه الأنام على عهده؛ وإذ لا سبيل إلى أن أؤدّيَ معتقدي في ذلك مشافهة، فإنّي أنبأته مكاتبة، مع من ينطق بلساني، ويشفق بجَناني، ألصق أسرتي نسباً، وأفضل خاصّتي حسباً، وأصدقِهم عنّي خبراً، وأحمدِهم في السّفارة أثراً، الوزير أبي فلان[2]..."

17 - تنبيه من الأمير حبوس إلى يحيى ابن منذر التجيبي [صاحب سرقسطة] لاستعانته مع غيره بالنصارى ضد المسلمين[3] [414 - 420]؟[4]

"... واتّصل بي ما وقع بينك وبين **المؤتمن**[5] وأبي المنذر والموفق[6] وعضد الدّولة أبي الحسن[7]، وأنّكم اضطررتم إلى إخراج كلّ فريق منكم النّصارى إلى بلاد المسلمين[1]؛ فنظرتُ

---

[1] - الرسالة من إنشاء البزلياني كما وردت في **الذخيرة** ق1/ م2/ 630 ، وكان حبوس أميراً لغرناطة فيما بين سنتي 411 و 428 ؛ أما شاطبة فأول من استقلّ بها من العامريين خيرةُ الصيْقل، وبعد قتله مسموماً من طرف مبارك صاحب بلنسية، خلفه نائبه عبد العزيز بن أفلح السلطاني، فضبط قلعة شاطبة ولم يظهر العداء لصاحب بلنسية المذكور، إلى أن انتقلت المدينة إلى يد مجاهد العامري (**أعمال الأعلام** 2/ 225- 226)؛ فمظفّر ومبارك المشهوران بصاحبي شاطبة وبلنسية انتهيا سنة 408، وخلفهما عامريان آخران مشتركان في حكمهما وهما **لبيب صاحب طرطوشة ومجاهد صاحب دانية**، ثم بايع العامريون المنصور عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن الحاجب المنصور سنة 411، فالظاهر أنّ الرسالة موجّهة إلى هذين الأخيرين (لبيب ومجاهد) في أول عهد الأمير حبوس.

[2] - هكذا تدخّل النسّاخ لإهمال اسم الوزير المبعوث.

[3] - الرسالة من إنشاء البزلياني المذكور سابقاً وردت مبتورة في **الذخيرة** ق1/ م2/ 627- 628؛ كتبها عن أمير غرناطة حبوس بن ماكسن (411- 428) إلى الأمير يحيى بن منذر التجيبي صاحب سرقسطة، ترجمة الكاتب في نفس المصدر في ص 624 وهامشها

[4] - هذا التاريخ يمثّل فترة حكم ابن منذر التجيبي المكتوب إليه؛ أما الكاتب البزلياني فكان حياً بعد سنة 443 التي استكتبه فيها محمد بن المعتضد النائب عن أبيه في ولبة وشلطيش (**الذخيرة** 1/2/ 624- 624)؛ ويمكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 419 وهي سنة تولي أبي القاسم زهير العامري في ألمرية الوارد ذكره بصفة عميد الدولة فيما يبدو – كما وصفه ابن خلدون في **العبر** 4/ 349- وسنة 420 تاريخ وفاة ابن منذر . وربما جاز اعتبار 419 بدلاً منها (راجه الهامش الثالث على الرسالة 18 لاحقاً على أساس الموضوع المشترك.

[5] - **المؤتمن:** هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر (411- 452)، هذا اللقب منحه إياه علي بن حمّود بعدما دخل في بيعته، واتخذ لنفسه أيضاً لقب المنصور (**البيان** 165)؛ وعند عنان: أن المؤتمن هو ابن عمّه محمد بن عبد الملك بن المنصور الذي نصّبه مجاهد العماري في مرسية نداً لعبد العزيز صاحب بلنسية، ولقب أيضاً بالمعتصم (**دول الطوائف** 159).

[6] - **الموفّق**: هو مجاهد العامري أمير دانية والجزر الشرقية ومؤسس إمارتها (400- 436) ، وهو من بقايا قادة جيش الصقالبة من عبيد المنصور ا بن أبي عامر، فعُرفوا بالعامريين.

[7] - هذه الرسالة والرسالتان اللاحقتان موجهة إلى أطراف النزاع في الشمال الشرقي الأندلسي وهم: صاحب سرقسطة، وصاحب طرطوشة، وصاحبا شاطبة وبلنسية وصاحب دانية في الإنكار عليهم لاستعمال النصارى ضد بعضهم البعض. وإذا كان المؤتمن هو عبد العزيز حفيد ابن أبي عامر أمير بلنسية، والموفّق هو مجاهد

في الأمر بعين التّحصيل، وتأوّلته بحقيقة التّأويل، فعظُم قلقي، وكثر على المسلمين شفقي، في أن يطأ أعداؤهم بلادهم، ويوتموا أولادهم، ويتّسع الخرق على الرّاقع، وينقطع طمع التّلاقي على الطّامع؛ ولو لم تكن - يا سيّدي - الفتنة إلاّ بين المسلمين والتّشاجر إلاّ بين المومنين، لكانت القارعة العظمى، والدّاهية الكبرى، فإذا تأيّدنا بالمشركين، واعتضدنا بالكافرين، وأبحناهم حُرمتنا، ومنحناهم قوّتنا، وقتلنا أنفسنا بأيدينا، وأدّتنا إلى النّدم مساعينا، كانت الدّائرة أمضّ، والحيرة أرمض، والفتنة أشدّ، والمحنة أهدّ، والأعمال أحبط والأحوال أسقط، والأوزار أثقل، والمضارّ أشمل؛ والله يعيذنا من البوائق، ويسلك بنا أجمل الطّرائق.

ولمّا انتظرتُ أن يُسفر لي ذلك الدّيجور، وتستقرّ تلك الأمور، وأبطأ ذلك عليّ، ولم يعد من قِبَلك رسول إليّ، داخلتُ **عميد الدولة**[2] جاري في هذه الأنباء، وراوضته في علاج هذه الأدواء؛ وأنت ياسيّدي للمسلمين الحصن الحصين، والسّبب المتين، والنّصيح المأمون؛ فاجر في جمع كلمتهم، والمراماة دون حوزتهم..."

18 - رسالة [عن حبوس]؟ إلى[عبد العزيز] "ابن الناصر"[3] منبّهاً إلى خطر استعانته مع الموفق صاحب دانية بالنصارى ضد المظفر[4] [411 - 419][5]

"سيّدي وأعظم عُددي، بقِيتَ لمجد تؤسّسه، وحمدٍ تلبسه، كتبتُ- كتب الله لك، ما يفوت أملك-، عن نفس تعدّك أكرم نفائسها، فلا يساويك معظّم في هاجسها، وضمير صفا لك مَنهله، فلا أحدَ قبلك ينزله، وودٌ أحكمتُ لك عَقده، ونظمتُ بك عِقده، حقيقةٌ أدنِيَ نظرُها إليك، وخليقةٌ وقف سرُّها عليك، فطرْفُ اهتبالي إليك شاخص، وضمير إدلالي عليك خالص، والعهد الذي أنت لحُرماته لاحظ، ولأماناته حافظ يُنجد لساني في المقال، ويمدّ عناني في الاسترسال،

العامري أمير دانية، فهل يكون أبو المنذر هو صاحب لاردة التجيبي، وأبو الحسن عضد الدولة هو لبيب صاحب طرطوشة - أو العكس- لتكتمل المجموعة المتنازعة في المنطقة؟

[1] - ربّما حدث هذا بعد الهزيمة التي حدثت على منذر بن يحيى (408- 414) عندما تحرك بقواته ضد لبيب صاحب طرطوشة للاستيلاء عليها فاحتمى بمبارك صاحب بلنسية، فخرج هذا بقواته إلى منذر وهزمه هزيمة شنعاء (**أعمال الأعلام** 2/ 226) . ولما مات مبارك خضعت بلنسية للبيب ومجاهد ، لكن أهلها رفضوا لبيب لارتمائه في أحضاء أمير برشلونة رامون برنجير، فقرّر عامريّو بلنسية استدعاء عبد العزيز حفيد المنصور وبيعته (**البيان** 3/ 263 - 164؛ **دول الطوائف** 257؛ قارن مع المغرب 2/299- 300).

[2] - ذكر ابن خلدون لقب "عميد الدولة" لأبي القاسم زهير العامري صاحب ألمرية، وكذا القلقشندي (**العبر** 4/ 349؛ صبح الأعشى 244/5)، فهو ليس محمد بن عيسى أمير شلب كما ورد في هامش الرسالة في الذخيرة. وكان زهير صاحب ألمرية جاراً للأمير حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة

[3] - يظهر أنّ المقصود هنا أمير بلنسية المنصور عبد العزيز ابن عبد الرحمن (الحاجب الملقب بالناصر) ابن الحاجب المنصور، نصبه الفتيان العامريون على بلنسية إكراماً لجدّه سيّدهم المنصور ابن أبي عامر، فاستمر حكمه لها من سنة 411 إلى وفاته في ذي الحجة 452 ؛ ورد لقب الناصر والمأمون لأبيه الحاجب عبد الرحمن [شنجول] في **أعمال الأعلام** 90/2.

[4] - الرسالة من إنشاء البزلياني كما وردت في **الذّخيرة** ق1/ م2/ ص 639- 641. ولقب المظفر إشارة إلى يحيى بن منذر التجيبي صاحب سرقسطة.

[5] - عن هذا التاريخ راجع الهامش الثالث على الرسالة رقم 18 لاحقاً باعتبار الموضوع المشترك.

ويوفد إليك النّصح محضاً، ويورد عليك الصّدق فرضاً، موازرةٌ لا أرى التخلف عنها ديانةً، ومظاهرةٌ لا أعُدّ التّبرّي منها أمانة، وأخوك مَن صَدقك، وعدوُّك مَن مذقك[1].

واتّصل بي ما جزعتُ له من لزومك مع **الموفق أبي الجيش**[2] ومن تبعكما من مُعاقِديكما لمفاتنة **المظفر أبي محمد**[3] ومنازلته ومقارعته، واستجاشة كلّ حزب منكم بالنّصارى[4]، وطمعكم أن تمنعوا بهم ذماراً، وتقضُوا بإخراجهم أوطاراً، وتُدركوا بأيديهم أوتاراً؛ ولم يَخفَ عليك ما يُتسبَّب بالفتن، من البلوى والمحن، وما يُكتسَب فيها من الحوب، ويُحتقَب بها من الذّنوب، وما ينوب الظّالمَ والمنصفَ من معرّتها، ويصيب البريئ والنّطِفَ[5] من مضرّتها، وما يعمّ من بأسائها، ويطمّ من دهيائها، باخترام الرّجال، وإيتام الأطفال، وإرمال النّساء، وإحلال الدّماء، وانتهاب الأموال، واعتساف الأهوال، وإخلاء الأوطان، وجلاء السّكّان، وانقطاع السّبل، واتساع الخلل، هذا إذا كانت الدّعوة واحدة، والشّرعة معاضدة؛ فأمّا إذا انساق العدوّ إلينا، وتطرّق علينا، وضَرِيَ على أموال المسلمين ودمائهم، وجرُؤَ على قتل رجالهم وسبي نسائهم، وبانت له العورات، وتحققت عندهم الاختلافات، وأحدّوا رحاهم، واستمدّوا مَن وراهم، **لم يكن للمسلمين بهم بعدُ يدٌ، ولا عن إخلاء هذه الجزيرة بُدٌّ**، والله يحميها من الغِيَر، ويكفيها سوء القدر.

وإنّ أحقّ من لمّ شعْثَ المسلمين، وضمّ منتكثَ الدّين، مَن أيّد الله أوّلهم بأوّليه، ورقع خللهم بمساعيهم ومساعيه؛ وكانت وقائعه في المشركين مشهورة، وصنائعه بالكافرين مذكورة، ومن لا تُؤرَّخ الأيّام إلاّ بغزواته، ولا تحلّى الأيّام إلاّ بفعلاته، وأنت قاضبٌ من تلك القواضب، وثاقب من تلك الكواكِب، وغُرّة من تلك الأوضاع، وشعلة من ذلك المصباح، ومعلًى من تلك القداح، وعامل من تلك الرّماح؛ فحقيقٌ عليك أن تجريَ إلى غاياتهم، وتُعليَ راياتهم، وتحميَ ذكرهم، وتحييَ مجدهم؛ وقد علمتُ ألاّ عُدّةَ أعَدُّ، ولا نجدةَ أنجدُ، من توازر القلوب وتناصر العيون، وتضامن الأيادي، وتظاهر المساعي، فحينئذ يخشَن الجانب، ويَهنُ المُجانب، ويصحب الأبيّ، ويطيع العصيّ؛ ومن خلا من مصالح الأعوان، وضيّع الاستظهار بأحبّاء الإخوان، كان أجذم الرّماح، كِهامَ السلاح، مقصوص الجناح، خائب القداح، مفلولَ الحدّ، مُصلد الزّند؛ والمرءُ كثير بأخيه، والجناح

---

[1] - أي لم يخلص في ودّه

[2] - الموفّق هو لقب مجاهد العامري مؤسس إمارة دانية والجزر الشرقية (400- 436)، ومعاقدوه يظهر أنهم العامريون أمراء الشرق من طرطوشة شمالاً حتى ألمرية جنوباً

[3] - ورد عند ابن خلدون وصف يحيى بن منذر التجيبي (414- 420) بالمظفر، ولقب أبيه منذر هو المنصور وقد استقلّ بسرقسطة عند اندلاع الفتنة الطّائفية، بينما استقل سليمان ابن هود بتطيلة (**العبر** 4/ 351). وقد كان أمير سرقسطة في نزاع مع أمير بلنسية لمدّ النّفوذ على طرطوشة (**المتين** 130)، وكانت من ممتلكات العامريين مع بلنسية وشاطبة ودانية... حدث هذا التحالف المشار إليه قبل أن تصبح دانية في حالة عداء مع بلنسية. وقد اقترحنا وضع تاريخ الرسالة خلال مدة إمارة المظفّر يحيى بن منذر صاحب سرقسطة وابتداء من إمارة عبد العزيز صاحب بلنسية المكتوبة إليه.

[4] - يظهر أنّ المقصود نصارى إمارة برشلونة المجاورة لإمارة بلنسية.

[5] - النّطِف: الرجل المريب، أو المتّهم بريبة وفجور.

بقوادمه وخوافيه، والانفراد في الوطن غربة، والانقياد للآخر كربة، مع أنّ الغلبة بالتّغرير والإخطار، ليست من شيَم أولي البصائر والأبصار.

ومَن الذي دعاك ياسيّدي إلى فتنة تخوض غمارها، وتحمل أوزارها، ولا تغتبط بعقباها غالباً ولا مغلوباً، ولا تنتشط من بوساها حارباً ولا محروباً ؟ فإن كان وفاءً لمن عاهدتَ، وغَناءً عمّن عاقدت، فأدنى المساعي إلى النّجح، وأوْلى المَطالب بالكدح، وأبعدَ المذاهب من العيب والقدح، ما بُدئ بالمتاركة وخُتم بالصّلح، فالله تعالى يقول﴿والصّلح خير﴾[1]،﴿والفتنة أشدّ من القتل﴾[2]؛ والاتّفاق يا سيّدي أضمُّ للشّمل، وأوْصَلُ للحبل، وأحمدُ فاتحةً وخاتمةً، وأرضى بادئةً وعاقبةً، وأسلم دنيا وآخرة، ومعاذ الله أن تَزلَّ بك قدم، أو يَحِلّ بك ندم، أو تُزعجك إلى المجاهل لجاجة، وترهج لك في الباطل عجاجة..."

19- رسالة عن حبوس إلى صاحبي شاطبة[3] في محاولة صلحهما مع [المظفّر أمير سرقسطة التجيبي]منبّهاً إلى خطر الاستعانة بالنصارى[4] [411-419][5]

"كتبت يا سيّديَّ ومشاربُ الآمال قد تكدّرت، ووجوهُ المحاسن قد تغيّرت، وأيدي التّوازر قد قصُرت، وسبيل التناصر قد توعّرت، إلاّ أن يتلافى الله الخلل بتسديد نظركما، ويُنعشَ الأمل بحميد أثركما، فيَنظمَ الشّملَ، ويصلَ الحبل، ويسدَّ الثّلم، ويشدَّ الحزم، ويرقعَ المنخرق، ويجمعَ المفترق، ويضعَ الإصر، ويرفع الوزر، ويعيدَ الكلمة متّفقة، والأمّة متّسقة، والأيديَ متأيّدة، والنّفوسَ متودّدة، والأهواءَ متعاضدة، والأنحاءَ واحدة، والدّماءَ محقونة، والعاقبة مأمونة؛ والله تعالى يعين كلاًّ على الصّلاح، ويُفضي بنا إلى النّجاح، بعزّته.

واتّصل بي ما وقع بينكما وبين **المظفّر أبي محمد**[6] من التنازع، الذي أخاف أن يُفضيَ بكم إلى التّقاطع، وورد عليّ كتابكما الكريم في ذلك بما ترقّبت انصرام أجله، وتنظّرتُ انحسام

---

[1] - من الآية 127 من **سورة النـــــساء**

[2] - من الآية 190 من **سورة البـــــقرة**

[3] - بعد نهاية مبارك ومظفّر صاحبي شاطبة وبلنسية سنة 408 اشترك في حكمهما كل من **لبيب العامري صاحب طرطوشة ومجاهد العامري صاحب دانية** والجزر إلى أن ساءت العلاقة بينهما، فاستدعى العامريون ببلنسية سنة 411 عبد العزيز بن "الناصر" عبد الرحمن وبايعوه تقديراً لمولاهم جده الحاجب المنصور. فانسحب مجاهد إلى دانية؛ ويبدو أنه كان له مع عبد العزيز سيادة مشتركة على شاطبة أو كان مجاهد بمثابة نائب عن عبد العزيز فيها بحكم قربها من إمارة دانية. راجع **البيان** 3/ 158 – 164 ؛ **دول الطّوائف** 207- 210. والرسالة أعلاه إلى صاحبي شاطبة، وقد سبقتها رسالة إلى عبد العزيز صاحب بلنسية وأخرى إلى ابن منذر صاحب سرقسطة أي إلى الأطراف الرئيسية في النزاع في الثغر الشمالي الشرقي قصد إحداث صلح بينهم .

[4] - وردت الرسالة في **الذّخيرة** ق1/ م2/ 637- 639 من إنشاء البزلياني عن أمير غرناطة حبوس بن ماكسن، وهي في نفس موضوع سابقتها الموجّهة إلى الأمير عبد العزيز فيما يبدو.

[5] - افترضنا هذا التاريخ على أساس أن سنة 411 هي التي تولّى فيها عبد العزيز إمارة بلنسية، وسنة 419 هي التي توفي فيها خيران (الفتى الكبير) صاحب ألمرية الوارد ذكره في أواخر الرسالة.

[6] - المظفّر: قد يكون هو يحيى بن المنذر التجيبي أمير سرقسطة (414- 420)، الوارد ذكره في الرسالتين السابقتين وقد كان يطمع في ضم بلنسية، وكانت له علاقات "مودّة" مع أمير برشلونة وملكي نفارا وقشتالة بحيث يمكنه الاعتماد عليهم لتحقيق أهدافه، وهذا ما حذّر منه الأمير حبوس (عنان: **دول الطوائف** ص256- 257).

علله، حتّى خشِيتُ أن يتمادى بكم اللجاج، ويتعاصى في أموركم العلاج، وأشفقتُ من إدلال الشيطان بمَخاتله، وإطلال الخذلان بحبائله، فيَقرعَ الثكلانُ سنَّه من الندم، وينطوي الحَرّانُ على يده من ألم؛ وحالي يا سيّدي في الأخذ من أحوالكما بأوفر نصيب، والنزع في أموركما بأكبر ذنوب، حالُ من أعدّكما لحوادث الزمن، وكوارث المحن، واعتقدكما العدّة الكافية، والعصمة الواقية، فيما استسرّ وعلن، وظهر وبطن، فلم أر نفسي في سعة من إهمال التّذكرة، وإغفال التّبصرة، والله يعيذ الكلّ من الشّتات والشّمات، ويُعيدكم إلى المواساة والمواتاة.

ولم يخفَ عليكما ما في **صلاح ذات البين**، من الفوز بخير الدّارين، وأمن العباد، وخصب البلاد، وإعزاز الدّين، وإذلال القاسطين، وتوهين المشركين، وقوّة العضد، ووفور العدد، ودعة الأجسام، والرّعة عن الآثام، وستر العورات، وحفظ الحرمات، والانتهاء إلى حدود الله والازدجار بزجره، والتأدّب بأدبه، والانتمار بأمره، فإنه يقول عزّ من قائل: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينِكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مومنين﴾[1]، وقال ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا﴾[2]، وقال ﷺ "لا تَقاطعوا ولا تَحاسَدوا ولا تَدابَروا وكونوا عباد الله إخوانا، وعلى طاعته أعوانا"؛ وقد علمتم أنّه لم يَهلك مَن هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية إلاّ بتقاطعهم وتحاسدهم، وتدابُرهم وتخاذلهم، وأنّ اللّجاج مطيّة الجهل، والهوى آفة العقل، والحميّة من أسباب الجاهلية، والعصبية من العنجهيّة، والحرب مشتقة المعنى من الحَرَب[3]، مع ظنك المتغلب وكأنّه المنغلب؛ توتم الأطفال، وتلتهم الرجال، سوق لا يُنفق حاضروها غير النّفوس والأرواح، وشرب يتعاطون المنايا بظبا السّيوف وأطراف الرّماح، مصروعهم داثر، وصارعهم خاسر، وماضيهم نادم، وباقيهم واجم.

والذي يحملون من أوزارهم وأوزار مع أوزارهم، ويحتقبون من آصارهم، **تسليطُ النّصارى على المسلمين** وعيثهم في بلادهم يقتلون ويأسرون، فالأموال مستهلكة، والحرمات منتهكة، والدّماء مُهراقة، والنساء مستاقة، وعقد الدّين مفسوخ، وعهد الإسلام منسوخ، والكفر عالٍ على الإيمان، والسّوء غالب على الإحسان؛ فقد بلغني **أنّ مذهبكم الاستجاشةُ بالنّصارى إلى بلاد المسلمين**، يطأون ديارهم، ويعقون آثارهم، ويجتاحون أموالهم، ويسفكون دماءهم، ويستعبدون أبناءهم، ويستخدمون نساءهم؛ وإن نفذ هذا – وأعوذ بالله - فهي حالٌ مؤذنة بالذّهاب، وجريرة تؤذن بالخراب، **ولم نأمن أن يظهر لهم من الخلل في بلادنا**، والقلة في أعدادنا، **ما يجرّئهم علينا**، ويجرّهم إلينا، بما لا نقدر على مكاثرتهم فيه، ولا نقوَى على مصابرتهم به، فتلك الوقعة التي لا ينتعش عثورها، والقارعة التي لا ينجبر كسيرها.

[1] - من الآية الأولى من **سورة الأنفال**
[2] - من الآية 103 من **سورة آل عمران**
[3] - الحَرَب : الهلاك

ولم أجد ياسيديَّ وُعدّتيَّ دواءً أنجع، ولا سعياً أنفع، من صلة يدي بيد **الفتى الكبير** فلان[1] في توسّطه هذه الأحوال بينكم، والتأتّي لإصلاح ما فسد منها عليكم، ولم نُلفِ سبباً إلى كشف هذه الغايات، وفتح هذه المبهمات، أقوى في النّجاح، وأهدى إلى الصّلاح، من بعث أعلام بلدنا ووجوه رجالنا..."[2]

20 - جواب من وزير بلنسية التاكرّني إلى وزير ألمرية ابن عباس

[حول موضوع التعاون أو التهديد بالتعاون مع البرشلونيين][3] [411 - 419][4]

"...[5] ورد كتاب كريم لك قد ضُمِّن من الآداب عيوناً، واستُودع من الإغراب فنوناً، فوقفتُ منه على ترجيم الظّنون، وفي حيرة بين الشّكّ واليقين، وقلت: هذه بدَع المتظرّفين، ونُكت المتفلسفين، طوراً إيماءٌ وتلويح، وطوراً إفصاح وتصريح؛ وكلما نظرتُ فيه، وفكّرت في معانيه، استنكرَ مع العِرفان، واستعجمَ على نهاية البيان، فقلت: لا غروَ قد ينكّر اللّيث في قراره، ويُعرَف الهلال في سِراره، ولا بدّ مع البحث أن أصيب غرضاً، أو أكون دونه حرَضاً؛ فلمّا غُصتُ في بحارك، وأمضيتُ فكرتي في مضمارك، وقع السّهم في غرضه، ولاح الحقّ في معرضه، وبدا لي أنّ ما خاطبتُك به لم يوافق قبولاً، ولا كان على الصّدق محمولاً، وليس الكذب من شيمي، ولا المذق- بحمد الله - من كلمي، وبالله ما خاطبتك إلاّ شحّاً، ولا أسمعتك إلاّ نصحاً، فمُنيتُ من قبولك بسوق كاسدة، ومِن قِبلك بـ"ربَّ صلف تحت الرّاعدة"[6]؛ وكلاّ واللهِ ما رعدت لنا سماء، ولا تكدّرَ لنا ماء، ولا قصدتُ بخطابي مقصِدَ التّهديد، فالصّدقُ يُنبي عنك لا الوعيد، بل خاطبتك بقلب سليم، وثبتُّ لك على عهد كريم...[7]

---

[1] - الفتى الكبير هو خيران العامري صاحب ألمرية ومرسية، الذي كان يعتبر منذ عهد المنصور الحاجب كبير الفتيان العامريّين. قد تكون هذه الصلة هي السبب في المراسلتين اللاحقتين اللتين تكفّل بهما وزيرا بلنسية وغرناطة نيابة عن أميريهما.

[2] - الرسالة في الذخيرة مبتورة الآخر وربّما الأول أيضاً.

[3] - الرسالة هي مراجعة ثانية من إنشاء الكاتب أبي عامر التاكرّني وزير إمارة بلنسية إلى الكاتب أبي جعفر بن عباس وزير إمارة ألمرية ومرسية كما وردت في **الذخيرة** 3/1/ 236- 239؛ وقد سبقتها رسالة من أبي عامر وجواب عليها من أبي جعفر، فيهما عتاب من الطرفين ونصائح بعدم تصديق المرجفين، يليها جواب آخر من أبي جعفر كما سيأتي في المتن (انظر المصدر المذكور بدءً من ص 229)، وكان أمير بلنسية في هذا الوقت هو المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن أبي عامر (411- 452)، وأمير ألمرية ومرسية هو خيران العامري (403-419) ، وكان هذان يدينان بولاء رمزي لأمير بلنسية. راجع ترجمة التاكرني أبي عامر محمد بن سعيد في: **الذخيرة** ص226 - 227 قبل الرسالة؛ **جذوة الاقتباس** ص 56؛ **بغية الملتمس** ص69 ؛ **المغرب** 1/ 332 ؛ وأشار إليه ابن الخطيب في **أعمال الأعلام** 2/ 225

[4] - جعلنا تاريخ الرسالة ابتداء من سنة 411 التي تولّى المنصور فيها حكم بلنسية، ويظهر أنّ الرسالة أعلاه والتي تليها مرتبطتان بما أشار إليه حبوس في الرسالة السابقة من سعيه مع خيران (الفتى الكبير) في إصلاح ما بين أمراء الثغر الأعلى خاصة وأنه عامريّ مثلهم ومرتبط بولاء رمزي بالأمير عبد العزيز صاحب بلنسية، راجع الهامش الثالث على السالة السابقة.

[5] - الرسالة مبتورة البداية حسب إشارة في بداية الجواب عليها الآتي بعد هذه: التصدير - أعزّك الله- بـ : "كِتابي" و "كتبت..."

[6] - مثل يُضرب لمن يتوعّد ثم لا يقوم به، أو للبخيل المتموّل او للمكثر مدح نفسه ولا خير عنده (**القاموس المحيط**، مادة: صلف)

[7] - في الذخيرة (وفي فصل منها)

ومن العجب قولك: اقدَحْ لي أُضِيءْ لك" ولقد قدحنا لكم فأظلمتم، وحفظنا ذمامكم فضيّعتم، ووصلنا فهجرتم، وقرُبنا منكم فبعُدتم، ورُبَّ رسالةٍ أنشأناها رغبة فرغِبتم عنها، ورسولٍ ملطفٍ قصَد جهتكم طار بجناح الخزي منها، بعد الترقيب عليه، وإظهار التثاقل إليه، ونحن على ذلك نفتل في الغارب والذّروة، ونزداد وصلاً على الجفوة، ونلين على القسوة، ونصبر للأذى، ونُغمض على القذى، إن عاتبناكم لم تُقلعوا، وإن استعتبناكم لم تَرجعوا، بل تركبون الهياج، وتَلزَمون اللّجاج.

ومِن أغربِ ما به احتججتم، وأعجبِ ما به لهجتم، تكرُّرُ فلانٍ علينا، وتردُّدُه لدينا، كأنّكم جهلتم القوم وأطماعَهم، ولم تعلموا تطرُّقهم وانتجاعَهم، وأنّهم يتعلّلون بأدنى سبب في المراسلة، امتراءً لأخلاف العطاء، وذريعة لاستجزال الحِباء، وقد شُهِرَ هذا من فعلهم، **في كلّ جهة تكون من سلمهم**[1]؛ فما بالنا نُخَصّ بهذه اللائمة وجنايتُها عليكم[2]؟ والإنصاف يقلب مَذمّتَها عليكم، ألم تُسلموا مَن كان بكم مشتدّاً بعد العهود المؤكّدة، والمواثيق المشدّدة؟ **فاحتلّ العدوّ - قصمه الله - جهة لم تخطر ببالـه**، واستُصرِختم فلم تُصرخوا، واستُنجدتم فلم تُنجِدوا، والنّعم تُنتَسَف، والسّتور تنكشف، والدّماء تُسفك، والحُرَم تُنتَهَك، والإسلام يعلز عَلَزَ[3] المحتضر، وأهله للشّرك كالهشيم المحتظر، فلا حرمة الإسلام رعَيتم، ولا ذمامَ المشاركة قضيتم؛ فلِمَ تعُدّون ذلك من ذنوبنا، وتبثّون بذلك رسلكم في البلاد، وتُنادُون: هلمّ إلى الجهاد، تقولون بأفواهكم ما ليس في قلوبكم[4]، والله يعلم ما تكتمون، بل تدبّون الضّراء، وتُسرّون حسواً في ارتغاء[5]، كلّ ذلك بمرأى ومسمع منّا، وغيرُ غائب عنّا، ولا نزداد مع حركتكم إلاّ سكوناً، ومع تخشّنكم إلاّ لِيناً، فأبقُوا على الودّ ما دام بوفائه، وصونوا جمال الحال ما بقي بمائه:

ولا توبسوا بيني وبينكم الثّرى == فإنّ الذي بيني وبينكم مثري

والعدوّ الّذي حذرتم نحن أشدّ حذراً منه، وأعظم نِفاراً عنه، فقد صحّ عندنا من أمره، ما يضيق الصّدر بحمله، فيا للمسلمين، تعالوا إلى التعاون، واتّفقوا ولا تتفرّقوا، واتّقوا عاقبة الخذلان.

وقد ناديتُ إن أسمعتُ، ونصحتُ بقدر ما استطعت، فإن وافقتُ قبولاً، ولقيتُ تأويلاً جميلاً، فإنّ الخير عتيد، والتّناولَ غيرُ بعيد، وإن كان للهوى سلطان، وللتّعسّف عدوان، فأخْلِقْ بلأمَة العزم أن يتدرّعها مُدركٌ لا يُضام، ومِحرَبٌ لا ينام، يقتحم النّار، ولا يخشى العار، في يوم لا تطلع شمسه، ولا يُذكَر أمسُه:

تبدو كواكبه والشّمس طالعة == لا النّور نورٌ ولا الإظلام إظلامُ

---

[1] - يقصد هنا إمارة برشلونة القريبة من بلنسية (ربّما قبل وصول نفوذ سرقسطة إلى البحر)

[2] - لعله يقصد تشجيع العامريين الحاكمين سابقاً في بلنسية قبل الأمير عبد العزيز (أي مظفّر ومبارك ولبيب) على التعامل مع البرشلونيين.

[3] - يعلز: أي تأخذه كربة الموت

[4] - اقتباس من الآية 11 من **سورة الفتح**.

[5] - مثل عربي يعني التظاهر بغير الحقيقة

وحينئذ تستغرب ما إليه أشرت، وتستسهل ما منه حذّرت، من استعمال **العقّير**[1] **البرشلوني** على ما نهجت الحكماء عند إعضال الدّاء[2]، من استعمال السّموم في أثناء الدّواء، ليتّفق مزاجُها، ويَنفذ علاجُها، فإنْ كان ما يحاولونه من التّدبير، سبباً لذلك العِقّير، فهو قريب عتيد، وإن كنتم على ما عهدنا فهو من جهتنا نازح بعيد، وهذه جملة مفصّلة، وحقيقة محصّلة، فإمّا ألفة وانتظام، واتّفاق يُحيي رمق الإسلام، وإمّا داعيةُ تَلَف، وراعدةُ صلف، وهنالك تزلّ القدم، ولا ينفع النّدم ..."

21 - جواب ابن عباس وزير ألمرية على رسالة التاكرّني وزير بلنسية بشأن [موضوع الاستعانة بالنصارى][3] [411- 419][4]

"التّصدير - أعزّك الله - بـ"كتابي" و "كتبت" وتوشيحهما بـ "كان" و "كنت" بشْرٌ يَرفّ على صفحة التّملّق زبرجُه، وسراب يحسبه الظمآن ماءً[5] فيستدرجه؛

ولا يغررْك ذو ملَق وبشر == يقول وليس يعدو أن يُقالا

فتحتَ رغوةِ التّصنّع لبنٌ صريح، وعلى أديم التحقيق شعارٌ سليم [صحيح][6]، وبين أثناء المناقلة جدٌّ كالقدَر ينزل بكرةً وأصيلاً، وفي تضاعيف المساجلة هزْلٌ كالنّسيم الخَصِر[7] يُهدي الشّفاءَ قليلاً قليلاً؛ وفي استرسال الصّديق سلوةٌ بالغة، وجنّات عتابه حُلوة سائغة، وإن أنحَيتَ فيه على خشن مِبرد، وأرجتْ شمائلك التي هي جامدُ البرَد، ودبَّ بشرُك منه بنفس متدارك، وأثرْتَ عنه بعيرَ الكلِم وهو بارك، وساورتْني ضئيلةُ بيانك، وألقيتُ السَّلَمَ إلى سلاطة لسانك، وبرئتُ إليك من عهدة قِصري عن ساحة طُولك وعَرْضك، وشهدتُ لك تطامُن سمائي عن قرارة أرضك:

فما حسَنٌ أن يمدح المرء نفسه == ولكنّ أخلاقاً تُذَمُّ وتُمدَح

وكلُّ ذلك لأشُقَّ كمامة صبري لك عن زهرة كلفي بك، وأتدرَّعَ مُفاضة الاحتمال منك جُنّةً بيني وبين الشّماتة فيك؛ هذا- أعزّك الله - حكمُ الصّداقة التي وضعتَ يدَك على رُمّتها، وخلعت نِجاد هواك على قمّتها، فإن أسمحَ قيادُك، وأنِسَ شِرادك، وأجريتَ في

---

[1] - العِقّير، مبالغة للعقّار: وهو ما يُتداوى به، والمعنى هنا رمزي.

[2] - هذا جواب على ما في رسالة أبي عامر التكرّني لقوله بعد إشارته إلى كثرة المرجفين بالأخبار :" وجملة الحال وتفصيلها ذلك العقّير البرشلوني مستراب، والتّداوي به داء عَياء، ولو صرفتَ عنايتك إلى سدّ ذلك الثّغر والبراءة منه لأخرستَ ألسنةَ المُرجِفين... وأنّى لك بتكذيب ما شاع، وتزوير ما استذاع؟ ... وليس يخفى عليك نصحي... فاقدحْ لي أضئْ لك، وكن مثلي أكن مثلك... "واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة..." (**الذخيرة** ص 235- 236) ، فراجعة أبو عامر بالرسالة أعلاه.

3 - ورد هذا الجواب في **الذخيرة** بعد نص الرسالة السابقة أي في ق3/ م1/ ص239- 244.

4 - نقترح نفس تاريخ الرسائل السابقة حول موضوع النزاع بين أمراء الثغر الأعلى والاستعانة بالنصارى ضدّ بعضهم البعض.

5 - اقتباس من الآية 38 من **سورة النور**

6 - أضفنا هذه الكلمة لتناسب السجع ظنّاً منّا أنها قد تكون مبتورة.

7 - الخصِر (بالتحريك): البرد (**القاموس** المحيط).

روح الإخاء نفسا، وجررتَ على أديم الوفاء يداً مَلسا، فبجميل ذكرك أبدأ وأختم، وفي حيّز رضاك أطير وأجثم.

وأمّا **قعقعتُك** - أباعامر - بشنان الشّرك، واعتصامُك بغير حبل الله، **وإزعاجك بكتائب الرّوم**[1]، وإبراقُك بالإجلاب على ملّة التّوحيد، وإيعادك بمدرك لا يُضام يدّرع لأمَة العزم، ومِحربٍ لا ينام يقتحم النّار، ولا يجتنب العار، فاتّق الله يَحمِك، أليس اللهُ بالمرصاد، أم اتّخذتَ على الغيب حميلاً، وأتيتَ على الحجيج ظهيراً، وكفاك بهذا البيان سحراً في باب الجدل، وحسبُك به فخراً على من تقدّمَ وتأخّر؛ وأمّا التّخويف من اقتراب الساعة **بزلزلة الإفرنج** نَفعة، ونتْق الجبل فوق رؤوسنا كأنّه ظلّة، فنازلة تحرّك لها حُوارَ الإيمان[2] فيَحِنّ، وطامّة كبرى يعجّ لها الإسلام ويضِجّ، فبعضهم أولى ببعض، ﴿ومن يتولهم منكم فإنّه منهم﴾[3] بحكم النّص؛ فدعْ ضربَ مثَل السّوْء لنا، وعُد إلى ما هو أليَقُ بكم وبنا، فعلى الإنصاف من نفسه أدلة واضحة، وعلى الحقّ بين المنصفين سبيل لانحة، واذكرْ شؤون أحوالنا الأوّل، ورفرفْ بخوافي الرّجاء وقوادمه على أيّامنا القدم،

وقلْ لخيال الحنظلية ينصرفْ == إليها فإنّي واصلٌ حبلَ مَن وَصلْ

فلا أعرفنّي إن نشدتكَ ذمّتي == كداعي هديل لا يُجاب ولا يـمَلْ

فأمّا - **أبا عامر**- وقد نحتَّ أثلة الشّكّ لتستيقن، وقرعتَ مرْوَةَ الحديث لتستثبت، فلأصدُقنّك سِنّ بَكري استنامةً إلى صدقك، ولأطلِعنّك على مثل ما أطلعتَ من غيبك، وأقولُ لك قول مَن زفّ إليك ودّه براحة ثقته، وأنبأك ما عنده بلسان صداقته، وقد تُغْدي الصّحاحَ مَبارِكُ الجُرْب، ويغفر الله ظنوننا فبعضها إثم، وفي هذين المثلين كيفية بدء الحال وعَودِها، وجماع ما يعبَّر به عن حَورها وكَوْرها، وتحت جملتها تفصيل طويل، وتفسير كثير، بعيدٌ مَرامُه عليك قريب؛

فنَجيُّ الفؤادِ يَعلمه العا == قل قبل السّماع بالإيماء

ولهذا اكتفى البليغ من الإسـهاب فيما يريدُ بالإيحاء

غير أنّ الكتائف ترفضّ عند المُحفِظات[4]، والعجلة تُترَك تبرّكاً بالأناة، وإذا استكففتَ حاجب أفقنا بيد رفقك، وأوْمأتَ إلى جوّنا برجع طرْفك، أدرتَ دراري الوداد في مناطق أفلاكها، وتركت أعلام الوفاء ثابتة على آساسها، وجلوتَ أعراس الإخاء في أحسن مَعارضها؛ فما لنا لا نُقِرّ الطّير على وُكُناتها، وننكّب على الأفاعي العزمَ فلا نطؤها في

---

[1] - هذه إشارة لم ترد فيما بقي من الرسالة المجاوب عنها، أي أنها وردت في الفقرات المبتورة منها.

[2] - الحوار: ولد النّاقة؛ من المثل: حرّك لها حوارها تحنّ.

[3] - **المائد ة من الآية** 53 من **سورة المـــائدة**

[4] - المعنى: تتحلّل الأحقاد عند حلول الأمور التي تستدعي الغضب

مراصدها، ونجانب عن بنت الطريق إلى أمّها[1]، ونسري سُرَى النّجوم على سمْتها، ونعود إلى التي هي أعدلُ سَنناً، قبل أن يسبقَ السّيف العذل سَفهاً:

فإنّ النّار بالعودَين تُذكى == وإنّ الحربَ مبدأها الكلام

فلنحمِ ثغرَ اليقين بجهاد الشّكّ فيه، ونسدّ ثنايا النّفاق على منقفيه، حتّى ييأس أهل هذه البضاعة عن مساعي نمائمهم، ولا يجدوا مَحَزّاً لشفارهم، وكلّ ذنب دون الدّمّ لمَمٌ، والسّهم لنا ما لم يُنبَض الوتر، وإن حلبنا لم نردّ في الضّرع اللبن؛ ولولا هِناتٌ سلّ العِتاب بيننا سخائمها، وألانَ تعاطينا النّصفة شكائمَها، لاختالت المنافرة ببهجتها وازّينت، ودارت رحى الفتنة في قطبها على ما خَيّلت؛ وإنّي وإن تقلّدت بك الخطاب عن نفسي، فتحتُها كناية إليها أشير برمزي[2]، ومركزٌ حواليه أُدير معاني لفظي، ولم أتيمّم صعيد هذه الغيطان فتمسّحتُ بترْبه، ولا انخرطتُ في سلك الانطباع ففصلت بين دُرّه بشذره، إلاّ وقد وُلّيتُ فصْلَ الخطاب والحكومة بإجماع، ورضينا بما لنا وما علينا في القضيّة دون ثان، ووُضعتْ واسطةُ القلادة لتعدّل، ويكفي منها ما أحاط بالعنق، فاذكر المثلَ فهو لفظ يجمع بين معنيين، وجنس يشتمل على نوعين، أشير لك إليهما بقول الأول:

خليليَّ إنسانان دَيني عليهما == مليّان لو شاءا لقد قضياني

خليليّ أما أمّ عمرو علمتُها == وأمّا عن الأخرى فلا تسلاني

وحقٌّ هذه النّكت الكامنة في ضمير القوّة، أن تخرج إلى حدّ الفعل بمرّة، ولا تُلوَى فتتراخى كأول وهلة، فيُحتاج في المستأنَف إلى عمل، ويعيد القضية جذعة من ذي قبل؛ **والله تعالى يمسك رمق الإسلام في هذه البقعة**، ويُقيل عثرته بإلهام أهله إلى ما هم عنه في غمرة..."

22 - تقديم عن إدريس العالي بالله الحمّودي لأبي عبد الله محمد بن الحسن الجذامي على قضاء مالقة[3] (11ربيع1/445)

[بسم الله الرحمن الرحيم]

هذا كتاب أمر به وأنفذه، وأمضاه من عهده وأحكمه، الإمام أمير المسلمين عبد الله **العالي بالله**، **الظّافر** بحول الله، **إدريس** بن المعتلي بالله - أعلى الله أمره، وأعزّ نصره- للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن - وفقه الله – قلّده به القضاء بين المسلمين بمدينة مالقة - حرسها الله- وأعمالها.[4]

---

[1] - بنات الطريق أي الطرق الثانوية القليلة العبور عكس أمّهات الطرق أي الرئيسية التي تعرَف أيضاً بالجادّة

[2] - هل في هذا تلميح إلى كون رأيه هذا يتّفق مع رأي أميره ؟

[3] - جاء الظهير في المرقبة (ص91) نقلا عن ابن عسكر، وضمن ترجمة محمد بن الحسن الجذامي المذكور ، وان الظهير يبدا بالبسملة وعليه توقيع العالي بخط يده، نصّه: "ينفذ هذا ويُعمل عليه والسسه الموفّق وهو المستعان". (لم نجد هذه الترجمة فيما منشور من كتاب ابن عسكر وابن خميس)

[4] - اكتفى صاحب المرقبة بهذا معلّقاً على كونه "كتاب كبير في رقّ ، وتاريخه في إحدى عشر ليلة من ربيع الأول سنة 445 (كذا بالأرقام)

23- ظهير عن بلكين بن باديس (وليّ العهد) حاكم مالقة وجيان بتثبيت وزير أبيه وقاضيه أبي عبد الله الجذامي في منصبيه[1] (1رمضان448)

[بسم الله الرحمن الرحيم][2]

"هذا ما التزمه واعتقد العمل [والوفاء] به بُلقين بن باديس للوزير القاضي **أبي عبد الله [محمد] بن الحسن (الجذامي)**[3] سلمه الله، [و]اعتقد به إقراره على خطّة القضاء والوزارة في جميع كورة [ريّه][4]، وأن يُجرَى من الترفيع [به] والإكرام له إلى أقصى غاية، وأن يُحمَل على الجراية[5] في جميع أملاكه بكورة ريّه المذكورة[6] حاضرتها وباديتها، الموروثة منها والمكتسبة، القديمة الاكتساب والحديثة، وما ابتاع منها من **العالي**[7] رحمه الله وغيره، لا يلزمها وظيف بوجه، ولا يكلّف عنها كلفة على (كلّ) حال، وأن يُجرَى في قرابته وخوَله وحاشيته وعامري ضِيَاعِه على المحافظة والبرّ والحرّيّة، وأقسم على ذلك كلّه بلقين بن باديس بالله العظيم والقرآن الحكيم، وأشهدَ الله على نفسه وعلى التزامه له، وكفى بالله شهيداً.

وكُتب بخط يده [في] مستهلّ شهر رمضان (العظيم) سنة ثمان وأربعين وأربعمائة[8]، والله المستعان"

24 - [عتاب] عن المنصور أمير بلنسية إلى الموفق مجاهد العامري أمير دانية[9] [411 - 436][10]

"... إنّ أوْلى النّاس بالإصطلاح نفوسٌ جُبلت على صفو ودادها، وأحقَّ الذّنوب بالاطّراح ذنوبٌ جُنِيَت[1] على غير اعتقادها؛ وإنّ رسولك الكريم وردني[2] فلم يتردّد

---

[1] - ورد الظّهير في **الإحاطة** 1/ 433 ؛ **والمرقبة العليا** ص91- 92؛ بخطّ بلكّين بن باديس (الملقب بسيف الدّولة). قال ابن عسكر: كان الحاجب المظفر باديس... صاحب غرناطةيدعو للعلويين الذين بمالقة...فلمّا توفي إدريس بن يحيى العالي طمع في مالقةفنزلها بجيشه وكانت بها فتنة، ثم دخلها يوم الثلاثاء منسلخ ربيع الآخر سنة 448 فملكها وقدّم القاضي ابن الحسن الجذامي... للقضاء والوزارةعلى ما كان أيام العالي" وعندما تخلّى باديس عن مالقة لوليّ عهده أوصاه بالقاضي فكتب له : "هذا ما التزمه واعتقد العمل به...." وعند موت ولي العهد سنة 456 نقل باديس القاضي إلى قضاء غرناطة.

[2] - ما بين معقوفين [.....] ناقص في الإحلطة

[3] - ما بين هلالين (...) ناقص في المرقبة والمذكور هو أبو عبد الله محمد بن الحسن الجذامي، وقد ولاه قضاء مالقة الأمير الحمودي العالي بالله إدريس بن المعتلي بتاريخ 11 ربع الأول 445 (الرسالة السابقة وهي في المرقبة العليا ص 91)

[4] - في الإحاطة : خطة الوزارة والقضاء في جميع كوره

[5] - كذا في الإحاطة ؛ وفي المرقبة: وأن يجري على الجزية

[6] - في الإحاطة: بالكور المذكورة

[7] - هو خليفة المناطق الجنوبية من بني حمّود: إدريس بن يحيى وقد حكم غرناطة وقرمونة ولقب بالعالي، خلع سنة 438 بعد أربع سنين من حكمه.

[8] - في المرقبة العليا بالأرقام المشرقية 449 ؛ كان هذا التقديم بعد أن اصبحت مالقة جزء من مملكة غرناطة

[9] - الرسالة من إنشاء أبي عامر بن التاكرّني كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 227، وقدم لها ابن بسّام بما يلي: "فصل له من رقعة عن المنصور إلى مجاهد الموفّق وقد أظلم بينهما الأفق". راجع التقديم المشترك للرسائل السابقة عن العامريين. وورد المقطع أعلاه عند ابن سعيد: **المغرب** 1/ 332؛ انظر ترجمة لمجاهد في **جذوة المقتبس** ص 331- 332.

[10] - السنة الأولى هي بداية إمارة المنصور (411- 452) والسنة الثانية هي نهاية عهد الموفّق (400 - 436).

عندي إلاّ ريثما يَقدَح زَندَ الوداد في نفسك النفيسة، ولم يُبدِ من إشارتك الرفيعة، سوى برق أسريَ به في ظلماء القطيعة[3]..."

25 - دعـوة من [سليمان] ابن هـود إلى الموفق صاحب دانية لتجاوز النزاع بينه وبين المنصور أمير بلنسية[4] [431 - 436][5]

"... نحن وإن قصّرنا بالمخاطبة، وأغببنا بالمكاتبة، **محافظون على العهد القديم،** معترفون بالحقّ الكريم، معتقدون للفضل العميم، شاكرون لله تعالى على الهبة السّنيّة فيك، والنّعمة بك؛ إلاّ أنّه كدّر نعمتنا، وصفوَ المعيشة عندنا، وأقلق دعة النّفوس، وشرّد وسَنَ العيون، ما تردُ به الأنباء من **الوحشة الواقعة بينك وبين المنصور**[6]- أيّدكما الله- ممّا لو يستطيع الفداءَ له بكلّ عِلقٍ غالٍ، ومعالجة الْتِيائه بكلّ نفيس عالٍ، لما تأخّر عن ذلك أحدٌ، ولا قرّ على غيره خَلَدٌ، رغبة في الألفة بينكما، وحرصاً على تمام النّعمة للمسلمين فيكما، فأنتما فئة الإسلام، وعُمدة الأنام، ومتى اضطرب لكما حبلٌ، وانصرم منكما وصْلٌ، فشمْلُ الكلّ شتيت، ووصْلُ الجميع مبتوت.

فاللهَ اللهَ في الدّين أن يَألمَ بكما، والحرمةِ أن تذهب بينكما، فالعيون في الصّلاح إنّما كان سموّها إليكما، فما ظنُّكما بالمسلمين وقد أصيبوا في مستقرّ آمالهم، وجدّت الاستحالة حيث كان الرّجاء في صلاح أحوالهم..."

26 - رسالة أخرى عن [سليمان] ابن هـود إلى الموفق[في نجاح مسعى الصلح المذكور قبل][7] [431 -436][8]

"... مَن استضاء بسراج رأيك المسدّد، واستنجح بيمك سعدك المؤيّد، واستظهر بنافذ عزمك، وتكثّرَ ببالغ حزمك، واعتضد بخالص إخائك، وأسندَ إلى صدق وفائك، كان قميناً

---

[1] - كذا في الذخيرة؛ وفي المغرب: بنيت

[2] - في المغرب: وردِ

[3] - في **الذخيرة**: ".. النفيسة، فيوري سراجاً من الصّلة أسري به في ظلماء القطيعة..." وقد استعملنا في المتن ما في المغرب لتناسق السجع.

[4] - الرسالة من إنشاء أبي عمرو بن القلاّس كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 419- 420) كتبها عن المستعين سليمان ابن هود (431 - 438) إلى أبي الجيش الموفق مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (400 - 436) في دعوة لتجاوز نزاع هذا الأخير مع صاجب بلنسية المنصور عبد العزيز حفيد المنصور ابن أبي عامر (411- 452). راجع ترجمة ابن القلاس في **الذخيرة** ص 418- 419 (قبل نص الرسالة)، **والمغرب** 1/ 363؛ **ونفح الطيب** 1/ 186 (في قراءة اسمه خطأ حيث قُلب حرق القاف إلى فاء)، وجعله المقري من أهل بطليوس.

[5] - السنة الأولى هي بداية حكم المستعين ابن هود صاحب سرقسطة المكتوب عنه، والثانية تاريخ وفاة الموفق مجاهد العامري المشار إليه في الرسالة، وبهذا ينحصر تاريخها بين السنتين المذكورتين، وقدم لها ابن بسّام بالعبارة الآتية: "فصل له من رقعة عن ابن هود إلى مجاهد أبي الجيش الموفّق".

[6] - سبقت الإشارة إلى الصراع بين الموفق والمنصور لأجل توسيع نفوذ كل منهما على حساب الأخر، وهو ما أدّى إلى المواجهة العسكرية بينهما حوالي سنة 430 حينما انشغل المنصور بمسألة موت زهير صاحب ألمرية، واستمرّ التوتر بين الطّرفين بعد ذلك.

[7] - الرسالة من إنشاء ابن القلاّس كما وردت في **الذخيرة** 3/1/ 420- 421)

[8] - السنة الأولى هي بداية حكم المستعين ابن هود مؤسس الإمارة، والسنة الثانية هي تاريخ وفاة الموفق أمير دانية.

أن تنجاب عنه ظُلَم المشكلات، وتنفرجَ له قُحَم المعضلات، وتستقلَّ به مراكب النّجاح، وتتطلّع إليه عواقب الصّلاح، ويذلَّ له الصّعبُ الجامح، ويسهُلَ عليه الخطْبُ الفادح؛ فإنّك - والله يبقيك - الميمونُ النّقيبة، الكريم الضّريبة، السّعيد الجدّ، المحمود العهد، الذي إن اقتدح زنداً أورَى، وإن اعتمد حدّاً فرى ، وإن وَدّ صدَق وحقّق....[1]

وإنّي منذ استنجحتُ فيما كنتُ أحاوله من ذلك الأمر ببركة سفارتك، واستظهرتُ عليه بسعادة وساطتك، وضربت مستصعبه بحدّ موازرتك، واقتدْتُ ممتنِعَه بقوة مظاهرتك، لم أزل أشيمُ تباشير النُّجح لائحة، وأتبيّن مَخايل الفَلَج[2] واضحة، وأجد شدّةَ قيادةٍ تَلين، وعِزَّ إبايةٍ يَهون، إلى أن تأتّى بحول الله الأملُ، وأنجح العمل، وأصحبَ ما كان أبيّاً، وقرُب ما كان قصيّاً؛ وكان **للوزير الكاتب أبي فلان** في ذلك المنابُ الحميد، والسّعيُ الوكيد، الذي سهّل به الحَزْنَ وقرّب البعيد؛ وكذا يكون مَن ثقفه تأديبُك، وأقام أوَدَه تهذيبُك، إذا سفَر أصلح، وإذا سعى أنجَح، وهذه الحالُ لك أولُها وآخرُها، وباطنُها وظاهرُها، فبك اتّضح منهاجُها، وأضاء سراجُها، وبسعيك انفسحت سبُلُها، وتأتّى مؤمَّلُها، وارتفعت أعلامُها، وتهيّأ تمامُها، وأنت المسدّي لها والمُلحِم، والعاقدُ لأسبابها المُبرم..."

27 - رسالة أخرى في نفس الموضوع؟ وذكر عودة [سفير الصلح] بعد نجاح مسعاه[3] [431 - 436؟][4]

"... إنّ أحقّ الأخبار، بالتحدّث عنها والإخبار، وأوْلاها بأن تثيرها ألسنة التّهادي والتناقل، وتنشرَها أيدي التّكاتب والتّراسل، خبرٌ أعربَ عن نعمةٍ تعمّ المسلمين، ومنّةٍ ينظم نفعُها الدّنيا والدّين، وأبان عن مسرّة وقعت والآمالُ دون نيلها واقعة، **وبشرى طلعت والأحوال عن مثلها دافعة**؛ وكان له من ذاته شاهدٌ يصدّقه، وبرهانٌ يحققه، ووضوحٌ يحميه عن أن تعترض عليه شبهة الظّنون، وجمالٌ يغنيه عن تكلّف التّحليّة والتّزيين، وتلك صفةُ ما أقصِدُ محادثتك بنعم الله علينا فيه، وأعتمد إهداءه إليك مشروحة جملتُه موفّاةً معانيه....[5]

إنّ أولى النّعم بأن يُتحدَّثَ عنها حديثَ اعتماد لشكرها، ويُنبَّهَ عليها تنبيه إشادة بقدْرها، نعمةٌ خصّت الدّين، وعمّت المسلمين، وأعلت للإسلام يداً، وفتّتْ من الشّرك

---

[1] - في الذخيرة: (في فصل)
[2] - الفلج: من معانيها الصّبح (**لسان العرب**)
[3] - الرسالة من إنشاء ابن القلاس ربما عن ابن هود إلى الموفق، وردت في **الذخيرة** 3/ 1/ 421- 422
[4] - راجع الهامش الثاني على الرسالة السابقة
[5] - في الذّخيرة: (وفي فصل)

عضداً، وشدّت من الإيمان سَنناً، وأوهَت من الكفّار ركناً[1]، فإنّها موقعَ العموم واقعة، والقريبَ والبعيدَ في نفعها جامعة....[2]

إنّه لمّا كان من شرط من ابتدأ أن يتمّم، وسنّةِ من سدّى أن يُلحِم، وحكم مَن نهجَ عملاً أن يُفضيَ به إلى غايته، وسبيلِ مَن أخذ في سعي أن لا يرجع دون نهايته، وجب على **فلان** - أبقاه الله - أن يتلوّم على الحال التي انفرد بفخر تأسيسها وتشييدها، وفاز بحسن مَنابه في تقريرها وتمهيدها، حتّى يستوفيَ فيها حقائق العمل، ويُبرئَ منها جميع العلل، ويَسدَّ من جوانبها دقائق الخلل؛ إذ كان هو الذي شرع مباديها، وبه انتظم متناثرُها، وبلطفه سكّن متنافرُها؛ وما زال يسعى أفضلَ سعي، ويصدعُ بأجمل رأي، حتّى قرّر الأمور على أثبتِ قواعدها، وشدَّ رباطَ مَعاقدها؛ فلمّا صحّحها تصحيحاً أمِنَ التِياثه، وأبرمَها إبراماً لم يَحذر انتكاثه، وجب عند ذلك أن يقع صدَرُه، ويَحينَ منصرفُه، فصدر محتقباً إليك من حقيقة وُدّي، وطيّب ثنائي وحمدي، ما إذا جلاه في معرضه راقك مجتلاه، وإذا أجناه على حسبه عذُب عندك جَناه، وبه اكتفيْتُ عن مدّ أطناب القول في الإخبار عن هذا وسواه، فهو بتفصيل جملته لديك جدير، وبه خبير..."

28 - رسالة عن المنصور صاحب بلنسية إلى "الخليفة هشام" [المزعوم] عن حدوث صلح بينه وبين الموفق صاحب دانية[3] [431- 436][4]

أطال الله بقاء أمير المومنين، مولاي وسيّدي وسيّد العالمين، وابن الأئمّة الرّاشدين، عزيزاً سلطانُه، سامية أعلامُه، ماضية أحكامه، ظاهراً على من ناواه، قاهراً لمن عاداه، كما يحبّ - أيّد الله أمير المومنين مولاي وسيّدي - على أحسن ما يكون عليه العبد المخلص، والمولى المتخصّص، الذي حسُن مُضمَرُه، واستوى سرّه وجهرُه، ولاح استبصارُه وجِدُّه، وتناهى سعيُه وجهده، في

---

[1] - في نسخة أخرى: وهدّت من الكفر ركناً (الهامش)

[2] - في الذّخيرة: (وله)، وفي هامشها (وفي فصل منها)، وهذا ما جعلنا نعتبره تكملة للرسالة.

[3] - وردت الرسالة في صبح الأعشى على أنها كتبت عن المنصور إلى هشام بن الحكم، وفسّر المحقق ذلك أنه الحاجب ابن أبي عامر (**صبح الأعشى** 6/ 523- 525، ط.بيروت 1987) ؛ وتبيّن من ترجمة الكاتب أنه عبد الرحمن بن أحمد بن مثنى المعروف بابن أصبغ، وأنّه كان مقرّباً لدى صاحب بلنسية المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن الحاجب المنصور بن أبي عامر، أي لدى المنصور الحفيد الذي حكم بلنسية بين 411 و 452، وأنّ الكاتب المذكور عندما انفصل عنه التحق بالمأمون بن ذي النون فاستوزره، وكانت وفاته في صفر سنة 458 (**الذخيرة** 3/1/ 409- 418؛ ابن الأبار : **التكملة** 3/ ص 12).

[4] - لم نستطع ضبط هشام المقصود، فهناك هشام المعتدّ الذي بويع خليفة سنة 418 وعزل سنة 422 ولكنه ليس ابن الحكم، فإذا صدّقنا تقديم الرسالة في صبح الأعشى على أنه هشام بن الحكم، فإنّ هذا في الواقع كان أمره انتهى قبل هشام المعتدّ ويكون المقصود هنا هو هشام المزعوم الذي نصبه ابن عبّاد في إشبيلية سنة 426 وتخلّى عن بيعته سنة 451 بدعوى وفاته، وكان يدّعي أنه هو هشام بن الحكم، فالراجح أن هذا المزعوم هو المقصود حيث وافق صاحب بلنسية ابن عباد في دعواه، وكان الاقتتال حدث بين الموفق صاحب دانية والمنصور حوالي سنة 430، والرسالة هنا تشير على حدوث صلح بينهما قد يكون ابتداء من سنة 433 أي في السنوات الثلاثة الأخيرة من حياة المنصور. وعلى هذا يمكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 431 و 436 على الأبعد؛ وربما بين 433 و 436.

مضمار الجري إلى الطاعة، وبذلَ إذعانه وانقياده، واستعبد إمكانه وإجهاده، فيما يفي بتمكين الإمامة المهديّة، والخلافة المَرضيّة، ويشدّ مبانيَ المملكة المصدّقة لتباشير اليمن والبركة؛ والله سبحانه وليُّ العون والتأييد، والملِيُّ بالتّوفيق والتّسديد، لا ربَّ غيرُه.

وبعد؛ - أبقى الله أمير المومنين- فإنّ كتابي إليه سلف معرباً عن **النزغة التي كانت بيني وبين الموفّق** مملوكه[1]؛ وقديماً نزغ الشّيطان بين المرء وصديقه، والأخ وشقيقه، وضرب ساعياً بالتّشتيت والتّشغيب، والتّبعيد والتّقريب[2]، بين الأب الحاني الشّفيق، والابن البرّ الرّفيق؛ ثمّ يعود ذوو البصائر والنُّهَى، وأولو الأحلام والحِجا، إلى ما هو للشحناء أذهب، وبالتّجامل أوْلى وأوجَب؛ وكتابي هذا وقد نسخ الله بيننا آية الافتراق، بالاتّصال والاتّفاق، ومحاسمة التّباين والخلاف، وبُدُوٌّ التّآلف والإنصاف، وعادت النّفوس إلى صفائها، وانطوت على وفائها، وخبتْ نار الفتنة، وامتدّ رُواقُ الهدنة، وثبتت الأسباب الرّاسخة، والأواصر العاطفة بأزِمّة قلوبنا إلى معاهد الخُلّة القديمة، ومواطن العِشرة الكريمة، والمعروفِ من الامتزاج في كلّ الأحوال والتّشابك، وجلاء الشّكّ باليقين، وقرّت بالانتظام العيون، وصرنا في القيام بدعوة أمير المومنين مولانا وسيّدِنا رضيعيْ لِبان، وشريكَيْ عَنان، وأليفَيْ تناصُر، وحليفَيْ تظافر؛ فنحن عن قوس واحدة في نصرتها نرمي، ومن ورائها نذود جاهدين ونحمي، قد فُتنا الجياد في السّبق إلى الطّاعة، وأحرزنا قصب السّبق في المظاهرة والمشايعة، فما نفتأ نسعى في تمهيدها ونَذهب، ولا ننفكّ نكدَح لها ونَنصَب، والله الكفيل بإنجادنا بعزّته وقدرته، وحوله وقوّته، لا إله إلاّ هو.

وإنّ الذي عقده الله تعالى لنا، وحسمه من دواعي القطيعة عنّا، ما اطّرد وتأتّى، وسنح وتهيّأ، إلاّ بسعد طائر أمير المومنين سيّدِنا ومولانا أعزّه الله، ويُمن نقيبته، فمن تمسّكَ بعروته، وعاذ بعصمته، فقد فاز قِدحُه، وتبلّج في ظُلَم الأمور صبحُه، واستدلّ بأوضح الدّليل، وعرض بالرّأي الأصيل، واستنار بأضوإ سراج، وسلك على أقصد منهاج ولم يُزايل الرّشاد آراءه، وصاحب السّدادُ أنحاءَه؛ والله - تقدّس اسمه - لا يزال يعرّفنا من سعادة الدّعوة الزّكية ما يُصلح به أحوالنا، ويُفسح به آمالنا، بمنّه.

ولمّا أتاح الله من السِّلم ما أتاحه، وأزاح من المكروه ما أزاحه، لم أجد فيَّ فسحة، ولا غنىً ولا سعة، من إطلاع أمير المومنين مولاي وسيّدي من ذلك على

---

[1] - لا نملك الرسالة المشار إليها والتي أخبر فيها المنصور المكتوب إليه بما حدث من نزاع بينه وبين الموفق

[2] - كذا ؛ والكلمة المناسبة : والتغريب

الجليّة، وإعلامِه بالصّورة [.....][1]، فأنهضتُ إلى حضرته العالية ذا الوزارتين عبدَ الرحمن بن مطروح رسولي وعبدي وخاصّتي مملوكَه ليُنهيَ إليه الحال على حقيقتها، ويوفّيَها بكلّيتها، وأقرن به رسول الموفّق متحمّلاً مثل ما تحمّله رسولي، ومتقلّداً كالذي تقلّده؛ ولأمير المومنين مولاي وسيّدي الفضلُ العميم في الإصغاء إليهما، والوعي عنهما، والسّماع منهما جميعَ ما يوردانِه ويوضّحانِه، ويستوفيانِه ويشرحانِه، والتّطوّلُ بالمراجعة فيه بما يستوجبه ويقتضيه، واصلاً لعزّ مننه وأياديه، إن شاء الله تعالى".

29 - تهنئة عن الموفق مجاهد أمير دانية إلى المعتضد ابن عبّاد بمناسبة دخوله شلب [2] [... - 436] [3]

"كتابي - أعزّك الله - عن حالٍ قد طال[4] جناحُها، وآمالٍ قد أسفر صباحُها، ويدٍ قد أوْرَى زندُها، ونفسٍ قد انتُجز بنُجح كلّ محاولٍ وعدُها، (بما وردني به كتاباك الكريمان)[5]- أعزز بهما- من جميل[6] صنع الله لك بحصول قاعدة **شلب** وذواتها في قبضتك، واستذراء[7] ذلك الأفق بظلّ طاعتك، وخروج صاحبها عنها من غير عقد عاصم ولا عهد لازم، قد كذّبه[8] ظنُّه في التّماسك، وأخلفه أملُه في التهالك، (ورغِمَ أنفُ مَن بعُدَ عنه[9]، وجُدع به من لم يوضع المِيسم[10] عليه)؛ فأيّ نعمة (ياسيّدي وأعلى عُددي،) ما أجلّها وأجزلها! وأيُّ منّة، ما أتمّها وأكملها[11] ! على حين تَضاعفَ حسنُ موقعها، وبان لطفُ محلّها وموضعها، ولاحتْ عنواناً في صحيفة مساعينا، وبرهاناً (- بحول الله تعالى-) على تأتّي أراجينا؛ فالحمد لله

---

[1] - العبارة في حاجة إلى كلمة تناسب ما قبلها من سجع

[2] - الرسالة في **القلائد** 541- 542؛ وفي **الذخيرة**، ق3/ م1/ 129- 130؛ كاتبها أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد البرّ (ت 458) ، كان كاتباً للمعتضد بن عباد ثم نقم عليه. راجع ترجمة هذا الكاتب في **القلائد** 538؛ **الذخيرة** 3/1/ 125؛ **بغية الملتمس** 354؛ **جذوة المقتبس** ص249 ؛ **الصلة** 1/ ص279؛ **المغرب** 2/ 402؛ كانت بين المعتضد ومجاهد مصاهرة، فبنت مجاهد العامري كانت زوجة للمعتضد عباد، وكانت أختها زوجة لأمير بلنسية أيضاً.

[3] - كانت وفاة الموفق مجاهد العامري سنة 436 أي أن شلب سقطت في يد المعتضد قبل أو خلال هذه السنة حيث هنّاه آنذاك صهره الموفّق بالرسالة أعلاه، فهل حدث هذا خلال المرحلة الأولى لتوسّعات ابن عبّاد بعد هزيمة منافسه صاحب بطليوس على منطقة الغرب حوالي سنة 420؟ فربّما فقَدَ ابن عبّاد بعد هذا مدينه شلب، فالثابت أنّه فتحها سنة 443 وفتح لبلة في نفس العام (**البيان** 3/ 240- 241)؛ وقد جعل عنان سقوط شلب في يد المعتضد سنة 455 حيث ولّى عليها ابنه المعتمد (**دول الطوائف** 60). فهل تكرّرت حالات سقوطها واسترجاعها من طرف المعتضد؟

[4] - في الذخيرة: قد أطلّ

[5] - ما بين هلالين (....) ناقص في الذخيرة

[6] - في الذخيرة: أعزز به من صنع جميل..

[7] - كذا في القلائد ؛ وفي الذخيرة: والاستظلال

[8] - في الذخيرة: قد خاب ظنّه

[9] - يظهر أنه يقصد ابن الأفطس صاحب بطليوس عدوّ ابن عبّاد.

[10] - الأداة التي يوسَم بها: مكواة أو غيرها

[11] - في الذخيرة: وأجملها

(ثم الحمد لله) على ما منّ به وأحسن (فيه) حمداً يؤدّي[1] الحقَّ ويقضيه، ويحتوي[2] المزيدَ ويقتضيه، وهو المسؤول (عزّ اسمُه) أن يُتْبِعَ ذلك[3] بأشكاله، ويَشفَعَه بأمثاله، (ويهنّئ ذلك النّجحَ [والفتح][4] سلماً وحرباً، وشرقاً وغرباً، والظّهور بُعداً وقُرباً؛) فظهوري مَنوط بظهورك، وسروري موصول بسرورك، واتّصال حالي بأحوالك، وحبلي بحبالك؛ هنّأك الله وإيّاي ما خوّلك، وقرَن بالزيادة آلاءه قِبَلك، (بمنّه)".

30- جواب عن تعزية في وفاةالموفق مجاهد أمير بلنسية من ابنه علي إقبال الدولة إلى المظفّر ابن الأفطس[5] [437][6]

"وما أشكّ في ما ذكرتَ مِن أخذِك معي بالنّصيب الأوفر، والقسط الأكبر، من المصاب **بفقد الموفّق** مولاي ومعظّمك، كان - لقاه الله رضوانه، وألحقه عفوَه وغفرانَه-، فقد كان إذا عُدّ الأفاضلُ لا يثني خنصره إلا عليك، وإذا ذُكر الرؤساء لم يُشر بتصحيح الوفاء إلاّ إليك، فنحن لا نستوحش بفقد فاضلٍ وذاتُه موجودة، ولا نرتاع لموتِ جليلٍ وحياتُه ممدودة، فإنّك إذا قال قائل منّا: كسدت لوفاة الموفّق سوقُ الأدب، وبارت بضاعة الطّلب، وهوى نجم العلم، وكبا زندُ الفهم، وعفا رسمُ الحِلم، وطفئَ سراجُ الرأي، استثنى بك المجيب، وعُزّيَ بمكانك المصيب، وأطبَقَ الإجماعُ أنّك جِماع الفضائل ونظامُها، وفي يديك لواؤها وزمامُها...."

31 - رسالة وُدّية عن [إقبال الدولة] ابن مجاهد إلى المنصور [عبد العزيز] ابن أبي عامر[7] [436 - 452][8]

"مَن اختار- أيّدك الله - لخُلّته أزكى المعادن، واعتمد لمِقته أسنى المواطن، كان جديراً أن يغتبط بجناها، ويرتبط بفوز عقباها، ويعلمَ أنّها على الأيّام صقيلةُ الأرجاء لا يُصدئها الإهمال، صِدْقةُ المضارب لا يَفلُّها الإعمال، وأنت الذي لا يُدانَى شرفُه، ولا يُسامَى سلفُه[9]، ولا تُجارى أعراقُه، ولا يُبارَى إعراقُه؛ فمَن ظفِر بصفائك عماداً،

---

[1] - في الذخيرة: يوافي
[2] - في الذخيرة: على المزيد
[3] - في الذخيرة: أن يتبعه
[4] - إضافة من نسخة أخرى حسب ما في هامش القلائد.
[5] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البرّ موجهة إلى أمير بطليوس كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 171، والظاهر أنها مبتورة البداية والنهاية.
[6] - كانت وفاة الموفق مجاهد العامري سنة 436، ولا يبعد أن يكون الجواب عن التعزية في وفاته خلال السنة اللاحقة التي هي أول سنوات حكم المظفّر ابن الأفطس (437 - 461)
[7] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 165- 166؛ ومن المحتمل أنّها كتبت في أوائل عهد الأمير عليّ إقبال الدولة لمحاولة محو آثار الجوّ المتعكّر بين أبيه الموفق مجاهد والمنصور عبد العزيز صاحب بلنسية.
[8] - السنة الأولى هي بداية حكم ابن مجاهد، والسنة الثانية هي سنة موت المنصور.
[9] - فهو حفيد الحاجب المنصور ابن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المشهور بغزواته، وهو من عرب اليمن أصلاً.

وبوفانك عتاداً، فقد أصمى سهمُه وقرطس[1]، ونزل ساحة الفضل وعرّس، ووثِق بأنّه ورد ورداً لا تكدّره الدّلاء، واعتقد عَقداً لا يغيّره الإصباح والإمساء؛ وتلك حالي في ما مُنِحتُه من صفائك، ووُلّيتُه من ولائك، والله يحرس حظّي من وفائك، ويرفع المضارّ عن حوبائك، بمنّه".

32 - رسالة عن إقبال الدولة ابن مجاهد إلى المنصور ابن أبي عامر عن غدر أخيه له[2] [436 - 452][3]

"... وإنّ الموفّق مولاي[4] - رضي الله عنه- كان رمى إليّ بعهده، وقلّدني الأمر من بعده، وبايعني بذلك مَن كان في قبضة سلطانه، واشتمال ديوانه؛ ولمّا اتّفقت الآراء، وينس الأعداء، مدّ **أخي حسن** ببيعتي يداً، وأظهر في طاعتي معتقداً، فما آن لمداد عهده أن يَجفّ، ولا حان ليد عاقِده أن تنحرف، حتّى داخلَ **صاحب إشبيلية**[5] في الغدر والخلاف، فأنفذ إليه رجلاً يُدعَى سَلمة من جنده، ليتصرّف على إرادته؛ فأجمعوا أيديَهم والقضاء أملك، وأزمعوا كيدهم والقدَر يضحك، وتوخّوا صدْري من صلاة الجمعة، فوافوني قد انسربتُ في كلة الأمن، ونمتُ في حِجر حسن الظنّ، فما استيقظتُ إلاّ لصفح صفائحهم تُصلّتُ عليّ، ولا انتبهت إلاّ لضوء رماحهم تُشرَع إليّ، إلاّ أنّ الله كان بإزائي ظهيراً، وتلقاني نصيراً، وبين يديّ رفداً، ومن ورائي مدداً وردءاً؛ فما كان إلاّ أن تساقط فراشُهم في مصابيح الفرَج، وأتعِست شُبَهُهم في موارد الثّلج، وفُزتُ وقد انجلت الكرّةُ عليهم؛ فأمّا سلمةُ المذكور فإنّه رمى عن قوسه إلى نفسه، وسطا بسهمه على جسمه، فانثنى في بطاحه، مقتولاً بسلاحه؛ وأمّا حسن فمرّ مستمرئاً لما استمراه، مستمرّاً لما استحلاه، قد عارض النّعمة بجحدها فسُلبتْ عنه، وقارض الحسنة بضدّها فانتُزعت منه؛ على أنّه كان بين الجفن والنّاظر نازلاً،

---

[1] - اي اصاب الهدف

[2] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم أبي الأصبغ عبد العزيز بن محمد الوادي آشي كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 169- 171؛ قدّم لها ابن بسّام بقوله: "وله من أخرى عن ابن مجاهد إلى ابن أبي عامر يعلمه بغدر أخيه حسن له، قال فيها بعد الصّدر: وإنّ الموفّق..." وكان حسن هذا أصغر من اخيه علي وقد رشّحه أبوه لولاية العهد خلال أسر علي بسردانية إلى أن عاد فارجع إليه أبوه ولاية العهد، وبعد موت أبيهما انتقل حسن إلى زوج أخته المعتضد بن عباد فشجّعه للقيام على أخيه، وفشلت عملية الغدر بالأمير، ففرّ حسن إلى زوج أخته الثانية صاحب بلنسية عبد الملك بن عبد العزيز فبقي بها إلى وفاته (**البيان** 157- 158؛ **دول الطوائف** 195). انظر ترجمة ابن أرقم في **الذخيرة** ق 3/ م1/ 360؛ **والقلائد** 367 وما بعدها؛ **التكملة** 3/ 87- 88 (تح. الهراس)؛ **نفح الطيب** 3/ 498- 499. وبالنسبة لابن ارقم فقد كتب عن إقبال الدولة ثم المعتصم صاحب ألمرية وقد سفر عنه إلى المعتمد بن عباد، انظر ترجمة ابن أرقم في **الذخيرة**، ق3 /م1/ 360؛ **القلائد** 367 وما بعدها؛ **التكملة** 3/ 87- 88 (تح. الهراس)؛ **نفح الطيب** 3/ 498 - 499.

[3] - السنة الأولى هي بداية حكم ابن مجاهد، والسنة الثانية سنة موت المنصور المكتوب إليه.

[4] - يقصد أباه مجاهد العامري (400 - 436)، ومن المرجح أن تكون الحادثة في أوائل عهد علي بن مجاهد الذي ابتدأ سنة 436.

[5] - كان من شأن استيلاء حسن على دانية والجزر أن يسهّل على ابن عبّاد مدّ نفوذه نحو هذه المنطقة، وهذا ما ستراه لاحقاً باستيلاء ابنه المعتمد على مرسية من يد ابن طاهر.

وبين الضّمير والخاطر جائلاً، قد قاسمتْه العيش نصفين، والحياة شطرين، له النّوم وليَ السّهر، وله الأمن وليَ الحذر، وله الصّفو وليَ الكدَر، أشقى لينعم، وأمتهَن ليُكرَم، إلى أن واصلته الرّفاهية فملّ، ونادمته النّعمة فاعتلّ، ومسّه الخير فمَنع، وغرّته الأماني فانخدع، حتّى ذاق وبال أمره، ﴿ولا يَحيق المكرُ السيّئ إلاّ بأهله﴾[1].

33 ـ رسالة ودّية عن إقبال الدولة ابن مجاهد إلى المظفّر ابن الأفطس[2] [437 – 461][3]

"إذا تشاكلت ـ أيّدك الله ـ الأحوال والضّروب، تقاربت الأهواء والقلوب، وقد قيل: الشُّكول[4] أقارب، والمذاهب مَناسب.

ولن تنظِمَ العقد الكعابُ لزينة == كما تنظم الشّمل الشّتيت الشّمائل

وما تشتّتَ لنا بحمد الله شملٌ، ولا انقطع بنا حبلٌ، ولا غبَّ بيننا وَصلٌ، بل نحن على ثلج تواصلٍ يقتضيه التّشاكل[5] والتآلف، ونهج تداخلٍ يستدعيه التّعاقدُ والتّحالف؛ وإنّي ـ علِم الله ـ بمكانك لمُباهٍ، وبزمانك لمظاهرٌ مُضاهٍ، أعتقد لك العَقد الذي لا تُجاذَب أهدابُه، ولا يُنازَع جلبابُه؛ وقد نظمتنا من الأحوال المشاكلةُ والأسباب الواشجة ما كِلانا له مُراعٍ، وإلى قضاء الحقّ فيه وحفظ الحظّ منه ساعٍ، ورُبَّ حالٍ جدّدت تآلفاً وودّاً، وأكّدت وشدّت على مرّ الأيّام عهداً وعَقداً، وبنت ما لا يهدمه الدّهر ولو انتحاه من خطوبه بمعول، وأنحى عليه بجرانٍ وكلكَلٍ؛ والله يصل ما بيننا بالدّوام والثّبات، ويحرسه من الانصرام والانبتات..."

34 ـ رسالة عن أمير دانية إقبال الدولة ابن مجاهد إلى ابن رزين حول نزاع الأخوين[ابني هود]والنيّة في هجوم أحدهما على إمارته(السهلة)[6] [ما بعد436]

"قد يكون ـ أعزّك الله ـ الأجل في الأمل، وربّما صحّت الأجسام بالعلل؛ فكم من امرئٍ نُشر من كفنه، وآخرَ أوتِيَ من مأمنه؛ ومن نعم الله على العبد أن يقاتل عنه مَن ناواه بحسامه، ويناضلَ دونه من عاداه بسهامه، حتّى يكون قتيلَ سهم رماه بيده، ومصابَ أمرٍ أجراه على معتقده، والسّعيد من نام والأقدارُ تحرسه، وأقام والأيّامُ تخدمه، واتّكل واللهُ يكفُله، فحقّ له ألاّ

---

[1] - من الاية 43 من **سورة فـــاطر**

[2] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البرّ كما وردت في **الذّخيرة** ق3/ م1/ 166

[3] - السنة الأولى تاريخ بداية عصر المظفر، والثانية تاريخ وفاته، أما إقبال الدولة فكانت ولايته بين 436 و 468

[4] - الشكول: من معانيها النظائر

[5] - التشاكل: التّماثل

[6] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم عن إقبال الدولة علي بن مجاهد (433- 445) إلى ابن رزين، والمعاصر لحكم إقبال الدولة هو عبد الملك بن هذيل ابن رزين (436 - 496)، وردت الرسالة في **الذخيرة** ق3/ م1/ 365- 367. ولعل الأمر يتعلّق بنزاع الأخوين ابني سليمان بن هود وهما أحمد (المقتدر) أمير سرقسطة ويوسف المظفر أمير لاردة (انظر الهامش رقم 4 لاحقاً).

يَجزع إذا دهى خطبٌ فإنّ الفرج معه، وألا يهلع إن عدا كربٌ فإنّ الله قد رآه وسمعه، ولا سيّما إنْ قُصد بظلم واعتُمد ببغي، ففي التنزيل: ﴿ثمّ بُغِيَ عليه لينصرنّه الله﴾[1]

.... [2] ولمّا دعاه إلى السّلم، وناداه باسم الصّلح الأتمّ، غرّه بأيمانه، واستدناه من مكانه، فقُبض عليه، وخاس بما ألقاه من العهد إليه، ثمّ أراد أن يُتبع الإساءة ضعفاً[3]، والإبالة ضِغثاً، باعتزامه الغدر بأخيه الأقرب، ومحلّ أبيه الحَدِب، فصرف الله كيده في نحره، وأذاقه وبال أمره، ووضح ما كان من سرّه وُضوح النّهار، وتطلعت بنات صدره تعلو على الأستار، وهو لا يشعر أنّه شُعِرَ به ولا بأنّه قد أُبِهَ له، بل خالَ عمايتَه نهارَ الأديب فانكشف سرّه، وظنّ غباوتَه غفلة الرّقيب فانتهك ستُره، وكان قد فكّر وقدّر ﴿فقُتل كيف قدّر ثمّ قُتل كيف قدّر﴾[4]، وليته قبل تدبيره لو نقح ما دبّر، وحين حفره لو وسّع إذ حفر، وسمع قول القائل:

يا حافر الحفرة وسِّعْ فقد == يسقط في الحفرة حَفّارُها.

وقول آخر:

مَن يَرِ يوماً يُرَ بهْ == والدّهر لا يُغتَرُّ بهْ

وما كان إلاّ أن قبض الله ظلّه، وفضح غِلّه، وفاز بحظّ الحرمان، وحَلِيَ بطائل الخسران، وفزِعَ فزَعَ اللّهفان، لا يجد أمّاً، وخبط خبْط الحَيران لا يهتدي أمّاً، على حين ما كان مستحكِم الأمل دانيَ الرّجاء، متمكّنَ الطّمع في ختر أخيه[5] والأخذ بكظمه، والاقتدار على ظلمه، فإذا به قد نُشر من قبره، وشَقِيَ بضُرّه، حين راماه بسهمه، وأخذه بحكمه، وأتاه بعلمه، : ﴿وكذلك أخذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾[6]، وجزاؤه إذا جازى القلوب وهي آثمة، ﴿ولا يظلم ربّك أحداً﴾[7]، ﴿فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصَداً﴾[8].

فالحمد لله الذي صيّره نهباً، وكفاك منه حرباً، **فقد كان فيما بلغ ناهداً إليك**، وعلى ما اتّصل وافداً عليك، ولعلّ الصّنع له كان من حيث لم يعلم، والعناية خُصّت به من أين لم يفهم، فربّما كانت وفادته برُجمية السّائر، وسعايته مَشْئميّة الطّائر، وبدايته مَندمية[9] الآخر..."

35 - رسالة وديّة عن إقبال الدولة علي ابن مجاهد أمير بلنسية إلى المعتصم [ابن صمادح أمير غرناطة][1] [443 - 468][2]

---

[1] - من الآية 58 من **سورة الحج**

[2] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

[3] - قام سليمان بن هود بتقسيم المملكة بين أبنائه الخمسة، أحمد المقتدر بسرقسطة أشدّ إخوته طمعاً فيما بأيديهم، ويوسف المظفر حسام الدولة صاحب لاردة، ولب صاحب وشقة، والمنذر صاحب تطيلة، ومحمد صاحب قلعة أيوب وهو الأقرب إلى إمارتي شنتمرية وبلنسية. وتمكّن أحمد من التحايل على إخوته والقبض عليهم إلاّ أخاه صاحب لاردة، واشتعلت الحرب بينهما، إلى أن تمكّن أحمد بدعم النصارى من الاستقلال بالمملكة (**البيان** 3/ 221 وما بعدها؛ **دول الطوائف** 262) ؛ ويظهر أنه هو المقصود بالطمع في إمارة ابن رزين.

[4] - الآيتان 19، 20 من **سورة المدثر**

[5] - لعلّه يقصد أخاه صاحب لاردة الذي لم يتمكّن من خداعه.

[6] - من الآية 102 من **سورة هود**

[7] - من الآية 48 من **سورة الكهف**

[8] - من الآية 27 من **سورة الجنّ**

[9] - المشأمة: من الشؤم ؛ المندم والمندمة: ما يحمل على النّدامة

"كتبتُ - أدام الله إعزازك، وصان ارتياحك للمحامد واهتزازك-، بعد قفول مَن قفل عنك، وحلولِ من صدَر بما شرح الصّدور من لدنك، والحال شاملة الصّلاح، فائزة القِداح، جارية على الاختيار والاقتراح؛ وممّا ضرح القذاةَ من شِربي، واستنزح الأذاةَ عن سربي، وزوى روعة رَوعي، وروّى بماء الثقة عودي، حتّى رسخت في أرضها أصولي، ورقتْ فروعي، ما حلاك به من عميم الفضائل، وكريم الشّمائل، فأقرّ صحّة ما بلاه منك في فؤادي، وأشربَه ذاتي؛ فوحياتِك التي بها حياة الكرم، لقد أسمعوا من لطائف البرّ، وأودعوا من غرائب الثّناء الحرّ، ونشروا من كرم الخلال، مع ركانة الوقار ومهابة الحال، وإعظام الجليس، والتزام التّواضع والتّأنيس، بعد توفية الرئاسة حقّها، وتقضيةِ السّيادة أجلّ واجباتها وأدقّها، جعل الله الآمال طاعتها والأيّام رقها، ثم استوصفتهم التذاذاً بطيب أنبائك، صورةَ مجلسك مع وزرائك وأحبّائك، فأوردوا من ذلك ما هو أشهى من السّعادة، وأحلى من الحياة المعادة، وأسبَى للنّفوس من مِراض الحَدَق، وأجلى للشّكوك من غرّة الفلق؛ فطارت بي هزّة الشّوق كلّ مطير، وأصارتني غُرّة الفرح بين روضة غنّاءَ ووادٍ مطير، وقلت الحمد لله قد وُفّقتُ أمري، وقام عند العواذل عذري، وسطع شهابُ حجّتي بأن خلعتُ عليه نفسي وأوْدعتُ يديه مهجتي...[3]

ومثلك من كان الوسيط فؤادُه == فكلّـمه عنّي ولم أتكـلّمِ

....

والحقّ أبلج قد هديتُ == إلى الصراط المستقيم
ووثقتُ أنّي لم أبـــــــوّ ئ حرمتي إلاّ حريمي
ما ضاع حقٌّ كريمة == هُديَت إلى كفُؤ كريم
ياكاسبَ الحمد الحديث == ووارثَ المجد القديم
قاسمتك النّفس النفـيـسة واختصصْتك بالصّميم

أيّ برٍّ- أعزّك الله يُعارَض به برُّك، وقد عرُض في المكارم بَرُّك وبحرُك، أم أيُّ فِعالٍ توازي فعالك، وقد ودّت النيّراتُ أن تكون نعالك، أم أيُّ شكر يكون كفاءَ أياديك، وقد تمنّت الأيّام أنّ لها ألسُناً تُطريك، وأنّ لها أنفساً تُفاديك، أم أيُّ عُرف يكون جزاء عُرفك، وقد فغم[4] الخافقيْن ريّا عَرفك، لهنّك الخيرُ الذي لا يضاهَى ولا يباهَى، والحرّ الذي لا يبارَى، والجواد الذي لا يُجارى، والمصيب الذي لا يناضَل، والحسيب الذي لا يُكارَم ولا يفاضَل، والملك الذي لا تُجانَس صفاته، ولا تجاذب أواخي أسبابه، ولا تُحاذى أواذيُّ عبابه:

مليك إذا ألهى الملوك على اللُّهى == خمار وخمر هاجر الدّلّ والدّنا

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي عبد الله محمد ابن خلصة الشذوني الداني الضرير كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/322- 325؛ ترجمته في الذخيرة قبل نص الرسالة مباشرة؛ **جذوة المقتبس** ص 51 (وذكر صاحبها أنه رآه بدانية بعد الأربعين [وأربعمائة]. **التكملة 1/** ص 319 (ذكر أنه مدح المقتدر ابن هود باستيلائه على دانية سنة 468)

[2] - السنة الأولى هي بداية عهد المعتصم (443 - 484) والثانية نهاية عهد إقبال الدّولة (436 - 468)

[3] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

[4] - فغم المكانَ: ملأه رائحة

ولم تنسِه الأوتارَ أوتارُ قينة == إذا ما دعاه السّيف لم يثـنِه المثنى
وَهوبٌ ولكن لا تُعدّ هباته == بموحدَ إن عُدَّ الهبات ولا مثنى
أشمّ إذا وازنتَ يوماً بحمله == شماماً ورضوى لم تجدْ لهما وزنا
ولا للمنى إلاّ بساحته جنىً == ولا للغنى إلا براحته معنى
ولو جاد بالدّنيا وعاد بمثلها == لظنّ من استصغارها أنّه ضنّا
ولاعيب في إنعامه غير أنّه == إذا منّ لم يُتبع مواهبَه مَنّا
وأنّى تساميه الملوك وإنّما == وجدنا الورى لفظاً ومعناهم معنى
تقيّلَ من آبائه الغُرّ سادة == قُيولاً فبذّ البحر واحتقر المُزنا"

36 - رسالة عن إقبال الدولة عليّ بن مجاهد إلى مقاتل العامري صاحب طرطوشة[1] يوصيه بخلفه من الأبناء[2] [436- 445]

"ولمّا اعترفت السعادة بارتباط وُدّك، والاغتباطِ بوثيق عَقدك، رأيت أن أسلك بابني السبيلَ المثلى، والمنهج الأهدى، ويعلمَ أنّي نظرت له بأحسن ما نظر والدٌ لولده، وحبا به أحد لفلذة كبده، حتّى يكون إن أدركتني قبلك وفاة، وكانت له بعدي إناة، قد ظفر بأمل يَنعَمه، وأوى إلى جبل يعصمه، أو تمادت لي معك حياة، وتطاولت لي ليلات، لم يضرُرْه أن يَعلق بيدين، ويعتمد على ركنين، ويُسنِدَ إلى أبوين، فأنت الوالد وهو الولد، والسّاعد وهو اليد، بل قد اتّصل بك اتّصال الخِلب بالكبد، وحلّ منك محلَّ البنان من الكفّ والعضد؛ ومن حلّ في ذراك، ولاح في يمناك، فهو الشهاب الثّاقب، والحسام القاضب، كما أنّ مَن عُدَّ في ذويك، واعتدّ في بنيك، فلن يقصّر إن شاء الله عن معادلة الكهول وإن صغُرت سنّه، ولا يتأخّرَ عن مقارعة النّصول وإن لان غصنُه، فإنّما يُزاحِم منك بعَود[3]، ويطاولُ بطود، ويقاتل بجمْع، وينازل بنبع، ويقضي على الأيّام بظهير، ويصول على الدّهر بأمر كبير.

ولمّا أذمّ إليك بهذه الحال، ودبّت به نشوة الإدلال، تمنّى أن توطنه الريحَ جناحاً، وتعيره من البرق التِياحاً، وترفعَ له نحو السّماء طِماحاً، بما يرجوه من حملك إياه على المهر المذهب، والوردِ الأغرِّ المحبَّب، الذي استعيرت سرعتُه من إسراعك إلى المكارم، وأخَذَ سبْقَه من سبقِك إلى ندى حاتم، وعلِمَ لِينَ قِيادك للصّاحب، واسترقتْ جودته من سِماع جودك على الطّالب، وإن يكن لا تؤثر به غير جنابك، ولا تختاره إلاّ لركابك، فمن لم يوقَ شُحَّ نفسه فيه معذور، ومن ارتبطه بالضّنّانة به جدير".

---

[1] - مقاتل العامري هو من الصقالبة (العامريين)، تولّى على طرطوشة بعد موت أميرها لبيب العامري سنة 433، وتلقّب بسيف المُلك، واستمر في حكمها إلى وفاته سنة 445 ، وخلفه عليها يعلى الفتى ولم تطل مدّته، ثم نبيل العامري ومنه أخذها المقتدر ابن هود سنة 452 (**البيان** 3/ 219، 224، 250 ؛ **العبر** 4/ 453 (**دول الطوائف** 263)

[2] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم عن إقبال الدولة إلى مقاتل العامري كما وردت في **الذخيرة** ق1/3/ 363- 365 ؛تاريخ الرسالة محصور بين سنة تولّي إقبال الدولة حكم دانية (436)، وسنة وفاة مقاتل العامري (445).

[3] - من المثل العربي: زاحِمْ بعَود أو دعْ؛ أي لا تستعن إلاّ بأهل السنّ والتجربة (حاشية الذخيرة)

37 ـ رسالة عن إقبال الدولة علي بن مجاهد أمير دانية إلى المعزّ بن باديس صاحب إفريقية[1] [436 - 454][2]

تقديم

يظهر أنّ موقع إمارة دانية والجزر الشرقية كان يفرض عليها الارتباط مع السواحل الشمالية للبحر المتوسّط تجارة أو قرصنة حسب تطوّر العلاقات مع هذه الأطراف وإن كان الغالب عليها ممارسة القرصنة من الطّرفين، كما أنّ هذا الموقع كان يجعلها قريبة الصلة بإمارتي بني زيري وبني حمّاد في إفريقية وشرق المغرب الأوسط لممارسة التجارة، ولم نعثر لأمير دانية إلاّ على رسالة واحدة إلى أمير إفريقية المعزّ بن باديس، ولا ندري ما إذا كانت لهذا التّوجّه علاقة بتحول أمير إفريقية سنة 440 عن الفاطميين بقطع الدّعاء لهم والعودة إلى المذهب السنّي، وقد يكون لهذا الأمر في الرسالة بعض التلميح مثل: "محيي كلمة التقوى"، "ناظم شمل المسلمين"... وإذا صحّ هذا الافتراض يكون تاريخ الرسالة حوالي سنة 440. وقد ترتّب عن هذا الاتجاه ضد التبعية الفاطمية إلى تشجيع القبائل العربية في صعيد مصر للحركة نحو إفريقية للراحة من شغبها من جهة، وللانتقام من الأمير الزيري من جهة أخرى، فكان ما حدث من خراب القيروان سنة 449 وتقلّص نفوذ الأمير عن بوادي إمارته تدريجياً.

وفي نهاية سنة 451 ألغى المعتضد ابن عبّاد الدّعاء لمن زعم أنه هشام المرواني، وتوقف الدعاء له في الإمارات التي كانت على رأي ابن عباد أو متحالفة معه، ومن غير المستبعد أنّ إقبال الدولة ـ بعدما رأى تراجع مكانة أمير إفريقية ـ فكّر في الارتباط بصورة ما بالخلافة الفاطمية للحصول على معنوية قوية أو شرعية لتوسيع نفوذه على حساب جيرانه أو لدعمه في مواجهة الحملات الصليبية، وفي هذا الصدد نجد له مراسلات إلى الخليفة الفاطمي وبعض وزرائه، وكانت المناسبة هي حدوث أزمة مجاعة طويلة في مصر اضطرّت الخليفة إلى طلب إمدادات من القوت من الأندلس، فاستجاب إقبال الدولة بإرسال مركب كبير بالمؤونة عاد إليه محمّلاً بالأموال والهدايا، فوقعت المراسلة بين الطرفين بهذه المناسبة. وفيما يلي الرسائل التي تعرّفنا عليها والمتعلقة بإفريقية ومصر.

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي الإصبغ بن أرقم كما وردت في **الذخيرة** ق1/3/ 361- 362؛ (وقد نسبت في ص 245 من هذا المصدر إلى أبي عامر بن التاكرّني، وعلق إحسان عباس على أن هذا وهم من ابن بسّام)؛ وقد قارنّا هنا بين ما جاء في هذه الصفحة وتلك، فجعلنا بين معقّفين [...] ما هو ناقص في ص 361- 362، وبين هلالين (...) ما هو ناقص في ص 245- 246

[2] - التاريخ الأول يخص بداية حكم علي بن مجاهد، والتاريخ الثاني يخص وفاة المعز بن باديس، فتاريخ الرسالة محصور بينهما.

نص الرسالة إلى إفريقية

"أطال الله بقاء الملك[1] الأجلّ، [رافع أعلام الهدى، ومحيي كلمة التّقوى، وقِوام أمر الدّين، ونظام شمل المسلمين، وشعار حزب المومنين، و] ناظر عين الزّمان، وروح جسم الأوان، وحسام عاتق الإسلام، وحلي جِيدِ الأنام، (ومهدي طوال الآمال، ومأوى شارد الإنعام والإفضال)، مخلّدةً (في الأنام) دولتُه، مؤيَّدةً مع الأيّام مدّته[2]....

(أنا - أيّده الله- أمتُّ إلى دولته - خلّدها الله وأيّدها، كما وطّدها ومهّدها-، بما أبْأى به على الأقران، وأكافح كلّ زمان، وأفاوح كلّ بستان، وأحرز كلّ ميدان، إلى أن ارتقيتُ إلى سمائها، وصعدتُ في سوائها، مستسهلاً وعر المرتقى، لسهل الملتقى، ومستعذباً مُرّ المجتلى، لحلو المجتنى، فشافهتُ بدرها، وتبوّأتُ حِجرها، وارتضعتُ دَرَّها، على حين أجفانُ الفضل كليلة، وأقدامُ المجد معقولة، وأيدي النّصر مغلولة)، وإن قعدتُ[3] عن مناسك فرضها، [وتأخّرتُ في مضمار قرضها]، فإنّي مُعيرُها ضميراً كما انبلج النّهار، وشكراً كما أرج النّوار؛ وهل أنا إلاّ أحد أبنائها، وشهبِ سمائها، وشيعةِ علائها، (وحماةِ أرجائها)، وإن جذم نأيُ الدّار، كفَّ الخيار، ففي البُعد اعتذار، وفي الجهد إعذار، وإنّ مع التّجاور ليعلمُ[4] العيان، ومع التحاور ليطمئنّ البرهان، ومع التّزاور لتزول الأحوال[5]، ومع التّقارب ليقع الإخلال، والقوى المخلوقاتُ قريبة الانحلال، سريعة الانفعال، والنّيّرات على وُفور ضيائها، وظهور سناها وسنائها، فيما لا تُقابَل كليلة، وعندما لا تُسامَت عليلة، وفيما لا تُنال ظنيلة[6]، [وما قُنية ورِثتُها، ونعمة طوّقتُها، ورفعة ألبستُها، بمكفورة أثارُها، ولا مسودة أنوارُها، ولا مواتّي إلى الدّولة العليّة بطارقة، ولا شوافعي لديها بمستأنَفة....[7]

[وقد علم مبتلي السّرائر، وحافظ البواطن والظّوهر، أنها بصيرتي التي أستشعر، وسريرتي التي أضمر، وحقيقتي التي أخفي وأظهر، وشريعتي التي بها أُسِرّ وأجهَر، وأنّ مقالي كفيل فِعالي في موالاة سيّدنا – خلّد الله ملكه- على طول المدى، وشطّ المنتأى، وبُعدِ المرمى؛ ولمّا وقف الأمر على الحدّ الذي قدّمتُه، والقصدِ الذي ذكرتُه، والرّسم الذي أثبتُّه، لم أستبدَّ من إعلامه واستئماره، ولم أقعد عن استئذانه وإشعاره، ولم أُنفِذْ إلاّ بعد استخباره]"[8].

---

[1] - في ص 245: سيدنا الأجل
[2] - في ص 245: مؤيّدة خيث يمّم بطشته. وبعدهذا في الذّخيرة بتر عوّض بعبارة : وفي فصل منها
[3] - في ص 245: وفي فصل منها: وإني وإن قعدت
[4] - في المتن: ليعمّ
[5] - في ص 245: مع التزاور لترود
[6] - في ص 245: فيما لا يقابل...لا يسامت... لا ينال ظليلة
[7] - في الذّخيرة بتر عوّض بعبارة (وفي فصل منها)
[8] - فقرة ناقصة في 246

38 - رسالة عن إقبال الدولة صاحب دانية إلى الخليفة الفاطمي معتذراً عن تأخر المواصلة بين الطرفين[1] [452][2]

"وقد علمت الحضرة - صلوات الله عليها- أنّي مستمدٌّ التّعلّقَ بحبلها من كثب، ووارثٌ التحقّقَ بفضلها عن كلالة أدب، على هذا المهاد نشأتُ، وبهذا القرار ثوَيتُ، ومن هذا الثّمر اغتذَيتُ، وبهذه البصيرة تتوّجت وارتدَيتُ؛ وقد كان **للموفّق أبي**[3] - مولى الحضرة - منزَعٌ عَلِقَ بسببه، وأرَبٌ وُسِمَ أجملَ وسْمٍ به، أن يُثبت في ديوان مكاتبتها اسمَه، ويُلحِق في رسوم خدمتها رسمَه، ويُحرزَ الخصلَ في ميدانه، ويَبرز في أفقه وزمانه، ويحلّيَ مغربنا[4] بما لم يكن حالياً به، ويَفُضَّ عُذرةَ أمرٍ لم يُهتَدَ لجانبه؛ فوافاه حِمامُه - أكرم الله نُزُله- وهو في ذمائه يمهّد أكناف نيّته، ويُقيم شرفات بَنِيّته، فقضى ولم يُسعدْه القضا، ومضى ولم يكن الأمضى؛ ثمّ دُفع مولى الحضرة - أنا- إلى فتن جذبته عن تلك الفرائض، وقبضته من تلك المَعارض؛ ثمّ إنّ الله تعالى أيّد مولى الحضرة فمهّدتْ له هنيئاً من الظّفر، ونتجت له سَنيّاً من الوطر، فلمّا فرغ لنيّته التي كانت أمامَ ذكره، وملءَ صدره، أزمعَ الإيرادَ لآماله الحائمات، والسّفورَ عن هممه المتقنّعات، والإنزال لعزائمه المرفرفات؛ فها نحن واردو تلك الحياض، وخارقو ذلك الوفاض، ومنبضون[5] إلى تلك الأغراض، فلسنا في تلك القوافي إقواءً[6]، ولا في ذلك المضمار بطاءً، ولا سهمُنا غِلاءً[7]؛ ومولى الحضرة مملأٌ من كرمه، مؤيَّدٌ بجنوده، من كتائب تملأ الفضاء، وتغشّي الدّأماء، فتصدَعها بجبال كالرياح، ورياح كالجبال، ثانية الأقدار، وثالثة اللّيل والنّهار، تحمل مَن قد قامت من آسادٍ هي خدورها، وصوارمَ هي غُمودُها، وسهامٍ هي كنائنُها، وأفئدة هي جوانحها؛ فلو لقُوا المنايا لصرعوها، أو ضربوا الجبال لصدعوها، أو رمَوْا الأوهام لقرعوها، أو رامُوا النّجوم لفزّعوها....[8]

ولم يكن ليقدّم إليها غير الاستئمار، ولا ليقصدَ نحوها غيرَ الإشعار، لتكون بضائعه خوالصَ الإضمار والإظهار، وطلائعُه سوابقَ الإسناد والاستظهار، فهي أعزّ جناباً، وأعظمُ مَهاباً، من أن يقرع إليها باباً إلا بإباحتها، ويصل منها حجاباً إلا بسماحتها؛ ولمّا جرّد مولى الحضرة هذا المذهب من البأو بمكاتبتها، ولخّص هذا الأرب من التّشرّف بمراسلتها، رأى من

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم عن إقبال الدولة علي بن مجاهد الموفق (436- 468) إلى الخليفة الفاطمي المستنصر (427 -487)، وردت في **الذخيرة** 3/1/ 398- 400

[2] - هذا التاريخ للرسالتين إلى الخليفة الفاطمي ووزيره وارد في **التكملة** 3/ ص88؛ ومن الملاحظ أنه في السنة قبل هذه أي في آخر سنة 451 عطّل ابن عبّاد الدّعاء للمزعوم هشام وتبعه في ذلك من كانوا يدعون له، فهل أصبح إقبال الدّولة يبحث عن سند شرعيّ خاص به يمكن أن يتقوّى به على غيره من ملوك الطوائف؟ بالنسبة لخلافة المستنصر الفاطمي أبي تميم معدّ فقد امتدّت بين سنتي 427 و 487.

[3] - أمير دانية السابق مجاهد العامري (400- 436)

[4] - يقصد الأندلس لكونها في أقصى الغرب الإسلامي

[5] - في نسخة أخرى: ومنتهضون (هامش الذخيرة)

[6] - أقوى: نزل في قواء أي قفر، بلد قاو أي خال من السكان

[7] - الغِلاء: المبالغة من الفعل: غالى

[8] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)؛ وهنا لا ندري العلّة في تمجيد إقبال الدولة لقواه العسكرية.

توقيرها وتكبيرها تقليدَها من يكون كفيلاً بها أو طيِّقاً لتحمّلها، فندب لها من أبناء الوزراء، وصفوة الظّهراء مَن له السّابقة المذكورة، والعين المشهورة، والأحوال الخطيرة، والخلال المشكورة، ودماثة الجانب، وسكون الطّائر، مضمّناً **مركباً** من مراكبه[1] يدلّ به مدلَّ الليل بالصّباح، ويَنِمّ عليه كما نمّت على الزّهر الرّياح، خلا أنّ مَن سكن المغرب الأقصى[2]، وجاور الثّغر الأعلى، وجاذب اللسان الأجفى، وارتضع الجعجعة الخشناء، والعجرفة الصمّاء، ثمّ حاول حرمة الخلافة العظمى، والحضرة العليا، وغشِيَ مصرَ الإسلام، ونُخبة الأنام، ومحفل الجماهير العظام، فمعذور أن تُعشِيَه أنوارُها، ويُغْشِيَه إكبارُها، وتَحصرَه مهابتها، وتُخرسَه جلالتها؛ ومن فواضل الحضرة وسَرعان إنعامها، وبواكر إكرامها، إرقاؤه إلى البساط المعظّم ليَلثمه، وإدناؤه من الحرم المكرّم ليستلمه؛ ولو أنّ مولى الحضرة يستعير الروضَ نشرَه، والمِسكَ عِطرَه، والبحرَ دُرَّه، والسّحاب قطرَه، والزّمانَ عمرَه، وعُطاردَ نَظمَه ونثره، فيسُدّ بها الأفقيْن، ويملأ ما بين الخافقين، ليوصِلَ معتقدَه، ويؤدّي تعظيمه وحمدَه، ويُنهي كُنهَ ما عنده، لما استوفتْ عَدَّه، ولا سبَرت عِدّه ...."

39 - رسالة عن إقبال الدولة إلى وزير الخليفة المستنصر الفاطمي في موضوع سابقتها[3]

[452][4]

"أطال الله البقاء، وأدام العزّة والعلاء، والسّعادة والنّماء، ورحْب الفِناء، ونضارة الأرجاء، لحضرة سيّدنا الوزير الأجلّ صفيّ أمير المومنين[5]، ولا برحت القلوب حوائمَ على شِرعته، كما زُيِّنَ نحرُها بقلائد الخلافة، وحُلّيَ جيدُها بنظام الإمامة، والشّمسُ محلُّ السّعد:

وفي عنق الحسناء يُستحسَن العِقد

فما أظلمَ ليلٌ كان سيّدنا صبحَه، ولا أبهمَ معنىً كان شرْحَه، ولا أساء زمانٌ كان حسنتَه، ولا بَخِلَ وقتٌ كان موهبتَه، ولا أذنبَ عصرٌ كان عُذرَه، ولا ذوَى روضٌ كان زهرَه، ولا أوْحشَ أمرٌ كان أُنسَه، ولا أظلمَ أفقٌ كان شمسَه، ولا عَطِلَ نحرٌ كان حَليَه، ولا ضلّ مُلكٌ كان هدْيَه.

وإنّي أطال الله بقاء حضرة سيّدنا، وإن لم أحلّ بمكاتبته تقليداً، ولم أحْظ بمداخلته مستفيداً، فبه أثمرَ غرسي، وله انتظم غدي وأمسي، وعليه تهدّل جنى نفسي؛ فمحاسنه التي ملأت الملويْن[6] ثنَتْني فانثنَيتُ، وأنوارُه التي طبّقت الخافقيْن هدتني فاهتديتُ، فسرتُ

---

[1] - في هذه المدّة اضطرّت الخلافة الفاطمية لطلب المؤونة من الأندلس حيث عرفت فترة قحط طويلة الأمد امتدت من سنة 446 إلى 454، ثم عاودت بين 459 464 (حسن إبراهيم: **تاريخ الإسلام السياسي** والديني ولثقافي والاجتماعي، القاهرة 1967، ج 4/ 180).

[2] - يقصد الأندلس لموقعها في أقصى الغرب الإسلامي.

[3] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما في **الذخيرة** ق3/م1/ 395-397 موجّهة إلى وزير الخليفة الفاطمي، كتبها عن أمير دانية إقبال الدولة كما يظهر من مضمّنها عندما أشار إلى أنّه سلك مسلك أبيه في الاتصال بالخلافة الفاطمية، وقد قدّم لها ابن بسام بما يلي: "وله من أخرى في مثل ذلك إلى الوزير هنالك."

[4] - انظر هامشاً في الرسالة السابقة حول تاريخ الرسالة.

[5] - قد يكون هو نفسه المشار إليه في الرسالة السابقة أي الخليفة المستنصر (427 -487).

[6] - الملَوان: الليل والنّهار، مفردها (ملاً)

إليه مسيرَ السّيل إلى قراره، وانجذبتُ نحوه انجذابَ النّجم إلى مداره، **وجريتُ على نهج أبي** - رحمه الله - في خدمة الحضرة والمكاتبة لها والمهاجرة إليها[1]، وما نَدِيَ لي من ثراها، وتمهَّدَ لي من رضاها، وأحظاني من سَنِيّ جوابها، وبهيِّ تحليتها، والإقبال عليّ بقبولها، فذلك الفخرُ تاجٌ على مفرقي، وذلك الفضل طوْقٌ في عنقي، فحقٌّ أن تتأكد بصيرتي، وتستمرّ مريرتي، وأطّردَ على وتيرتي، فلا أزال مطالعاً وخادماً لها.

وسبقت السِّيَرُ، واستمرّت المِرر، بأن يُطرف المولى سيّده، ويُلطف الوليُّ معتمَدَه، وقلّت الدّنيا وصمتُها، والأرض ووفرُها، لمستمسك بحبل الحضرة، ولا جرم أنّها خدمة تخبر عن همّة، وسيرة تُنبئ عن سريرة، وقربة يُتقبَّلُ فيها الوتح[2] الحقير، ويُتجاوَز عن القصور والتّقصير، علماً بأنّها على الاختفاء لا على الاحتفال، وعن الإخبار عن الضّمير لا على الأخطار؛ فهيّا شيعة سيّدنا وصفوته، سمْحَ الأوان، وعجالة الإمكان، على النّوى القذوف، والمنتأى الغروف، أنداداً من ألطاف حوزته، وأفراداً من خواصّ عمله، وأعداداً من تُحَف جهته، يشرُف بعضها بحضرة الخلافة، وبعضها بحضرة الوزارة؛ وضمَّنها من بياض خاصّته: **حربيّاً**[3] حصين البنية، أمينَ الطّويّة، رائق البردة، وافر العُدّة، تقلّدَه الأستاذ أبو الحسن كوثرُ نعمته، وعهدة الحضرة[4]؛ فنفذ في حفظ الله وصحبته، وفي كفالة سعد أمير المومنين، وسلك البحر كأنّه في أديمه شامة، بل في سمائه غمامة؛ وحضرة الوزير - أعزّه الله - تسدّ في الجهتين الخلل، فتحمل وتُجمل، وتقبل وتتقبّل، وتغتفر خطلَ ما نقول ونفعل، وتتأوّله إن شاء الله أحسنَ التّأوّل، وتكسوه المعرض الأجمل، فهي الهادية لضوالّ الآمال، المُحلّية لعواطل الأعمال..."

40 - رسالة أخرى من إقبال الدولة إلى وزير المستنصر الفاطمي في نيّة أبيه الاتّصال به[5]

[452 - ...]

"... فالحضرة العلية معنىً هو شرحُها، وشمسٌ وهو صبحُها، وأذن وهو قُرطُها، وجيدٌ وهو عِقدها، ومِعصَمٌ وهو سوارها، وعينٌ وهو نورها، ورأس وهو عينها، ومَبسَم وهو ثغرُها، وكفٌ وهو بنانُها، ورمح وهو سِنانها، وحسام وهو

---

[1] - إشارة إلى وجود علاقة بين أمير دانية السابق مجاهد العامري والخلافة الفاطمية بمصر، لكن الرسالة السابقة تشير إلى نيّة الموفّق في ذلك، ولم يؤجّله أجله للاتّصال بالخلافة الفاطمية.

[2] - الوتْح: القليل التّافه

[3] - أي زورق حربي يحمل الهدايا إلى الخليفة الفاطمي كما في الرسالة السابقة، وهذا ما يجعل الرسالتين في تاريخ واحد، إحداهما إلى الخليفة والأخرى إلى وزيره وذلك سنة 452، ومثل هذه الحالة تحدث عادة حين استبداد الوزير على خليفته.

[4] - كذا، والمناسب: وعهدة حضرته

[5] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما وردت في **الذخيرة** 3/1/ 400- 402، وقد قدّم لها بهذه العبارة : وله من أخرى إلى الوزير هنالك.

غرارُها، وسماء وهو بدرُها، وروض وهو زهرها، وساق وهو قدمها، ذلل لها المستصعبات، وفتح لها المبهمات، وأوضح لها المشكلات، وأضاء لها الظلمات، وأنّ انتظامها به، وكمال بهجتها بخدمته، وتمام سعادتها بولايته، وأرَجَ نشرها بمظاهرته، وبروز سبْقها بمؤازرته.

وكان **للموفق أبي** نهجٌ بمداخلتها، ومفتتح لمراسلتها، لم يفارقه - روّض الله مثواه -، إلى أن فارق دنياه، فكنتُ أبا عُذرتها، وفاتقَ أكمتها، وفاتح مرتتجها، وسالكَ منهجها، فبرزتُ بين أبناء مغربي في مداخلتها، **وعرض صاغيتي**[1] **وخدمتي عليها**، وتوفيد[2] مكاتبتي ومراسلتي إليها، **في مركبي** الذي أعلمتُه خالاً في صفحة البحر، وسويداءَ في مقلة العصر؛ ووصلت بمكاتبتي مَن هو لها كفؤ، ولي ظهيرٌ ونشْء[3]، من أبناء أهل الخطر، وذوي الشرف والقدْر، ومَن له الشّيَم الهادية، والرّيح السّاكنة، والمناصحة البالغة، فلان[4]، أحد أبناء الحضرة، وذوي السّرو والقدرة؛ إلاّ أنّ أهل مغربنا مرتضعون العُجمة، مدّرعون الحشمة[5]، بمصاقبة الثغور الخشنة، ومجاذبة الألسن الثقيلة، وممازجة الأمزجة الكليلة، فمَن دُفع منهم بعدُ إلى خدمة الخلافة العليّة، وجاور الألسنة العضبة، وشافه النفوس الرّطبة، وداخل الأمزجة العذبة، وارتقى إلى سماء تلك العزّة، فعذرُه مقبول، وأمرُه على الاجتهاد الأصيل والاعتقاد النّبيل محمول؛ وما الأقلام وإن مدحت، ولا الأقوال وإن جمحت، ولا الأوصاف وإن سمحت، بمعبِّرات عنده من حسن الصّاغية، وخلوص النّاحية، والممالأة الصّافية، والمناصحة الزّاكية، والخدمة الوافية؛ وإن بعُد مثواه، فلم يبعُد من كانت الضّمائر وسائله، والرياحُ رسائله، ولا تكتتم النّيّرات عن حدَقه، ولا تنحرف أفلاكها عن أفقه، ولا تتجافى مسالكها عن طرقه..."

41 - رسالة ودّ وإتحاف عن إقبال الدولة ابن مجاهد أمير دانية إلى الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر [6]

[452- ...][7]

"... وبعدَ ما لزم الاستفتاح به وهي الإصباح شُهْبُه، فإنّ مولى الحضرة الطّاهرة - صلوات الله عليها[8]- اعتمد قضاء حقّها، وإتيان وفقها، وعليه من حلل النّعمة أضفاها، ومن

---

[1] - الصاغية : الميل إلى الشيء

[2] - أي إرسال الوفد بالمكاتبة

[3] - كتبت في الأصل: ونشأ؛ ويظهر أن الصواب ما أثبتناه حيث هي في حالة مصدر.

[4] - ضاع هنا اسم المبعوث الأندلسي نحو مصر.

[5] - في نسخة أخرى: الخشنة (هامش الذخيرة).

[6] - الرسالة من إنشاء أبي الأصبغ عبد العزيز بن محمد ابن أرقم الوادي آشي كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 393- 395 ، وفي كتاب **دول الطوائف** 198 فقرة من الرسالة (ترجمة الكاتب في **الذخيرة** 360/1/3؛ **القلائد** 367 وما بعدها؛ **التكملة** 87/3- 88 تح. الهراس؛ **نفح الطيب** 3/ 498- 499).

[7] - قد يكون تاريخ هذه الرسالة بعد تاريخ الرسالتين السابقتين.

[8] - العادة عند الفاطميين أن يستعملوا التصلية على أئمّتهم (خلفائهم).

حلل السّعادة أبهاها، ومن جُنن السّلامة أوقاها، ومَن قِبَلَه من أولياء الحضرة وحذاها، وعبيد دولتها، وسهام كنانتها، وشهُب سمائها، ورقيق مُلكها، وشِيَع مَلكِها، المستنجحين بطائرها السّانح[1]، المتبرّكين بفضلها اللائح، في كنف الله وعصمته، وخفارة سعد أمير المومنين وذمّته، وما ولاّه الله من البلاد، وخوّله من العتاد، وأولاه من تالد ومستفاد، على ما يُرضي أمير المومنين وُفورَ عددٍ، وظهور يدٍ، **وأنّه سلفَ لمولى حضرته الطاهرة الاستثمارُ في تفيُّؤه لبَرود ظلالها**، والاستئذانُ في ادّراعه لبُرود أفضالها، وارتضاعُه لحَلمات قبولها وإقبالها، وقدّم عقيلة نفسه ورائدَ قلبه، ووصف مباديَ نزاعه وطلائع انجذابه، ودواعيَ مهاجرته، وجواريَ مفاتحته، وأعلمَ أنّه ذخرَها ليومه وغده، واعتدّها لنفسه وولدِه، فإنّها الشّمس بَعُدَ جِرمُها، وكثر ضوءُها، ونأى محلُّها، ودنا ظلّها؛ فصدرت المراجعة الباهرة بما أضاء جوانحه[2]، وزجر سوانحه، وأمرعَ[3] مواطنه ومسارحه، وتبيّنَ السّعدُ مُعانقه ومُصافحَه، وصادف رائدُ قلبه مَراداً خصيباً، وريحاً جنوباً، وتقيَّلَ المولى منها مَراحاً مروحاً ومَقيلاً، وتتوّج رسم **الخلافة المستنصرية** إكليلاً[4]؛ وإن بعُدت أقطارُه، فعلى مقدار بُعد الهجرة إيثارُه، وما تتأتّى السّبُل، ومُتونُ الرّياح الحوامل والرّسل، فإن لم تكن سليمانية النّصبْة، فإنّها علوية النّسبة[5]؛ {فالآن استمرّ المَرير، واستقرّ الضّمير، واطّرد الأمر على بصير، فتنسّم مولى الحضرة ريّاها عطِراً، وراد روضَها زهَراً، وشام برقَها ممطراً، واستوضح هلالها مُبدِراً، وارتشف ماءها خَصِراً، فما الشّكر وإن جزل يرقى ثنايا ذلك الإفضال والإنعام، ولا اللّسان وإن جعل يتعاطى ذلك الثّناءَ ولا الأقلام، ولا الجهد يقدر قدر ذلك الإكبار والإعظام، ولا الوجد يفي بتلك العوارف الجسام، ولا الطّوق يقوم بأعبائها حقّ القيام، وأيّ وسع يباري البحر وهو طامٍ، وأيُّ طوق يُطيق ركني شَمام؟ ولو كانت للمولى بالقدر يدان، وساعده إمكان، وساعفه زمان، لأمَّ شخصُه كعبة الآمال، واستقبل بقصده قِبلة السّعد والإقبال، واستلم بيده ركن الإنعام والإسبال}[6]، فإذا لم يَنسُك مُحرماً، ولم يقرُب مستلماً، ولم ينقل إليها قدَماً، فحسبُه النّيّة التي هي أسّ البنية والطّويّة، على نائي الطّيّة، وما تيسّر من هذْي يُهديه، وعُمرة عنه تُجزيه، وإن شطّ المحلّ.

وسلفت السّيَرُ، واستمرّت المِررَ، بإطراف الموالي سادتهم وإتحاف الأولياء ذادتهم، وإلطاف الخُدّام قادتهم، على سمْح الأوان، لا على الخطر والشّان، وعلى حكم التخدّم والاهتبال، لا على حكم الهمم والأحوال؛ فما النّفوس: فكيف النّفائس وحاملوها، ولا الدّنيا وأهلوها، ولا الأرض وعامروها، بكفاء لبعض واجبات الحضرة، ولا بجزء من أجزاء فرضِها، ولا لنبذة من

---

[1] - السانح: القادم من اليمين، والبارح القادم من اليسار، وكان العرب يتفاءلون بالأول ويتشاءمون بالثاني.

[2] - المقصود جواب الخليفة الفاطمي على رسالة أمير دانية السابقة فيما يبدو.

[3] - أمرع المكان: أخصب

[4] - كانت الدعوة للخلافة الفاطمية في هذا الوقت تصل غرباً إلى صقلية وإفريقية قبل انقطاعها في هذه الأخيرة منذ سنة 443 (حسب **البيان**280/1)، ألم يكن توجيه العرب إلى إفريقية بسبب ما كانت تعانيه مصر من القحط، فمال العرب أنفسهم إلى مغادرة المنطقة، فوافق ذلك تشجيع الخليفة الفاطمي لهم للتّخلّص منهم؟

[5] - إشارة إلى نسب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب كما يدّعون. وابتداء من هنا تبدأ الفقرة التي نقلها عنان في: **عصر الطوائف** 198، مع بعض الأخطاء فيه.

[6] - هنا توقّف المقطع الوارد في:دول الطوائف؛ والكلمتان الأخيرتان هما: الإنعام والإفضال.

جُمل قرضها، ما عدا أنّ الله سبحانه قبل منّا اليسير، وصفح عن التّقصير، وتجاوز عن الحقير؛ فألّف المولى أشتاتاً، ونظم أفراداً، وجمع أصنافاً، وهيّأ ألطافاً، **من تُحف أفقه**، وخواصّ أرضه، وغرائب مغربه، وطرائف ثغره، شرَح أنواعها، وأفراد جماعها ونثر نظامَها، وفصّل تؤامَها في ملطفٍ طيٍّ مكاتبته هذه، وأودعَ ما نوّعه، وضمّن ما جمعه، **حَربيّاً**[1] من أشدّ نمطه حصانة، وأوفره أمانة، وأكثره عُدّة وعِدّة، وأفضله جدّة[2] وجِدّة، وأبهجه حِلية وبُردة؛ وتفاءل المولى في اسمه ووسمه[3]، فخرق أديم البحر على اليمن والطّائر السّعد، والفأل الصّدق، كأنّه هلال سائر، أو عقاب كاسر، أو بازٌ مهابذ[4]، أو شهاب ثاقب أو سهم نافذ[5]؛ ولحضرته الطّاهرة - صلوات الله عليها- تأكيد العارفة، وتأييد الصّنيعة، وتشفيع الكرامة في حسن القبول، والتّجاوز عن خلل المعقول والمَقول، وتأوُّلِ أمر مولاها أحسنَ التّأويل ..."

42 - رسالة تقدير وإجلال من أمير دانية إقبال الدولة إلى مقر الخلافة الفاطمية[6]

[452 - ...]

"... وإنّ مولى الحضرة العليّة لما حمل من تأميلها ما أضاء جوانحه، وارتسم من خدمتها ما أراه سوانحه، فتعرّف اليُمن باكِرَه ورائحَه، وتبيّنَ السّعدَ مُعانِقه ومُصافحَه، تفيّأ بَرودَ ظلالها، ليدّرع بُرود تشريفها وإفضالها، وارتضع حلمات جنابها، ليستدرّ أخلاف طِلابها، واستأمر بخطابها، ليحظى بسنيّ جوابها؛ ووجّه من صفوة نظرائه **أبا مروان بن نجية**[7]، معلِماً باستثماره، مستظهراً بإشعاره، بعد أن صفت لُطف سرائره، وتبلّجت أزاهر ضمائره، وثَريَت أرضُ صاغيته، ونَديَت روضُ طاعته، وكادت تورق صفاةُ طرقه، وتُعشِب حصى أفقه، وتطلع من عزيمته الشّمس، وتثمر آماله قبل الغرس؛ وكاد الجسم يسبق النّفس، والنّاظر يقدم الحسّ، بصريمة تخلج خلاجَ المنتوَى، وتحتزّ وداجَ النّوَى، عودُها نُضار لا عَرار، وسرُّها محضٌ لا سَمَار[8]..."

43 - رسالة تقدير إلى وزير الخليفة الفاطمي[9]

[452 - ...]

"حضرةُ سيّدنا - أيّده الله- قلائدُ يروق على نحر الخلافة نظامُها، وتخفُق على عاتق الثّريّا أعلامُها، تبرئ الأسماع من صَممها، وتَشفي الصّدور من وحرها،

---

[1]- يظهر أنّ المقصود إرسال هدايا وتحف في سفينة حربية مجهّزة بعُدّتها وعددها، قد تكون هي غير السفينة وحمولتها المرسلة كما ذكرت في الرسالة قبل السابقة، وهذا التنوع في الهدايا استلزم مدرجاً مكتوباً بتفاصيلها.

[2]- الجدّة في السير : الإسراع

[3]- يظهر أنه يقصد المركب

[4]- أي مسرع في الطّيران

[5]- قد تكون السفينة الحربية من نوع الغربان، فهذا النّوع عادة ما يكون للقتال.

[6] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما وردت في **الذّخيرة** 3/1/ 402- 403، قد يكون كتبها عن إقبال الدولة إلى مركز الخلافة الفاطمية، قدّم لها ابن بسام بقوله : وله من أخرى في مثله.

[7] - كذا في الأصل، ولم نتعرّف على ترجمته ...

[8] - السّمار: اللّبن الكثير الماء

[9]- الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما وردت **الذخيرة** 3/1/ 403، بعد أن قدم لها مؤلفها بقوله : "وفي فصل من أخرى...." وقد تكون موجهة إلى الوزير المصري.

وتصحّ الجسوم من وصبها، وتريح النّفوسَ من نصبها، كما تصُكّ أسماع العِدا، وتخلع قلوب من ناوا، وتُقِضّ جسم من عصى، وتقطع وريدَ مَن اعتدى؛ فهي حياةٌ وردى، وشهبٌ وقضُبٌ، ونجوم ورجوم، لا برحت تمطر الوليّ ربيعاً، والعدوَّ نجيعاً، ولا زال سيّدُنا حسامَ عاتق المُلك، وواسطة ذلك السّلك[1]، وخالصة ذلك السّبك، فإنّه سرى إليّ من مآثر حضرته ما أخجلَ المِسكَ ريّاه، وكسف الشّمسَ محيّاه..."

44 - صكّ لأمير مرسية أبي عبد الرحمن ابن طاهر بتقديم قاض للأحكام في إحدى الجهات[2] [455 - 471]

"قلّدتُ فلاناً[3] - سلمه الله - النّظر في أحكام فلانة (وجهاتها)[4] وتخيّرته لها بعدما خَبرتُه، واستخلفتُه عليها وقد عرفته، واثقاً بدينه، راجياً لتحصينه، لأنّه إن احتاط سَلِم، وإن أضاع أثِم؛ فليُقِم الحقّ على أركانه، وليضعْ العدل في ميزانه، وليساوِ بين خصومه، وليأخذْ من الظّالم لمظلومه، وليقف في الحكم عند اشتباهه، وليُنفذْه عند اتّجاهه، ولا يَقبلْ غير المَرضِيّ في شهادته، ولا يُتعرَّفْ سوى الاستقامة من عادته، وليعلم أنّ الله مطّلع على خفيّاته، وسائلُه يوم ملاقاته..."

45 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر إلى إقبال الدولة أمير دانية مهنّئاً برجوع أحد المعاقل[5] إليه والظفر بالمنتزي عليه [455 - 468][6]

"جراحات الأيّام - أيّدك الله- هدَر، وجناياتها قدَر، وليس للمرء حيلة، وإنّما هي ألطاف جميلة، تَستنزل الأعصم من هضابه، وتأخذ المغترّ بأثوابه، أحمده عوداً وبدءاً على النّعمة التي ألبسك سربالها، والفتنةِ التي أطفأ عنك اشتعالها، والرئاسةِ التي حمى فيها حماك، وردّ خاتمها إلى يمناك، وقد تناولته للباطل يدٌ خشناء، فاستقالته يدك الحسناء[7]، فلم يكن عنده أهلاً لتلك البنانة، ولا رآه حَلياً لخنصر الخيانة، والأعناق تقطعها المطامع، والنّفاق تُستوعَر فيه المَطالع، فأقرّ الله عزّ وجلّ الحال في نصابها، وأبرزَها في كمالها تتراءى بين أترابها،

---

[1]- من هذه العبارةِ نرجّح توجيه الرسالة إلى وزير الخليفة الفاطمي.

[2] - ورد هذا الصّكّ في **القلائد** 192 من إنشاء ابنِ طاهر نفسه؛ و قدّم له ابن خاقان هكذا: "وله صكّ بتقديم على الأحكام في إحدى جهاته..." دون أن يوضح هل في فترة إمارته أو في أثناء رئاسته المظالم – وقد تولاها هو وأبوه قبله- انظر ترجمة ابن طاهر في **القلائد** ص 170- 173؛ **الحلة السيراء** 2/ 116 وما بعدها؛ **المغرب** 2/ 247- 248؛ **أعمال الأعلام** 2/ 201- 202؛ قيل إنّ له تأليفاً سماه "سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر"، وهو مفقود.

[3] - أسقط النّساخ اسم القاضي المقدّم للأحكام، كما أسقطوا اسم الجهة المقدّم عليها

[4] - كذا في نسخة أخرى (انظرهامش القلائد).

[5] - هل يتعلّق الأمر بحصن شقورة في أقصى غرب الإمارة ؟ وإذا صحّ هذا ألا يكون ابن عباد وراء هذا التدبير تمهيداً لدفع نفوذه في اتجاه الشرق كما سيحدث لاحقاً ؟

[6] - الرسالة في **قلائد العقيان** 177- 178؛ وهي من إنشاء ابن طاهر (الابن) أمير مرسية (455- 471)، يمكن أن نحدّد تاريخها بين سنة 455 أي من بدء إمارة ابن طاهر على مرسية، وسنة 468 تاريخ نهاية إمارة إقبال الدولة في دانية.

[7] - هل يقصد المحاولة الفاشلة من طرف الأمير حسن لاغتيال أخيه الأمير إقبال الدولة، راجع الرسالة رقم31.

ووصعت الحرب أوزارها، وأخفت الأسُود أخياسَها وإزآرَها؛ ومن كانت مذاهبه كمذاهبك، وجوانبه للسّلامة كجوانبك، أعطته القلوب أسرارَها، وأعلقته المعاقلُ أسوارَها، وانجلت عنه الظلماء، وأكرمَ قرضُه والجزاء؛ فليهنئك الإياب والغنيمة، وهما المنّة العظيمة، وليكن لهما من نفسك مكان، ومن شكرك لله بالموهبة (إسرار)[1] إعلان.

وأمّا حظّي منها فحظّ المسلوب أمكَنَه سلبُه، وذي مَشيب عاودَه شبابه وطربُه، ولمّا اقترَنَا لي، وكانا معظم آمالي، وعلمت أنّ بهما زوالَ الخلاف، وتوطنة الأكناف، وأنّ بالصّدَر تَثلج الصّدور، ويبتهج السّرور، بادرتُ إلى توفية الحقّ لك، وتعرُّف الحال قِبَلك، مشيّعاً بالدّعاء في مزيدك، ضارعاً في الإدامة لتأييدك، فإنّ الوقت إساءةٌ وأنت إحسانُه، والخيرَ عينٌ وأنت إنسانُه، فإن مننتَ بما سألتُه أفضلتَ وأحسنتَ، إن شاء الله عزّ وجلّ".

46 - رسالة من ابن طاهر إلى ابن عبّاد في تجديد الودّ بين الطرفين[2]

[461 - 471؟][3]

"مَن وجد سلفه على مذهب من الخير بيّن، وسَنن من الفضل متبيّن، سَرّه أن يتحلى بتلك الخُلق، ويتجلى من تلك الأفق، وأنّ الزمان اللّدِن الذي انقضى، وامّحت صورته الحسنى، نظّم بين ذي الوزارتين القاضي جدِّك[4] وبين أبي مولاي[5]، كان - رحمه الله - **عقد الصِّلة**، وأبرم بينهما حبل الخُلّة، وشقّ بينهما المصافاةَ شقّ الأبلَمَة[6]، وأطلعهما نجمين في أكابر تلك اللُّمّة، يفترقان عند الاستعمال، ويحملان يومئذ مُضلِعَ الأثقال، إلى أن امتزجت بهما الحال امتزاجاً، وكان كلُّ واحد منهما لنفس صاحبه غذاءً ومزاجاً، ولم يَقنَع من ذلك الالتفاف، بواقعة الكفاف، حتى أتمّ صنائعه، ورقَمَ وشائعَه، خلال ما ابتدأه، ونهجه وهيّأه، فضمّنا والرئيسَ الأجلَّ أباك - معتمَدي- كان رضي الله عنه في زمرة الطّلبة، والأسرةِ منهم المنتجَبة، **ورتعنا في رياض الاصطحاب**، واستذرينا من أدواحها بأمثال السّحاب، نُصيب من بردها ودَرّها، إلى أن أطلعت الأيّام شجرَ مُرّها، برائع الفراق، ولم نَشفِ الأشواق، وأقبلت الفتن والمحن تنساق[7].

---

[1] - كذا في نسخة أخرى (انظر هامش القلائد)

[2] - وردت الرسالة في **الذخيرة** 3/1/ 44- 45

[3] - يبدو أنّ تاريخ الرسالة ينحصر بين سنة 461 التي هي بداية إمارة المعتمد كما هي مشار إليها في المتن، وسنة 471 التي كانت سنة توتر بين الطّرفين باستيلاء جيش ابن عباد على إمارة ابن طاهر في مرسية.

[4] - يظهر أنه القاضي محمد بن إسماعيل الذي تولى القضاء بإشبيلية زمن الحاجب المنصور، واستبد بحكم إشبيلية على بني حمّود بدءً من سنة 414 إلى وفاته سنة 433 مؤسساً بذلك مملكة بني عبّاد.

[5] - هو قاضي المظالم بمرسية أبو بكر بن طاهر الذي تحوّل إلى رجل سياسة بالاستقلال بمرسية سنة 429 عند موت أميرها زهير العامري، فاستمرّ إلى وفاته سنة 455 أي أنه معاصر للقاضي أمير إشبيلة محمد بن إسماعيل بن عباد في أوائل عهده بها، ثم عاصر عهد ابنه المعتضد عباد.

[6] - شقّ الأبلَمَة : أي مقتسمة بين الطّرفين بالتساوي (انظر **القاموس المحيط**)

[7] - يفيد هذا في كون المعتضد بن عباد عاصر فترة من إمارة ابن طاهر إلى أن مات فخلفه ابنه المعتمد في فترة إمارة ابن طاهر بمرسية قبل أن يفقد إمارته على يد جيش المعتمد.

فلمّا **اطمأنّت بك قدم الرئاسة**[1]، واستقرّت منك في شخص السّيادة والنّفاسة، جعلت الهمّة تتطلع، والإرادة منّي تنقاد وتتبع، في الإلمام بمداخلتك، والتسبّب لمطالعتك، ليلتئم باعتلاقك ذلك الشّعب، ويستريح من بُرَحائه القلب، والأيّام على شِيَمها وشومها، في عوارضها ولُومها، إلا أنّي مع ذلك لم أُخلِ مشاهدتي من الذّكر لك، والفخر بك، حتّى وافى رسولُك النّاحية فمددتُ يدَ المخاطبة لك، وأحببتُ فتحَها معك لأعلِق منك كفّي، بماجدٍ يكون ركني وكهفي[2]، واثقاً بحسن المقابلة والقبول، عارضاً وُدّي بمهبّ الصَّبا والقبول؛ فإن مننتَ بالمراجعة فذلك البغية والمراد، وإلاّ فما أخطأ الاجتهاد، والله ييسّر المرتجى منك، ويدفع محذور النّائبات عنك، بقدرته الباهرة ومشيئته العالية..."

47 - رسالة من ابن طاهر إلى ابن عبد العزيز صاحب بلنسية بعد نجاح شفاعته في إطلاق سراحه[3] [473][4]

"كتابي وقد طفّل العشيّ، ومال[5] بنا إليك المَطيّ، ولها من ذكراك[6] حادٍ، ومن لُقياك هادٍ، وسنوافيك المساء، فنغفر[7] للزمان ما قد أساء، ونردُ ساحة الأمن، ونشكر عظيم ذلك المنّ، فهذه النّفس أنت مُقيلُها، وفي برْد ظلّك يكون مَقيلُها؛ فلله مجدُك وما تأتيه، لا زلتَ للوفاء تُحييه (وتحويه)[8]، فدانت لك الدّنيا ، ودامت بك العليا ؛ إن شاء الله تعالى (بمنّه)[9]".

---

[1] - أي بداية إمارة المعتمد سنة 461

[2] - كانت الفترة المشتركة لحكمهما معاً- ابن طاهر في مرسية وابن عباد في إشبيلية - بين سنتي 461 و 471

[3] - الرسالة في **قلائد العقيان** 182- 183؛ **الذخيرة** ق3/ م1/ 33، كتبها ابن طاهر عندما وصل إلى جزيرة شقر[3] أول بلاد ابن عبد العزيز أمير بلنسية بعد تسريحه من معتقله.

[4] - استخرجنا هذا التاريخ من عبارة أوردها ابن بسام ضمن ترجمة ابن طاهر هكذا: "وعند انجلاء تلك الظّلماء [عنه] خاطب جماعةً من الرؤساء وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين، فمن ذلك رقعة خاطب بها ..." (**الذخيرة** ق3/م1/ 34)

[5] - في الذخيرة: وسال

[6] - في الذخيرة: من ذكرك

[7] - في الذخيرة: فنغتفر

[8] - ما بين هلالين إضافة من الذخيرة

[9] - علّق ابن خاقان على الرسالة بقوله: فلمّا وافقت رقعته الوزيرَ الأجلّ أبا بكر ركب إليه في جملته... وانزله في قصر مجاور. وأطلعه على سرّه وجهره، لم ينفرد عنه بقصة ولا اختصّ دونه من الملك بحصّة (**القلائد** ص182)

ب ـ ممالك الثغور (سرقسطة، طليطلة، بطليوس)

تقديم

كانت سنة 456 سنة شدّة على الثغور الأندلسية، فبعد أن كان ابن عبّاد وسّع نفوذه على حساب الإمارات الصغيرة المجاورة بما فيها إمارة بني حمود، واستمرّ في الصراع مع جاره الشمالي ملك طليطلة ابن ذي النّون حول قرطبة خاصّة بعد تنافس ولدي أميرها ابن جهور المتوفى سنة 457، إضافة إلى نزاع ابن عبّاد مع المظفّر ملك بطليوس، انتعشت **الحملات الصليبية** على الثغور الشمالية شرقاً وغرباً، فبينما اهتمّ النورماند والفرنسيون ونصارى أركون وما قاربها بضرب الحصار على وشقة ثم حصار **بربشتر** حتى انتهى بسقوطها سنة 456، كان فرناندو ملك قشتالة يتوسّع في الثغور الشمالية الغربية لمملكة بطليوس حتى انتهى إلى الاستيلاء على **قلمرية** في نفس العام، كما وزع أبناءه الثلاثة نحو الشرق - ربما في منافسة مع الأركونيين- فحاصر أحدهم سرقسطة، والثاني وشقة، والثالث قلعة أيوب. ولم تتحرر بربشتر في السنة اللاحقة (457) إلا باستنفار حصل في مملكتي سرقسطة وإشبيلية. ثم هدأت أحوال الثغور الشمالية الوسطى والغربية مؤقتاً بموت ملك قشتالة فرناندو الأول سنة 458/ 1066م، وتنازع أبنائه الثلاثة على عرش قشتالة وليون وجليقة، فلمّا تولى العرش ألفونسو السادس بن فرناندو واستقرّت له الأحوال، استأنف حروب "الاسترداد" ضد المسلمين مبتدئاً بثغور جاره الشرقي ابن هود ، بحيث استولى على جملة من ثغورها الغربية خاصة مدينة سريّة سنة 471، وأخذ يتهيّا لمشروعه الكبير وهو احتلال طليطلة لينطلق منها إلى الجهات الأخرى، وقد ساعده وجوده منفياً فيها أيام حكم أخيه سانشو الأول على التعرّف على مكامن الضعف فيها، فرغم دفع ملكها الجزية له وإعلان تحالفه معه أو تبعيته، فإنّه طالبه بتسليم طليطلة، ثم قام بحصارها إلى أن احتلها سنة 478، فظهر أنها بداية النهاية كما تجلت في بعض أشعارهم:

يا أهل أندلس حثّوا مطيّكم == فما المُقام بها إلا من الغلط

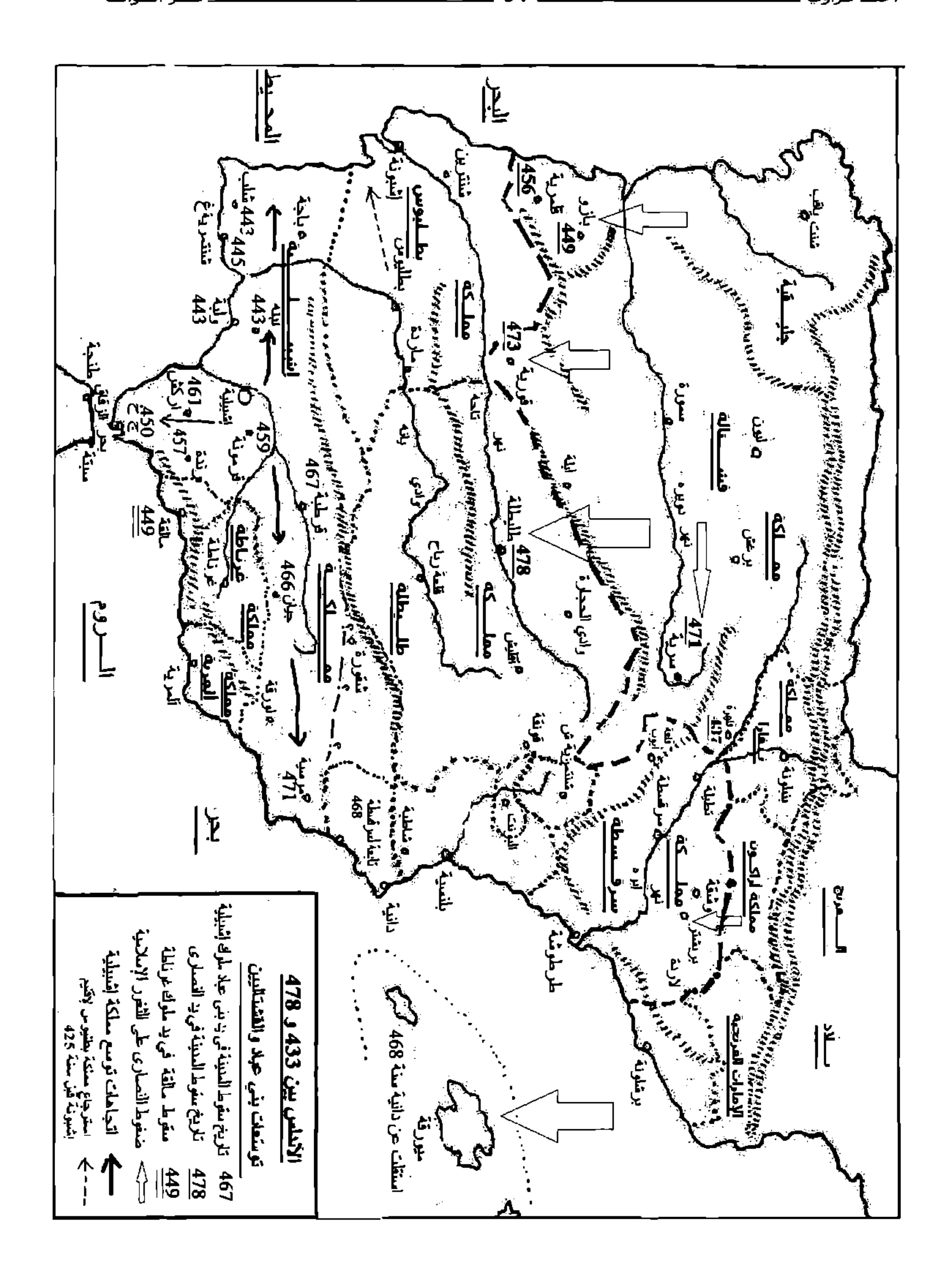
فالثوب ينسِل من أطرافه وأرى == ثوب الجزيرة منسولا من الوسط[1]

وهذا ما أخرج ملوك الطوائف من التردّد فيما يتعلق بالطرف المرغوب في إعانته من خارج الأندلس، فاستقرّ الأمر على المرابطين.

---

[1] - صاحب هذا النّداء هو أبو محمد العسّال أحد زهاد طليطلة (**المغرب** 2/ 21)

وكانت **مملكة بطليوس** حتى أواسط القرن تعاني من النزاع بينها وبين المعتضد بن عبّاد بشأن محاولاته دفع نفوذه على حساب إمارات الغرب الصغيرة والثغور الجنوبية لمملكة بطليوس. أمّا في عهد المعتمد بن عبّاد الذي كان في نزاع شبه مستمرّ مع بني ذي النّون ملوك طليطلة - كما كان أبوه المعتضد قبله- فقد مال إلى المهادنة مع ملوك بطليوس خصوصاً وأنّه كان منشغلاً بجهات أخرى. وبعد سقوط جملة من حصون الثغور الشمالية الغربية المحاذية لجليقة وخاصة مدينة قلمرية سنة 458، وبعد موت الملك القشتالي فرناندو الأول سنة 458، انشغلت قشتالة بمشاكلها الداخية، فهدأت أحوال الثغور نسبياً، ولكنّ مملكة بطليوس انشغلت أيضاً بعد موت ملكها المأمون سنة 467 بالنزاع بين ولديه يحيى المنصور في بطليوس وعمر المتوكّل أمير الثغور الغربية، وهو نزاع كان يحرّكه الجيران من قشتاليين وابن عباد وابن ذي النون، إلى أن توفي يحيى فتوحّدت البلاد تحت سلطة المتوكّل، ولكنّها ابتُليت بتحرك ملك قشتالة ألفونسو السادس في حرب "استرداد" جديدة أدت إلى سقوط أهمّ مركز شمال نهر تاجة وهو مدينة قورية سنة 471. وكان القادر بن ذي النّون في حالة عداء مع ملك بطليوس خاصة بعدما استدعاه أهل طليطلة لتسيير بلادهم إثر ثورتهم على ابن ذي النون، وهذا العداء جعله يوجّه حملاته على أراضي مملكة بطليوس كما يظهر من بعض رسائل ملكها إلى ابن عباد، وكذا إلى يوسف بن تاشفين عندما أرسل إليه يطلب دعمه ضدّ أعدائه.


الأندلس بين 433 و 478
توسعات بني عباد والقشتاليين
467 تاريخ سقوط المدينة في يد بني عباد ملوك إشبيلية
478 تاريخ سقوط المدينة في يد النصارى
449 سقوط مالقة في يد ملوك غرناطة
ضغوط النصارى على الثغور الإسلامية
اتجاهات توسع مملكة إشبيلية
استرجاع مملكة بطليوس لإقليم إشبونة قبل سنة 425
استقلت عن دانية سنة 468
مملكة قشتالة
مملكة طليطلة
مملكة بطليوس
مملكة سرقسطة
مملكة غرناطة
مملكة المرية
مملكة أراكون
الإمارات الفرنجية
جليقية
البحر المحيط
بحر الروم

48 - رسالة عن[المقتدر؟] ابن هود أمير سرقسطة إلى المعتضد أمير إشبيلية قصد "تجديد العهد" بينهما[1] [438 - 461][2]

"... كثرت - أيّدك الله- مَحامدُك فصارت زادَ الرّفاق، وأشرقت محاسنُك فرمت بساطع نورها إلى الآفاق، ففي كلّ سبيل طليعة من ثنائك مرحل[كذا]، وفي كلّ أفق بريدٌ من أنبائك يُتعلّل، ولفضائلك المأثورة حمَلة يتباينون في القدْر، ويتفاضلون في النّشر، وكلُّهم موجِزٌ وإن حاول أن يُطنِب، ومقتصِدٌ وإن حاول أن يُسهِب، والله يصون ما ألبسَك من المكرُمات، ويزيد فيما خوّلك من الصّالحات، بمنّه.

وأنا لا أزال بفضل خلوصي إليك، وصدق انجذابي لك، وشدّةِ اغتباطي بموهبة الله السَّنيّة فيك، مُصيخاً إلى كلّ داعٍ بشعارك، وحاملٍ لآثارك، مستهدياً لطِيب أحاديثك ومُبهج أخبارك؛ فإذا ظفرتُ بمحدّث عنك فقد نلتُ جذلي، وإذا وقفتُ على خبر من لدنك فذلك من أملي.

وفلان لحِقَ بجهتي- طاعتِك- وعنده أوفى بضاعةٍ من رفيع ثنائك، وأحسنُ إشاعةٍ بجميل أنبائك، وهو النّاطق القؤول، والصّادق المقبول، فعرَض تلك البضاعة الزّكية في معرض نَفاقها، وقصَد بها أقومَ أسواقها، وأهدى ذلك العِلقَ السَّنيَّ إلى مستهديه، وأدّاه إلى يد مقتنيه؛ ولمّا أنْ صدر عنها، بعد انقضاء وطره منها، وقد ضمّخها بذكرك، وقام فيها بشكرك، **تُقْتُ إلى مواصلتك معه، وتجديد العهد الكريم على يده**[3]، فأصحبتُه كتابي هذا مخبراً عن مقامه في بثّ مناقبك، وواصفاً لحاله في نشر مَحامدك، ومُحيلاً عليه في وصف وُدّي، والإخبار عمّا عندي..."

49 - رسالة عن يوسف ابن هود [صاحب لاردة] إلى ابن جهور حول غدر أخيه أحمد[المقتدر]صاحب سرقسطة[4] [~450][5]

[1] - الرسالة في **الذخيرة** ق2/م1/ 187- 188) وهي من إنشاء أبي عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي، وقد كان جليل القدر عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة، وسبق لأبيه جعفر أن كتب لعدة من ملوك الطوائف كان آخرهم القادر يحيى بن إسماعيل بن ذي النّون (467- 478). انظر ترجمة أبي عمر يوسف في **الذّخيرة** ق2/ م1/ 186-187 ؛ **والقلائد** 300 وما بعدها ؛ **والمغرب** 1/ 405.

[2] - اقترحنا البدء من سنة 438 لكونها بداية عهد المقتدر أحمد بن سليمان بن هود إن صحّ أنّها صادرة عنه، فهي في الذّخيرة صادرة عن :"ابن هود" بدون تحديد اسم خاص، وحددنا التاريخ الثاني بوفاة المعتضد بن عباد، فيكون تاريخ الرسالة محصوراً بين التاريخين المذكورين.

[3] - يتضح من الرسالة حالة الوئام بين الطّرفين، خاصة وأنّ بينهما مملكة طليطلة التي كانت غالباً في حالة نزاع مع جيرانها الشرقيين (مملكة سرقسطة) والجنوبيين (مملكة إشبيلية).

[4] - الرسالة من إنشاء أبي عمر ابن القلاس كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 424- 425، كتبها عن المظفّر يوسف بن هود صاحب لاردة إلى ابن جهور أمير قرطبة. قدم ابن بسام للرسالة بقوله: ورد كتاب يوسف على ابن جهور بقرطبة من إنشاء أبي عمر يقول فيه بعد الصّدر... ؛ وفي نسخة أخرى في الهامش قال: وله من أخرى عنه إلى ابن جهور في خبر أخيه قال فيها، وبعد...؛ وكلمة (عنه) تحدث ارتباكاً هنا، فالرسالة وردت بعد ذكر حادثة الغدر.

[5] - ورد في **دول الطوائف** ص262- 263 الحديث عن غدر المقتدر بإخوته سنة 438 و ما بعدها، وورد في **كتاب المتين** ص 150- 151؛ **وفي الذخيرة** (3/1/ ص423) - نقلاً عن ابن حيان- أنّ هذه الحادثة المشار إليها في الرسالة وصله خبرها إلى إشبيلية سنة 450، ويظهر أنّها محاولة غدر أخرى غير التي حاولها أحمد المقتدر مع

"... وبعدُ، باعدك الأسواء، فإنّ حوادث الدّهر وصروفه آياتٌ للمبصِرين، وفي أحوال ذوي الشّرّة والفسوق عبرةٌ للمعتبرين، وإذا تصفّحتُ منها القريب والبعيد، والمنقضي والجديد، لم أجد في جميعها حالاً توازي حالَ الخبّ الخبيث، والغَدور النّكوث، علمِ دهره فجوراً وختراً، ونسيج وحدِه نفاقاً وغدراً، القاطع منّي بلؤم أفعاله وشيَمه، أسبابَ قرباه ورحمِهِ، والمتقدّم بذميم بغيه وتعدّيه، إلى صميم أسرته وأدانيه؛ وهذه صفة لا يَخفى مكانُ الموصوف بها وأنّه **صاحبُ سرقسطة**- قارضَه الله بما هو أهله، وأبعدَ مثله، وأين؟ لا، أين مثلُه؟- وقد كانت الأيّام أبدت منه أفاعيل مستشنعة شرّق ذكرُها وغرّب، كما أبدع وأغرب، وكادت تكون سمراً للسّامرين، وقصصاً تُتلى في الغابرين، وحاول أموراً مستفظعة، مقتَه فيها الرّشيد والغويّ، وتبرّأ منه الدّاني والقصيّ، لم تُفدْه إلاّ الخزيَ الذي لا يزال ناظراً من بقائه، ولم تكسُه إلاّ العارَ الذي لا يراه مبايناً باحتفائه؛ وأبى على ذلك إلاّ تمادياً فيها وإلحافاً، وأبت الأقدار عليه إلاّ إعراضاً وإخلافاً، فكلما مدّ بالبغي يداً أوْهنَ الله بطشَها وأيْدَها، وكلّما نصب للمكر حِبالةً هوّن الله ختْلها وكيدَها، فضلاً من الله ونعمة، وكفايةً لمن توكّلَ عليه وعصمةً، وجزاءً للباغي بمكره، وقرضاً للمتصدّي بغدره، والله لا يهدي كيد الخائنين، ولا يُصلح عمل المفسدين.

وكنتُ قد أبرمتُ معه بعد تلك الهنات التي جرت، والشّدائد التي انقضت، عقدة السلم، فاعتزم **صاحب برشلونة**[1] على حربه، واستنهضني للدّخول في حزبه، ففللتُ بعد جهدٍ منّي حدَّ غَرْبه، واستمرّت الحالُ على أعدل مناهجها، ولم يتعذّر منّي قطّ عليه بُغية، ولا أبطأت معونة، ولم يزل يُقسم لي بأيمانه التي تَضجّ إلى الله من فجوره فيها مشافهة ومكاتبة، بعدما أقسم من قبلُ به، وأشهدَ أعلام المسلمين عليها، بأنّه لا يُضمر لي بقيّة الأيام غائلةً، ولا يُدخل عليّ داخلة؛ وطالت مصانعته لي بزبْرج من نفاقه وخداعه، يرفّ على بهرج من أخلاقه وطباعه، وأنا على ذلك عالم بدخائله وسرائره، مستعيذ بالله من الانطواء على ضمائره.

فلمّا أراد الله أن يفضحه الفضيحة العظمى، ويقنّعه بالخزية الكبرى، تقدّمتْ بيننا مقدّمات اقتضت لنا الاجتماع، فحرّكني إلى طرَف عمله[2]، وقد كنت آنست منه شرّاً بنى عليه مع بعض علوج **البشاكنة**[3] في الفتك بي، فأوصيتُ إليه ألاّ يحضرنا أحد منهم، فقلق قلقاً صرّح به، وأقام متردّداً بالثّغر يُزمع تلك البغية، إلى أن التقينا، وكنت قد استشعرت

إخوته في أواخر الثلاثينيات، وهذا التكرار في المخادعات مشار إليه في الرسالة أعلاه. ويظهر أنّ ابن جهور المقصود هو أبو الوليد محمد (435- 457).

[1] - أمير برشلونة في هذا الوقت هو رامون برينجير الكبير مؤسس حكم أسرة برينجير (426/1035- 467/ 1076).

[2] - أي إلى داخل حدوده

[3] - هم البشكنس أهل بلاد نبارا، ويظهر أنّ المقصودين عبيد من الأسرى، جعلهم فرساناً له كما يظهر من العبارة اللاحقة.

من سوء الظنّ بمن هو كصرف الدّهر لا أمان منه ولا اغترار به، فأوصيت إلى أصحابي باحتضار سيوفهم، واطّراح ما عداها من سلاحهم، ولبست أنا أيضاً تحت ثيابي درعاً حصينة، والتقينا، ثم تجارينا في فنون القول، فإذا بفارسين من عبيده قد جمعا رمحيهما فيّ، وثالث قد سبق إليّ يمسك عنان فرسي؛ إلاّ أنّي ركضتُه، فخرج بعِتقه، واستلّ أصحابي عند ذلك سيوفهم، وأدركتهم حفائظهم، فحملوا إليّ، وفرّ أولئك عنّي، واكتنفني أصحابي، وبي طعنات قد واقعتني على الذّراع لم يعظم بحمد الله كلمُها، وانصرف الغادر قد أدحض الله سعيه، وأبطل بغيه، يعَضّ بَنانه أسفاً، ويَقرع سنّه ندماً، ولا صفقة كصفقته الخاسرة، ولا سوءَى كفعلته الفاجرة؛ فلمّا وصل إلى بلده أراد ستر الحال بزعمه، وتوهيمها على ما جرى في وهمه، فأشاع أنّ النّصارى الذين كانوا معه أرادوا غدري وغدره، وخرق في ثيابه خرقاً زعم أنه أثر رمح أشرع إليه، فكان اعتذاره بهذا العذر زائداً في ذنبه، وإتيانُه بهذا البُهت الظّاهر مادّةً لجرمه؛ وهيهات أن يَخفى ما شُهر، أو يجوزَ ما زُوِّرَ، وما يوم حليمة بسرّ[1]، ولا على وجهِ النّهار من سِتر؛

فرأيت مساهمة الأولياء والحلفاء بصفة الحال، وعرضها من المبدإ إلى المآل، فقدّمتُ منها نحوك ما اقتضاه تقدّم حالك في نفسي وخلدي، لتعرض ما وصفتُه على حسن نظرك، وتعتبره بصدق تدبّرك، فتزنَ مؤثر هذه الحال بوزنه، وتقدّر محتقب شرّها بقدره، والله قبلُ وبعدُ أعدلُ مَن قضى وحكَم، وأحقُّ من أثاب وانتقم، وهو تبارك اسمه المستعدَى على مَن اعتدى وظلَم..."

50 ـ رسالة عن [المقتدر] ابن هود إلى [المأمون] ابن ذي النّون شاكراً له على قبول شفاعته في سراح ابن غصن الحجاري[2] [438 - 454]

"كتابي ـ أيّدك الله ـ كتابٌ أعريْته من ذكر الوداد، وعدلت فيه عن وصف الاعتقاد، خرقاً لعادة المتودّدين، وصفحاً عن طريق المتصنّعين، على أنّي ـ علم الله ـ في الصّدر المقدّم ممّن يواليك، والرّعيل الأوّل ممّن يتشيّع فيك، وأفردتُه بشكر يدك البيضاء، وحميد صنيعتك الغرّاء، التي طوّقتَ بها جيدَ الأدب، طوقاً يَبقى على الحقب، ووضعتَ على نار الذّكاء، وقوداً يسطع بطيب الثّناء، مزاحماً بفضل همّتك كلكَلَ الزّمان، وقد أناخ على الفهم بجران، ومحافظاً

---

[1] - وقعة في الجاهلية قتل فيها المنذر بن ماء السماء، وحليمة هي بنت الحرث بن أبي شمر وكان أبوها قد وجّه جيشاً إلى المنذر فأخرجت لهم طيباً فطيّبتهم، يضرب المثل لكل أمر معلوم مشهور.

[2] - ترجم ابن الآبار لأبي مروان عبد الملك بن غصن الخشني الحجاري فقال عنه: كان فقيهاً أديباً شاعراً، وقد سجنه المامون ابن ذي النون في وبذة وبها ألف كتابه "السجن والمسجون والحزن والمحزون"، وجعل ابن الأبار وفاته سنة 454 (**التكملة** 3/ ص 69- 70 (تح. الهراس)؛ **إعتاب الكتّاب** 218- 220، جامعة دمشق 1961؛ ذكره أيضاً مختصراً صاحب **المغرب** 33/2. وكان الذي تدخّل لتسريحه من السجن هو ملك سرقسطة ابن هود كما يظهر من نص الرسالة أعلاه التي وردت في **الذّخيرة** ق2/م1/193- 194. وذكره في ص30 تحت اسم ابن حصن وقال إنه هجا المأمون فسجنه، فكتب ابن حصن إلى ابن هود فرقّ له وسعى في تخليصه (**المغرب** 2/ 30)

على حرمة الكرم وقد أعرض عن ثقلها الثقلان، أنفةً من أن يضيع حذاءَ نظرك حقُّ أديب، وتُقطع بمرأى عينك نفسُ لبيب، وأنت عين الآداب، وعمدةُ ذوي الألباب، فيعودَ عليك من أهلها مَلام، ويقولَ قائلها: ضاع عند أوفى البريّة ذمام.

فلله همّتُك التي أبت إلاّ الحفاظ السّليم، وشيمتُك التي لم ترض إلاّ المَقام الكريم، ويدُك التي انتعشتَ بها الأديب **أبا مروان بن غصن** من هوّة العِثار، وفككتَه من قبضة الإسار، فأحييتَه وهو مُشفٍ على البَوار، فإنّها يد مسيح الكرام، ومُبدعةُ حسنةِ الأيّام؛ فلو كانت للمكارم صورةٌ لكانت هذه الصّنيعة كُحْلَ طرْفها، أو كانت للجدّ روضةٌ لكنتَ المستبدَّ بطِيب عَرْفها، أو لو نطقت ألسنُ الآداب لفدتك، أو أرسلتْ نخبة الثّناء لما تعدتْك؛ وإنّ كثيرَ الشّكر ليَقِلّ في جنب ما أسديتَ، وبالِغَه ليقصّر عن الغاية التي لها تصدّيتَ، لأنّك ضمنتَ حياة نفس، ونشرتَ دفينَ رمْس، فكأنّك أحييتَ جميع الورى، ونشرتَ كلّ مستودَع في الثّرى؛ وأنّى يقاوَم هذا الصّنيع، ولو تظاهر على فرضه الجميع، وعند الله كفاءُ ما أوليتَ من جميل الفعل، وجزاءُ ما أتيتَ في سبيل الفضل..."

51 - رسالة عن أهل بربشترُ من ثغور سرقسطة إلى أمراء الأندلس في الحثّ على تحريرها من يد النصارى[1] [456][2]

"من الثغور القاصية، والأطراف النّائية، المعتقدين للتّوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدّين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصّيام، المؤمنين بالتّنزيل، المقيمين على سنّة الرّسول محمد نبيّ الرّحمة وشفيع الأمّة، إلى مَن بالأمصار الجامعة، والأقطار الشّاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدّين، من الرؤساء والمرءوسين؛ سلام عليكم.

فإنّا نحمد الله إليكم حمدَ مَن أيقن به ربّاً، وجعله حسْباً، وليَّ المؤمنين، وغياثَ المستغيثين، مُجريَ الفُلك في البحر بأمره، ﴿ويمسك السّماءَ أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه﴾[3]؛ ونصلّي على المصطفى من أصفيائه، محمد خاتم أنبيائه، المبتعَث بأنواره الساطعة، وحِجاجه القاطعة، على حين عفَت رسومُ الدّين وخوت نجوم اليقين، فجلا الشّكّ، وأدحض الإفك، فعليه من السّلام أفضل سلام، ما وُحِّد الرحمن، وثُنِيَ الفرقدان.

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم قدّم لها ابن بسّام بما يلي: وله (ابن أرقم) فصول اقتضبتها من رسالة فيها طول كتبها على ألسنة أهل بربشتر، عنوانها: من الثغور القاصية... (**الذخيرة** 3/ م1/ 173- 179). انظر ترجمة ابن أرقم في **الذخيرة 3/1/** ص360؛ **والقلائد** 367؛ **والتكملة** 3/ 87- 88؛ **ونفح** 3/ 498- 499

[2] - راجع عن سقوط هذه المدينة **الذخيرة** بعد نص الرسالة ص 179 وما بعدها؛ **البيان** المغرب 3/ 225- 227؛ **والروض المعطار** ص 90- 91 (مادة بربشتر)، ويجعل سقوطها سنة 456 بعد حصار دام 40 يوماً، وبقاء النصارى بها 9 أشهر، إلى أن أمكن تحريرها في 8 جمادى الأولى/ 457، والنصارى الذين استولوا عليها من "أهل غالس والرودمانيين" أي من الفرنسيين والنورمان إضافة إلى الإسبان.

[3] - من الآية 63 من **سورة الحج**

أمّا بعد،- حرسكم الله بعينه التي لا تنام -، فإنّا **خاطبناكم مستنفرين**، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حرّى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشرَ الكفر جناحيه، وأبدى الشّرك ناجذيه، واستطار شررُ الشّرّ، ومسّنا وأهلنا الضُرّ، أحسنَ ما كنّا بالأيام ظنّاً، وملّتنا ظاهرة، وفئتنا متناصرة، لا تُشَلّ لنا يد، ولا يُفلّ لنا حدّ، حتّى انقلبت العين، وبان الصّبح لذي عينين...[1]

وأيُّ أمانٍ من زمانٍ قلّما يخضرّ منه جانب إلاّ جفّ جانب، ولا تُبرق منه بارقة إلا اتّبعتها صاعقة، إلا ما وقى الله؛ وننبئكم - معشرَ المسلمين- بعض ما نابنا في ثغورنا، عسى أن تكونوا سبباً لنصرتنا، فالمؤمنون إخوة، والمسلمون لُحمة، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمّه يلجأ اللّهفان، وإلى الصّوارم تفزع الأقران، والسعيد من وُعظ بغيره، والشقيّ مَن عميَت عيناه، وصَمّت عن الموعظة أذناه، ونقصّ عليكم من نبإنا، وما انتهت إليه حال ملإنا، ما واللهِ يوجع القلوبَ سماعُه، كما قصم الظّهورَ وأسخنَ العيونَ اطّلاعه....[2]

فأحاطت بنا كإحاطة القلادة بالعنق، يسوموننا سوء العذاب، بضروب من الحرب والحراب، آناءَ ليلها ونهارها، تصبّ علينا صواعقها، وترمي إلينا بَوائقها، فـ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[3]، على ما رأت منّا العيون، من انتهاك تلك النّعم المدّخرات، وهتكِ ستر الحُرَم المحجّبات، والبنات المخدّرات، وما تكشّفَ من تلك العورات المستّرات؛ فلو رأيتم - معشرَ المسلمين- إخوانَكم في الدّين، وقد غُلبوا على الأموال والأهلين، واستحكمت فيهم السّيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زُرقُ الرّماح، وقد كثر الضّجيج والعويل والنّياح، ودماؤهم على أقدامهم تسيل، سيلَ المطر بكلّ سبيل، ورؤوسهم قدّامَهم تطير، وقلوبُهم في أجسادهم تستطير، ولا مغيث ولا مجير، وقد صمّت الآذان، بصراخ الصّبيان، ونياح النّسوان، وبكاء الولدان، وعلت الأصوات، وفشت المنكرات، وتمرّد الشيطان، واشتهر الطّغيان، وظهرت الصّلبان، وأفصحت النّواقيس، وجلحت[4] الأباليس، وسعرت طغاة الخنازير، وصارت الدّور كالتنانير، دماءٌ تُسفك، وستور تُهتّك، وحرمٌ تنتهك، ونعم تُستهلك، وأقفاءٌ تُصفع، وأعضاء تقطع، وأعيات ترتكب، وأثاث يُنتهَب، ومصاحف تُمزّق، ومساجد تُحرّق، فلا الأخ يغني أخاه، ولا الابن يدعو أباه، ولا الأب يُدني بنيه، ﴿لكلّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾[5]، ولا المرضعة تلوي على رضيعها، ولا الضّجيعة ترثي لضجيعها، كأنّهم في مثل اليوم الذي ذكره الجليل، في محكّم التّنزيل، ﴿يوم ترونها تذهل كلُّ مرضعة عمّا أرضعت، وتضع كلُّ ذات حَملٍ حملها، وترى النّاس سكارى وما هم

---

[1] - في الذخيرة (وفي فصل منها)
[2] - في الذخيرة (وفي فصل منها)
[3] - من الآية 155 من **سورة البقرة**
[4] - جلّح: أقدم إقداماً شديداً
[5] - الآية 37 من **سورة عبس**

بسكارى﴾[1]؛ فما ظنُّكم - معشر المسلمين - وقد سيقت النّساء والولدان، ما بين عارية وعُريان، قوْداً بالنّواصي إلى كلّ مكان، طوراً على المتون وطوراً على البطون، ومشيخة الرّجال، مقرّنين في الحبال، مصفدين في السلاسل والأغلال، مقتادين بشعور السّبال، إن استرحموا لم يُرحَموا، وإن استطعَموا لم يُطعَموا، وإن استسقوا لم يُسقوا، وقد طاشت أحلامهم، وذهلت أوهامهم، وسخنت أعيانهم، وتغيّرت ألوانهم...[2]

وما ظنُّكم - معشر المسلمين - وقد رأيتم الجوامع والصّوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الأذان، مطبَقة بالشّرك والبهتان، مشحونة بالنّواقيس والصّلبان، عوضاً من شيعة الرحمان، والأئمّة والمتديّنون والقوَمة والمؤذّنون يجرّهم الأعلاج كما تُجَرّ الذّبائح إلى الذّابح، يُكبّون على وجوههم في المساجد صاغرين، ثمّ أُضرمت عليهم ناراً، حتّى صاروا رماداً، والكفرُ يضحك ويُنكي، والدّين ينوح ويَبكي؛ فيا ويلاه! ويا ذُلاه! ويا كرباه! ويا قرآناه! ويا محمّداه! ألا ترى ما حلّ بحمَلة القرآن، وحفظة الإيمان، وصُوّام شهر رمضان، وحُجّاج بيت الله الحرام، والعاكفين على الصلاة والصيام، والعاملين بالحلال والحرام؟ فلو شهدتم - معشر المسلمين- ذلك لطارت أكبادكم جزَعاً، وتقطّعت قلوبكم قِطَعاً، واستعذبتم طعمَ المنايا، لموضع تلك الرّزايا، ولهجرت أسيافُكم أغمادَها، وجفت أجفانُكم رقادَها، امتعاضاً لعبدة الرحمن، وحفظة القرآن، وضعَفَةِ النساء والولدان، وانتقاماً من عبدة الطّغيان، وحملة الصّلبان...[3]

وقد ندب الله مسلمي عباده **إلى الجهاد** في غير ما آية من الكتاب، يضيق عن نصّها الخطاب، ترغيباً وترهيباً، فوعد المطيعين جزيل ثوابه، والعاصين أليم عقابه؛ والرواية عنه عليه السّلام في فضل الجهاد، وما يُجازي فيه ربُّ العباد، أشهرُ من أن تُذكَر، وأكثر من أن تُحصَر، فالله اللهَ في إجابة داعينا، وتلبية منادينا، قبل أن تُصدَع صَفاتُنا كصدع الزّجاج، فهناك لا ينفع العلاج....[4]

ولا بدّ للحق من دولة، وللباطل من جولة، والحربُ سِجال، والدّهر دول، و﴿لكلّ أمّة أجل﴾[5]، ولولا فرطُ الذنوب، لما كان لريحهم علينا من هبوب، ولو كان شملنا منتظماً، وشعبنا ملتئماً، وكنّا كالجوارح في الجسد اشتباكاً، وكالأنامل في اليد اشتراكاً، لما طاش لنا سهم، ولا سقط لنا نجم، ولا ذَلَّ لنا حزب، ولا فُلَّ لنا غرْب، ولا رُوِّعَ لنا سِرب، ولا كُدِّر لنا شِرب، ولكنّا عليهم ظاهرين، إلى يوم الدّين؛ فالحذرَ الحذر، فإنّه رأس النّظر، من بركان تطايرَ منه شرر ملهب، وطوفانٍ تساقط منه قطرٌ مرهِب، فلما يُؤمَن من هذا إحراق، ومن

---

[1] - من الآية 2 من **سورة الحج**
[2] - في الذخيرة (وفي فصل منها)
[3] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)
[4] - في الذخيرة (وفي فصل منها)
[5] - من الآية 49 من **سورة يونس**

ذالك إغراق[1]؛ فتنبَّهوا قبل أن تُنبَّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم، ففينا متّعَظٌ لِمن اتّعظ ، وعبرةٌ لمن اعتبر؛ فانظروا إلى ثغورنا كيف تُهتضَم، وإلى أطرافنا كيف تُخترَم، وفيئِنا كيف يُقتسَم، وأموالِنا كيف تُصطلم؛ ودماؤنا مطلولة، وحدودنا مفلولة، وأنتم عنّا لاهون، في غمرةٍ ساهون، وكأنّا لسنا منكم، ولا نحن سِداد دونكم مضروبة، وجُنَن نحوكم منصوبة...[2]

وأنّه إن استُلِبت الأطراف، لم تتعذّر الأنصاف، والبعض للبعض سبب، والرأس من الذّنَب، غير أنّا دنَونا وبعُدتم، وشَقِينا وسَعِدتم، ورأينا وسمعتم، وليس الخبر كالعيان، ولا الظّنّ كالعرفان، ولقد آن أن يُبصر الأعمى ويَنشَطَ الكسلان، ويستيقظ النّوْمان، ويَشجَع الجبان..."

52 ـ رسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الـهوزني في حث المعتضد على إنقاذ بربشتر من يد النصارى[3] [456]

" أعبّاد جلّ الرزءُ والقوم هُجّعُ == على حالةٍ ما[4] مثلها يُتوقّعُ
فلقّ كتابي من فراغك ساعة == وإن طال فالموصوف للطول موضعُ
إذا لم أبثّ الدّاءَ رَبَّ دوائه[5] == أضعتُ وأهلُ للملام المضيّعُ

.....[6] وكتابي عن حالة يَشيب لشهودها مَفرق الوليد، كما يُغبِّر لورودها وجهُ الصّعيد، بذؤُها ينسف الطّريفَ والتّالد، ويستأصل الوليدَ والوالدَ، تذر النّساء أيامَى، والأطفالَ يتامى، فلا أيّمة إذا لم تبق أنثى، ولا يتيمَ والأطفالُ في قيد الأسرى، بل تعمّ الجميعَ جمّاً جمّاً فلا تخصّ، وتزدلف إليهم قُدماً قدُماً فلا تنكصُ، طمّت حتّى خيف على عروة الإيمان الانفضاض، وطمَت حتى خُشيَ على عمود الإسلام منها الانقضاض، وسمت حتّى تُوُقِّعَ على جناح الدّين الانهياض...[7]

كأنّ الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعدٍ صادقٍ من الصّرف والكشف؛ وأنّى لمثلها بالدّفاع عن الحريم، ولمّا نمتثلْ أدب العزيز الحكيم، في قوله: ﴿ولولا دفعُ اللهِ النّاسَ بعضَهم

---

[1] - كذا، والتعبير المناسب: قلّما يؤمَن من هذا إغراق، ومن ذلك إحراق
[2] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)
[3] - الرسالة من إنشاء الفقيه أبي حفص عمر الهوزني بمرسية خلال إمارة أبي عبد الرحمن محمد بن طاهر كما وردت في **الذخيرة** (ق2/ م1، ص83- 89)، ضمن ترجمة الكاتب المذكور، اقتبس ابن سعيد ترجمته من الذخيرة في كتابه: **المغرب**1/ 239- 240 وسبب كتابتها أنّ النصارى استولوا سنة 456 على بربشتر من أعمال سرقسطة، فكتب الهوزني من مرسية إلى المعتضد يحثّه على الجهاد، ويستشيره في المكان الذي يمكنه الاستقرار به، فأشار عليه بإشبيلة، فانتقل إليها سنة 458، ثمّ قتله في ربيع الأول سنة 460 . أورد ابن بسّام رسالة الهوزني مبتورة الوسط فقال: "فصل من رقعة كان خاطب بها المعتضد من مرسية واستفتحها بهذه الأبيات" كما نرى أعلاه.
[4] - في الأصل : مــن
[5] - في المغرب: ربّ نجاحه؛ اكتفى ابن سعيد بذكر هذه الأبيات الثلاثة للهوزني (**المغرب**240/1)
[6] - عوّض ابن بسّام البتر هنا بعبارة (وفي فصل منها)
[7] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

ببعض لفسدت الأرض﴾[1]، وقوله تعالى ﴿لهُدمت صوامعُ وبيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكَر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرنَّ اللهُ مَن ينصره﴾[2]، ومن أين لنا دفعهُم بالكفاية أو كيف، ولم نمتط إليهم الخوفَ، ونساجلهم السّيف، بل لمّا يُرأبْ من صدوعهم ثلم، ولا دُوويَ من جراحهم كَلم، ولا رُدَّ في نحورهم سهم، إن حاربوا موضعاً أرسلناه، أو انتسفوا قطراً سوّغناه، وإنّ هذا الأمرَ له ما بعده، إلاّ أن يسنّيَ الله على يديك دفعَه وصدَّه،

فكم مثلها جأواءَ نَهنَهت فانثنت == وناظِرُها من شدّة النقع أرمدُ
فمرّت تنادي الويل للقادح الصّفا == لبعضُ القلوب الصّخرُ أوهِيَ أجلدُ
وألقتْ ثناءً كاللّطائم نشرُه == تَبيد اللّيالي وهو غضٌّ يُجدَّد

...[3] والحرب في اجتلائها حسناءُ عروس تطبّي الأعمارَ بزّتُها، وفي بنائها شمطاء عبوسٌ تختلي الأعمار غرّتها، فالأقلُّ للِهَبِها وارد، والأكثر عن شُهُبِها حائد، فأخلِقْ بمحيد عن مكانها، وعزلةٍ في ميدانها، فوقودُها شِكّةُ السّلاح، وفِرندُها مساقطُ الأشباح، وقُتارُها متصاعدُ الأرواح؛ فإن عسعس ليلُها مدّة من الانصرام، أو انبجس وَبْلُها ساعة لانسجام، فيومُها غسقٌ يردّ الطرْفَ كليلاً، ونَبلُها صيّبٌ يزيد الجوفَ غليلاً:

أعبّاد ضاق الذّرعُ واتّسع الخرق == ولا غربَ للدّنيا إذا لم يكن شرقُ
ودونك قولاً طال وهو مقصّر == فللعين معنىً لا يعبّره النّطق
إليك انتهت آمالنا فارمِ ما دهى == بعزمك يَدمغْ هامةَ الباطلِ الحقُّ

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها، ولا أرجى الدّليلَ مَن ناط الأمور بأربابها، ولرُبّ أملٍ بين أثناء المحاذير مُدمَج، ومحبوبٍ في طيّ المكاره مُدرَج، فانتهزْ فرصتَّها **فقد بان من غيرك العجز**، وطبِّقْ مضاربَها فكأنْ قد أمكنَك الحزّ؛ ولا غروَ أن يستمطر الغمامُ في الجدب، ويستصحَبَ الحسام في الحرب، فالسّهام تطيش فتختلف، والرّماح تلين وتنقصف؛ فإن جعجعتَ أيّها الساعي المُخبّ في بغاء الفرج، وتحققتَ بالحثّ على جلاء تلك اللُّجج، ووجدتَ في فتح ذلك الباب المرتَج:

فنادِ: أعبّادُ ذا عائذٌ == وقَدْكَ على حينها تنصرمْ
تُجبْك أسودٌ على ضُمّر == معوّدةٌ ما بغت أن يتمّ
كأنّ المقادير حزبٌ له == فيمضي على رأيه ما حكمْ
سقته الحميّة جريالها == وصحّت مناقبُه في الكرم
فصابٌ لأعدائه مُمقِرٌ == وغيثٌ لراجيه حلوُ الدِّيَم
كنوه بما مُدّ من عمره == وكان نحورَ العدى يخترم
تقيّنُا حرٌّ أفعاله == وكنيتُه تقتضي ما رسم

[1] - من الآية 249 من **سورة البقرة**
[2] - من الآية 38 من **سورة الحج** وفيها "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع..."
[3] - قال ابن بسّام: (وفي فصل منها)

فمِن ذيـن تـفريغُ أوصافه == وبالـرّمز نـعني الذّكـيَّ الــفهمْ..[1]

وما زلتُ أعتدُّك لمثل هذه الجولة وَزَراً، وأدّخرك في ملمّها ملجأ وعصَراً، لدلائلَ أوضحتْ فيك الغيبَ، وشواهدَ رفعتْ من أمرك الرِّيب، فالنّهار من الصّباح، والنّور من المصباح، ولئن كان ليل الفساد ممّا دهم قد أغذفَ جلبابُه، وصباح الصّلاح بما ألمّ قد قُـدَّ إهابُه، فقد كـان ظهر قديماً من اختلال الأحوال مـا أيأس، وتبيّنَ مـن فساد التّدبير مـا أبلس، حتّـى تداركَ فتقَ ذلك سلفُك، فرتقه جميلُ نظرهم ورأيَه، وصرَفه مشكورُ أثرهم وشعَبَه،

فعاد الشّمل منتظماً هنيا == وآض الصّدعُ ملتـئماً سـويا

ثمّ تولّيتَ فكَفَيتَ، وخلفتَ فأربيتَ، وبزعتَ[2] فأوْرَيت، فالنّاس مذ بوّأتَهم رحبَ جنابك في عَطَن يُرْبي على لين الدّمقس[3]، وتحت مِنن تعلو على منى النّفس، فـي زمـان كـالربيع اعتدل هواؤه، وتشاكهت[4] أرضُه وسماؤه، واخضرّ بالنبت أديمُها فكأنّها الرّقيع، وتعمَّمَ بـالنَّور جميمُها فتقول هو التّرصيع، ففضلكم فـي الأعنـاق أطواق، ومجدكم للآفـاق إشراق، وحيثمـا حللتَ الأرضُ عراق، فأنا أولُ من هو إلى تلك الحضرة مشتاق، فلا تحرمْني وصلاً كنتُ جاهداً فـي إنباطه، ولا تصدَّني عن منهلٍ كنت صدراً في فُرّاطه، فأحقُّ الورى بجزيل تلك الآلاء وأخلقُهم بمنزل تلك السّماء أنصحُهم له جيباً، وأصحُهم فيه غيباً.

أعـبّادُ كـلا قد عـلوتَ فضائـلاً == تـقاصـرَ عنها كلُّ أروعَ ماجــدِ
فأوّلــها جـودٌ أرانــا أكــفّهم == جـموداً ككفّ لم تـؤيّدْ بساعــــدِ
وسـعيٌ لِما تبـغي يخـيِّلُ سـعيَهم == تلاعُب ولـدان أطــافت بوالـــدِ
ونصرٌ لمن والـيتَ يردي عـدوّه == ردى أهل جـو[5] في وقـيعة خــالد
منعت بني جـالوت[6] ما قد أباحـهم == سـواك بـحرب قـيّدت كـل شــارد
فمن شاء فليـنظر أسـوداً بروضـة == تـراعي عصا راعٍ وتـعنو لرائـــد
عجائب مـجدٍ أعـجزت مَن سـواكمُ == ومن سرِّها المشهور صدقُ المواعــد
فإن راث أمري فادّركني برحــلة == إلى مأمـنٍ فالـخوف أعـجلُ طــارد
وحُـدَّ مكـاناً آتِـه فرضــاكمُ == هواي وإن أغـشى كـريهَ الــموارد
فقد جـدّ أمرٌ هدَّ شــرع محـمّد == وما مخـبرٌ عن حـالة مثلُ شــاهـدِ
لكلٍّ يَبـين الرأيُ عـند وفــاته == وهل من دواءٍ بعد نـهش الأســاودِ
أضاعوا وجوه الحزم يوماً فعزّهم == على أمرهم من لـيس عـنده بهاجـد

---

[1] - بتر عوّض بعبارة (وفي فصل منها)
[2] - بزع : صار ظريفاً كيّساً (**القاموس المحيط**)
[3] - الدمقس: الدّيباج
[4] - تشاكه : تشابه
[5] - هي واقعة اليمامة التي حدثت أثناء حروب الرّدّة.
[6] - يقصد غلبته على أمراء البربر بالأندلس من بني حمود وغيرهم.

....[1] فالثمرة من ساقها، والجياد على أعراقها، ولئن لذّتْ تلك الثّمرة لذائق، وشدخت غُرّةُ تلك القرحة لرامق، لممّا يبيّن كنهَ المجتنى قبل تفطّر أكمامه، وممّا يصحّح عتق الجنين قبل أوان فِطامه، فلذوي الأبصار أدلة على العتق لائحة، ولأولي الألباب شواهدُ على الكرم واضحة، وبحقٍّ أدركتَ، فعلى السّوابق سلكتَ، وبمشاعر المعالي نسَكتَ فتنسّكت؛

وما يك من خير أتوه فإنّما == توارثه آباء آبائهم قبلُ
وهل يُنبت الخطيُّ إلاّ وشيجُه == وتُغرَس إلاّ في منابتها النّخل
وقول رسول الله أعدل شاهد == فحكمته شرعٌ ومنطقه فصلُ
يقول: بنو الدّنيا معادن خيرُها == إذا ما زكّوا من كان قِدْماً له الفضلُ

وصلّى الله على رسوله فقد نبّه بتصحيح، ودلّ دلالة نصيح، فإنّ المعادن لا تؤتي غير معهود فِلزّها، كما لا تصحّ الدوائر إلا على نقطة مركزها، فمن طلبَ النُّبلَ في غير معادنه، واستثار الخيرَ من غير مَكامِنه، أعجزَه من مطلبه مَرامُه، وطاشت في سُهمته أقلامُه، بل قد ضلّ قصْدَ السّبيل، واعتسف الفلاةَ بغير دليل، فسقط العشاء به على سِرحان، وأفضى القضاءُ به إلى الطّوفان، وإنّما هو الفجر أو البحر".

53 ـ عن المعتضد ابن عباد حول تهجّمات النصارى على المسلمين وفشل مساعيه في توحيد العمل ضدّهم[2] [456][3]

"... وردني كتابك الأثير المقابل بين النثر البليغ والنّظم البديع، تصرّفتَ فيهما تصرّف مَن إذا حاك الكلام طرّز، وإذا غَشِيَ ميدان البيان برّز، وأخذ بآفاق العلوم، وأشرقت خواطره فيها كإشراق النّجوم؛ وإنّها لفضيلة بعُدَ فيها شأوُك، وفات جهدَ المجارين لك عَفوُك، فأمّا ما صدّرتَه به من بالغ إطراء، وسابغ ثناء، فأمرٌ أعلمُ أنّه صدَر عن عهد كريم، ومعتقَدٍ سليم، أنا معتقد عليهما بجميل القرض، والمجازاة الحسنة بهما في وكيد الفرض؛ واقتضيتُ ما تلا ذلك من وعظك المبرور، واحتسابك المشكور، في الحال التي أشرت إليها فأقنعتَ،

---

[1] - قال ابن بسام (وفي فصل منها)

[2] - **ملاحظة** : وضعنا هذه الرسالة ورسائل أخرى ضمن مجموعة الرسائل المتعلقة بموضوع بربشتر بغض النظر عن الجهة الصادرة عنها.
وردت الرسالة أعلاه في **الذخيرة** ق2/ م1/ 118- 119، وهي من إنشاء الأديب أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلّم، وصفه ابن بسّام بكونه "أحد وزراء المعتضد الكتّابِ الأعيان" ولم يذكر وفاته. وهي جواب على رسالة الفقيه أبي حفص عمر الهوزني من مرسية سنة 456 في شأن سقوط بربشتر والاستشارة في الموضع الذي يستقرّ به (الرسالة قبل هذه)، فأجاب المعتضد يرحّب بإقامته لديه، ويذكر "ما دهم المسلمين من كلب العدوّ عليهم" (على بربشتر) وأنّه بثّ رسله لجمع كلمة المسلمين وقمع المشركين "فصمّت المسامع، واتّفقت في التثاقل المَنازع... وتُجُوّزت الجَمجمة في ذلك إلى الإعلان..."

[3] - اقترحنا هذا التاريخ لكون الرسالة المجاوب عنها صدرت عن أبي حفص عمر الهوزني من مرسية إلى المعتضد يحثّه على إنقاذ بربشتر من يد النصارى وقد سقطت بيدهم سنة 456 (انظر الرسالة السابقة؛ و**الذخيرة** 2/1/ 83 وما بعدها)

ورمزتَ بها فأسمعتَ، بصحّة دينك، وبردِ يقينك، حتّى نظرتَ إلى **ما دهم المسلمين من كَلَب العدوّ عليهم**؛ يجوسون البسيط من ديارهم، ويستبيحون المَحوط من نمارهم، ليس إلى الانقياد عن أحكامهم دفاع، ولا سوى الانحياز من أمامهم امتناع، قد تبيّنَ لهم أنّ **تخاذلنا لهم علينا ناصر**، وتواكُلَنا مُظاهر مؤازر، فلا يَعدَمون من يتخلّى لهم عن بلد أو يعطيهم الجزية عن يدٍ[1] ولو شاء ﴿الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضكم ببعض﴾[2].

ولقد شرحتَ من تلك النُّصَب ما يُسهر النّواظر، ويبلّد الخواطر، ولا يدع ركنَ عزّ إلاّ أوهاه، ولا بناءَ جلد إلا أرداه، ولا عِدّ[3] صبرٍ إلاّ أغاضه، ولا ثمدَ دمع إلاّ أفاضه؛ وإنّ الحذر أن تغشَى التي لا شَوَى لها، وتفجأ التي لا لعاً منها، فيُرام من ذلك استكفاف سيل من التلف قد انحدر، ويُنظَرُ في أعقاب نجم من التّلافي قد انكدر، إلاّ أن يعود الله علينا برحمته، ويهيّئ لنا أسباب عصمته.

وأمّا ما ندبتَ إليه وحضضت عليه من إحفاد[4] السّعي فيما يقمع المشركين - بدّدهم الله- ويجمع عليه كلمة المسلمين، فيعلم الله أنّي قد ناجيتُ بذلك وناديت، وراوحتُ فيه وغاديْت، وبثثتُ رسلي إلى ذلك داعين، يصلون التّذكرة، ويؤكّدون التّبصرة، ويتلون المواعظ ويستثيرون الحفائظ، **فصمّتِ المسامع، واتّفقت في التّثاقل المَنازع**، وخُلج بالخذلان، وتُجُوِّزت الجَمجمة في ذلك إلى الإعلان، ولو شاء الله لجمعهم على الهدَى....[5]

.. وأمّا إزماعُك للتّنقل، وأن أرسم لك مكانَ التحوّل؛ فأيّ مكان يكون ذلك سوى وطنك الذي تعرّفتَ فيه سابغَ الأمن، وتلقّيْت فيه طائر اليُمن، ولم تعدم المحلّ الرّفيع، والجانب المنيع، والسّكون منّي إلى من لم يزَل يعتمدك بإيثاره، ويشاركك في خاصّ أسراره، ويرفع قدرك فوق أقدار الأكفاء، ويحُطّ عن منزلتك منازل النّظراء، وإن كان قد جرى قدَرٌ بمفارقة فكانت سليمة لم يتبعها إلاّ حالٌ لك مَحوطة محفوظة، وساقة[6] بعين الصّيانة مكلوءة ملحوظة..."

---

[1] - هذه إشارة إلى أنّ سياسة دفع الجزية والتخلي عن الأرض للنصارى مقابل دعمهم ضد بعضهم البعض ظهرت باكّراً وليس فقط في عهد المعتمد بن عباد ومعاصريه، أي أنها ظهرت قبل الستينيات في عهد المعاصرين للمعتضد، ويقصد بهم على الأرجح وعلى الخصوص ملوك سرقسطة (عهد المقتدر أحمد بن سليمان 438 - 474) وطليطلة (المأمون يحيى بن إسماعيل 435 - 467) المجاورين للنصارى والمتنافسين فيما بينهم ، فقبل المذكورْين لم يكن الأمراء قد وصلوا إلى حدّ التنازل عن القلاع والحصون ودفع الجزية – بالشكل الذي ظهر لاحقاً- لاضطراب أحوال النصارى.

[2] - من الآية 5 من **سورة محمد** "ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم..."

[3] - في نسخة أخرى : بحر (هامش الذخيرة)

[4] - في بعض النسخ: إجهاد، والحفْد: الإسراع (**القاموس المحيط**)

[5] - بتر في الذخيرة عوض بعبارة: (وفي فصل منها)

[6] - الساقة تعني المؤخّرة، وقد تكون هذه إشارة إلى من خلّفهم الهوزني وراءه من العيال حين ارتحل عن إشبيلية.

54 - رسالة من أبي عبد الرحمن ابن طاهر في ذكر سقوط بربشتر بيد النصارى[1] [456]

"... ورد كتابك بالخطب الأبقع، والحادث الأشنع، الجاري على المسلمين - نصر الله مقانبهم، وجمع على الائتلاف مذاهبهم-، في **مدينة بربشتر**؛ وكانت صدراً في القلاع المُنيفة، وعيناً من عيون المدائن الموصوفة، إلى ما سبق قبلُ في القلعة **القلهرية**[2] وغيرها من مهمّات القلاع: الدّروب والمعاقل، وخطيرات الحصون والمنازل، فأطار الألباب، وطأطأ الرّقاب، وصرم الآمال والهمم، وأسلم من الذّلة والقلة إلى ما قصم، وأنّك رأيت الحال في معرض جلاها للنّواظر عياناً، ووصل بينها وبين الخواطر أسباباً وأشطاناً، فما شئتَ من دمع مسفوح مُراق، ونفس متردّدة بين لهاة وتراقٍ، وأسىً قد قرع حُصيّات القلوب فرضّها، وعدل عن المضاجع بالجُنوب فأقضّها، ومآلٍ تستكّ من سماعه الأسماع، وتضيق عن إيراد حقيقته الرّقاع؛ فالله يدرأ في نحر ما فدح من الخطوب الكبار ويدفع، وإليه نلجأ فيما ألظّ من عقيم الدّواهي ونفزَع، فمنه الغوث والانتصار، وعادة الإقالة إذا جدّ العِثار..."

55 - رسالة من أبي عبد الرحمن محمد بن أبي طاهر إلى المعتصم بن صمادح حول عيث النصارى في ثغور مملكة سرقسطة[3] [456 ؟][4]

"كتابي - أعزّك الله - وقد ورد كتاب المنصور[5] ملاذي المعتمدِ بك - أيّده[6] الله- أوْدَعه ما أودع من حياة[7]، ولم يدعْ كلاماً[8] لمَسلاة، فإنّه للقلوب مؤذٍ، وللعيون مُقذٍ، وللظّهور قاصم، ولعرى الحزم فاصم؛ فلينـدُب الإسلامَ نادب، وليبكِ عليه شاهد وغائب، فقد[9] طُفِئ مصباحه، ووُطِئَ ساحُه، وهِيضَ عضدُه، وغِيضَ ثَمَدُه؛ إلى الله

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في **الذخيرة** ق3 /م 1/ 87

[2] - كان الحاجب المنصور افتتح قلعة قلهُرّة Calahorra، وأصبحت ضمن ممتلكات ابن هود، غير أنّ النصارى استولوا عليها سنة 437 مستغلّين المنازعات بينه وبين ابن ذي النّون (**أعمال الأعلام** 178/2).

[3] - نص الرسالة في كتاب **العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل** لأبي القاسم البلوي ص 63 (مخطوط الخزانة الحسنية رقم 6148)؛ **وفي القلائد** 173- 175؛ وفي **الذخيرة** 3/ 86 – 87 (مقطعان)، وفي هامشها: الرسالة إلى المعتصم بالله صاحب ألمرية ايام رئاسته؛ وعلّق صاحب القلائد في تقديمه للرسالة قائلاً: فمن ذلك رقعة كتب بها إلى المعتصم بالله صاحب المرية **أيام رئاسته** يصف العدوّ العائث في جزيرة الأندلس: كتابي أعزك الله....؛ ولعل المقصود التحرّك النورماندي الصليبي الذي انتهى بسقوط بربشتر سنة 456 من مملكة سرقسطة، وما تبعه من الضغط القشتالي على مدن سرقسطة وقلعة أيوب ووشقة شرقاً إضافة إلى الضغوط في ثغور مملكة بطليوس التي أدّت إلى سقوط قلمرية.

[4] - كان ابن طاهر تولّى على مرسية سنة 455 وبعد ذلك أي خلال سنة 456 ورد ذكر حملة الملك فرناندو الأول بن سانشو القشتالي على ثغور سرقسطة وثغور بطليوس (أعمال**الأعلام** 2/ 184؛ **دول الطوائف** 214- 215).

[5] - هو عبد العزيز ابن أبي عامر أمير بلنسية

[6] - كذا في العطاء؛ وفي الذخيرة والقلائد: أيدك الله

[7] - في الذخيرة: كتابي بعد أن وقفت على كتاب فلان، الذي أودعه ما ودّع من حيات [أو حياة]، ولم يدع...

[8] - في الذخيرة والقلائد: مكاناً

[9] - في العطاء: وليبك له شاهد وغائب، قد

نفزع، ولديه نضرَع[1]، في طارق الخَطْب ومُنتابه، فلا حول ولا قوّة إلاّ به، [هو] فارج[2] الكروب، وناصر المحروب[3]، {وعالم الغيوب، لا ربَّ سواه.

وذلك أنّ **فرذلند**[4] - وقمه الله- نزل على **قلعة أيّوب**[5] محاصراً لمن فيها، ومغيراً على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضا، وتتساقط لملاحظتها[6] الأعضا؛ وإنّه قد بنى على قصد جهاتنا، ووطْءِ جنباتنا، إلاّ أن يدرأ الله في نحره، ويحميَ من شرّه[7]، و**غرسية**[8] - دمّره الله- بسرقسطة، كذلك **رذمير**[9] - أهلكه الله- بوشقة[10] وما والاها يَنكي بما يُبكي}[11]، والمسلمون بينهم سوامٌ ترتع، وأموالهم نهْبٌ توزّع، والقتل يأخذ منهم فوق ما يدَع؛ فأطِل الفكرة في هذا الخرم الدّاخل[12]، والبلاء الشّامل، {وأسبِل العَبرة، وأطِل العِبرة}[13]، والله المرجو لتلافي الأمّة وكشف هذه الغمّة لا ربّ غيره[14]".

56 - رسالة[ربما عن إقبال الدولة علي بن مجاهد] في موضوع استرجاع بربشتر خاصّة][15]

[457 ؟]

"إذا كانت نعم الله عند الحضرة الإسلامية مُشرقة المَطالع، رحيبة الأرجاء والمَراتع، وكان أنصارها وعبيدها وكتائبها المنصورة، وجنودها المرهوبة، في اجتماع مِن كلمتهم على طاعتها، واتّفاق من أهوائهم في مناصحتها، وتظافرٍ من جميعهم على خدمتها، فقد علت يدُ

---

1 - في العطاء: إلى الله يُفزّع، ولديه يُضرع

2 - الكلمة ناقصة في العطاء؛ وفي الذخيرة: كاشف الكروب

3 - في العطاء: الحروب

4 - هو فرناندو الأول (1028/419- 1065/458م) بن سانشو الثالث (شانجة المعروف بالكبير) أمير جليقية وقشتالة وليون، مات بعد عامين من احتلاله مدينة قلمرية، وعلى هذا يكون تاريخ الرسالة قبل هذه الفترة ؛ وقد كان لغرسية بن شانجة برْكه ثلاثة أولاد: غرسية وفرذلند ورذمير ، وقد قتل غرسية من طرف أخيه فرذلند في حرب بينهما (**البيان** 4/ 50- 52 ، ط. بيروت 1967؛ راجع **دول الطوائف** 368 وما بعدها)

5 - **الروض المعطار** 469 (مادة قلعة أيوب)

6 - في العطاء: عند ملاحظتها

7 - في العطاء: إلاّ أن يدفع الله من شرّه، ويدرأ في نحره

8 - هو ملك نفارا أخو فرناندو الأول القشتالي وكلاهما ابنا سانشو الثالث المعروف بالكبير ملك نفارا وقشتالة وليون، ونصب ابنه فرناندو ملكاً على قشتالة وليون، وورث ابنه الأكبر غرسية بلاد نفارا، ومنح قسماً هو بلاد أركون لابنه راميرو (راجع **دول الطوائف** ص 362 وما بعدها)

9 - كان ابن هود يتحالف مع بعض الأطراف النصرانية المجاورة، وعندما تحين الفرصة لأعدائه النصارى ينتقمون منه قبل غيره؛ ويظهر أنّ المقصود هنا راميرو ملك اركون المذكور في الهامش السابق . راجع عم أهمية وشقة **الروض المعطار** (مادة وشقة ص 612)

10 - في العطاء: ورذمير أهلكه الله بوشكة...؛ وكان النصارى قبل حصارهم بربشتر سنة 456 حاصروا وشقة ثم أقلعوا عنها. انظر عن أهمّية المدينة **الروض المعطار**، مادة وشقة ص 612).

11 - ما بين قوسين {....} عوضه صاحب الذخيرة بكلام غير أصلي

12 - في العطاء والذخيرة؛ ؛ وفي القلائد: الحزم الداخل

13 - العبارة ساقطة في العطاء؛ وعوّضها صاحب الذخيرة بقوله: "وناصر المحروب؛ وفي فصل: واتّصل بنا أنّه أباد الدّيار، في جميع تلك الأمصار، والمسلمون بينهم سوام..."

14 - كذا في العطاء؛ وفي الذخيرة: والبلاء الشامل، والله المرجو لكشف الغمّة، وتلافي الأمة. وفي القلائد: لتلافي امّته، وكشف غمّته، بمنّه

15 - الرسالة من إنشاء ابن أرقم، لم يُذكر المكتوب عنه ولا المكتوب إليه، وردت بعد رسالتين عن علي بن مجاهد الأولى إلى المعز صاحب إفريقية والثانية إلى مقاتل العامريّ (**الذخيرة** ق1/3/ 362 – 363)

الإسلام، واحتمى عزّه أن يُضام، وجانِبُه أن يُرام، وشملت نعماها الأقطار، وأمدّت أقاصي الدّيار، وأبرّت على نأي المَزار، فهي جِماعُ الدّين، وردْءُ المومنين، ومحفل المسلمين...[1]

وممّا وجب التّعريف به **ما عمّ أقطار ثغرنا، وغشِيَ مَجامع أفقنا، من تمالؤ النّصارى**[2] وتضافرِهم من كلّ أوب إلينا، بجمع لا عهدَ بمثله، ملأ الفضاء، وطبّق الأرجاء، وشُغلنا بالفتنة بيننا عن تخفيف وطأتهم، وتضعيف سَورتهم، فطمسوا الآثار، وجاسوا خلال الدّيار، موفورين لا مانعَ منهم، ولا دافِعَ لهم، إلا التفاتة الله تعالى لأهل دينه بأن **أفلّ فائدتهم، وخيّب مَرامهم،** وأطاش سهامَهم، والحمد لله على منحته ومحنته..."

57 - رسالة ودّية عن المقتدر ابن هود إلى أخيه صاحب لاردة [المظفّر حسام الدولة][3] [قبل 472]

"وصلت الهدية التي أصدرتْها ساحة الفضل، وتضمّنتها راحة النُّبل، وزفّها المجد زفاف الهدِيِّ، ترفُل في [الحلل والحليِّ][4]، وتقدّم سفير الآس، فأذاع ما حمل من طيب الأنفاس؛ وتلقّيتُه بما يُتلقّى مثلُه من كرام الزّوار[5]، إذ كان بحكم الإجماع سيّدَ الزّهر والنّوار، بدوام عهدته، وبقاء جِدّته، وتمادي نضرته؛ وتناولتُ الظّرفَ الظّريف الواصل معه ففضتُ ختامه، وترشّفتُ مستودعَه، وتسوّغتُ منه شمولاً معتّقة لذة عبِقة، قد تناهت رقة وصفاءً، ولم تُبق الأيّام منها إلا هباءً ولألاءً، فهي تمنع الكفّ، ما تبيح الطّرْف، وأدرتُها بالقدَح الذي أجْلت به معلى القِداح، قائماً على قدم الإعظام أهزّ عِطفَ الارتياح، وتخيّلتُ أنّي في ذلك المألف العزيز حاصل، وفي ذلك المأنَس الجليل ماثل؛ فنحن متلاقيان بعيان الإمحاض والإخلاص، وإن تناءيْنا بالذّوات والأشخاص؛ ووصل مبكرُ البهار الجنيّ، ممتعاً بمنظره البهيّ، وعَرْفِه الذكيّ، قد شخصت أحداقُه، وراقت أوراقه، يمُدّ بَنانَ لهب، ويرنو بحدق حُمرٍ تلتهب، كأنّه إكليل تِبر، مرصَّعٌ بيواقيتَ صفْر، وهو شبيه الرّاح لوناً ومشمّاً، قد تكافأ بينهما الانتساب، يحكيه منها الجامد ويحكيها منه المذاب؛ وأسفرَ غضُّ الإسفرج[6] عمّا خُصّ به ذلك الأفق من التّراب

---

[1] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

[2] - يظهر أنّ الإشارة هنا إلى محاولة فتح وشقة في الثغر الأعلى ثم سقوط بربشتر بيد الفرنسيين والنورماند ومن معهم من الإسبان سنة 456، واسترجاعها في العام اللاحق، إضافة إلى سقوط قلمرية من ثغور بطليوس في يد القشتاليين سنة 456، وحملة ملك قشتالة فرناندو في السنة اللاحقة على بلنسية ونهب ما وجده في الطريق إليها، وانتصاره على أهل المدينة، وانسحابه لما ألمّ به من المرض الذي كان سبب وفاته في سنة 458 (راجع **أعمال الأعلام** 2/ 184؛ **دول الطوائف** 84).

[3] - الرسالة من إنشاء ابن حسداي "عن المقتدر ابن هود إلى أخيه صاحب لاردة" كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 468- 470. ترجمة ابن حسداي في نفس المصدر ص 457 وما بعدها.

[4] - في الأصل: في الحليّ والحلل؛ وقد اقترحنا التعديل ليناسب السجع ظنّاً منّا بوقوع خطإٍ مطبعي.

[5] - لا يظهر أنّ هذه المهاداة تعبّر عن حسن نيّة، فقد تبيّنَ أنّ المقتدر دبّر لأخيه أكثر من مرّة مؤامرة لقتله غدراً، ممهّداً بالتودّد إليه.

[6] - شرحها محقق الذخيرة بالهليون الذي يسميه الأندلسيون الاسفاراج Esparrgo

الدّمِثِ والهواء السجسج فسقاه الله صوبَ السّحاب، ولا زال مخضرُّ الربى خضِلَ الجناب؛ واقتضى حكمُ الأدب المتعارف في السّلام والمباداة، ردَّ التّحيّة على سبيل المناولة والمعاطاة، لا على سبيل المعارضة والمباراة، وقد أنفذتُ ريحاناً مشموماً، ورحيقاً مختوماً، ولك الفضل في تسوّغ ما سقيتُ، وتنشّق ما أهديتُ..."

58- رسالة عن المقتدر بالله (صاحب سرقسطة) إلى ابن عبّاد (صاحب إشبيلية)عن سوء فعل أخيه صاحب لاردة ونفيه إلى منتشون[1] [472][2]

"سيّدي، وأعلى عُددي، وأقوى عُمدي، وأزكى ذخري لأبدي، ونعمةُ الله المستطيلةُ بيدي، المناهضةُ بعضدي، ومن أطال الله بقاءه في عزٍّ رفيع المراتب، وحرزٍ منيع الجوانب، إذ أحكام الفتن، وحوادث الزّمن، لا تزال تحلّ على كلّ ما لا يقع بإيثار، ولا يجري على حكم واختيار؛ فربّ كريهة لا يلقى المرء عن اقتحامها معدِلاً، ومساءةٍ لا يزال عن التزامها مرحلا، وقديماً جدّ الجفاءُ العقوق، وأبطل التّجنّي الحقوق، وقد يُحرَج الحليم، ويتغيّس الحميم، وتُقطع الرّحم، وتُنبَذُ الذّمم، لا سيّما عن مجاذبة ما يمنع الحسد، باتراً أواصر الإخاء والإجمال، وتحاسدُ القرابة داءٌ قديم، وخُلق في النّاس معلوم.

وإنّي - أيّدك الله - بُليتُ من **المظفر**[3] أخي بظالم لا يُؤمَلُ منه إنصاف، ومتحمّل لا تستنزله ألطاف، وحاسدٍ لا يُرجَى استرضاؤه، وموجبٍ لنفسه حقاً لا يوجَب مضاؤه، إذا سألتُه نَصَفةً، أبدا[كذا] منه أنفة، وإن سُمتُه عدلاً، مال إلى الجور ميْلاً، وإن خفضتُ له جناح الذّلّ، أوطأني جهر الجفا، وإن أقبلتُ عليه بناظر الودّ أول من صفحة الإبداء، وإن استدنيتُه شحط، وإن استرضيتُه سخط، وإن حكّمتُه تشطّط، وإن أغضيتُ له تسلّط؛ وأنا في أثناء ذلك كلّه أحاوله على أخلاقه، وألبسه على أخلاقه [كذا]، وأستمع منه بغير مستمع[4]، وأرفع منه بغير مرفع، وعقاربُ مضرّته تَدبّ، وعواصف معرّته تَهُبّ، وأذاه قاصدٌ إليّ في خاصّتي، ومفسد عليّ بطانتي، لا يألو في مساءتي سعياه [كذا] اجتهاداً، ولا آلو إلى مسرّته تأتّياً وانقياداً، آخذاً

---

[1] - الرسالة من إنشاء الكاتب ابن إسحاق (لم نتعرّف على ترجمته) كتبها عن المقتدر ابن هود، أورد نصّها محمد عنان في: **دول الطوائف** (431- 432) نقلاً عن **مخطوط الإسكوريال رقم 488/** 118ب- 119أ). راجع أخبار وضع ابن هود في **البيان** ص 221 وما بعدها. جعل المرحوم عنان المخاطَب هو المعتمد ابن عباد (ص 271).

[2] - ذكر هذا التاريخ محمد عنان في: **دول الطوائف** 271، وأشار إلى أنّ بعض الروايات الإسبانية ذكرت اعتقال يوسف في حصن روطة وبقي به إلى وفاته سنة 475، والصحيح هو ما ورد في الرسالة إلاّ أن يكون تمّ نقله أو انتقاله فيما بعد إلى حصن روطة.

[3] - هو المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (438- 474)، كان أبوه الأمير سليمان المستعين (431- 438) وزّع الإمارة بين أبنائه الخمسة منهم: أحمد المقتدر في سرقسطة ويوسف في لاردة، وبعد وفاة أبيهم تولى الأمر يوسف، غير أن أهل سرقسطة مالوا إلى أخيه أحمد، فتملّك هذا طرطوشة. ونشبت الحروب بينه وبين النصارى خصوصا حول مدينة بربشتر التي سقطت بيدهم سنة 456 إلى أن وقع استنفار المسلمين للجهاد فاسترجعوها في السنة اللاحقة (بتحالف أحمد المقتدر وابن عبّاد أمير إشبيلية)، وعلّق ابن عذاري على وضعه فقال "لم يزل المقتدر بالله ابن هود يضعف والروم يتقوّون عليه... إلى أن مات .. سنة 475 (**البيان** 229/3) راجع ما ورد عن ضغط الأركونيين (رذمير) على سرقسطة سنة 462 في **الذخيرة** ق1/م2/ 726 - 627.

[4] - كذا عند عنان؛ وقد يكون صوابها: مسمع

بالحجّة عليه، وتقدّماً بالجميل إليه، وطمعت أن تكون نظرة تريه مواقع ظلمه، وتعرّفه جور حكمه، ولا يزداد إلا اغتراراً، ولا يُبدي إلا استكباراً، إلى أن سوّلت له نفسه أموراً كان فيها اضطلاع الإسلام، وحاول أحوالاً تمامُها هادية ...[1] ورام معالجتي بالتي ليس فيها استبقاء، ولا بعدَها بقاء، **وسألني مع هذا الاجتماع**[2] بي ليسوسني .... كذا الإذعان إلى مطالبه، والموافقة في مذاهبه، فأجبتُه رجاءَ أن تكون المشافهة تستلبه، والملاطفة تليّنه وتُغريه، فأبى إلا .... كذا وانبساطاً؛ فلمّا رأيته عن سوء معتقده غير .... كذا وعن فساد رأيه غير راجع، وغرني جِمامه، وأعوَزني استصلاحه، ونقلني عن سجيّتي بكرهٍ، وكدّر صفوي من كلّ وجه، راجعتُ في أمره بين أن أرضي الله عز وجلّ في قطيعته بالنّظر لعباده، والحماية لبلاده، فما أطمع.... كذا وطأ نواحيها، وأمنع ممّن رامه، وأدفع عنه من أراد اهتضامه، وأن أبتهل .... كذا برحم عن نفسي، فرفع الله عن ذلك منزلتها، وبسط عليه مقدرتها، فرأيت النّظر في قطع مضرّته أولى، والسّعي في حسم علّته ومعرّته أحمَى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه، وألزمته البقاء **بقصبة منتشون**[3]، وللنّفس - يعلم الله- ممّا حملني عليه ارتماضٌ وإشفاق، ولما يوثره الرّحم من ذلك إزعاج وإقلاق، إلا أنّه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلاً، ولا جعلني إلى سواه مخيلاً، وكان فيما يأتيه أعقّ، وبما جرّه القدَر إليه بحكم اعتقاده أحقّ؛ وقد يستسهل المرء المكاره ما لم يجد عنها مذهباً، ويركب حدّ السّيف إذا لم يجد سواه مركباً؛ - والله يشهد- لقد طوى جوانحي ممّا ساقني إليه على لواعج مزعجة، وخرق منضجة.

وكتابي هذا من لاردة وقد استقرّت بحمد الله على الدّعة أسباب قرير ها، واتّصل بجميل عونه تدبيرُها، وتقضي - أبقاك الله- وكيدُ ما بيننا مقاسمتَك الحال، وتعرّفكَ المبدي منها والمآل، فإنّك الشريك في الحلو والمرّ، والقسيم في النّفع والضّرّ.

وفي خلال هذا - أعزّك الله - ما وردني ابن فلان خاصّتك - سلّمه الله - بكتابك الكريم، المشتمل على أحفل البرّ، والمقتضي لأجزل الشّكر؛ ووقفت به من حقائق الأحوال لديك على كل ما بسط أملي، وأكّد جذلي، وعظمت نعم الله .... كذا وقد صدر - أبقاه الله - متحمّلاً من صحّة وُدّي، وثبات عهدي، وارتباط عقدي، .... كذا الأحوال عندي ما يطلعك من ذلك كلّه على الجملة الكافية والجليّة الشافية..."

59 - طلب عناية [من أمير سرقسطة]؟ إلى ابن عمّار صاحب مرسية بابن الحدّاد الوادي آشي[4] [471 - 473]

[1] - كذا عند عنان وكذلك بالنسبة لنقط الفراغ اللاحقة

[2] - في رسالة سابقة ورد أنّ صاحب سرقسطة المقتدر استدرج صاحب لاردة يوسف المظفّر للاجتماع به والغدر به وهذا بالنسبة لحادث سنة 450، والظاهر من الرسالة أعلاه قيام المقتدر سنة 472 بحملة على لاردة وإخراج أخيه منها إلى حصن منتشون منفياً، انظر عنان : **دول الطوائف** 271

[3] - قلعة قريبة من لاردة (**المتين** ص145)

[4] - منذ سنة 471 استولى ابن عمّار قائد جيش ابن عبّاد على مرسية وإمارتها، واعتقل أميرها السابق ابن أبي طاهر، ثم سرّح من المعتقل فاستقرّ لدى أمير بلنسية. والرسالة أعلاه من إنشاء أبي الفضل **ابن حسداي** كما وردت في **الذخيرة** 3/1/ 467- 468، قدّم ابن بسّام للرسالة بما يلي: "وله من أخرى إلى ذي الوزارتين

"المحاسنُ التي تؤثر عنك بالسّرو والسّناء، والمحامد التي تتلاقى عليك بها ألسنةُ الثّناء، تُميل إليك أحناء القلوب، وتقف عليك نخائلَ الصّدور، وقد أصبحتَ بفضل الله حلية الزّمان، ومفخرَ الأوان، ومسْمَى عيون الأفاضل والأعيان[1]، بما نزعتَ به من كرم الخلائق، وسموّ الهمم السّوابق؛ وما زلتَ - أدام الله عزّك - **تجلو على المتوسّلين إليك صفحات البِشْر**، وتُنزلهم في ذَراك عرصاتِ الإجمال والبرّ، فتجني ثمرات المجد، وتنتشق نفحات الشّكر والحمد.

ومن أولئك الأعيان الأكابر، بل المُبرّ عليهم بخصائص المآثر، فلان[2]، فإنّي ما أفاوضك في وصف مناقبه، وأعلمك بكريم ضرائبه، واعتلائه في مراقي العلم وتسنُّمِه، وشفوفه بالبراعة في الإبداع وتقدُّمِه، مفاوضة من يَسِمُ لديك غُفلاً، وينبّه خاملاً، ويذكر ناسياً، فإنّك أعلى مَلحظاً، وأزكى تيقظاً، من أن يغيب عليك مكانُ مثلِه، ولا يتقرَّرَ لديك سموُّ محلّه، في إحسانه وفضله؛ وحسبُك به جملةً تُغني عن التّفصيل، مع عالي نظرك الجليل، أنّي ما عاشرت أكبر منه في البرّ والصّلة، ولا أقوَمَ بحقيقة الودّ والخلّة، ولا ناسمتُ أطيبَ منه نفساً، ولا أمتعَ أنساً، نفاسة خِيم، صادرةُ عن شرفِ أروم، وأنت خليق بالاستكثار من جانبه، والإجمال في معونة مَطالبه..."

60 - رسالة عن المقتدر ابن هود من أجل العناية بالشيخ أبي الحسن بن عبد الغني الحصري[3] [...؟...]

"ما أثّل الله من مجدك وعلائك، وأكمل من سروك وسنائك، وأصدرَ عنك من محاسن الشّيم، وقصر عليك من معالي الهمم، يقود إليك الأهواء تنتحيك بصفو ودادها، وتعتفيك بصدق ارتيادها؛ وما زال ذَراك الرّفيعُ سابغاً على ذوي الأخطار ظلُّه، غامراً لذوي الآداب إفضاله باهراً فضلُه، وأحقُّهم بأجزل البرّ الأوفى مَن هاجر إليه على بُعد المدى، مهلاً بمحامده ومدائحه، مستشعراً لميامن قصده ومَناجحه، وهو الشيخ الفاضل

أبي بكر بن عمّار عناية بابن الحدّاد"؛ ويظهر من عباراتها أنّ ابن حسداي كتبها عن أمير سرقسطة ابن هود، المعاصر لإمارة ابن عمّار في مرسية (471- 473) وسيّد إمارة دانية منذ سنة 468 وهو المقتدر، ويحتمل أنه كتب الرسالة بين سنتي 471 و 473 أي تاريخ إمارة ابن عمّار. انظر ترجمة ابن الحداد الوادي آشي محمد بن أحمد في **الإحاطة** 2/333- 337؛ و**المغرب** 2/ 143 (ذكر قضاء معظم حياته عند المعتصم بن صمادح ثم فرّ عنه إلى ابن هود ثم رجع ، وربما كان رجوعه عبر مرسية حاملاً رسالة العناية به المذكورة أعلاه.

[1] - في الأصل: الأغيان

[2] - أي ابن الحداد المشار إليه في تقديم الرسالة

[3] - الرسالة من إنشاء حسداي بن يوسف ابن حسداي الإسرائيلي كما وردت في الذّخيرة ق3/م1/ 485، (ترجمته بها في ص 457 وما بعدها، وفي المغرب 2/ 441)، كتب الرسالة عن المقتدر ابن هود إلى أمير بلد آخر لم يذكر من هو، نفترض أن يكون هو ابن عبّاد حليف المقتدر، خاصة وأنه يخاطبه عن الحصري بكونه "ألمّ بجهتي - جهتك -" ؛ ومن شعر الحصري في المعتمد بعد خلافة أبيه المعتضد قوله:

مات عبّادٌ ولكن === بقي الفرع الكريمْ
فكأنّ الميت حيٌّ === غير أنّ الضاد ميمْ

فقد خدم المعتضد ثم المعتمد، وألّف لهذا كتاب "المستحسن من الأشعار" قدّمه إليه عندما نزل طنجة منفياً إلى أغمات، فمن المحتمل أن الحصري انتقل بهذه الرسالة إلى المعتمد، وبقي ضمن أدبائه وشعرائه. أصل الحصري من القيروان، وتوفي بطنجة سنة 488 (نفح 4/ 246- 247؛ دول الطوائف 410).

الكامل **أبو الحسن بن عبد الغنيّ**، ألمّ بجهتي - جهتِك - فوفد عليَّ منه الوافد الأثير، والزّائر الكريم، وأنّس بذكاء مناسمته، وأمتعَ بجمال محاضرته، وهو البارع المتقدّم في إحسانه، وتصرُّفِه في الإبداع وافتنانه؛ وربّما تقوّل كاشح، ونمّق كادح، وزوّر حاسد، وأوْهمَ خبٌّ مُعاند، لأجل استقراره في ذلك الجانب، واشتماله بظلّ المُجانب، أنّه انحرف بصفو وداد، أو حرّف بقول واعتقاد؛ والله تعالى قد شرّف رتبتك ونزّه منصبك عن الإصغاء إلى تنميق الوشاة، والإجازة لكيد العداة، والارتياب بعهدة المخلصين الثّقات [كذا]، وعصم النّبيل النّبيه مثله، ممّن زكّى الله دينه وعقله، من العدول عمّا دان به، واعتلق بسببه، من الاعتزاء إلى ولائك، والتّشيّع في عليائك، والتّشرّع بمدحك وثنائك".

61 - رسالة عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى أبي بكر ابن عبد العزيز لنجاح وساطته في تسريح ابن طاهر من الاعتقال[1] [474][2]

"وقد تتابعَ عنك - أعزّك الله - أحسنُ الحديث المذيع لخفايا سَروك وسرائره، المُعربِ عن سجايا سنائك ومآثره، منذ انتدبتَ بشرف منحاك لما يسّره الله من حميد مسعاك، فانتضيتَ من عزمك باتراً يفلّ نصال النّوائب، وأيقظت من حزمك ساهراً ينيم عيون الحوادث، وسهّل الله الوعد بصدق بصيرتك، وذلّل الصّعب بيمن نقيبتك، حتّى شرَدت المحنة، وعمّت المنحة، بتخلّص ذي الوزارتين الكاتب الأجلّ صاحب المظالم **أبي عبد الرحمن**[3] سَندي، والخطير من عددي- أبقاه الله - من تلك الغمرة، وانتضائِه بالاستقلال من العثرة[4]، واستقرّت الحال - أيّدك الله - بدءاً وعوْداً عمّا قصر عليك أوفر الحمد، ونشر عنك أنضرَ العهد، فجازاك الله أفضل ما جازى علماً من أعلام الوفاء، ووقاك أكرم ما وقى متقدّماً في أحوال الصفاء، متوحّداً بجميل المقام وجليل الغَناء؛ وخاطبتُك معلماً بحقيقة اعتزازي بما يسّر الله على يديك من هذه العائدة، وسنّاه بلطف توصّلك إلى هذه الفائدة، فلو خصصت بذلك من يشاركني بالنسبة وهو قسيمي في اللحمة، لم يَعدِل عندي بما أوليتَ في جانب مَن أعزّه الله بإتمام النّعمة، فقد كان تألّمي من إساءة الدّهر في هضمه، وتطاول خطوبه النُّكر إلى ظلمه، بإزاء ما يقتضيه الاعتداد بفضله، والابتهاج بشرف محلّه؛ إذ كانت النّفس تشفق من حادثة تصيب نبيهاً من الإخوان، فضلاً عن نائبة تحلّ بساحة جليل من الأعيان[5]؛ والله تعالى يصرف النُّوَبَ عن فنائك، ويكفّ المحاذر دون أرجائك، بمنّه".

[1]- الرسالة في **الذخيرة** 3/1/ 39- 40، قدّم لها ابن بسّام هكذا: "وخاطبتْ جماعةٌ من رؤساء الجزيرة يومئذ الوزيرَ أبا بكر [بن] عبد العزيز شاكرين له على ما كان في ذلك من سعيه الحميد المشكور، منها رقعة للمؤتمن بن هود يقول فيها...." ؛ كانت إمارة المؤتمن بين سنتي 474 و 478 ، وفترة إمارة أبي بكر صاحب بلنسية بين 457 و 478

[2] - هذه السنة هي الأولى من حكم المؤتمن، وكانت السنة التي قبلها سنةَ خروج ابن طاهر من المعتقل.

[3] - بهذه الكنية ذكره ابن بسام في **الذخيرة** 24/1/3 ؛ وقد مارس هذه المهمة هو وأبوه من قبله.

[4] - الإشارة إلى استيلاء ابن عمار قائد ابن عباد على إمارة مرسية واعتقال ابن طاهر ثم خروجه من المعتقل.

[5] - يقصد مكانته الأدبية، وموقعه الاجتماعي.

62 - رسالة ودّية عن المؤتمن بسرقسطة إلى ابن طاهر[1]

[474 - ...]

"... وردني كتابك ، أحسنَ ما أملاه خاطر، واجتلاه ناظر، من ألفاظ ومعان، اطّردت في سلك إبداع وبيان، فحيّت بالروضة الأنُف، وعادت بعِذاب النُّطَف، وهو المقال الصّادر عن كرم الطّبع، الدّالُّ على شرف الأصل والفرع، الذي تفترّ عن واضح الودّ مباسمُه، وتنشقّ عن ناضر العهد كمائمه، وتنهلّ بواكف البرّ غمائمُه؛ وقد وعَيتُ منه ما توفّر به الحظ، وتسوَّغَه السّمعُ واللّحْظ ، وإن كانت لك مزيّة السّبق بفضل البيان الّذي يَبَذّ الجاهدين عفوُه، ويفوت المجتهدين شأوُه، فالتّكافؤ واقع بالتّساوي، والتّوازي نازلٌ بمحض التّجازي، اكتفاءً بما تضمره القلوب، وتستشقه الغيوب، وهو اليقين الذي تجد النّفوس بَردَه، وتقف المعارف عنده..."

63 - رسالة أخرى ودّية عن المؤتمن صاحب سرقسطة إلى ابن طاهر

[474 - 478][2]

"محلّك - أعزّك الله- في طيّ الجوانح ثابت وإن نزحت الدّار[3]، وعِيانك في أحناء الضّلوع بادٍ وإن شحط المزار[4]، فالنفس فائزة منك بتمثّل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تُمتَّعَ من لقائك بظفَر اللّحْظ، فلا عائدةَ أسبغُ برداً، ولا موهبة أسوغُ ورداً، من تفضّلك بالخفوف (واصلاً مسعدا)[5]، إلى مأنَس يتمّ بمشاهدتك التئامه، و(شمل) يتّصل بمحاضرتك انتظامه، ولك فضلُ الإجمال، بالإمتاع[6] من ذلك بأعظم الآمال، (والإعداء على الأيّام بقضاء دَين ممطول ، وإنجاز موعود لم أحلَ منه بغير تسويف وتعليل)، وأنا - أعزّك الله - على شرف سؤددك حاكم، وعلى مَشرَع سنائك حائم، [وحسبي ما تتحقّقه من نزاعي وتشوّقي، وتيقّنُه من تطلّعي وتتوّقي، وقد تمكّن الارتياح باستحكام الثّقة ، واعترض الانتزاح بارتقاب الصّلة][7]، وأنت - وصل الله سعدك - بسماحة شيَمك، [وبارع كرمك]، (وسجاحة خلائقك وهممك)، تنشي للمؤانسة عهداً[8]، وتوري بالمكارمة زَنداً، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً، [لا زلت مهنّأ بالسّعود المقتبَلة، مسوَّغاً اجتلاء غُرر الأماني المتهلّلة، بمنّه، إن شاء الله ..]"

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي الفضل بن يوسف بن حسداي (هو مسلم من عائلة يهودية بسرقسطة)، وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 465- 466؛ انظر ترجمة ابن حسداي في هذا المصدر ص 457- 459.

[2] - وردت الرسالة في **قلائد العقيان** 548 ؛ وفي **الذخيرة**، ق3/ م464/1 - 465 ؛ والسنتان المحصورتان هما فترة إمارة المؤتمن ابن هود بن احمد المقتدر .

[3] - في الذخيرة ؛ دان وإن شطّ المزار

[4] - في الذخيرة: وإن نزحت الديار

[5] - ما بين هلالين (....) ناقص في القلائد

[6] - في الذخيرة: في الإمتاع

[7] - ما بين معقفين [...] ناقص في الذخيرة

[8] - في الذخيرة : وعداً

64 - فشل شفاعة ابن رزين لدى قائد بلنسية المرابطي لأجل استرجاع ابن طاهر لممتلكاته[1] [495]

"... أنت - أدام الله عزّك- عالم بالزّمان وانقلابه، عارف بإغارته واستلابه، ومن عرفه حقّ معرفته لم تزده شدّته إلاّ معتبَراً[2]، وشكراً لله وتدبّراً؛ وما زلتُ - [أعزّك الله][3]- ألقاك بالودّ على البعد، فأعلمك[4] بتقدّمك في الأعيان، وإن لم أرك بالعَيان، وأستخبر الأخبار فأسمع، ما يقرع صفاة الكبد ويصدع، بإنحاء الزمان عليك، وتنكّر ذلك لديك[5]، إلى أن ورد [عليّ] فلان [صادراً عن ذلك الأفق]، فاستفهمت عن حالك فذكر[6]، ما أزعج وكدّر[7]، ارتماضاً لمثلك أن يُعوزه مرام، أو ينْبُوَ به مَقام، فجرّدتُ عن ساعد الشّفاعة عند لقاء **القائد الأعلى أبي عبد الله بن الحاج بن عائشة**[8]، - أعزّه الله - في صرف ما يمكن من أملاكك، فوقع الاعتذار بأنّه أمر محظور، تقدَّمَ فيه (من أمير المسلمين)[9] حدّ محذور[10]، وأشار بإجراء ما يُلِمّ بالاكتفاء[11] ...

وأنا - أعزّك الله- أعرض[12] عليك ما هو الأوفق لي، والأليق بي[13]، عن عزيمة مكينة، ورغبة وكيدة، من الانتقال[14] إلى جهتي، والانبساط في دولتي[15]، [فأستوفي

---

[1] - وردت الرسالة في **قلائد العقيان** 165- 166؛ وفي **الذخيرة** ق3/ م1/ 113- 114، (مع بعض الآختلاف، فأولها: "من عرف أعزك الله الأيام وصروفها...") وهي لحسام الدولة عبد الملك بن رزين أمير السهلة - شنتمرية الشرق (436- 496) إلى أبي عبد الرحمن بن طاهر ، وكان قد وقع في الأسر عند احتلال القائد القشتالي الكمبيطور لبلنسية (**الذخيرة** 91/1/3)، وورد في الذّخيرة أن ابن هود كان وراء دفع الكمبيطور لاحتلال بلنسية ليضعه بينه وبين المرابطين (**الذخيرة** 1/3/ 94- 95). ولما فُكّ أسر ابن طاهر وحرّر المرابطون بلنسية سنة 495 رغب في ارتجاع ممتلكات؛ ورد في تقديم الرسالة في القلائد ما يلي: "وشفع له ذو الرئاستين عند القائد الأعلى أبي عبد الله محمد بن عائشة في أن يسوّغه من أملاكه ما يُريشه ارتجاعُه.. فأعلمه أنّ أمير المسلمين حدّ له ألاّ يخوّله شيئاً..."

[2] - في الذخيرة: مَن عرف- أعزّك الله- الأيّام وصُروفها، وخُلقها وصنوفها، وخبرّها على مَناقلها في وجوه تداولها، وحلّ محلّك من التّمييز، والسبق والتّبريز، لم تزده شدّتها إلاّ معتبراً..

[3] - إضافة من الذخيرة

[4] - في الذخيرة: فأراك

[5] - في الذخيرة: الكبد منك بإنحاء الزمان عليك وتنكّره لك

[6] - في الذخيرة: فما قدّمت على الاستفهام عن ذالك والاستعلام بحالك، فذكر

[7] - كان ابن طاهر بعد دخول الكمبيطور القشتالي بلنسية وقع في الأسر سنة 488، وفي منتصف صفر منها كتب رسالة يؤمّل في الإفراج عنه بالافتداء (**الذخيرة** ق1/3/ 91)

[8] - في الذخيرة: الشفاعة عند فلان في صرف؛ والمذكور هو القائد المرابطي على بلنسية. وفي هامش القلائد أنه كان صاحب أعمال بلنسية، وهذا يعني الأعمال المالية، ويظهر أنّ في هذا خلطاً بين القائد ابن الحاج المذكور وابن عائشة الأديب البلنسي وصاحب الأعمال [الحسابات] بلنسية ثم المغرب والأندلس (الذخيرة 3/ 887؛ ونقل عنه **المغرب** 2/ 314- 315).

[9] - جملة ساقطة في القلائد

[10] - في الذخيرة : أمر محذور

[11] - يظهر أنه يشير إلى اقتراح ابن الحاج عليه شغلاً يعوّضه عن فقْد أملاكه. وبعد كلمة (الاكتفاء) يوجد بتر في الرسالة أشار إليه صاحب **الذخيرة** بقوله (وفي فصل منها)، أما في القلائد فالكلام مسترسل

[12] - في الذخيرة: وأنا أعرِض عليك - أعزك الله- ما هو

[13] - في الذخيرة: والأحقّ بي

[14] - في الذخيرة: من التنقل

[15] - في الذخيرة: جهتي، والاختلاط بي وبلحمتي، فأستوفي..

الحظ من مؤانستك، وأستنفذ الوسع في تكرمتك][1]، وأقاسمك خاصّ ضياعي، ومعلوم أملاكي ورباعي؛ وإن شقّ عليك الكونُ بجهتي - [جهتك] - لبرد هوائها، وبُعد أنحائها، فها هي[2] **شنتمرية** أقف طاعتها عليك، وأصرف أمرها إليك، وعندي من العون على الارتحال[3]، وما يقتضيه لك رفيع الحال؛ ولك الفضل في مراجعتي، بما يستقرّ عليه رأيك، ويأتي به إيجابك، [مكرّماً مواصلاً]، إن شاء الله[4]".

65 - نصّ تولية من المتوكّل ابن الأفطس[5] ملك بطليوس على إشبونة بعد خضوعها لنفوذه[6] [460 - 464][7]

"لم يُسوِّغ أولياءُ النّعم مثل الذي سُوِّغتموه من التزام الطّاعة، والدّخول في نهج الجماعة، ولذلك لا آلوكم ونفسي فيكم نصحاً فيمن أتخيّره للنّيابة عنّي في تدبيركم، والقيام بالدّقيق والجليل من أموركم؛ وقد وليت عليكم مَن لم أوثر - واللهِ - فيه دواعيَ التقريب، على بواعث التجريب، ولا مواتُ التخصيص، على لوازم التّمحيص، وهو الوزير القائد أبو عبد الله **بن خَيْرَة** ابني دُربة، وبعضي صحبة، ونشأتي شُبكة وقُربة[8]؛ وقد رسمت له من وجوه الذّبّ والحماية، ومعالم الرّفق والرّعاية، ما التزم الاستيفاء لحدّه، والوقوف بجدّه عند جهده[9]، والمسؤول في عونه مَن لا عونَ إلاّ من عنده؛ ولن أعرّفكم من حميد خصاله، وسديد فِعاله، إلاّ بما سيبدو للعَيان، ويزكو مع الامتحان، ويفشو من قِبَلكم إن شاء الله على كلّ لسان؛ وقد حدَدتُ له أن يكون لناشئكم أباً، ولكهلكم أخاً، ولذي التّقويس[1]

---

[1] - ما بين معقّفين [....] إضافي من الذخيرة

[2]- في الذخيرة: فهذه

[3]- في الذخيرة: الارتجال

[4]- ختم ابن بسام الرسالة بقوله: "فراجعه ابن طاهر برقعة قد كتبناها في رسائله"، وهي واردة في **الذخيرة** ص 48- 49. و في**القلائد** 197 : "كلّ المعالي - أدام الله تأييد الحاجب ذي الرئاستين- إليه ابتسامها .... وأمّا ما عرضه – أيده الله- من الانتقال إلى ذراه ... والحلول بجنابه فكيف وأنّى به، وقد قيّدني الهرم فما أستطيع نهضاً ولا أطيق بسطاً ولا قبضاً..." (**القلائد** 197؛ **الذخيرة** 3/1/ 48).

[5]- اسمه أبو محمد عمر بن المظفّر بن المنصور .. بن مسلمة التجيبي ابن الأفطس (ترجمته في **القلائد** 120 وما بعدها؛ **الذخيرة** 2/ 640 وما بعدها؛ **الحلّة** 2/ 96- 107؛ **المغرب** 1/ 364- 365 (ينقل من القلائد)

[6] - كانت مدينة إشبونة وقعت في يد ابن عبّاد بين 421 و425 حسب **الذخيرة** ق2/ م1/ص22 ؛ وردت الرسالة في **القلائد** 143- 144 بعد أن قدّم لها بذكر ليلة أنس مع خواصّه " إذ ورد عليه كتاب بدخول إشبونة في طاعته وانتظامها في سلك جماعته... فقال له ابن خيرة .. لمن تولّيها فقال: لك، فقال له: فاكتب لي الآن بذلك، فاستدنى الرّقّ والدّواة، وكتب وما جفّ له قلم... : لم يسوّغ أولياء النّعم..."؛ وردت الرسالة عند ابن الخطيب ضمن ترجمة المتوكّل ابن الأفطس في: **الإحاطة** 4/ ص4546 (طبعةالقاهرة 1977) ؛ وعن تاريخها لم نستطع تحديده ولكنه يرجع إلى عهد المتوكّل الذي يبدأ من سنة 464، وورد في هامش **الحلة السيراء** أن عهده يبدأ من سنة 460 استنتاجاً من بعض العملات (**الحلة** 2/ ص97)؛ وعن النزاع بين الأخوين عمر ويحيى ابني الأفطس راجع **الذخيرة** 2/م2/ 650- 651

[7] - ربما حدث هذا بعد موت أبيه وانقسام المملكة بينه وبين أخيه يحيى (المنصور) صاحب بطليوس، فكان عمر المتوكّل على يابرة وخضع له الثغر الغربي، وكانت إشبونة ضمن هذا الثّغر.

[8] - كذا في القلائد؛ وفي الإحاطة: ونشأتي سكّة وقربة.

[9] - في الإحاطة: الاستيفاء بعهده، والوقوف بجدّه عند حدّه

التّقويس[1] والكِبرة ابناً، ما أعنتموه على المُراد[2]، ولُزوم الجوادّ، وركوب الانقياد؛ وأمّا مَن شقّ العصا، وبان عن الطّاعة (وظهر)[3] منه المَراد والهوى، فهو القصيّ منه ولو مَتّ إليه بالرّحم الدّنيا؛ فكونوا [له][4] خير رعيّة بالسّمع والطّاعة في جميع الأحوال، يكن لكم بالبرّ والموالاة خير وال، إن شاء الله تعالى".

66 - المتوكّل ابن الأفطس يعاتب ابنه والي يابرة لانصراف أحد رجاله عنه إلى المعتمد بن عباد[5]

[464 - ...][6]

"... قبولي لتنصّلك من ذنوبك، موجب لجراءتك عليها، وعودتك إليها، واتّصل بي ما كان (من قِبلك)[7] خروج **طلحة بن عبيد الله**[8] عنك، ولم تتثبّت في أمره، ولا تحققتَ صحيحَ خبره، حتّى فرّ (بنفسه)[9] عن أهله ووطنه، والعجلة من الشيطان، ولا يُحمَد قبل النّضج بُحران[10]؛

وهو[11] الذي أوجبَه إعجابك بأمرك، وانفرادك برأيك، ومتى لم ترجع إلى ما وعدتَ به من نفسك وصدّرت به كتبك، فأنا واللهِ أريح[12] نفسي من شغبك، وإن تكن الأخرى فهو لك الحظّ الأوفى، فاختر لنفسك أيَّ الأمرين ترى، (إن شاء الله)[13]".

67 - عزل المتوكّل (ابن الأفطس) لوزيره أبي الوليد ابن الحضرمي لسوء تصرّفه[14]

[464 - ...]

[1] - في الأحاطة: ولذي النّفوس؛ والقصد من ذوي التّقويس: من تقوّس ظهره لشيخوخته
[2] - في الإحاطة: على هذا المراد... والجوادّ، جمع جادّة: أي الطريق المستقيم
[3] - إضافة من الإحاطة
[4] - ناقصة في الإحاطة
[5]- ورد في تقديم الرسالة في **الذخيرة** (ق2/ م2/ 651) ما يلي: قال ابن بسّام: ثم استوسق الأمر للمتوكل بموت يحيى أخيه [منافسه]، وحصلت له جميع بلاد أبيه، واحتلّ [أي استقرّ] حاضرة بطليوس، وجعل ابنه العباس في يابرة، واتّفق أن خرج طلحة بن عبيد الله مستوحشاً عنه لأمر بلغه عنه، ولحق ببلد المعتمد، فكتب العبّاس إلى أبيه معتذراً..." فكان جواب المتوكّل الرسالة أعلاه. (وردت الرسالة أيضاً في **القلائد** 131- 132؛ وكذا في **المغرب** 1/ 365 مع أخطاء). وعلى هذا لا يتأخّر تاريخ الرسالة كثيراً عن بداية عهد المتوكّل أي أواسط الستينيات، وفي هامش بالحلة السيراء أن المظفّر توفي سنة 456، ومنها ابتدأ عهد ابنه المنصور إلى سنة 460، فيكون عهد المتوكل بين 460 و487، نقل هذا عن استنتاج لعملة مسكوكة في عهد المنصور تحمل تاريخ 456 (**الحلة** 2/ ص97)
[6]- هو أبو محمد عمر بن محمد رابع وآخر ملوك بني الأفطس أصحاب بطليوس ملك سرقسطة من سنة 460 (حسب **الحلة السيراء** ضمن ترجمة المتوكّل ابن الأفطس 97/2) إلى أن دخل المرابطون عاصمته سنة 488 ا
[7]- كذا في الذخيرة؛ وفي القلائد: ما كان من خروج
[8]- في القلائد: فـلان
[9]- إضافة من الذّخيرة
[10]- في القلائد: وليس يحمد.. ؛ والبحران من معانيها: التغير الذي يحدث للعليل دفعة في الأمراض الحادّة؛ البحران أيضاً : الجائع
[11] - في القلائد : وهـذا
[12] - في الذخيرة: فأنا المريح والله نفسي
[13] - إضافة من القلائد
[14] - وردت الرسالة في **القلائد** (133- 134)، وقد اعتبرناها الأصل؛ وفي **الذخيرة** م2/ 2/ 646- 647)؛ وكان ابن الحضرمي "عامل النّاس أسوأ معاملة.. وظهر للمتوكّل قبح أفعاله... وأبعده عن خدمته، فكتب إليه يستعطفه، فراجعه المتوكّل: "ياسيدي وأكرم عددي، الشاكي ما جنته يده لا يدي..." (**القلائد** ص 133) . والمتوكّل هو

"ياسيّدي، وأكرمَ عُددي، الشاكي ما جنته يدُه لا يدي، ومن أسأل الله له التوفيق في ذاته إذ حُرمَه في ذاتي؛ قرأت كتابك المتشكّي فيه صُدودي ، وإعراضي عنك غاية مجهودي؛ ونعَمْ، فإنّي[1] رأيت الأمر قد ضاع، والإدبار قد انتشر وذاع، فأشفقتُ من التلف، وعدلتُ إلى ما يُعْقِبُ[2] إن شاء الله بالخلف، وأقبلتُ أستدفع مواقع أنسي، وأشاهد ما ضيّعتُه بنفسي، فلم أر إلاّ لججاً توسّطتُها، وغمراتٍ قد تورّطتُها[3]، فشمّرتُ عن السّاق للجّتها، وخدمتُ النّفس بمهجتها، حتّى خُضت البحر الذي أدخلني رأيُك، ووطِئتُ السّاحل الذي كاد يُبعدني عنه سعيك[4]؛ فنفسَك لُمْ، وبسوء صنيعك لُذْ واعتصم[5]، وإن متتُّ بجميل اعتقاد، ومحض وداد، فأنا مُقرّ بغُرّه، معترف بقلّه وكُثره، ولكن[6] كنتَ كالمثل [السائر][7] "شوى أخوك حتّى إذا أنضج رمّد"[8]، وقد أطمعتَ فيّ العدوّ، ولبست لأهل مصري الاستكبار والعتوّ[9]، واستهنتَ بجيرانك، وتوهّمتَ أنّ المروءة التزامُ زهوك، وتعظيمُ شأنك، حتّى أحرجتَ[10] النّفوس عليّ وعليك، فانجذب مكروه ذلك إليك، ومع هذا[11] فليس لك عندي إلا حفظُ الحاشية، وإكرام الغاشية..."

68 - رسالة من المتوكّل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عبّاد بعد لجوء وزيره ابن الدّبّاغ إلى بطليوس معتذراً عنه[12] [بعد 464]

"مَن تخيّرَك - أيّدك الله - على سواك، وأرادك وترك وطنه[1] هجرة إلى ذَراك، ، وأسرع تلبية إلى دواعي سرْوك وعلاك، فمجدك يقضي له - وإن

الذي دخل عليه المرابطون سنة 487 فقتلوه مع ابنيه (**القلائد** 36؛ الحلة96/2؛ **أعمال الأعلام** 2/ 185؛ وورد ذكر ابن الحضرمي في **المغرب**1/ 265).

[1] - هنا يبدأ نص الرسالة في الذّخيرة ق2/2/ 646- 647 هكذا: ولمّا رأيت الأمر قد ضاع..

[2] - في الذخيرة: وذاع، اشفقت... ما يعقب..

[3] - في الذخيرة: فلم أر إلا لججاً قد تورّطتها وغمرات قد توسّطتها

[4] - في الذخيرة: الذي كاد يحول بيني وبينه فعلك

[5] - في الذخيرة: وبسوء صنيعها ألمّ واعتصم

[6] - في الذخيرة: مقرّ بذكره معترف بقله وكثره ولكنك

[7] - إضافة من الذخيرة

[8] - يضرب المثل لمن يفسد صنيعه بالمنّ

[9] - في الذخيرة: حتى أطمعت... لأهل حضرتي...

[10] - كذا في الذخيرة ؛ وفي القلائد: أخرجت

[11] - في الذخيرة: ومع ذلك

[12] - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي عبد الله محمد ابن أيمن كما وردت في **الذّخيرة** ق2/م2/ 664 ، (وترجمة الكاتب قبلها في ص 652- 653)؛ وفي **المغرب** 2/ 366 (نقل بعض الفقرات مع بعض الخلاف). أما ابن الدبّاغ فهو أبو المطرّف عبد الرحمن بن فاخر؛ وكان ببلده سرقسطة قد خشي على نفسه من أميرها فانتقل إلى المعتمد، فكان حظيّاً عنده، وسفر عنه إلى المتوكّل ابن الأفطس، ثم دبّر الوزير ابن عمّار في الكيد له فنفاه المعتمد والتحق بالمتوكّل أمير بطليوس، إلى أن ظهرت نار الحسد من الكاتب ابن أيمن المقرّب من المتوكّل، فارتحل ابن الدباغ إلى سرقسطة حيث قتل خارجها. بعد وصول ابن الدباغ إلى بطليوس كما ذكرنا بعث أميرها رسالة إلى المعتمد يخبره بذلك وبثناء المذكور عليه، مشيراً إلى أن إخراجه من إشبيلية كان بتدبير متولّيها ويقصد ابن عمّار؛ وورد في المغرب ذكر سوء خلقه وكثرة ضجره ممّا يكرّه فيه من يلجأ إليه (**المغرب** 2/ 440 ؛ وانظر **الذخيرة** ق 2/م2/ 652- 653؛ ق3/ م1/ 251- 253).

أزعجته عنك بحكم الاضطرار، صروف الأقدار- أن تستمرّ عليه النّعمى، وتطّردَ لديه العارفةُ الحسنى، وينتظمَ بدءُ الصّنيعة فيه بالعقبى، فالفضل على علمك بتمامه، والطّول باختتامه، والبرُّ بمقتضاه، والمنُّ بأخراه.

وهذه - أدام الله تأييدك - حالُ فلان[2]، فإنّه هجر إليك الورى، وركب نحوك أعناق الأمل والهوى؛ وقد كان ظفر بالحظّ من دنياه، واعتلق منها السّبب الذي لا تُنقض مِرَرُه ولا تنتكث قواه، إلاّ أنّ الزّمان مِن بثّ العِصَم، وإحالة النّعم، والقطْع بذوي الآمال والهمم، جارٍ في سَنَنه الذّميم، على القديم؛ وحين جدّ به الجدّ العاثر - أسعد الله جدودك، وأدام تأييدك- في الانزعاج من جنابك، ومفارقة النّعمة من ملازمة ركابك، وخدمة بابك، لحِق بحضرتي - طاعتِك- يعتقد - وحقٌّ ما اعتقده- أنّه لم ينفصل عن جماعتك، ولا تحوّل إلا إلى أعمالك[3]، ولا انتقل من يمينك إلا إلى شِمالك[4]؛ وعنده تذكُّرٌ لحسن معاهده لديك، وطيب مَشاهده بين العزيزتين يديك، ما ليس مثله إلاّ عند معتقدِ أيّام الصّبا، ومستعيدٍ عشيّات الحمى، وأمّا شكرُه لسوالف نعمك، ونشره لمطاوي مَنازعك الجميلة وهممك، وإشادتُه بسنائك، وإبداؤه وإعادته في حسن آثارك وأنبائك، فبحيث لو جاز أن تُتقلَّدَ مَقاومه في ذلك لتعطّلت الحِلى، أو تُتورَّدَ لشفت من الصّدى، أو تُترشَّفَ لأغنت عن بَرد اللّمى، أو تُقطفَ لكفت من يانع الجنى؛ ومن فارقك - أيّدك الله- وتَحرُّقه للبعد عنك تحرُّقه، وتحقُّقه بالتّشيّع لك تَحقُّقه، ففضلك الباهر يأبى أن تنقطع عنه عوارفُ الإجمال على النّوى، ولا سيّما وقد وُسِّدتْ مع القرب جوازئُ آماله أبردَيْ ظلاله، وأُوردَتْ على الدّنوّ ظامئةُ ذمامه النّميرَ العذب من جِمامه؛ وقد كان لحقّه عند انزعاجه عن حضرتك - ولله حراستها، ولك رئاستها- ما الفضل له متألّم، والمجد منه متذمّم، ممّا أعلم واللهِ عِلمَ اليقين أنّ سيادتك تأبى مسموعَه، ولا ترضى وقوعه، وإنّما أتى ذلك التّعدّي - لا محالة - من جهة المتولّي[5]، لأنّ قدرك - رفعه الله - **منزّه عن ارتجاع موهوبٍ ولو عظُم، ومعاملةِ خادم باستصفاء مكسوب وإن ظلم**[6]؛ وعند الوزير الكاتب أبي طالب[7] من بسط هذه النّكتة ما أنت بمعاليك تقتضيه منه وتستوفيه، وتأتي متفضّلاً من الإيجاب فيه، بما يليق بسؤددك الأثيل، وقُعدُدِك الجليل، ومعتقدِك الحسن الجميل، واضعاً بذلك عندي يداً تُشفّ على متقدّم أخواتها، وتهتف بالتعجيز عن معارضتها من جميع جهاتها...."

---

[1] - وطنه هو سرقسطة كما في ترجمته في الذخيرة.
[2] - اختزل النسّاخ اسم الوزير ابن الدباغ في هذه الصيغة.
[3] - أي جهات أرضك، وهذا شيء رمزي لأن بطليوس مستقلة عن إشبيلية.
[4] - خلال نزاعه مع أخيه يحيى صاحب بطليوس كان ابن عباد حليفاً له ضد أخيه المتوكّل، وعند تولّيه هذا المُلك احتفظ بعلاقاتٍ ودّية مع ابن عبّاد، والعبارة تؤكّد هذا.
[5] - يقصد ابن عمّار وزير المعتمد.
[6] - هذا تلميح إلى كون الوزير المتحدّث عنه كان قد تعرّض لمصادرة ممتلكاته في إمارة ابن عباد على يد أحد ولاته أو خدّامه والمقصود ابن عمّار.
[7] - لعله حامل الرسالة إلى ابن عباد.

69 - رسالة شفاعة من المتوكّل ابن الأفطس إلى المعتمد ابن عباد[1] [464 - ...]

"... ما يُسفر لي - أيّدك الله- وجهُ مطالعتك، ويَعنّ لي سببُ مراسلتك، إلاّ وأجد الزّمان قد أقبل بعد إعراضه، وأمدَّ حبلَ انتقاضه، وأرى المُنى تُلقي إليَّ عنانَها، وتُدني من يدَيَّ إحسانَها؛ فإنّك العمادُ الذي أعتدّه جبلاً ألوذ بحَقْوه، ومَنهلاً أكرَع من صَفْوه، ومعظَّماً أعاطيه بقسطه، وأناجيه على شحطه؛ ولمّا كان فلان - أبقاه الله - قد سبقت به المعرفة القديمة، وسلفت معه الأذمّة الكريمة، وأتاني ثناؤه بالغيب عليك أرسالاً، كأنّما هبّ صَبَاً أو شَمالاً، لزمني أن أعلمك بمكانه من الانقطاع إلى جهتك، والتحيّز إلى فنتك، وأن أشفع له عندك شفاعة حسنة، أدركُ معها لدنك كرم الشّفيع، ويحوز[2] بها منك شرف العارفة والصنيع، وهي منّة طوّقتَه إياها، وأطلعتَه بروضها ورباها، ثمّ اعتُرض عليه فيها، وقد شُهر مُلكُه لها ولنواحيها؛ ويُعيذ اللهُ مجدك أن يكون ما وهبتَ مرتجَعاً، أو ما أوليْتَ مُنتزَعاً؛ وأنا أرتقب لها الإسعاف والقبول، كما يرتقب الظمآنُ الورودَ والوصول، وإن مننتَ - أيّدك الله - بالمراجعة الجميلة البديعة، وقرنتَها بأحوالك المَصونة الرّفيعة، اقتضيتَ الشّكرَ من شاكر، كنَورٍ زاهر، وغمامٍ باكر، إن شاء الله تعالى..."

70 - رسالة عن المتوكل ابن الأفطس إلى المعتمد بن عبّاد في التواصل بينهما والإخبارعن مهاجمةالأعداء لأراضيه من النصارىوالمسلمين[3] [471- 474][4]

"الفضلُ - لا زلتَ له أهلا، وبه أولى- عن شرف حامليه موضِح، "وكلّ إناء بالذي فيه ينضح"،

وورد كتابك - لا زالت المسارّ تردُك، والأقدار تُسعدك-، بوصول فلان إلى حضرتك- ضاعف الله جلالها، وبسط ظلالها-، وما كان مِن أخذِه عند مثوله،

---

[1] - الرسالة من إنشاء المتوكّل ابن الأفطس كما وردت في **قلائد العقيان** ص 141- 142، قارن مع الرسالة السابقة عن الشفاعة في ابن الدبّاغ وما ورد في **الذخيرة** عن نفيه من إشبيلية (ق3/م1/ 252- 253).

[2] - في القلائد: ويجوز؛ وهي غير مناسبة.

[3] - الرسالة من إنشاء الكاتب ابن أيمن كما في **الذخيرة** ق2/م2/ 666- 668؛ وترجمة أبي عبد الله محمد بن أيمن في نفس المصدر ص 652- 653؛ **والمغرب** 1/ 366. ذكر صاحب الذخيرة أن المتوكل لمّا صرف عن خدمته ابنَ الحضرمي لم يفوّض بعده إلى وزير، غير أنّ ابن أيمن كان من وزرائه وصحبته.

[4] - بدأ عصر المتوكّل ابن الأفطس سنة 464 (إن لم يكن قبل هذا)، وربّما كان الضغط النصراني المشار إليه هو الحملة القشتالية التي انتهت بالاستيلاء على مدينة **قورية** في الثغر الشمالي الشرقي لمملكة بطليوس شمال نهر التاجه وذلك سنة 473، أمّا الطرف الثاني المشتكّى من تعدّيه فلا يكون غير المقتدر ابن ذي النّون على الحدود الشرقية، ففي الواجهة الجنوبية توجد مملكة ابن عباد المكتوب إليه، وذلك بعد أن استرجع ابن ذي النون طليطلة سنة 474 إثر ثورة أهلها عليه واستدعائهم لابن الأفطس، فلا يستبعد أن يكون ابن ذي النّون هاجم ثغور بطليوس انتقاماً لوصوله سابقاً إلى طليطلة ونهب خيرات قصره.

بكرم فرعه التّابع لطيب أصوله، في وصفي بما - والله- قطعني على البعد، وقنّعني حياءً من المجد، فإنّي ما رأيت مثله سواه، واللهُ يغفر له ما أتاه، ذكر الجودَ والبحرُ شاهدٌ، وأسهمَ في الفضل وربُّه واحد، وإذ لا أستجيز موافقة جفائه، بالاعتراض على تقريضه وثنائه، فلا بدّ أن أعتذر ممّا استكثر، وأتذمّمَ ممّا استعظم، وأقول: إنّي ما عدوت في تلقّيه ببعض حقوقه، استرسال الصديق مع صديقه، ولو ذهبت إلى معارضة فضله، وتوفية واجب مثلِه، لضعُفت عن ذلك أسباب المقدرة، ووضحت بوقوع العجز وجوهُ المعذرة، وهو وليُّ البرّ والإجمال، فيما عرضه وحسّنه من الحال؛ وهكذا مَن شرّف الله محتِدَه، وأطاب مشهدَه، ومن زكا عنصرُه، وكرُم محضرُه.

وذكرتَ في الكتاب الكريم - عقب هذا الفصل، بل سابغ الفضل-، أنّ ما نقله فلان المذكور إليك، وأوردَ عنّي عليك، ممّا وافق مُرادك، وطابق غرضك واعتقادك؛ ولا غَرو فاتّفاق المذاهب والآراء، تبعٌ لتمازج النّفوس والأهواء، **ونحن بحمد الله في الاتّصال يدٌ وساعد**، وفي الانتظام جسمان والرّوح واحد؛ وتقدّمت كتبي إليك بما كان من **تطرُّق خيل العدوّ** - بدّدها الله- جهاتي - طاعتِك - حتّى كادت تتركها خلاء، وتعيدها عفاء، **وأنبأتك أنّ ذلك لا يثبت معه سَلم**[1]، ولا يرقأ عليه كَلم، ولا يطيب معه معتقَد، ولا يصبر عليه أحد.

والآن فقد ورد ما هو أشدّ، وطلع ما هو أشنع وأفظع، وذلك ضربُ الخيل من قِبَل فلان على تلك الجهات[2]، وبلوغها في النكايات أقصى الغايات، فِعلَ العدوّ المحارب، وعملَ الضدّ المطالِب، لا يمرّ بحصن إلاّ أناخ بحياله، وجدّ في قتاله، وهذه حالٌ ليس وراءها إلاّ الاستئصال؛ فمذهب القوم في حيّز الجليّ الظّاهر، وقد وضح الصّبح لذي ناظر، وأهل تلك الجهات مُظهرو القلق من اتّصال هذا التّطرّق، معلِنو الشّكوى، بتجاوز هذه العدوى؛ فكيف يسوغ لي وجهاتُهم مباحة، وأحوالهم مجتاحة، طلبُهم بما تعرفه، والاستعانة بهم على ما نُكلّفه، أليس ذلك في حدّ الامتناع، وجانب الأمر غير المستطاع ؟ ..."

---

[1] - يظهر الحديث هنا عن القشتاليين المجاورين لمملكة بطليوس من الشمال، وربّما كانت العملية من أجل السيطرة على مدينة قورية المشار إليها قبل.

[2] - يظهر أنه يقصد جيش ملك طليطلة ابن ذي النّون جاره الشرقي أما جاره الجنوبي فهو المعتمد على الله المكتوب إليه.

ج ـ مملكة بني عباد بإشبيلية

تقديم:

سبق الحديث عن مملكة بني عباد في المقدّمة التي وضعناها لممالك الطوائف، ونشير هنا إلى كون هذه الإمارة كانت أكثر نجاحاً في توسّعها على حساب غيرها من الإمارات، ويمكن أن نرجع ذلك إلى جملة من العوامل أهمّها:

1- الجانب الإديولوجي المتعلّق بالارتباط بمؤسسة الخلافة المروانية، وتبنّي الدّفاع عنها حتى يمكن مدّ نفوذ الإمارة تحت ظلّها، سواء كان الخليفة مروانياً حقيقة أو زعماً، ولم تنته هذه الوضعية إلا في آخر سنة 451 بعدما أصبحت إمارة بني عبّاد مملكة واسعة وقوية وفي غير حاجة لمؤسسة الخلافة المروانية.

2 - ضعف المنافسين الأساسيين في موضوع الخلافة وهم بنو حمّود الأدارسة لكونهم مدعومين من العنصر البربري المكروه في معظم الأندلس - حسب الروايات الأندلسية-، والمدعومين من إمارات صغيرة وضعيفة تبعية أو تحالفاً، وهذا ما مكن بني عباد من إقصائهم أولاً من قرطبة ثم من مركزهم الأخيرة في الجزيرة الخضراء سنة 450 - بعد استيلاء أمير غرناطة على مالقة في السنة السابقة -، وهذا بعد أن قضوا على سائر الإمارات الصغيرة في منطقة الغرب الأندلسي، ولم يستطع أمراء بطليوس منافستهم في هذه الجهة. وبهذا وصلت إمارة بني عباد في منتصف القرن إلى المحيط غرباً وإلى المضيق جنوباً، وستأتي المرحلة الشرقية لاحقاً.

3 - تدبير المؤامرات لمدّ النفوذ شرقاً، فكانت نتيجتها احتلال **جيان** سنة 466 (وهي ثغر من ثغور غرناطة كانت ألمرية تنازعها عليه) ثم قرطبة في السنة اللاحقة، وكانت هناك أيضاً محاولة فاشلة في **دانية** بتدبير محاولة انقلاب بواسطة أخي أميرها. وباحتلال جيان فتح ابن عباد الطريق لعمل عسكري ضد **مرسية**، وهو ما تمّ سنة 471 حيث نجح ابن عمّار قائد جيشه في إقصاء أميرها ابن طاهر، فأصبحت مملكة إشبيلية تمتدّ من المحيط غرباً إلى المضيق جنوباً وإلى البحر المتوسط شرقاً، ويظهر أنّ حاكم **شقورة** أصبح متحالفاً مع ابن عباد أو تحت نفوذه بشكل ما بعد أن سقطت دانية في يد ابن هود سنة 468، فهو الذي قام بالقبض على ابن عمّار وتسليمه إلى ابن عباد.

4 - ربّما كان أهمّ عامل لنجاح توسّعات ابن عباد هو بعده عن الممالك النصرانية على عكس ممالك الثغور التي كان الضغط عليها شديداً بالقوة العسكرية وبالمؤامرات داخلها.

5 - فشل محاولات ابن عبّاد في الامتداد في مملكتي غرناطة وألمرية لصعوبة تضاريس المنطقة ولتحالفهما في غالب الأحيان ضدّه، فرغم المحاولات الخفية لإثارة النزاعات بين غرناطة وألمرية فإنهما سرعان ما كانتا تعودان إلى المسالمة أو المحالفة بينهما، حتى ولو اقتضى الأمر في النهاية دفع الجزية لملك قشتالة مقابل دعمهما خصوصاً بعد التزام ابن عباد بدفعها وهو أهم ملوك الأندلس. وربّما كان تخوّف ابن عباد من ردود فعل قشتالية في غير صالحه سبباً في مسالمة ملك بطليوس، حيث إنّ هذا الأخير لم يحصل على أيّ دعم من جاره المسلم لردّ الزحف القشتالي على الثغور الشمالية وخاصة سقوط قلمرية وتهديد شنترين نفسها، على العكس من هذا سنرى ابن الأفطس يحاول جهده الدفاع عن طليطلة خلال حصارها من طرف القشتاليين.

5- فيما يتعلّق بالجار الشمالي لابن عباد وهو ملك طليطلة فإنّ الصراع كان محتدماً معه في عهد المأمون بن ذي النّون أثناء فترة انشغال القشتاليين بمشاكلهم الداخلية خلال الستينيات خاصة، وهذا ما كان يدفع ابن عبّاد للتحالف مع ابن هود صاحب سرقسطة ضد ملك طليطلة. غير أنّ تولّي أمير ضعيف في طليطلة هو المقتدر ابن ذي النّون جعل مملكته تعيش في اضطراب، وتفتح الباب للتدخل المباشر للقشتاليين مع بداية السبعينيات لحمايته في انتظار الانقضاض عليه بعد اقتطاع أطراف من مملكته. وهذا الوضع جعل المعتمد ابن عباد يطوّر علاقاته مع ألفونسو السادس ملك قشتالة بدفع الجزية التي سبقه أبوه إلى دفعها، وإلى العمل معه سرّاً ضد مملكة طليطلة، فلا يمانع ابن عبّاد فيما يعمله القشتاليون شمال نهر تاجه (وطليطلة تدخل في هذا الإطار)، ولا يمانع ملك قشتالة في توسيع ابن عباد مملكته على حساب الجنوب الشرقي لمملكة طليطلة، وهذا ما جعله لا يحرّك ساكناً خلال حصار القشتاليين لطليطة سنة 478، بل كانوا يحصلون منه على المؤونة التي حُرم منها أهل طليطلة، ولم يتحرّك إلاّ عندما علم تصميم ملك قشتالة على القضاء على سائر ملوك الطّوائف، فأخذ مع بعضهم في البحث عن قوى جديدة داعمة من خارج الأندلس.

71 - رسالة عن المعتضد بن عبّاد إلى أبي عمر ابن عبد البر النّمري يستدعيه للاستفادة من علمه[1] [442؟- 452][2]

"... إن كنّا لم نتعارف تُرائياً، ولم نتلاقَ تَدانياً، ففضلك في كلّ قطر كالمشاهد، وشخصُك في كلّ نفس غير متباعد، فأنت واحدُ عصرك وقريعُ دهرك عِلماً بيدك لواؤه، وفضلاً إليك اعتزاؤه، وكنتَ كذلك والنّاسُ موفورون، والشّيوخ أحياء يُرزَقون، فكيف وقد درس الأعلامُ والكُدَى[3]، وانتُزِعَ العِلم بقبض العلماء فانقضى، والله يبارك في عمرك، ويعين كلاً على برّك، وإلى^كذا^ ذلك من مشهور حالك، فبيننا من وكيد الذّمام السّالف، وشديد اتّصال التّالد والطّارف، وأنت له جدُّ ذاكر وبه حقّ عارف، ورعاية مثل هذا منك تُقتبَس، ولديك تُلتَمس.

ولم تزَل نفسي إليك جانحة، وعيني نحوك طامحة، انجذاباً إلى العلم ورغبة فيه، ومنافسة في قضاء حقوق حامليه، والنّاس عندنا إلى ما عندك ظِماء، ولدينا الدّاء وأنت الشّفاء؛ فاجعل بفضلك للغرب منك نصيبَ الشّرق، فهو أوْلى بك وأحقّ، وعندي لك من الإعظام والإكرام ما يضاهي حالك، ويُسامي آمالك، وقد صار عندي جزء منك متحكماً فيه على المنصور- أيّده الله- وعليك[4]؛ وإرادتي أن أجمع شملكما، وأصل حبلكما..."

72 - رسالة عن المنصور [إسماعيل ابن المعتضد] إلى أهل قرطبة يخبرهم بقرب وصول إمداداته إليهم[5] [449 - 450؟][6]

"... إن كنتُ منكم بنَبْوة، وعنكم بنجوة، فإنّي شهيدكم بنفسي، وقسيمكم بحالي، أراكم بعين المشاهدة، وأكلأكم بعين الإحاطة، أعدّ كبيركم كالعمّ، وصغيركم كابن الأمّ، فأنتم

---

[1] - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي عمر يوسف.. ابن عبد البر (ابن المكتوب إليه) عن ابن عباد، كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 134- 135؛ انظر ترجمة ابن عبد البرّ الكاتب في نفس المصدر ص 125-126؛ **والقلائد** 538- 539؛: كتاب **الصلة** ص 279 ،ط1966 (ذكر وفاته سنة 458) ؛ **بغية الملتمس** ص 307 **وجذوة المقتبس** ص 249 (مات قبل أبيه بعد 450 بدانية)؛ **الإعتاب** 220- 222؛ **والمغرب** 2/ .402؛ **دول الطوائف** 414 (ذكر ةفاته سنة 463)، وانظر ترجمة أبيه يوسف في **المغرب** 2/ 407- 408.

[2] - كان أبو محمد ما زال بدانية في عهد إقبال الدولة، وكتب عنه عهد تولية بقضائها لابن خميس في شوال سنة اثنتين وأربعمائة^كذا^ [الصواب 442] (**التكملة** 2/ص 243).

[3] - أي أعلام العلماء فمَن دونهم.

[4] - لعله يقصد ولده الكاتب لهذه الرسالة الذي هو لدى ابن عبّاد، والمنصور المشار إليه يظهر أنه أمير بلنسية عبد العزيز حفيد ابن أبي عامر حيث كان يقيم والد ابن عبد البرّ على الأرجح. وقد امتدّت إمارة عبد العزيز بين 411 و 457 أي أنّه معاصر للمعتضد بن عباد فيما بين سنتي 433 (وهي أولى سنوات حكم المعتضد) وسنة 452 (وهي آخر سنة لحكم الأمير عبد العزيز).

[5] - الرسالة من إنشاء أبي عامر التّاكرّني كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/246- 248 ؛ كتبها عن الأمير وليّ عهد المعتضد صاحب إشبيلية، وقد ورد في رسالة لاحقة أنّ لقبه المؤيّد والمنصور. قد يكون لموضوع الرسالة أعلاه علاقة بما ورد في الذخيرة (نفس المجلد) ص 143- 144.

[6] - تعود الرسالة إلى ماقبل قتل الأمير إسماعيل بن المعتضد، المسمى بالمؤيد والمنصور، وكان أبوه كلّفه بحماية قرطبة من تهديدات ابن ذي النّون صاحب طليطلة، وهو هنا يعد أهلها بالوصول إليهم بعد إنجاز استعداداته؛ فهل كان انحرافه عن قرطبة واتّجاهه نحو الجزيرة الخضراء في محاولة للاستقلال عن أبيه في هذه الفترة ، والذي كانت سبب نكبته ؟

الأهل والجيران، والذّخائر للزّمان، في الدّار التي منها خرجت، والبيضة التي فيها نشأت، أفضل دار تنكّفني عيابُها، وأوّل أرض مسّ جلدي ترابُها؛ فلو أمكن أن تصير إليكم أمدادي مع الرّياح، وتطير نحوكم أجنادي بألف جناح، **ملبّياً لدعوتكم، ومسارعاً إلى نصرتكم**، لما تأخّر ذلك عنكم طرفة، ولا تلبّثَ خطفة، لكنّ عوادي الفتن، وعوائق الزّمن، منعت من العجلة قبل إحكامي لِما حاولتُه من تأليف الكلمة؛ فرُبّ عجلة تهب ريثاً[1]، ومن أعدّ للأمور عُدّتَها، وأخذ لها شِكّتَها، كان قميناً أن يكون نظره نافعاً، ودواؤه ناجعاً؛ ولم أزل أحسم العلل، وأقطع بالفتنة دون الأمل، حتّى لانت الأيّام بالسّماح، وسكنت بعد الجماح، وصار المسلمون إخوة، وفي جميل المعاشرة أسوة، وقبل الرّمي تُراش السّهام، ويحسُن التّناول بقرب المَرام؛ ورأيتُ أنّ استئلاف القلوب المتنافرة، وتواصُلَ الأهواء المتدابرة، أقوى أسباب النّجاح، وأشدُّ الأعوان على الفلاح، فتأخّرت عنكم متقدّماً إليكم، وتبقّيتُ دونكم وافداً عليكم؛ ولم أقنع من الأمور بغير التّحقيق، ولم أرضَ من المركب بالتّعليق، **وقد نفذتُ ثقاتي إلى الجهات لتخيّر الأجناد**، وانتخال الأنجاد، ليكون جميعهم صفوة، ولا يشوبهم أحدٌ من الحَشوة، وشرطتُ أن يتوجّه مِن قِبَلي إليكم ويفد منهم عليكم مَن له المزيّةُ والظّهور، والغَناءُ المشهور، أولو البأس والنّجدة، والثّباتِ والشّدّة، والقلوب الأبيّة، والأنوف الحميّة، يسمحون عنكم ببذل النّفوس، ويقوم الواحد منهم مقام الخميس، تمتلئ العيون منهم قُرّة، والنّفوس مسرّةً؛

وفي الثالث من يوم كتابي هذا ينفذ إليكم من الوزراء مَن تكون حركةُ الخيل معهم في زمان معروف، واجتماعها في مكان موصوف، إن شاء الله، ليصحّ **عند العدوّ** - قصمه الله - أنّ الأيدي قد ارتبطت عليهم، وأنّ الأعنّة قد صُرفت إليهم، وأنّ الوقت قد أزف، والغطاءَ قد كُشف؛ فيا ليت شعري أين المفرّ، أم يقولون نحن جميع صبُر، ﴿سيُهزم الجمع ويولّون الدّبُر﴾[2].

73 - جواب [إقبال الدولة؟] على رسالة للمعتضد ملك إشبيلية عن محاولة انتزاء ابنه عليه[3]

[449 - 450]

---

[1] - الريث: إبطاء، وهذا من المثل العربي: ربّ عجلة أعقبت ريثاً

[2] - الآية 45 من **سورة القمر**

[3] - وردت الرسالة في **الذّخيرة** 3/ 1/ 148- 149؛ ولم يذكر ابن بسّام الجهة المكتوب عنها، عندما قدّم للرسالة بهذه العبارة: "وكان خاطب المعتضدُ يومئذ جماعةً من حلفائه وقصّ عليهم نبأه مع ابنه، فمن ذلك جواب بعضهم له في فصل قال فيه [أي ابن عبد البر الكاتب]: "تقديم الوصف - أيدك الله- ..." والظاهر أن الرسالة مكتوبة عن إقبال الدولة ابن مجاهد حيث كتب عنه في هذه الفترة رسائل إلى مصر وجهات أخرى. وقد يتعلّق موضوع الرسالة بخبر محاولة الاستبداد بالجزيرة الخضراء من طرف ابن المعتضد، فهناك عبارة "الانزعاج" وعبارة " أعزّه الله"، بحيث لا تظهر التهنئة بسلامة المعتضد ولا إشارة لمقتل الابن على عكس ما حدث بعد المحاولة الثانية التي كان القصد منها قتل المعتضد، فوقع قتل الابن جزاء على مؤامرته، مما يرجّح أنّ فترة الرسالة أعلاه هي بين المحاولة الأولى والمحاولة الثانية. ونورد هذه الرسالة هنا مع رسائل أخرى واردة على ابن عباد لوحدة موضوعها.

"تقديم الوصف - أيّدك الله - للوداد والاعتقاد، من المتعارف المعتاد، فيُستفتَح به أولُ المكتوب، كما يُستفتَح الشّعر بالنّسيب، لكنّي - أيّدك الله- أربأ بجلبها عن شاهدٍ غير الضّمير، وواصفٍ غير ما في الصّدور، وبرهانٍ غير النّاظر المشهور، وأرمي شاكلة الغرض، وأصف ما أباتني لياليَ على قضَض ومضض، ثمّ ما ردّ باقي الأنس، وشفى لاعِجَ النّفس، فإنّ الأنباء وردتني عن **المنصور أبي الوليد ابنِك** - ابني أعزّه الله- بانزعاجه أولاً، وأبطأتِ الجليّة كمَلاً فأشفقتُ على يقيني أنّ الدّاخلة تصدّه، والحقيقة تردّه، وأنّ شهامته جمحت به، وصرامته صرمت منه، وأنه حسام ذلقَ من غمده، وسهمٌ نفذ وراء غرضه وحدّه، وأنّ ريح الصّبا عصفت عليه وهو لدْنُ المعطف، وغرّةَ الشّباب اهتبلته وهو سلسُ المِقود، ليّنُ المصرَّف، والمرء للخطل والزّلل، وكلُّ مخلوق ففيه النّقص والخلل..."

74 - رسالةعن المعتضد ملك إشبيلية إلى أمراءالأندلس عن إفشال مؤامرتين ضدّه من طرف ابنه إسماعيل[1] [450][2]

"(...[3] إذا تُقوضِيَ - أيّدك الله- حقُّ المشاركة وتُعوطِيَ حقُّ المساهمة بين إخوان الصّفاء، في صغار الأبناء، فأخْلِقْ بتقاضيه في العجائب العُقم، وتعاطيه عند النّوائب الدُّهم؛ وطرأت عليّ - يا سيّدي وأغلى عُددي- من خطوب الأيّام طارئةٌ دَهياءُ دهماءُ، وفاجأتني من ضروب الأقدار فاجئةٌ عمياءُ صمّاءُ، ثارت إليّ من مَكمَني، وطلعت عليّ من مأمني، وشرعت نحوي من قِبل الجُنُة التي كنت أعدّها لأشباهها، وأديرها متفيّئاً بها من تلقائها وتجاهها، إلا أنّ الله بصنعه الجميل الذي لا أنفكّ أشكره وأحمده كفاني أولاً ثمّ شفاني آخراً، له الحمد دائباً، والشّكر واصباً).

وشرحُ ذلك - أيّدك الله - أنّ الغويّ[4] العاقّ ، اللّعين المشاقّ[5]، **إسماعيل** ابني بالولاد، لا بالوداد، ونَجلي بالمَناسب[6] لا بالمذاهب، كنتُ قد ملت بهوايَ إليه، وقدّمته على من هو أسنّ منه[7]، وحبُّك الشيءَ يُعمي و يُصمّ، والهوى يطمس عين الرأي أو يلمّ[8]، فآثرته بأرفع الأسماء

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البرّ كتبها عن المعتضد بن عباد (433- 461) كما وردت في **الذّخيرة** ق3/ م1/ 138- 143، كتب الأصل منها إلى المنصور عبد العزيز ابن أبي عامر (**الذخيرة** 137)، ونقل ابن عذاري منها ما وصل إلى ابن هود [أو مقتطفات منها] فجعلنا ما في البيان بين هلالين (**البيان المغرب** 3/ 245- 248)، وأورد عنان بعضاً من الرسالة في **دول الطوائف** ص 50- 51. والمؤامرة المشار إليها من الابن أبي الوليد إسماعيل الملقّب بالمنصور ضد أبيه هي الثانية ويتواطؤ مع أحد الوزراء هو الكاتب أبو عبد الله البزلياني المذكور سابقاً (**الذخيرة** 3/1/ 146)

[2] - تفصيل الحادثة وسببها في **كتاب المتين** ص 141- 142 وقد جعلها سنة 450؛ انظر أيضاً **البيان** 3/ 348 – 349

[3] - قال ابن بسّام عن عبد الله ابن عبد البر: "وله رقعة أقتضبُها تخفيفاً للتطويل شرح فيها [المعتمد] قتله لابنه إسماعيل... : "إذا تُقوضيَ – أيدك الله- ..." قد تكون هي الرسالة التي وصفها ابن الأبار بالبديعة والتي كتبها ابن عبد البر بدون روية (**إعتاب الكتّاب**، جامعة دمشق 1961 ، 220- 221)، وهذا ما يظهر من كلام ابن بسام ص 137 في تقديمه للرسالة أيضاً.

[4] - في الذخيرة: (الغبيّ) وهي غير مناسبة ؛ ومن هنا ابتدأت الرسالة في البيان وكذا ما نقله عنان.

[5] - في البيان: إنّ الغويّ اللعين، العاقّ الشاقّ

[6] - في البيان: بالمكاسب

[7] - كان قد جعله حاجباً له (**البيان** 244)

[8] - - في البيان: عين الرائي إذا يلمّ

والأحوال، [وخصصته بما بيدي من القواعد والأعمال][1]، ووسّعت عليه في خطيرات الذّخائر والأموال، وأخضعت له رقاب أكابر الجند ووجوه الرّجال ، (ودرّبته في مباشرة الحروب، وأجرأته على مقارعة الخطوب؛ ولم يكن في ما أحسبه أنّي إنّما أشحذ على نفسي منه شَفرة، وأوقد [منه] بالتدريب والتخريج تحت حضنى جمرة)[2]، وما كنت خصصته بالإيثار، واستعملته في المكافحة والغِوار، إلاّ لجزالة كنت أتوسّمها فيه كانت عيني بها قريرة، وشهامةٍ كنت أتوهّمها منه كانت نفسي بها مسرورة، فإذا الجزالة جهالة، والشهامة شِرّة وكهامة، وقد يُفتن الآباء بالأبناء، وينطوي عنهم ما ينطوون عليه من الأسواء، مع أنّ الآراء قد تنشأ وتحدث، والنفوسَ قد تطيب ثمّ تخبث، لقرين يُصلح أو يُفسد، وخليطٍ يُغوي أو يُرشد، (وكما أنّ داء العِرّ[3] قد يُعدي، كذلك قرين السّوء قد يُردي)، ومن اتّخذ الغاويَ خديناً، عاد غاوياً ظنيناً، ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾[4]؛ (وقد انطوى عن بعض الأنبياء عليهم السلام ما آل إليه أمر بعض بنيهم، هذا والوحيُ يشافههم ويناجيهم، فكيف بنا وإنّما نقضي على نحو ما نسمع، ونقطع على حسب ما نرى ونطلع، وليس علينا ضمان العواقب، ولا إلينا علمُ حقائق المذاهب، وهي الخواطر، لا يعلمها إلاّ الفاطر، والبواطن، لا يحيط بها إلاّ الظّاهر الباطن، وقد يخبث طعم الماء مع الصّفاء، ويروق منظر الدّمنة الخضراء، ويذوي ثمرُ الدّوحة الغنّاء، في التّربة الغضراء)....[5]

ولمّا وثب هذا اللعين (الغبين) من المهد، إلى سرير المجد، ودرج من الأذرع، إلى المحلّ الأرفع، (ورآه) استغنى، (وأثرى من زينة الدنيا أشرَه ذلك وأبطرَه، وأطغاه وأكفرَه، وطلب الازدياد، وأحبّ الانفراد والاستبداد، وقُيّض له قرناءُ سوء أغدَوه وأردَوْه، وأُتيح له جلساء مكر أغروْه وأغوَوْه، وأشعروه الاستيحاش والنّفار، وزيّنوا له العقوق والفرار، (لينفرد) وينفردوا معه بالبلد، ولا تكونَ علي أيديهم فيه يد أحد[6] ، فخرج ليلاً بأهله وولده خروجاً شنيعاً فتق فيه قصري، وخرق حجاب ستري، يؤمّ **الجزيرة الخضراء**[7] وما يليها، ليتملّكها[8] ويعبث فيها؛ وكنت غائباً على مقربة فوردتُ، وطيّرتُ في الحين إلى الجهة من يصدّه عنها، ويمنعه منها[9]، فسبقه الخبر، وفاته الوطر، وأوى إلى قلعة (ذي الوزارتين) **القائد أبي أيّوب (ابن أبي حصّاد**[10] سيّدي، وأفضل عُددي - سلّمه الله-) فوجّهت إلى اللعين أعرض عليه قبول عذره،

---

[1] - ما بين معقفين [....] ناقص في الذخيرة ، وناقص هنا عند عنان
[2] - ما بين هلالين (....) ناقص في البيان المغرب
[3] - هو داء الجرب (**القاموس المحيط**)
[4] - من الآية 38 **من سورة النساء** ..... هنا انتهى ما نقله عنان من هذه الرسالة
[5] - في الذخيرة: وفي فصل منها
[6] - في البيان : ، ولا تكن عليهم يد أحد
[7] - كانت الجزيرة الخضراء سقطت في هذه السنة في يد ابن عبّاد بعد أن كانت في يد أحد أبناء القاسم الحمودي.
[8] - في البيان: ليتمكّن منها
[9] - في البيان: فأرسلت في الحين إلى تلك الجهة من يصدّه عنها، ويمنعه عمّا أراد منها.
[10] - في المتن: ابن أخي حصّاد.. والتصويب من هامش الذخيرة وكتاب المتين 142؛ وفي التعليق عليه (ص 296 من المتين) أنه صاحب القلعة المنسوبة إليه وسط كورة شذونة، وهو أحد الرؤساء الذين اشتهروا بعد انقضاء فترة الخلافة بالأندلس؛ وردت الإشارة إليه أيضاً في **أعمال الأعلام** 210/2.

وسرّبت الخيل مع ذلك للإحاطة به وحصره، حتّى ألجاه ذلك إلى التّنصّل والاعتذار، وأجاءه إلى الإقالة[1] والاستغفار، فأقلته[2] وقبلته وعفوت عنه، وأغضيت على ما كان منه[3]، وصرفته إلى جميع حاله، [ورددت عليه جميع] ماله، ولم أؤنّبه إلاّ بالإعراض والهجران، وإن كنت قد أنّسته مع ذلك بمزيد الإنعام والإحسان[4]؛ فإذا به كالحيّة لا تغني مُداراتُها، والعقرب لا تُسالَم شَباتُها، وكأنّه قد استصغر ما أتى، واحتقر ما جنى، فردّى وسدّى[5]، ما صارت به الصغرى التي كانت العظمى؛ فلم أشعر به إلاّ وقد ألف أوباشاً (من خساس صبيان العبيد الممتهنين في أدْوَن وجوه التّصريف، إذ لم يطمع اللّعين أن يساعده على هذه الفتكة مَن فيه أدنى رمق وأقلُّ مسكة)، ثم سقاهم الخمر (وسقى نفسه ليجترئ ويجرّيهم، ويحول بينهم وبين أدنى ميز لو كان فيهم، وسلّحهم بضروب من الأسلحة المتصرّفة في أماكن الضّيق والسّعة)[6]، وطرَق القصر في بضع عشرةً منهم، (وتعلّق معهم الأسوار والحيطان، وتسنّم بهم السّقوف والجدران، يروم فيَّ القضيّة العظمى، والطّامّة الكبرى، التي قام دونها دفاع الله تعالى)، فشعرت بالحركة وخرجت، فلمّا وقعت (عينه وأعينهم) عليّ تساقطوا هاربين، وتطارحوا خائفين خائبين، [فالتقطتهم لقط حبّ السّمسم وقتلتهم، وعجّل الله حَينهم وحتفهم]، وإنّما كان رجاؤهم أن يجدوني في غمرة الكرى، أو على غفلة من أن أسمع وأرى، ففالت بحمد الله أراجيهم، وضلّت أعمالهم ومساعيهم، وأعجلتهم[7] عواقب كفرهم وتعدّيهم[8].

(وخرق اللعين سور المدينة فارّاً بنفسه، وأخرجتُ الخيل في أثره، فلُحق غير بعيد، وسيق إليّ في حال الأسير المصفود، وكذلك سائر الجُناة، وباقي العصاة، أظفر الله بهم، ومكّن منهم، وأعثَرَ على جميعهم، فلم يُفلت منهم أحد، ولا فات منهم بشر؛ ولقد اتّفق مِن صنع الله الجميل في من غدر وختر، أن فرّ اثنان منهم فتجاوزا **وادي شوش** من شرقيّ قرمونة[9]، وكنت قد أخرجتُ خيلاً للضّرب على بلد باديس، فخرجا هنالك إلى أيدي تلك الخيل وهي منصرفة بما غنمت، ولا عِلمَ لهما بما وقع، فثقفوهما واستاقوهما؛ وحصل في قبضتي جميع الصّبيان من العبيد المذكورين، وأقمت حدود الله تعالى على الجميع منهم، وأنفذتُ حكمه العدلَ فيهم، والحمد لله كثيراً.

فاعجب يا سيّدي لأبناء الزّمن، وأنباء الفتن، وانقلاب عين الابن المقرّب الودود، إلى حال الواتر الحسود، والثّائر الحقود)[10]، واعتبرْ في ورود المساءة من موطن[11] المسرّة،

---

[1] - في البيان: إلى الاستغاثة.
[2] - في الذخيرة: فأقبلته.
[3] - في البيان: وأغفت عمّا كان منه.
[4] - كان المدبّر لهربه عن أبيه الوزير أبو عبد الله البزلياني المهاجر إليه عن وطنه مالقة، فحسّن للولد عقوق أبيه (**كتاب المتين** ص142؛ **الذخيرة 3/1/** 146).
[5] - كذا في الذخيرة؛ وفي البيان: واستحقر ما ألمّ به واقتنى، فزرى وسرى.
[6] - في البيان: وسقاهم الخمر ليستولي معهم بزعمه على الأمر، وطرق القصر.
[7] - في البيان: وأعقبتهم
[8] - في البيان : وتعدّيهم، ومنها: فاعتبر في ورود المساءة .....
[9] - ذكر ابن سعيد أنه نهر كبير يمرّ على مدينة أستجةويصب في نهر قرطبة [الوادي الكبير] ، وعليه قرية مشهورة تعرف بقرية شوش (**المغرب** 123/2).
[10] - الجملة غير واردة في البيان
[11] - في البيان : طريق

وطلوع المحنة من أفق المنحة، (وانعكاس بعض الهبات) خبالاً، والأعطيات وبالاً[1]، (وقد أربت هذه الحال على كلّ من جرى له أو عليه من الآباء والبنين عقوق، من السّلف المتقدّمين، فلم يكن أكثر ما وجدناه من ذلك في الأخبار والآثار إلا استيحاشاً وشروداً، ونُبوّاً ونُدوداً، إلاّ ما شذّ لأحد ملوك الفرس وآخر من ملوك بني العبّاس.

وجمع اللعين في إرادته ومحاولته بين الشّاذّ النّادر، والمنكر الدّائر، وزاد إلى استباحة الدّم، التعرّضَ لإباحة الحُرَم، وإلى ما رام من إتلاف المهجات، التّسامحَ فيما كان يجري على العورات المصونات، ولولا دفاع الله تعالى لامتدّت أيدي السُّقّال فضلاً عن أعينهم، واتّسع خرقٌ لا قوّةَ على رتقه معهم، وقد قيل:

هو الشيء:مولى المرء قرن مباين == له وابنه فيه عدوّ مقاتـــلُ

وهو زمان فتنة، وشُمول إحنة ودِمنة، والنّاس بأزمانهم أشبهُ منهم بآبائهم، وأصدقُ من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾[2]).

وقد استجلبت من الغرب ابني محمّداً ـ ملتزمَ شكرك، ومعظّمَ قدرك- وفّقه الله، لأقعده مقعدَه، وأسُدَّ به مسدّه، (وأرجو أن يكون أوطأ أكنافاً وجوانب، وأجملَ آراء ومذاهب، وأحمدَ أخلاقاً وضرائب)، واللهَ أسأل الخير[3] (في ما آتي وأذر، وأقدّم وأؤَخّر.

نفثت يا سيّدي نفثة مصدور، وأطلت في الشرح والتّفسير، خروجاً إليك من هذا الخَطب الخطير، والمُلمّ الكبير، وهو خبر فيه معتبَر، وقلت: ما له ظهور وظفر، والله يُتمّ النّعمى، ويُجمل العقبى، ويوزع الشّكر على ما أولاه بمنّه، وإياه أسأل أن يجعلك في حيّز الكفاية، وجانب الوقاية، حتّى لا تُساء بقريب مأمون، ولا بعيد مظنون، بمنّه وطوله، إن شاء الله)".

75 - رسالة أخرى عن ابن عباد في نفس موضوع المؤامرة ضدّه[4] [750]

"ما أبصرك - أيّدك الله- بل أذكّرَك، وكيف يوقّظ اليقظان، وينبَّه النّبهان، وحاشا أن تعلّم الخِمرةَ العوان[5]، إنّ الدّنيا على الغِيَر موضوعة، وعلى المكاره مطبوعة:

ألا إنّما الدّنيا غضارةُ أيكةٍ == إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ

ونقلُ الطّباع لا يُستطاع، ولا تبديلَ لحكم الجليل، والدّنيا مُنكِرةٌ لمتعارفيها، متسلّطةٌ بنوائبها على بنيها، المتهالكين فيها، لاسيّما الأحرار، فإنّها تطالبهم بثار:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت == له عن عدوّ في ثياب صديق

---

[1] - في البيان : وبالاً، وقد استجلبت ابني محمداً...
[2] - من الآية 14 من **سورة التغابن**
[3] - في البيان: الخيرة، وهي آخر كلمة في الرسالة
[4] - وردت الرسالة عند ابن بسام من إنشاء ابن عبد البر، وهو لم يذكر المكتوب إليه، فقد قدّم للرسالة بقوله: "فصل من رقعة لبعضهم يقول فيها: ما أبصرك..." (**الذخيرة** ق3/م1/ 154- 161)
[5] - من المثل العربي: العوان لا تعلّم الخِمرة ؛ يضرب للمجرّب العارف (**القاموس المحيط**)

....[1] وما ظنُّك بدنيا قلّما تسمح بحَبرة، إلاّ أتبعتها بعَبرة، ولا تجود بمنحة، إلا كدّرتها بمحنة، ولا تسقي شراباً، إلاّ شابته صاباً، ولا تهبّ نسيماً، إلاّ قلبته سَموماً، تكاد تسوء بالسّاعات، وقلّما تَسُرّ إلا في الفلتات، ثم تُغري بنا الآفات:

ومن يأمن الدّنيا يكن مثل قابض == على الماء خانته فروج الأصابع

.....[2] والأنام أغراض، لسهام الأعراض، قلّما تتخطّاها إن فُوِّقت، ولا تخطئها إن رُشِقت، وقد يمقُها من لا يثِقُها، ويتيامنها مَن لا يأمنها، وأيّ أمان من زمان، يَدِبّ دبيبَ العقربان، ويثب وثوب الأفعوان، ما أمكَنَها إمكان، وعنّ لها مكان، ويسعى بالنّميمة، بين الفروع والأرومة، وهيهات أن تصفى حيّة رقشاءُ ليّنٌ مسُّها، قاتلٌ سمُّها، يهوي إليها الجاهل، ويحذرها العاقل، وأيُّ ناجٍ من بأسائها، ولو كان في سُوَيدائها، هي واللهِ ما علمتَ وتعلم، قريبةُ العرس من المأتم، هكذا عُرفت، وبهذا وُصفت:

ومكلفُ الأيّام ضدَّ طباعها == متطلّبٌ في المساء جذوةَ نار

...[3] وإنّي مُنيتُ ـ أيّدك الله- من زمني الخؤون، بشقيقة المنون، وكادت تكون؛ فيا لها من حادثة عظمى، وصدمة صمّا، كدّرت شِربي، وروّعت سِربي؛ واعجبْ لسهم رُميَ به راميه، ونصلٍ دُهِيَ به منتضيه، أشدَّ ما كان له استبصاراً، وبه انتصاراً، وعليه اقتصاراً، وليس يُنكَر من الأزمان، عكسُ الأحوال وقلبُ الأعيان؛ وتفصيل هذا المُجمل، وإيضاح هذا المشكل، الذي رمزتُ بذكره، وعرضتُ بأمره، أنّ العاقّ المُشاقّ، الجلف السّفيه، المتمذهب بغير مذهب أبيه، ومَن سلف من مُنسِليه، **ابني إسماعيل**، الفاعلَ بي أسوأ الأفاعيل، أحدثَ حدثاً أشنعَ، مثله يُستفظع، بما كان منه، واستذاع عنه، من استهانة عقوقي، واطّراحِه حقوقي، وشُذوذِه عن أشكاله، وعُدولِه عن سَنن آله، وإن جمَعَه بي منسَبُه، فقد نفاه عنّي مذهبُه، كالذي استهواه الشّيطان، كأنّما اقتاده في أشطان، وإذا قضى القدر، عَشِيَ البصر؛ وما جرّأه على قُبح فِعاله، ومجانبته المعهودَ من حاله، إلاّ قرناءُ سوءٍ قيّضوا له، إذ جعلوا يضربون له أسداساً لأخماس، ويَكيدونه بكيد الوسواس الخنّاس، حتّى إذا أوردوه أُنشوطة، لم يكن مثلها أغلوطة، هوى به الهوى هُويَ الدّلو أسلمَه الرِّشاء؛ ولا غرو فقد تُعدي الصّحاحَ مباركُ الجُرب، وذلك أنّي لمّا أرضعته لِبانَ مِقّتي، وملكتُه عنانَ ثقتي، وأدنيتُ زُلفته، وأبديتُ رفعتَه، وأقبلتُه عين القبول، وأحللتُه منّي محلّ الصّلة من الموصول، وقلّدتُه أعنّة السّياسة، ووسمتُه بسمة الرياسة، وأوطأتُ عقبه الرّجال، وتجاوزت به حدود الآمال، نقلاً من حال إلى حال، حتّى مُدّت نحوه الأعناق، وسارت بذكره الأفذاذ والرّفاق، ونيطت به الآمال، ولاذ به الأمّال، وجعلتُ

[1] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (ومنها)
[2] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (ومنها)
[3] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (ومنها)

السّيف والقلم من خدمه[1]، ووضعتُ الوجوه تحت قدمه، يقول فيُسمع لمقاله، ويصول فيُرتاع لمِصاله، حتى لقد كادت الأقدام أن تستويَ لولا فضلُ الأبوّة، ونقصُ البنوّة؛ فلمّا رأى الدولة قد ألقت إليه بأزمّتها، وأقادته بأعنّتها، استأسد وتنمّر، واستشعر الأشَر والبطر، وحاول الشّفوف، وربّما كان فيه الحُتوف، ونزع إلى الاستبداد، منزع الغبيّ إلى العناد[2]، ورفض الحقوق، وآثر العقوق، وكفر بالنّعمة ونام عن شكرها، فطُويَت عنه بأسرها، والشّكر للنّعمة نتاج، والكفر بها رتاج....[3]

فعلمتُ مرمَى قوسه ومنزَعَ سهمه، كأنّما كنت نَجيَّ سرّه، ووليَّ أمره، وقد تبصر الظّنونُ بغير عيون، فتتبّعتُ خبره، وقفوت أثره، بخيل كالسّيل بالليل، تُعجِز طالبَها، وتُدرك هاربَها، فلم ينتبه إلاّ وقد أحيط به، ففزع إلى الاعتراف، وهو يذهب بالاقتراف.... [4]

ومُداراة الحيّة كيف تنفع، وهي إذا أمكنَها اللسْعُ تلسَع، ولمّا أبى إلا الإباء، وأسرّ الشّحناء، وحاول العظيمة، وتناول الجريمة، وكاد- وأيمُ الله - يهدم بنيان الله، لولا دفاعُ الله، ألّف أغماراً من العبدان كانوا عُكوفاً عليه، ورُتّباً حواليه، وأطمعهم، في ما صرعهم، وأكثرُ المطامع، تئول إلى المَصارع، ولو أنّهم أيقنوا أنّ أنفسَهم نعَوا، وإلى دمائهم بأقدامهم سعَوا، لتثبّطوا، وما تورّطوا، ﴿لكن ليقضي الله أمراً كان مفعولا﴾[5]، وإذا حان الحَين، عميَت العيْن، ورُبّ ساع بقدمه، على دمه؛ فلمّا جنّ عليه اللّيل، واللّيل أخفى للويل، تساقوا بينهم المُدام، ليقدِموا بها أشدّ إقدام، ورُبّ إحجام أنجى من إقدام؛ فأخذوا النّبات، وعقدوا النّيّات، وتسوّروا الأسوار، وتخطّوا غير ما دار، وداعي الهوى يدعوهم، وحادي الرّدى يحدوهم، وقد اعتقلوا الرّدينيات، وتأبّطوا الهندوانيات[6]، وشمّروا ذيلاً، وادّرعوا ليلاً، واقتحموا المهالك، في أضيق المسالك، وتزقّوا الجدران، بأشدّ تمرّد وعصيان، فسَقط العشاء بهم على سَرحان؛ فما تمالكتُ أن سمعتُ حسيسهم، ولحظتُ شخوصهم، فمُلئوا فرَقاً، وتصيَّروا فِرقاً، أيدي سبا، يجدّون هرباً، ويرومون الخلاص، ولات حين مناص، ونفوسهم تودّع أجسادها، وتستحثّ آمادَها:

وضاقت الأرض حتّى كان هاربُهم == إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

ولم يمتروا أنّ قدرة القدير، تنقض التّدبير، ولله عاقبة الأمور؛ وما كان رجاءُ القوم إلاّ استغراقي في النّوم، وأيقظني القدَر، وما بي من حذر....[7]

---

[1] - ذكر في الرسالة السابقة على أنه قائد الجيوش

[2] - ربّما يشير هنا إلى المحاولة الأولى للاستبداد بالجزيرة الخضراء

[3] - في الذخيرة (وفي فصل منها)

[4] - في الذخيرة (ومنها)

[5] - من الآية 42 من **سورة الأنـــــفال**

[6] - الردينيات: نوع من الرماح منسوبة أصلاً إلى امرأة اشتهرت بتقويمها؛ والهندويات: نوع من السيوف منسوبة إلى الهند.

[7] - في الذخيرة: (وفي فصل)

فلمّا رأى اللعين أنّ سهمه قد طاش، وقد راش منه ما راش، وأيقنَ أنّه حريقُ ناره الّتي سعّر، وغريقُ تيّاره الذي فجّر، شرَدَ شِرادَ الظّليم، على حين لا حليفٌ ولا حميم، وترامى من شرفات القصر، تراميَ المذعور بالقسر، وهو ينشد:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى == فأكثرُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

فأعجلتُ إليه هنالك مَن عثر وشيكاً عليه، واستاقه استياق العاني، فيا وقفة المذنب الجاني، يشكو إلى من يصمّ عنه، ويتبرأ منه، وسِيقت بطانته أسارى، من غير خمر سُكارى، فأقرّوا بما دبّروا، وبه دُمِروا؛ فالحمد لله جاعل تدميرهم في تدبيرهم، وإبادتهم في إرادتهم، ومَن حفر لأخيه بئراً سقط فيها؛ واستحضرتُ مشيخة العلماء وجعلتُ الأمر بينهم شورى، إشارة للعدل في القضا، واتّباعاً لأمر الله تعالى في الغضب والرّضى، فكلّهم حدّ إنفاذ الحدّ، وتلَوا قوله تعالى: ﴿إنّما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعَون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلبوا﴾[1].

فكان ما كان ممّا لست أنكره == فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

فاعتبرْ يا سيّدي من هذه الفتن، المضلّة لأبناء الزّمن، وانظر كيف يستدرجهم الشيطان، في مدارج العصيان، حتّى إذا قحَمَهم الغَرَر، أسلمهم القدَر، وكلّ ذلك مسطور ومأثور، وفي عقوق هذا من البنين، آية للعالمين؛ وما كان هذا اللعين فيما جناه فاجتناه، وشبّهُ فألهَبَه، وكاده فأباده، إلا كالبقرة تبحث على مُديتها بقرنيها، وكالنملة تطلب حتفاً بجناحيها؛ فتبّاً للأولاد، يتقرّبون بالولاد، ويتباعدون بالوداد، في مصارع الحُسّاد، إن هم إلا فهود، بأهُب الأسود، يتقلّبون بما صغُروا، ويستأسدون إذا كبُروا...[2]

ولعلّ قائلاً قد سُلب المعقول، يصول يوماً فيقول، ويطعن ويغمز، حيث لا مطعنَ ولا مغمز، ويَنحلّني الفظاظة والقسوة[3]، ويعتدّها وصمة عليّ وهفوة؛ ورُبّ سامع بخبري، لم يسمع عذري، ولستُ ببدع ممّن ظُلم فانتصر، وخولف فما اصطبر، ولا بنكيرٍ ممّن أرضى باريه بإسخاط أهليه، إنّ لي في من سلف أسوة، وبالنبيئ عليه السلام قدوة؛ ولو نظر بعين الحقيقة، ولم يَعدل عن سَنَن الطّريقة، لكان من أنصاري، في إقامة أعذاري: هذا خليل الرّحمن، وكان في الأنبياء مَن كان، لمّا تبيّنَ أنّ أباه عدوّ لله تبرّأ منه، وقد تلّ أيضاً - عليه السلام- ابنه الذّبيح للجبين، ووضع في حلقه السّكّين، وهو من أبرّ النبيّين، اتّباعاً لأمر الله حتّى فداه الرّبّ الكريم، بالذّبح العظيم، وصبر على ما لو حلّ بالصّخر لفلقه، أو بالحجَر لفرقه؛ وهذا عمر بن الخطّاب، وكان مَن كان في الأصحاب، قد قسا قلبُه على أبي شحمة، ولم تأخذه فيه رأفة ولا رحمة، حين جلده حتّى فقده، وصبر غير مكتئب، صبر المحتسب، إرضاءً لباريه، وتقرّباً إليه بما يُرضيه؛ وكان لبعض بني العبّاس، وهم أئمّة النّاس، في ابنه العاقّ ما قد درَس خبرُه، وطَمس أثرُه؛ ولولا أنّ الإطالة، تُفضي إلى الملالة، لأوردتُ من خبره

---

[1] - من الآية 35 من **سورة المائدة**
[2] - في الذخيرة (وفي فصل)
[3] - يظهر أن المعنى اتهام الوالد بالقسوة والفضاضة مع ابنه باعتبارها سبباً في عصيانه.

الأشنع، ما فيه مَقنع؛ وأحدثُهم عهداً في هذه العصور، عبد الله الأمير وأبو عامر المنصور، فأما عبد الله فقد قتل ابنه محمداً، لمّا أحسّ منه تمرّداً، وكان قرّة عينيه، فما عيب ذلك عليه، وأمّا المنصور - وحسبُك به جزالة وحزامة في الأمور -، فقد فعل بابنه عبد الله ما فعل لمّا عصى، وشقّ العصا؛ هذا وما بلغا هذا المبلغ، ولا ولغا في الدّم كما كاد هذا اللعين أن يلغ؛ ولو اقتصصتُ فوق ما نصصتُ، لأطلتُ وأمللتُ، لكن اجتزيْتُ بمن سمَّيت؛ وأيُّ عذر يقوم لمن مكّنه الله في بلاده، وحكّمه في عباده، ألاّ ينفذ حدّه الذي حدّه، ويؤثرَ فرْضَه الذي فرضه، ﴿ومن لم يحكم بما أنزَل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[1]، ولولا عقابُ المسيء، لقلّ مَن لا يُسيء:

والظّلم في خُلُق النّفوس فإن تجد == ذا عـفّة فلعلّةٍ لا يظلِمُ

ولا غروَ أن أسهبتُ وأطنبتُ في خبر المغرور، فإنّها نفثة مصدور، وما أطقتُ تجرُّعَ الغصص، في كتم هذه القصص، التي فيها عبرةٌ لأولي الألباب، وما كان هذا الذي طرا، حديثاً يُفترَى، ولا هذا الذي طرَق، نبأ يُختلَق..."

76 - رسالة أخرى عن المعتضدابن عباد في نفس الموضوع إلى جهة مجهولة[2]

[450]

"المحن على ضروب، والنّوائب تجري بمعضلات الخطوب، فتفجأ بالرّقِم الرّقماء[3]، وتطرق بالدّاهية الدّهياء، وتأتي بالغريبة الشّنعاء، فلا واقيَ سواه، ولا مُجيرَ من بغَتاتها حاشاه؛ وهَبِ الحازمَ ارتقب الخطوبَ مُعِدّاً لها من سَننها، ولقِيَ المكارهَ بسلاحها وجُننها، كيف له بعلم خفيّات الضّمائر، وخبيئات البواطن والسّرائر! إلاّ أنّ لطفه الخفيَّ، وصنعَه الكافيَ الحفيَّ، يكلآن مَن توكّلَ عليه، ويعضدان من اعتضد به واستند إليه؛ وكنتُ قد اختصصت من ولدي الحائن[4] الجاني **إسماعيل** بضروب من الإنعام، والإحسان والمبرّة والإكرام، وملّكته زمام أعنّة الجنود، وأظللته بظلّ خافقةِ البنود، وأرضعته ثُديَّ الحرب، وجرّأته على مقارعة الطّعن والضّرب، وأنفذتُ أمره ونهيه، وأجزتُ فعله ورأيَه، فقصرت عليّ أقاصي المطامع، وأشيرَ نحوه بالأصابع، ودُعيَ **بالرئيس الأمير**، ولقب **بالمؤيّد المنصور**؛ إلاّ أنّ ظنّ المرء يخطئ ويصيب، ولله أستارٌ دون علم الغيوب، وليس على المرء ضمانُ العواقب، ولا كُلفَ سوى الاجتهادِ في المطالب، فإنّما هو بشَر، يقضي بما ظهر، ولله ما بطَن واستتَر:

فإن كان ذنبي أنَّ أحسنَ مطلبي == أساء، ففي سوء القضاء ليَ العُذر

---

[1] - من الآية 49 من **سورة المائدة**

[2] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 161- 165 وقد قال ابن بسام في تقديمها: "ومن رقعة أخرى أيضاً في ذلك مجهولة [القائل]"

[3] - أي الداهية الدهياء

[4] - كذا في الهامش، وهو الأصوب؛ وفي المتن: الخائن

وكان ينبئ ظاهرُه من الاجتهاد منتهى الاستطاعة، ويُجري أمره إلى غاية اللازم من حدود الطاعة، إلى أن عَلِق به مَن أغواه من شياطين الإنس فزيّن له زخرف الغُرور والفسوق، وقذف به في هوّة الخذلان والعقوق، فأحال طينتَه إلى أخبثِ التُّرَب، وقد تُعْدي الصّحاحَ مَباركُ الجُرب، ونقله من الطبع الكريم، إلى الخُلق الذّميم، وعوّضه من طاعة الرّبّ والأب، آفة الكبْر والعُجْب؛ وحين لبس ثوب الغرّة والخُيلاء، وقاد الجيوشَ ملْءَ الفضاء، واستضاف إليه مَن استضاف من شِرار القرناء، طمع في بلد لا تكون عليه فيه يد أحد، ليستعمل السَّفَه والجهل، ويُهلك الحرث والنّسل، ويأبَى دفاع الله من ذلك، فهو أرأف بخلقه من إسلامهم للمهالك؛ وطار النبأ إليّ، وسقط الخبر عليّ، فبلغ - عزّ وجلّ- من الكفاية غاية الأمل، وخاب سعيُه، وفال رأيُه، وندِم ولات حين مندَم؛ فتحرّكت منّي الرّحمة التي قطعها، وحنّت الرأفةُ التي نبذها وخلعها، فعفوت عنه، واعتلق بحبل الإنابة، وأسرع الدّخول في باب الإجابة، وهو منطوٍ على شرّ ضمائره، ومُسِرٌّ لأخبث سرائره:

وأظلمُ أهل الأرض من بات حاسداً == لمن بات في نعمائه يتقلّبُ

وقبلتُ توبته الظاهرة، وأقلت زلة قدمه العاثرة، ولم أُخْلِه فاضلَ اهتبالي واعتنائي، ولم أمنعه غير قربي ولقائي، فأطغاه ذلك وأبطره، وأطمعه في نيل ما كان أضمره، فرام التي لا شوى لها[1] ولا بقاء معها،

أريد حياته ويريد قتلي == عذيرُك من خليلك من مُرادِ

....

سبكناه ونحسبه لُجيناً == فأبدى السّبكُ عن خُبث الحديد

ولعمري لئن أنجلته آباءُ سروٍ وصدقٍ، لقد سرى فيه للخؤولة لئيمُ طبعٍ وعرق، ولا غروَ في هذه الحال، فقد يستحيل الزعاقُ من الزلال، وينام عرق الأب ويسري عِرقُ الخال:

وأولُ خُبث الماء خُبثُ ترابه == وأوّلُ خُبث المرء خُبث المناكح

فعاقد سُقّاطاً من خِساس صبيان العبيد المتصرّفين في أحطّ المراتب عندي، المنحطّين عن الكون في جملة جندي، إذ لم يجد مساعداً على هذه القضية مَن فيه أقلُّ مُسكةٍ وبقية، فاستهوى ضعف عقولهم، واستنفر قليل تحصيلهم، وسلّحهم بسلاحي، وراشهم بفضل جناحي، ودعاهم إلى عصيان ربّهم وأمري، والتّعرّض لهتك سلطانه وسِتري، وتسنّموا مُنيف الأسوار تسنّمَ الوُعول، بعد أن سقاهم صِرف الشّمول، التي تذهب بوافر العقول، يظنّونني نائماً ويحسبونني غافلاً، والله ليس بغافل ﴿عمّا يعمل الظالمون﴾[2]؛ وكان عدد الفتيان الفجّار كعدد خَزنة أهل النّار[3]، فأطلعني الله تعالى على حسّهم، وأسمعني خفيَّ ركزهم، فثُرتُ من الفراش، رابط الجاش، فولّوا على الأعقاب حين رأوا شخصي، متساقطين على الأنقان إذ سمعوا

---

[1] - أي فتكة تصيب مقتلاً

[2] - من الآية 44 من **سورة إبراهـــيم** "ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون".

[3] - اقتباس من الآية 30 من **سورة الـــمدثر**

صوتي، وعاد الخائن الحائن إلى سور المدينة بعد أن خرق إليه، ورائدُ الموت يجول بين عينيه؛ فغيرَ بعيد ما أسرته الخيل أسراً، وقِيد إليّ عَنوة وقهراً، وكذلك شيعته المارقة، وصحابتُه الجانية الفاسقة، فلم يُفلت منهم بحمد الله أحد، ولا أجاره مكان ولا بلد، حتّى أخذ الله تعالى بثاره منهم، وأقام حدوده فيهم؛ وأنا متأسٍّ في هذه الرّزيّة، بكبار ملوك الإسلام والجاهلية، فقد تعدّى عقوقُ الأبناء إلى كبار البشر والأنبياء حتّى قال الله تعالى لنوح عليه الصلاة والسّلام: ﴿إنّه ليس من أهلك، إنّه عملٌ غير صالح﴾[1]؛ والربّ تعالى يُخرج الخبيثَ من الطيّب، ويقضي ما شاء في علم الغيب، لكنّي على العلات، ورعاية الحرمات، أرضي طاعة الله تعالى في من عصاه، وألتزم أمره في مَن خالف رضاه:

وإنّ السّيف في الباغي جزاءً == أحقُّ به من النّسب القريبِ"

77 - جواب عن المعتضد إلى ابن هود[2] في شأن [المتآمرين] ضدّه بقرطبة

[449- 450][3]

"من اعتقدك - أعزّك الله- عماداً له وظهيراً، ورآك عتاداً وذخيراً، طالعَك بحاله وأمره، وأطلعَك على حلوه ومُرّه، وخرج إليك عن سرّه وجهره، وناجاك بمختلجات صدره ومعتلجات فكره، مستريحاً إلى النّجوى، بالغاً عذر نفسه في الشّكوى، واثقاً بقضائك الفصل فيما يورده، عالماً بحكمك العدل في ما يعدّده، راضياً بإنصافك في ما يقدّره لديك ويمهّده، واللهُ لا يُعدمني الاستظهارَ برأيك أعْشو إليه سراجاً، وسعيك أحتذي عليه منهاجاً؛ وقد علمتَ صورة **حالي مع المدبّرين لقرطبة** وصبري لهم في الخطير والجليل، وانجراري معهم الزّمن الطويل، مُغضياً لهم على ما يوحش ويَريب، مغمضاً لهم على بوادرَ لا تزال تنوب وتثوب، على أنّها جنايات قَعَدةٍ، لا نكايات مَرَدة، وأنّ وُسعَهم لا يتعدّى هذا الحدّ، وطوقهم لا يتجاوز هذا الجدّ ....[4]

فلم تزَل عقاربُ سعيهم إليّ تَدِبّ، وريحُ جنايات بغْيهم عليّ تهُبّ، وأنا في كلّ ذلك أقابل تخشينهم بالتّليين، وأتلقّى غَليَ مراجلهم بالتّسكين، أتغاضى عمّا يردني منهم مرّة، وأغالط نفسي في التأويل تارة، ولا أقارضهم عن شيء ممّا يطالبونني فيهم مساترة ومجاهرة، مع إمكان المقارضة سرّاً وعلانية، طاعة منّي لعواطف النّفس في الإبقاء على الجنس ما وجدتُ إلى الإبقاء سبيلاً، وعليه مُعيناً؛ وكنتُ أرجو مع ذلك أن يثوب ثائب استبصار، ويَخطرَ خاطرُ

---

[1] - من الآية 46 من **سورة هـــود**

[2] - الرسالة من إنشاء ابن عبد البر النمري كما وردت في **الذخيرة** ق1/3/ 135- 136؛ ومن المحتمل أن ابن هود المقصود هنا هو المقتدر (438- 474)؛ وعن الحادثة ضد صاحب إشبيلية ربّما هي المتعلّقة بمحاولة ابنه ومن معه ضده (المذكورة سابقاً)

[3] - الفترة الأولى التي وقعت فيها محاولة انتزاء الابن على أبيه توافق سنة 449 على الأرجح، ثمّ المحاولة الثانية لقتل أبيه وكانت خلال سنة 450.

[4] - بعد هذا في الذخيرة: (وفي فصل منها)

إقلاع وإقصار، فلا واللهِ ما يزدادون إلا تمادياً في الإضرار؛ والعجب كلّ العجب أنّهم يمالئون عليّ أعداءهم المنابذين، ويواتريهم المطالبين، الذين صيّروا ملأهم بَدداً، وعصاهم قِدَداً، واستباحوا دماءهم وأموالهم، وغيّروا آثارهم وأحوالهم، وجاهدوهم جهاد الكفار، وساموهم سَوم أهل الذلّة والصَّغار، فكفكفتُ عنهم غربَهم، وشغلتُ عنهم بنفسي حربَهم، ولو أغمضتُ فيهم، ولِنتُ لواتريهم ومُطالبيهم، لما كانت صدور مجالسهم ومجامع أنديتهم لأفراسهم إلاّ مرابط، ولا عاد آهِلُ دارهم وعامرُ أفنيتهم لخيلهم إلا مسارحَ وبسائط؛ فما ظنُّك ببصائرَ تقلّب - في طلب الثّار ومنابذة العدى الفجّار - الطّبائعَ، وتغلب - في مهاجرة الخوارج المُرّاق الرّوافض الفُسّاق - الشّرائعَ، فاعجَبْ لهذا الاعتزاء بالمخالفة، والانتهاء في المكاشفة...."

78 - جواب عبد العزيز ابن أبي عامر صاحب بلنسية على المعتضد في موضوع تآمر ابنه عليه وقتله[1] [450]

"الدنيا رَنْقة المشارب، جمّة النّوائب، تسلك بأهلها كلّ سبيل، وتُريهم من خطوبها كلَّ معلوم ومجهول، تقطع ما تصل، وتمنع ما تبذل، وتسوء من حيث تَسُرّ، وتخون من حيث تفي، لا تمتّع بحال، ولا تدوم على وصال، وهذا أصحّ دليل على هوانها وصَغارها، وأوضحُ تمثيل في تفاهة شأنها ومقدارها، وإن كثُر فيها التّنافر، وعظُم فيها التّقاطعُ والتّدابر، فنسأل الله ألاّ يصرفنا عن التّوفيق، ولا يعدل بنا عن سواء الطّريق.

[.....][2] وإنّ كتابك ورد بما لم يقع في تقدير، ولا عنّ مثله في ضمير، من الدّاهية الدّهياء، والمعضلة الشّنعاء، والحالِ الحادثةِ مع من رِينَ على قلبه وعقله، وغُبِنَ في حظّه ورشده، فزاغ عن نُهاه، واتّخذ إلهه هواه؛ ولقد وقفتُ بك - عمادي- على عبرة المعتبرين، وعظة المتدبّرين المستبصرين، فإنّ الذي رمتك به الأيّام لغريبة الغرائب، تؤذن بانقطاع الخير، وارتفاع البرّ، أفلا راعيَ أولاً ما أوجبَ الله تعالى- تقدّست أسماؤه- للآباء على الأبناء؟ فإنّه قرن ذكرهم بذكره، وشكرَهم بشكره، فقال ﴿أنْ اشكُرْ لي ولوالديْك إليّ المصير﴾[3]، وقال ﴿وقضى ربُّك ألاّ تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحسانا﴾[4]، إلى ما جاء في العقوق، فقد قيل : إنّ العقوق هُلك، والمُروق شرك؛ وقيل: عقوق الوالدين يُعقب النّكَد، ويمحق العدد، ويُخرب البلد؛ ثمّ هلاّ راعى آخراً ما سوّغتَه من النّعم التي غُبط بها، وحُسد فيها، وما خصصتَه به من العزّة التي بذّ فيها الأنداد، وشأى فيها الأتراب والحُسّاد؟ ولكنّ شيطان الغرارة أغواه، وسلطان الجهالة أرداه، مع قرناء سوء قُيِّضوا له زيّنوا له ضلاله، وأفسدوا عليه حاله، وبحقٍّ قيل:

---

[1] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق3/م1/ 149- 150، ولم يذكر ابن بسّام منشئ الرسالة وإنما قدّم لها بقوله: ومن جواب ابن أبي عامر له: "الدنيا رنقة المشارب..."

[2] - في الهامش إشارة إلى نسخة أخرى أفادت بوجود بتر عُوّض فيها بعبارة (وفي فصل منها: وفاني كتابك بما لم يقع...)

[3] - من الآية 13 من **سورة لقـــمان**

[4] - من الآية 23 من **سورة الإســـــراء**

الوحدة خير من الجليس السّوء، و﴿من يهدِ الله فهو المهتدِي، ومن يُضلل فلن تجد له وليّاً مرشداً﴾[1] ؛ وقد صنع الله لك صنعاً جميلاً، ودفع عنك جليلاً، وأجراك على ما عوّدك من فضله، ﴿ولا يَحيق المكر السّيّئ إلا بأهله﴾[2].

فالحمد لله على نعمة خوّلها، وولايةٍ أجملها، ومكيدة نقضها، وسِعايةٍ دحضها؛ وفي علمه احتراق نفسي لهذا الحادث الكارث، ومشاركتي في هذه الملمّة المدلهمّة، التي لم أخْلِها من حالتي الإشفاق والجزع، وخطتَّي الارتماض والتّفجّع، وإنّ الأمر عندك وزنُه عندي، ومأخذُه منك مأخذُه منّي..."

79 - جواب ابن مجاهد في موضوع المؤامرة ضد المعتضد من طرف ابنه إسماعيل[3] [450]

"وافتني - أيدك الله- مساهمتك الكريمة، ومشاركتك السّليمة، الصّادرة عن الصّدر السّليم، المقتضية للحمد والشّكر العميم، وقد كان سبق كتابٌ قبلُ بما لزمني في الحادثة الأولى[4]، فقلت: حسام ذلق، وسنان زلق، وشباب عصَف، وجوادٌ جمَح فأسرف، وعثرةٌ تُستقال، وغرارة يُرفع بها ذلك الاختلال؛ ثمّ بعد نفوذه وردني النّبأ على عقبها، بما صغّر تلك على عِظمها[5]، فتردّدتُ شَرقاً، واضطربتُ قَلِقاً، حتّى استوضحتُ من قِبَلك الأمر، على آخره، وتلقَّيتُ عنك الخطْبَ بموارده ومصادره، منسوقةً مراتبُه ومناقلُه، مشروحةً أعجازُه وأوائلُه؛ فما ساهمتَ إلاّ مَن تلقّى ما أنهيتَه بنفسك، وشربَ ما عاطيتَه بكأسك، وشاطرك الحالَ بنصفين، وكان هو وأنت في القضيّة سِيَّيْن، فتجرّع ما تجرّعتَ، واستفظع ما استفظعتَ، واستغرب ما استغربتَ، واعتبر بما اعتبرتَ، وفي الأيّام والليالي معتبَر، وإنها - لَمّا ذكرتُ ووصفتُ- عقيمة معجبة، وعنقاء مُغربة، وما شُهدت لها أختٌ إلاّ من أحد الفرس وأخرى من بني العبّاس، كما ذكرت، وقديماً استغوى الشّيطان، وكان للمرء سلطان، والزّمان بمثلها جواد، ولإطلاع الغرائب معتاد؛ وقد أوتِيَ صاحب الخضر على علمك من أقرب الولد رحِماً، وأضعفهم نفساً وجسماً، ومن سوق بني أميّة وغيرهم الجمّاء الغفير، والعدد الكثير؛ وكثيراً ما شاهدنا وسمعنا بقاتل نفسه، وهي أكرم النّفوس عليه، وآكل جسمه وهو أحبّ الجسوم إليه، وقد يَفيض الدّاء من الدّواء، ويَشرَق المرء بالماء، ويؤتى الحذِرُ من مأمنه، ويُجتنَى القبيح من حسَنه، والأدواء تثور في الولد، كما تثور في الجسد، وتتولّد في القلب والكبد، وقرناءُ السّوء يكدّرون الأصفياء، كما يكدّر

---

[1] - من الآية 17 من **سورة الكهف**
[2] - من الآية 43 من **سورة فاطر**
[3] - الرسالة من إنشاء ابن أرقم كما ورد في تقديمها في **الذخيرة** ق3/م1/ 150- 152
[4] - يقصد محاولة الابن إسماعيل الاستبداد بالجزيرة الخضراء قبل التحايل للقبض عليه وعفو أبيه عنه.
[5] - هذا لأنّ المحاولة الأخيرة كانت تستهدف اغتيال المعتضد نفسه وليس فقط التمرّد في بعض جهاته.

المَشرَبَ العذبَ الدّلاء؛ وما ندري - يا سيّدي- إلاّ أنّك أردتَ إقالته واللهُ قد عثره، واعتقدتَ استعاذته واللهُ قد غيّره، وأياسَك منه بقبيح فعلـه، وأسـلاكَ عنـه بعظيم جُرمـه، وكنتَ معه واللهُ مع غيره، وأردتَه وأراد الله سواه، ولا مانعَ لما أعطى، ولا مُعطِيَ لما مَنع؛

وليس لأمر حاول الله جمعه == مُشِتٌّ ولا ما شتّتَ الله جامعُ

وقال الله تعالى لنوح عليه السلام بعد قوله: ﴿إنّه ليس من أهلك، إنّه عملٌ غير صـالح، فلا تسألنِّ ما ليس لك به علم إنّيَ أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[1]، وقولـه للخضر عليه السلام: ﴿فأردنا أن يبدّلهما ربّهما خيراً منه زكاة وأقربَ رُحماً﴾[2].

وكلّ مصيبات الزّمان إذا أتت == فهنّ سوا ما لم يُصبن صميمي

وما زادت هذه على أن وقى الله صميمك، وصان حريمك...."

80 - رسـالة عن المـعتمد ابن عباد حول غدر من عقد معه سلماً[3]

[.... - ....]

"... قلّ ما ينفع صلاح الظّاهر إذا فسدت الدّخلة، ولا يُغني اندمال الخارج ما كانت العلّة؛ وكتابي هذا يوم كذا وفي ليلة طلع عليّ الخبر بما تستغربه من غدر أهل فلانة[4] لي، **وعقدُ السّلم بيننا لم يجفّ مداده**، وعهد التواثق لم يكد ينفصل أشهادُه؛ فانظر فعلهم ما أقبحه، وتأمّله فما أفضحه، واعلم أنّ غائلتهم لا تُطفأ أبداً نائرتها، ولا يؤمَن على حال ثائرتها..."

81 - رسالة عن المعتمد حول انتصار ابنه "الظّافر" على جيش عدوه [المأمون ابن ذي النون][5]

[463]

"... ومن أحدثِ نعم الله الممنوحة عهداً، وأبعدها في التّمام والوُفور حدّاً، ما أتاحه الله في المُغالط المعجَب، القويّ المَجيء والمذهب، فـلان - ضـاعف الله إذلاله وإخزاءه، ووقاه على ذميم السّعي جزاءه-، فإنّ حاله جرت على ما أصفه: سلفَ من ضلالته في موالاة التعريض للحضرة وسائر أعمالها ما أثاره الحسد المُذْوي لصدره، والقلقُ الغالب

---

[1] - من الآية 46 من **سورة هـــود**

[2] - الآية 80 من **سورة الـــكهف**

[3] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة عن المعتمد كما وردت في **الذخيرة** 2/1/ 266؛ وترجمة ابن القصيرة فيها في ص239- 240؛ وفي **القلائد** 305 وما بعدها؛ وفي **إعتاب الكتّاب** ص 222؛ **الذيل** 6/ 227 ، (بيروت 1973)؛ **الإحاطة** 2/ 516.

[4] - قد يكون المقصود مملكة غرناطة التي كانت في نزاع شبه دائم مع مملكة إشبيلية. وفي إحدى رسائل المعتمد في موضوع مقتل ابنه إشارة إلى غارة لقواته على أرض مملكة غرناطة وعوددتها بالغنائم (الرسالة رقم 73).

[5] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة** 2/1/ 275 - 276؛ وذلك بمناسبة انتصار الظافر ابن المعتمد على جيش ابن ذي النّون وإبعاده عن قرطبة، غير أنّه قضى على حكم بني جهور بها وألحقها بمملكته جاعلاً ابنه الظافر نائباً عنه بها. ثمّ إن ابن عكاشة قائد ابن ذي النون تمكّن من إلحاق الهزيمة بالظافر وقتله وإلحاق قرطبة بمملكة طليطلة.

على صبره، واتّفق له من إمهال الله تعالى إياه، وتنكيب الحوادث عن ذراه، مدّة عنه، اتّفاق أجرّه رسَنُه، وأسلكه في الغواية سَنَنُه، حتّى ظنّ أنّ الحوادث لا تَريبه، والنوائبَ لا تَنوبه، وحسِب أنّ الأيدي لا تُمَدّ إلى مطالبته، والآمالَ لا تطمح إلى معارضته، وقديماً خان هذا المعتقَد أهلَه، وأبان لمن سكن إليه جهلَه....[1]

ولم يبعُد أن خرج في شهر رمضان على عادته من الاستخفاف بعظيم حرمته، وتركِ المراقبة لأهل الإسلام وذمّته، بعد أن تأهّب واستنجد واستمدّ، والعُجب قد أطغاه وأبطرَه، والشّره قد غطّى سمعه وبصرَه، والمطامع قد تشعّبت عليه، وبسطت في انتهاز الفرصة يديه، فأخرجتُ ابني **الظّافر** مستعيناً بالله معوّلاً عليه، متبرئاً من الحول والقوّة إليه؛ فلمّا دنا من المحلّة الذّميمة واصطفّوا إزاءها، اقتحم سَرعانُ رجالنا نهراً كان بينهم مبادرين غير هيّابين، ونشأت بين الفريقين حرب أجْلت عن أعداد صرعى من أصحاب المخذول، ثمّ تلا ذلك عيون كافة العسكر، وصدقت الحملة على الخائنين[كذا]، فلم يلبثوا أن ولّوا مدبرين، وألقوا بأيديهم منهزمين، والأسنّة تَحفِزهم، والجِلاد يُزعجهم، فانحجزوا بالحصن وأسلموا محلّتهم، فحِيزَ جميعها، وغُنم من كُراعهم وسلاحهم وسائر أسلابهم جُمل تفوت الحصر، وتُعجز الوصف؛ وبقي المخاذيل إلى آخر النّهار، ثمّ خرجوا مع المغيب، وشُعر بفعلهم، فاتّبعتهم الخيل إلى النّهر، فتهافتوا فيه تهافت الفَراش في النّار، وفرّوا على عاجل البَوار، وكان الشّاذّ منهم مَن سَلِم، والجمّ الغفير مَن غَرِق وتلف، والله حسيب مَن أورطهم وأغراهم، والمنتقم ممّن قادهم إلى مناياهم؛ وأمّا المخذول المعهودُ خَوَرُه، والشّديد تهوُّره، فإنّه سقط عن مركبه في تلك الصّدمة سقوطاً أوهنَه وكلمه، ولولا مَن كرّ عليه حتّى أقلّ واحتُمل، لحصل في ربقة الأسر، ولغَلِق رهنُه إلى آخر الدّهر..."

82 - مقتل والي قرطبة ابن المعتمد ابن عبّاد إثر سقوطها في يد ابن عكاشة قائد ابن ذي النّون[2] [467]

"... كتبت على أثر النّازل الشنيع، والرزء الفظيع، الذي صدع كبدي وفتّ في عضدي، وأثكلني مَن كان القرّة لعيني، ما جرى على الفقيد الشّهيد **عبّاد** ابني مجلّك - كان - رحم الله مصرعه، وبرّد مَضجعه، وقتل قاتليه، ووفر لي أجر المصاب فيه.

وشرحُ هذه الفاجعة، والقاصمة الهاجمة: تسبّبتْ من مثابرة العدوّ المبين المفتون، **جاري الذّميم الجِوار**، القبيح الآثار، ومجاهرة الفاسق المعروف **بابن عكاشة**، دليلِه في سبيل التّسلّط والعدوان، وسهمه إلى أغراض التمرّد والطّغيان، على السّعي الخبيث الذي

---

[1] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها).

[2] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة 2/ 1/ 266- 268**. قال ابن بسّام في تقديمه لها وهو يذكر إنشاءات ابن القصيرة: "وله من أخرى إثر دخول ابن عكاشة [قائد المأمون صاحب طليطلة] قرطبة وقتلِه لابن عبّاد واليها، وقد وجدت هذه الرقعة في بعض التعاليق منسوبة لابن الباجي: كتبتُه على أثر النازل الشنيع"

لا يُصرّ على مثله إلا منحرف عن الملة، منسلخ عن الخير بالجملة، **طلبَ الغرّة في قرطبة** حتى أصابها، وارتقب الفرصة حتى ولج بابها، ليلاً في زمرة من أخابيث أصحابه، بعد أن هُيِّئَ له فتحُه[1]، ودخل المدينة وصادف السِّرب آمناً غريراً، والعددَ قليلاً نثيراً، ويمّم موضعَ المطهّر بالشّهادة، فنذِر بهم وخرج مطالعاً للأمر، فلم يبعد أن غشيه المردَةُ فثبت لها مدافعاً عن نفسه حتّى أفيضت، رحم الله موقعه فريداً مُسْلماً، وأقرّه في جواره العزيز سعيداً مكرّماً.

ثمّ عاث المذكور في البلد، واستثار أشباهه من السّفلة الأراذل، في استباحة المنازل، فأجابوه وانضمّوا إليه، وصار جمعُه منهم وبُتوتُ أمره بهم، وأمّا سائر الأعلام والأسواط فبُرءاءُ من هذه القصّة، ناؤون عن المشاركة في هذه الدّنيّة، بَغَتَهم من الحال ما لم يعلموا، ففوّضوا وسلموا[2].

وبادرتُ إلى عرض ما وقع على فضل تأمّلك[3]، لترى جِدّ هذا العدوّ المطالب، المُشاقّ المناصِب، وإكبابَه على التّسلّط والتّمرّد، إلى أن انتهك الحرمة، ووتر في الولد، غيرَ مبالٍ ببعيد ولا قريب، ولا ممسِكٍ مخافة إنكار ولا تثريب، والرّبُّ لبغيه بالمرصاد، والقاطع بأمله في الانبساط والازدياد..."

83 - رسالة عن المعتمد ابن عبّاد باستعادة قرطبة من بني ذي النّون إلى نفوذه[4] [467- 468]

"... وأنفذتُه عندما عادت الحضرة إلى يدي وانتظمت ببلدي، على صورة من التيسير ضاعفت حسن مواقع العارفة بها، وبشّرت بلواحق النّصر المترادف بعقبها؛ وذلك أنّ أهلها الصادقة في محبّتنا أهواؤهم، المتّفقة على طاعتنا آراؤهم، لم يزالوا على مثل الجمر تقلّباً ممّا جرى قبلُ على غير اختيارهم، وتوجّعاً لما كان انقضى علينا في جوارهم، نابين عمّن وَلِيَ أمرهم بعدَنا، مستقصرين لشانه عندنا، إلا النّفر اليسير، والتّافه الحقير، من سفهائهم الذين سبّبوا تلك الوهلة، وظاهروا على تلك الغفلة، ولم يكن لهم أولاً علمٌ بما سدَّوْه وألحمُوه، ولا رضُوا آخراً بما جنَوه وارتكبوه؛ فتحرّكتُ من وقتي، ولم أكد أطلّ على أفقهم إلا والإشارة علينا، بأثوابهم إلينا[5]: أن أقدِموا وصمِّموا، فاقتحمتُ من النّهر مخاضة، توازي الرّبض الشّرقيّ منها، وثار أهلها معي داعين

---

[1] - الإشارة إلى من تعاون معه من حراس المدينة.

[2] - لعله يشير إلى قائد المدينة محمد بن مرتين الغافل عن الأحداث والمتهاون بابن عكاشة الذي كان قائداً لبعض حصون ابن ذي النون المجاورة (ذكره ابن الخطيب على أنه وزير الظافر أثناء تولّيه قرطبة. **أعمال الأعلام** 2/ 151، 158).

[3] - لا ندري من يخاطب هنا، فقد يكون احد حلفائه مثل ابن هود.

[4] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما في **الذخيرة** 1/2/ 272- 273.

[5] - أنشد حسان بن المصيصي قصيدة يمدح فيها المعتمد ويصف إشارة الناس إليه من سور المدينة في أحد أبياتها :

وليسوا بغرقى قد أشاروا لساحل == ولكنّهم غرقى أشاروا **إلى** بحر
(**الذخيرة** 1/2/ص273)

بـشعاري، معلنـين بانتـصاري، وكلمـة ثـاري، يكـسرون بـين يـديّ كـلَّ غلـق يعترضني، ويفتحون كلّ مُرتج ينتصب دوني؛ وأحسّ **ابن عكاشة** ومن معه من الشّيعة المفلولة بمكاني، ففرّوا بأرواحهم وألقوا ما كان معهم من سلاحهم، وقد كنت أحطت بنواحي الحضرة خيلاً ترصُدهم ، وتقطع من النّجاة سببهم، فوقعوا فيها، وأُتِيَ على آخرهم، وسيق إليّ رأس ابن عكاشة، وكان الحبيب إليَّ أن يمثُل بين يديَّ فأبسُط له من العذاب ما كان أشفى لنفسي وأثلجَ لصدري..."

84 - رسالة عن المعتمد بعد فتح مرسية على يد قائده ابن عمّار[1]

[471]

"... لم يغب عنك من مجرى الحال **بمرسية** وجة أجلوه، ولا انطوى من فحواه أمرٌ أنشرُه وأبديه؛ وها أنا أعرض عليك من باطنها ما ربّما خَفِيَ، وأنهي إليك من نجواه ما لعلّه لم يَنْمَ على وجهه ولا أُنهِيَ، وذلك أنّ الإفرنج أيّام تلوّمهم على صاحبها، وإحداقهم بجانبها، أشخصوا إليّ من أعيانهم مَن قرَّب عليّ وجة مرامها[2]، فاستجبتُ لندائهم، ولم يكد يختلج ببالي شكّ في صدق أنبائهم، وإذا الأمر بخلاف ما ذكروه، وعلى غير ما سهّلوه، ووقع من المطاولة ما وقع، وآلت الحال معهم إلى ما قد فشا وسُمع، فأعدتُ إليها الخيل مع فلان[3] لإطالة حصرها، والإناخة بعُقرها، وصاحبُها[4] مع ذلك عمٍ عن رُشده، يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى في إعطاء صفقة يده، ليقضي الله تعالى قدَره، ويُبلغ أمرَه؛ فلمّا رأى أهلها الممتحَنون بسوء نظره، المصابون من خطل تدبّره، أنّ غمّاءهم لا تُقرَح[5]، وظلماءهم لا تنجلي ولا تليح[6]، أبدَوا إليه ما كانوا ينطوون له عليه، فتألّبوا وثاروا[7] وطيّروا بالخبر من كان فيها من الأولياء **إلى فلان**، وكان على مقربة منها، غير متراخ عنها، فانصبّ إليها كالشؤبوب الماطر، وانقضّ عليها كالعقاب الكاسر، ووافاها وقد بولغ في حصاره، وانبسطت أيدي النّهب في دياره، فكشفهم عن مكانه، ونفّس عنه، فانتشى ريح أمانه[8]، ثم نقله وابن أخيه إلى أدنى معقل إليهما وآمنه عليهما[9]؛ وأخذ في ضبط الحصون، وما يغني به الحزم من وجوه التّحصين؛ وأظهر أهل البلد من الاغتباط بمآلهم، والاستبشار بمفاتحة حالهم، ما يُظهر مَن خَرج من ضيقٍ إلى سعة، وانتقل من هرج إلى دَعَة..."

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة** 1/2/ 273- 275؛ وعن فتح مرسية انظر **أعمال الأعلام** 2/ 160، **والمعجب** في تلخيص أخبار المغرب 65 (القاهرة 1950)؛ **ودول الطوائف** 64 وما بعدها

[2] - يظهر أنه يشير إلى محاولة لتحالفه مع ملك برشلونة النصراني بغرض دعم ابن عبّاد بجملة من جيشه لحصار مرسية، وكان ضمان التحالف تبادل رهائن لدى الطّرفين (راجع **دول الطوائف** ص 64 وما بعدها).

[3] - يظهر أنه يقصد قائده ابن عمّار

[4] - يقصد أبا عبد الرحمن بن طاهر.

[5] - من الأقرح وهو الصبح لأنه بياض في سواد **(لسان العرب).**

[6] - لا تليح: لا تضيء

[7] - حدث هذا بتحريض ابن رشيق الذي كان قائد مدينة بلش روبيو وتحالف مع ابن عمار لفتح مرسية، ويظهر أنه هو المشار إليه بفلان بعد هذا (**دول الطوائف** 65).

[8] - الضمير هنا يشير إلى ابن طاهر أمير مرسية.

[9] - الحصن الذي اعتقل فيه ابن طاهر هو حصن أقوط.

85 - رسالة عن المعتمد حول خضوع بياسة له والقبض على ابن عمّار[1]

[ربيع 2/ 477][2]

"كتابي يوم كذا، وفي أمسه ورد كتاب **المأمون** أخيك[3] من داخل حصن **بياسة**، وأنّ أهلها لمّا بلغهم تأهّبي لمحاصرتهم، واحتفالي لمنازلتهم، وعلموا أنّ تدبيرهم قد اضمحلّ في أيديهم، وأنّ صريخهم قد خرس عن إجابة داعيهم، وتيقنوا أنّي إذا نَوَيتُ مضَيتُ، وإذا لججتُ حججتُ، خامرهم الفزع، وضاق بهم المتّسَع، ومشى بعضهم إلى بعض يتشاورون كيف المصنَع، وأين المَنزَع، فلم يروا لأنفسهم طريقاً أنجى، ولا مهرَباً أجدى بالخلاص وأحجى، من التّرامي عليّ، والاستسلام إليّ؛ فبادروا نحوي رجالاً وركباناً، وتسرّبوا قِبَلي زرافات ووحداناً، ولم أردْ حضرة قرطبة[4] إلاّ وقد لحق بها منهم أفواج، وسالت بمن وراءَهم أباطحُ وفجاج، كلٌّ يستعطف ويستنزل، ويسأل لمن وراءَه عفواً يعُمّ ويشمَل؛ فأقبلتُ وقبلتُ، وعذرت واغتفرت، وبالغتُ في تأنيسهم، وتطييب نفوسهم، والحمد لله على ما منَّ وتطوَّل، وأنعمَ وأفضلَ.

ووافى هذا الصنعَ الجميل، والفتحَ الجليلَ، آخَرُ تقدّمَه خُطىً، وكان له - ونعم ما كان- فرَطاً، وذلك بقبض **عتاد الدّولة** أبي محمد بن سهيل[5] على الغادر الملحد **ابن عمّار**، قطع الله به وبمن أوى إليه وآل بكلّ مَن سعى سعيه أو نزع مَنزعه مآله[6]، بحبائل نصبناها له هنالك حتّى عَلِقَته، وغوائل أرصدناها حتّى أوْبقته[7]؛ وتلك عادة الله الحسنى عندنا، في من غمَط نعمتنا ونكث عهدَنا، فله الحمد دائباً، والشكرُ واصباً..."

---

[1] - الرسالة في **الذّخيرة** ق2/م1/416- 417، ضمن ترجمة ابن عمّار وخلال حديثه عن تمرّده على المعتمد والقبض عليه، وقد قدّم لها ابن بسام بما يلي: "واتّفق أيضاً وقت القبض عليه يومئذ **دخول المعتمد حصن بياسة** وتطارحُ أهلها عليه وحصول تلك الجهة في يديه، ورأيت رقعة صدرت عنه في ذلك إلى أحد بنيه، وذكر الخائن ابن عمّار في فصل منها قال فيه: كتابي يوم كذا...." وكان ابن عمّار هو الذي استولى على مرسية من يد ابن طاهر بأمر المعتمد، ثم ساءت علاقته به، وتعرّض له في أشعاره، فدبّر المعتمد مع صاحب شقورة عتاد الدولة في القبض عليه. راجع ترجمة ابن عمّار في **الذخيرة** 2/1/ ص 368 وما بعدها؛ فقد تكون الرسالة من إنشائه.

[2] - قال ابن بسّام: وكان القبض على ابن عمّار بشقورة يوم الجمعة لست بقين من ربيع الآخر سنة سبع وسبعين (**الذخيرة** ق3/م2/ 417)

[3] - فبعد خضوع بياسة للمعتمد جعل عليها ابنه المأمون وهي غير بعيدة عن شقورة، والمامون كان نائب أبيه على قرطبة، فامتد نفوذه شرقاً إلى بياسة.

[4] - أي في خروجه من إشبيلية نحو بياسة.

[5] - ذكر ابن الخطيب كيف احتال المذكور صاحب حصن شقورة على ابن عمّار فقبض عليه (**أعمال الأعلام** 2/ 160)، وورد بعد نهاية الرسالة ذكرُ ابن بسام "القبض على ابن عمّار في شقورة يوم الجمعة لستّ بقين لربيع الآخر سنة سبع وسبعين"، ورفض المعتمد كلّ شفاعة فيه ومنها شفاعة صاحب شاطبة ابن محقور، فأجابه المعتمد بنص الرسالة اللاحقة.

[6] - لعلّه يشير إلى ابن رزين صاحب السهلة الذي كان بينه وبين ابن عمّار "تمكّنُ أنس" فاجتاز هذا قرب بلده ولم يلقه فعتب عليه ابن رزين (**الذخيرة 2**/1/ 400)

[7] - أغراه صاحب شقورة بأن يمكّنه من حصنها لما يعلمه منه من حبّ الرئاسة، وتمّ هذا بتدبير ابن عباد، وكان صاحب سرقسطة شجعه على الاتجاه إليها تخلّصاً منه وخديعة له، انظر عن ذلك وعن أولية الخصومة مع المعتمد: **الذخيرة** 2/1/ 405.

86 - رفض المعتمد بن عباد شفاعة ابن محقور صاحب شاطبة في ابن عمّار[1] [477]

"... وقفت على الإشارة الموضوعة من قِبَلك على أخلص وجوه السّلامة، المستنام فيها إلى شرف محتدك وصفاء معتقدك أكرمَ استنامة، في الشفاعة في من أساء لنفسه حظّ الاختيار، وسبّب لها سبب النّكبة والعِثار، بغَمطه لعظيم النّعمة، وقطْعه لعلائق العصمة، وتخبُّطِه في سَنَن غيّه واستهدافه، وتجاوزه في ارتكاب الجرائم وإسرافه، حتّى لم يدَعْ للصّلح موضعاً، وخرق سِتر الإبقاء بينه وبين مولى النّعمة عنده فلم يترك فيه مَرقَعاً؛ وقد كان قبل استشراء دائه، وكشفِه لصفحة المعاندة وإبدائه، عذرُه في جميع جناياته مقبول، وجانب الصّفح له معرَّض مبذول، لكن غيّرته الغواية، عن طريق الهداية، فاستمرّ على ضلاله، وزاغ عن سَنَن اعتداله، وأظهر المناقضة، وتعرّض بزعمه إلى المساورة والمعارضة، فلم يزَل يُريغ الغوائل، ويَنصب الحبائل، ويركب في العناد أصعبَ المراكب، ويذهب منه في أوعر المذاهب، حتّى عَلِقته تلك الأشراك التي نصبها، وتشبّثت به مساوئُ المقدّمات التي جرّها وسبّبها؛ فذاق وبال فعله، ﴿ولا يَحيق المكر السيّئ إلا بأهله﴾[2]، ولم يحصل في الأنشوطة التي تورَّطها، والمَنحَسة التي اشتملت عليه وتوسّطها، إلاّ ووجهُ العفو له قد أظلم، **وباب الشّفاعة فيه قد أبهَم**؛ ومَن تأمّل أفعاله الذميمة، ومذاهبه اللئيمة، رأى أنّ الصّفح عنه بعيد، والإبقاءَ عليه داء حاضر عتيد.

ومِثلُك في رجاحة ميزانه، ومعرفته بأبناء زمانه، لم يجهل بذْأةَ حاله من القُلّ والضَّعة، وارتقاءَه منها إلى الرّفعة والسّعَة، وإنشالَه من ذلّ الخُمول، إلى العزّ العريض الطّويل، وتسويغَه عقائل الأموال، وجلائلَ الأحوال...[3] ففوّقَ لمناضلة الدولة نباله، وأعمل في مكايدتها جهدَه واحتياله؛ ثمّ لم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى إطلاق لسانه بالذّمّ الذي صدر عن لؤم نِجاره، والطّعن الشّاهد بخبث طويّته وإضماره، ومن جَهلَ مقدار تلك النّعمة التي كان سُوِّغَها أوّلاً، أخْلِقْ به أن لا يعرف مقدار العفو عنه آخراً، ومَن فسد هذا الفساد كيف يُرجَى استصلاحُه! ومن استبطن مثل غلّه كيف يؤمَّل فلاحُه! ومَن لك بسلامة الأديم النّغِل، وصفاء القلب الدّغِل! وعلى ذلك فلا أعتقد عليك فيما عرضتَ به من وجه **الشّفاعة** غير الجميل، ولا أتعدّى فيه حُسن التّأويل، ولو وفدت شفاعتك في غير هذا الأمر الذي سبق فيه السّيفُ العذْلَ، وأبطل غافل الأقدار فيه الألطاف والحِيَل، لتُلُقّيَت بالإجمال، وقوبلت ببالغ المبرّة والاهتبال..."

---

[1] - ورد نص هذه الرسالة بعد نص سابقها في **الذخيرة** ق2/ م1/ 417- 419 ، وهي من إنشاء أبي الوليد بن طريف كما ورد في تقديم ابن بسّام لها، وورد فيه أيضاً أنّ صاحب شاطبة هو ذو الوزارتين ابن محقور. وكان القبض على ابن عمّار بشقورة يوم الجمعة 24 ربيع الثاني سنة 477. (وردت الإشارة إلى ابن طريف في **الذخيرة** 1/ 818)

[2] - من الآية 43 من **سورة فاطر**

[3] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)

87 - رسالة عن ابن عباد حول تجدّد القتال مع مع غرناطة بسبب إخلالها بعقد السلم معه[1] [465 - 471][2]

"... كنتُ قد هادنت أهل **غرناطة** - لا زالوا في أذيال مكرهم عاثرين، وفي أيدي غوائلهم مستأسرين -، مهادنة دعوْني إليها فأجبت، واستدنوْني نحوها فدنوْت، فلمّا أشرفتْ على التّمام، وآذنت بالانصرام، راسلوني في تماديها فساعدتُ، وأرادوني على اتّصالها فانفعلتُ وأنفذْت، وانعقد بيننا عقدٌ بُولِغَ في تأكيده، وتُنوهِيَ في إحكام مواثيقه وعقوده؛ ولم تكد صحيفته تُطوَى، ولا شهيدهُ يتولّى، حتّى غدروني في **الحصن الفلاني**[3] باستنامة مَن كان فيه مِن قِبَلي إلى السّلم، وإضاعته استشعارَ الحزم، فلم أعجّل بالتّنكر، ولا سارعتُ بالتّنمّر، ورأيت الاستيناء، وآثرتُ الاستبقاء، رجاءَ أن يفكّروا في العواقب، فيُفيئوا إلى الواجب، ويعطفوا إلى الرأي الصّائب، وأعدت إليهم مَن أمكنني إعادته من السّفراء، فلقُوا منهم بَدهة وإباء، والتواءً وانزواء؛ ولمّا رأيت ذاهبَ رشادهم لا يرجع، ودواءَ استصلاحهم لا ينجع، ونأيَ نَصَفتهم لا يُرأب، وغائبَ فيئتهم لا يُرتقب، عملتُ على الإيثار، واستجمعت لذي الانتصار، وسقيْتهم بمثل كأسهم، ورميتهم عن نظائر قياسهم؛ فلم يطل أمدٌ، ولا كثُر من ماضي الأيّام عَدد، حتّى حصل من وجوه قوادهم، ورؤوس أجنادهم، فلان وفلان إلى ستّة وعشرين رجلاً أحيط بهم أسراً، وتُقُبِّض عليهم طرّاً، وجُعلوا قِراهم البثَّ واللّهف، وأبا مثواهم الهون والخسف...."

88 - رسالة عن ابن عبّاد حول غدرأحد الرؤساء [أمير غرناطة؟] خلال اتفاق صلح بينهما[4] [461 - 477][5]

"... وقد كانت نشأت بيننا وبين فلان، النّطِفِ الوُدّ، السّيّئ العهد،- جزاه الله جزاء من خاس بذمامه، ونثر عِقد الوفاء بعد انتظامه-، مداخلة توسّطها رؤساء[1]،

---

[1]- الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة** ق2/م1/ 277- 278

[2] - السنة الأولى تمثّل بداية عهد عبد الله بن بلكّين وظهور طمع ابن عباد في مملكته، والسنة الثانية هي تاريخ غياب ابن عمّار في مرسية نيابة عن المعتمد (حيث استبدّ بها)، وقد وصفه عبد الله بن بلكّين أنه كان أسّ الفتنة بينه وبين ابن عبّاد، وأنّ العلاقات أصبحت ودّية بعده (**التبيان** 96؛ **دول الطوائف** 143)

[3] - ذُكر أنّ ابن عبّاد استولى على مدينة **جيان** من أراضي مملكة غرناطة سنة 466، ثمّ تمكّن جيشها من استرجاع **حصن قبرة** في الجنوب الغربي من جيان، فهل هو الحصن المشار إليه في الرسالة؟ راجع **دول الطوائف** ص 140- 143.

[4] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة** 2/1/276- 277؛ هل يتعلّق الأمر هنا بالنزاع بين المعتضد ابن عباد (433- 461) وابن ذي النّون صاحب طليطلة أم مع المظفّر باديس بن حبّوس أمير غرناطة (428- 465)؟ نرجّح هذا الأخير استنتاجاً من الرسالة اللاحقة؟

[5] - السنة الأولى هي تاريخ بدء إمارة ابن عباد، والثانية تاريخ القبض على ابن عمّار الذي كان عنصر خصام بين ابن عباد وجيرانه، وسنة 478 سقطت فيها طليطلة فانشغل الجميع بالعلاقة مع القشتاليين، ومن الممكن حصر تاريخ الرسالة بين سنتي 465 و 477، أي بدءً من عصر أمير غرناطة عبد الله بن بلكين.

وتقلّدها وزراء، طالت زمناً لا يُنتهَج فيها إلى السّلم سبيل، ولا يبدو من الوفاق دليل، ولا يلوح للنّجاح وجهُ مقبول، بما كان السفراء يَلقوْنه من تشطّط في غير كنهه، ومقابلتي بما كان يأتي من شِبهه، إلى أن تطأطأ من سموّه، وتقاصَرَ من علوّه، ونضا[2] عنه ثوب الرّياء، وأبدى وجه حاجته إلى الانقياد والاستبقاء، **فأنبت إنابة من يؤثر الهدنة على الفتنة**، وتأنّيتُ إرادة من يريد إدالة المودّة من الإحْنة؛ وأنا أعتقد أنّه مصحّح فيما أراه، صادق في الذي أعطاه، أقضي على الظّاهر، ولا أتجاوز تصفّح الحاضر؛ وإذا هو مصرٌّ غدرةً شوهاء، لو تهيّأ مُرادُه منها لأغصّت بالرّيق، وللـقّت السّوق بالسّوق، ولكنّ الله بما عوّدنا من فضله نبّهَ على الغامض، وأبان عن برق الخُلّب الوامض، فرأيت مكنون الضّمير بعين التفكير، ونشرت مطويّ الجوانح بيد التّدبير، فإذا كلّ ما عُقِدَ منحلّ، وما أُبرم مضمحِلّ، فرددت عندما خلع عقدَه إليه، وقلبتُ غير مُليم ظهر المِجَنّ إليه..."

89 - تبرير ابن عباد حملته البرية والبحرية على مملكة [غرناطة؟] المتحالفة مع ملك طليطلة[3] [465-471؟]

".... شرُّ النّاس لنفسه مَن جهل مقدارَها، ولم يتّهم اختيارها، وقفا إذا شرَهت وعَمِيَت آثارَها، وطار بجناح طمعِها إلى ذميم طبعِها، واتّبع رائدَ جشَعها إلى وخيم مرتعها، وعاد إلى الصّالح من خلطائه فاستفسدَه، وإلى الصّفيّ فأحقدَه، وإلى المستنيم فأوحشَه وشرّده، ولا سيّما في حال تحضّ على استدناء البعداء، وتبعث على مصادقة الأعداء، ومع نصبة قد أنذرت بمآلها، وحذّرت من بغتة اغتيالها، بل واللهِ قد نفحت رجومُها، ولفحت سمومها، وصرّح بالبأساء شومُها.

وليس يذهب عنك أنّي – بما أشرت إليه وذُرت حواليه- إلى **صاحب طليطلة** ناظر، وإلى قبح ما عاملني به شاهر؛ وذلك أنّه منذ زمن يتمرّس بجانبي، ويقوم في وجه ما لا يريبه من مذاهبي، فمن ذلك ما نعلمه من خفوفه إلى **بسطة** للقاء فلان[4] - أخذه الله بما ألبسْه من حرمة فجرّدها، وأوليْته من نعمة فغمطها وجحدها-، وبقائه هنالك يشجّعه على غدري، ويشيعه من مخالفة أمري، وتوثّق له أنّه إذا انصرم منّي، وانخزل ببعض عمله عنّي، كان له إن هممتُ به سنداً،

---

[1] - لا ندري من المقصود هنا

[2] - نضا الثوب، ينضوه؛ ونضى الثوب، ينضيه؛ نزعه

[3] - الرسالة عن ابن عبّاد من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة** 2/1/ 278- 282

[4] - كانت بسطة سابقاً تابعة لأمير غرناطة ومعها جيّان، ثم خضعت المنطقة لابن عباد، والمحاولة المشار إليها قد تكون من أجل إثارة المنطقة ضده ؛ وقد ورد عند عنان ذكر هجوم جيش غرناطة على أراضي ابن عباد سنة 472 بدعم من مرتزقة قشتاليين يظهر أنهم وصلوا عبر أراضي مملكة طليطلة (**دول الطوائف** ص72).

ووصل به إن وصلتُ يداً، فحينئذ صنع فلان ما صنع، وحاول أن يطير فوقع، من تلك الجهة التي كانت انخرطت في سلك بلدي وعملي، واطّردت في منابرها الخطبة لي، حتّى انصات[1] فيها فُواقَ بكيّةٍ حكمُه، وذُكر على أعوادها اسمُه، ولكن قليلاً ما بقاءُ التثاؤب ووسمُه، إلى غير ذلك من قوارص القول والفعل، ستصل إليك على ألسنة الرّسل؛ وأنا في كلّ ذلك أحتمل الأذى، وأغضي على القذى، وأقبض يد الانتصار، طمعاً في الاقتصار والاستبصار، وذهاباً مع عادة الأناة والإنظار، وربّما ألمحتُ في بعض الأحايين بعتاب، وتكلّمتُ بكلمات غِضاب، فظنّ أنّ ذلك قُصارى في إنكاري، ومنتهى وُسعي واقتداري، فزاد الاعتداء والاستهداف، وعظُم الازدراء والاستخفاف؛ ولولا نظري من هذه الجزيرة - عصمها الله - إلى ما يُنظَر إليه، وإشفاقي منها على ما لا يُشفق عليه، لأسكنتُ أولَ انبعاثه ذلك النّزوان، وردعتُ قبل احتفاله ذلك الاستنان...[2]

ثمّ ختم تلك الهنات، وتلا تلك السّيّئات، بخبر صاحب فلانة، كنتُ أوطأتُه على عملك رقاب أهلها[3]، وجعلت إليه القبض والبسط فيها، ولم أشرك معه أحداً في معنى، فخان بما ائتُمن، وفرط في ما احتَجَن، وخاف عاقبة ذلك فنَغِلَ واضطغَن، وأراد أن يفوز ببطنته وما جمع، وينجو ممّا حذر عليه وتوقع، فأزمع على الانحراف والإنزواء، واستجمع للخلاف والانتزاء، وداخل فلاناً يعرض عليه ما ذهب إليه، ليؤيّده على قبوله بما في يديه، فنأى عنه بجانب النزّيه الكريم، وأعرض إغراض الحرّ الصّميم، فانصرف إلى المذكور وهو لمُناها مستمطر متوكّف، وإلى مثلها مستوقِف مستشرف، فما دعاه حتّى لبّاه، ولا أوْمى إليه، حتّى تهافت عليه، لا يتهيّب حالاً، ولا يتوقع مآلاً؛ وبلغني الخبر وكفى به مزعجاً، ولا كمثله مُبرماً مُحرجاً، فصبرتُ حتّى أعذرت، وتأنّيتُ حتّى أبليْت، ثمّ اعتزمت على الانتصار، وتقدّمت لطلب الثّار، مستخيراً وعدَ الله لمن بُغِيَ عليه، مقتضياً حكمه العدلَ فيمن تُسُبِّبَ إليه، فتقدّمتُ في معسكر ألفتُه يدُ الإعجال، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال، فأنخت به على بلده أيّاماً، قطعت فيها دونه كلّ الرّفاق[4]، ولم أبق حوله سقفاً على جدار ولا قائمة على ساق، ثمّ مررتُ إلى جهة فلانة[5] أجوس خلالها، وأتقرّى بالنّهب والإحراق أعمالها، وأتسنّم معاقلها، وأجعل أعاليَها أسافلها، إلى أن وقفتُ بجانبها مُنازلاً، وزحفت إلى بابها مقاتلاً، وصاحبُها

---

[1] - بمعنى: استقام
[2] - في الذخيرة : الإستنان (وفي فصل منها)
[3] - هل الرسالة موجّهة إلى أحد عماله في الجهة الشرقية من الإمارة (قرطبة مثلا؟)
[4] - هذه إشارة إلى الحصار.
[5] - لعله يقصد غرناطة، وملكها في هذا الوقت هو عبد الله بن بلكين (465- 483).

يرى الخُويّ [1] ملء عينيه، ويقلب على خسارة صفقته كفّيه، ولا يعاين إلا ناراً تضطرم عليها وتصطلم حواليها؛ فلو أصغينا لسمعنا قعقعة أضراسه، واستشعرنا لوجدنا حَرّ أنفاسه، وكلٌ كميٌّ عنده - وكانوا عدداً لفيفاً، وجمعاً كثيفاً- قد نُسخ جباناً، ومُسِخَ هِداناً، لا يكاد يُقبل حتّى يُدْبر، ولا يبرز حتّى ينجحر:

تلقى الحسامَ على جراءة حدّه == مثل الجبان بكفّ كلّ جبان

ثمّ انكفأتُ على غير الطريق الذي كنت أنشأت، عائداً بمثل ما بدأت، واطئاً ما لم أكن قبل وطئت، فتخيّلْ سبيلي في وجهتي وقفولي، وتمثّلْ أثري، في وردي وصدَري؛ وكنت قد وجّهت **أسطولاً**[2] بلغ في ساحل بلده أقصى المبالغ من الإفساد والتّدمير، والتّغيير والتأثير، ثم انصرف بحمد الله كما انصرفتُ على غاية الوفور والظهور..."

90 - رسالة عن ابن عباد في ذكر صدّ هجوم أحد جيرانه على مملكته [3]

[...- 465]؟

"وإنّ فلاناً جارَنا - لا أجاره الله من ريب الزّمان، ولا صرف عنه صروف الحدثان-، يأبى الله أن يراه حائداً عن فساد، وعائداً إلى رشاد، ومُقلعاً عن قبيح، ومستمعاً من نصيح، فهو- والأيام قد وعظته لو اتّعظ ، والأحوال قد نبّهته لو انتبه واستيقظ، **وحجّة علوّ السّنّ**[4] قد قامت عليه، ووجوه غِيَر الدّهر قد سفرت إليه-، بمنزلة الغِرّ العابث، في مسلاخ السّفيه العائث، ولا يُقصر ولا يبصر، ولا يرعوي ولا يفكّر.

واتّفق الآن بمساعيه الخبيثة، ومحاولاته الذّميمة، أن **تسبّب إلى مداخلة الحصن الفلاني على يد خبيث من أهلها** قد دبّر الحيلة حتّى اتّجهت في مثلها، وأنفذ إليه قائداً من وجوه عبيده؛ واتّصل بي الخبر فطيّرتُ مَن ناشبهم الحرب، فوهب الله لأوليائي الظّهور، ووقى الله المحذور، من مضرّة كان الجاهل المتطاول قرع بابها، وأحصدَ[5] في ظنّه أسبابها؛ فتأمّلْ كيف دُؤوبُ هذا الموصوف بحقائق صفاته، المتابع لقبائح هناته، على إضرام نار الفتن، باستثارة دواعي الإحَن، وتعريض المسلمين - عصمهم الله - للحوادث والمحن، وكيف لا يزداد

---

[1] - من معاني الخواء والخوى: الفضاء بين شيئين أي الفراغ.

[2] - في هذا ترجيح إلى أنّ الجهة التي هاجمها ابن عباد هي بلاد غرناطة خصوصاً مع ذكر بسطة، إضافة إلى عيث أسطوله في سواحل مملكة غرناطة.

[3] - الرسالة في **الذخيرة** 1/2/ ص 282- 283 ، قد يكون ما فيها متعلّقاً بالمرية أو غرناطة

[4] - هذه إشارة إلى ابن صمادح صاحب المرية الذي كان كبير السنّ، أو باديس بن حبوس قبل وفاته سنة 465، أو المأمون بن ذي النّون ملك طليطلة قبل وفاته سنة 467.....

[5] - في نسخة أخرى : وأحصل (هامش الذخيرة)

على الأيّام إلاّ جماحاً في ميدانه، وانقياداً لشيطانه، واستكثاراً من سوء عمله، على قريب أجله؛ وليشكر الله حقّ شكره من لم يُضعْه هذه الضيعة الورهاء الشّوهاءَ، ويُشعرْه هذه البصيرة العمياء الصّمّاء، ومَن طُبع على قلبه بمجاهرة عصيان ربّه، فشرّه أبداً عتيد، وشيطانُه مَريد..."

91 - رسالة وديّة عن المعتمد ابن عبّاد إلى الأمير الزيري بإفريقية[1]

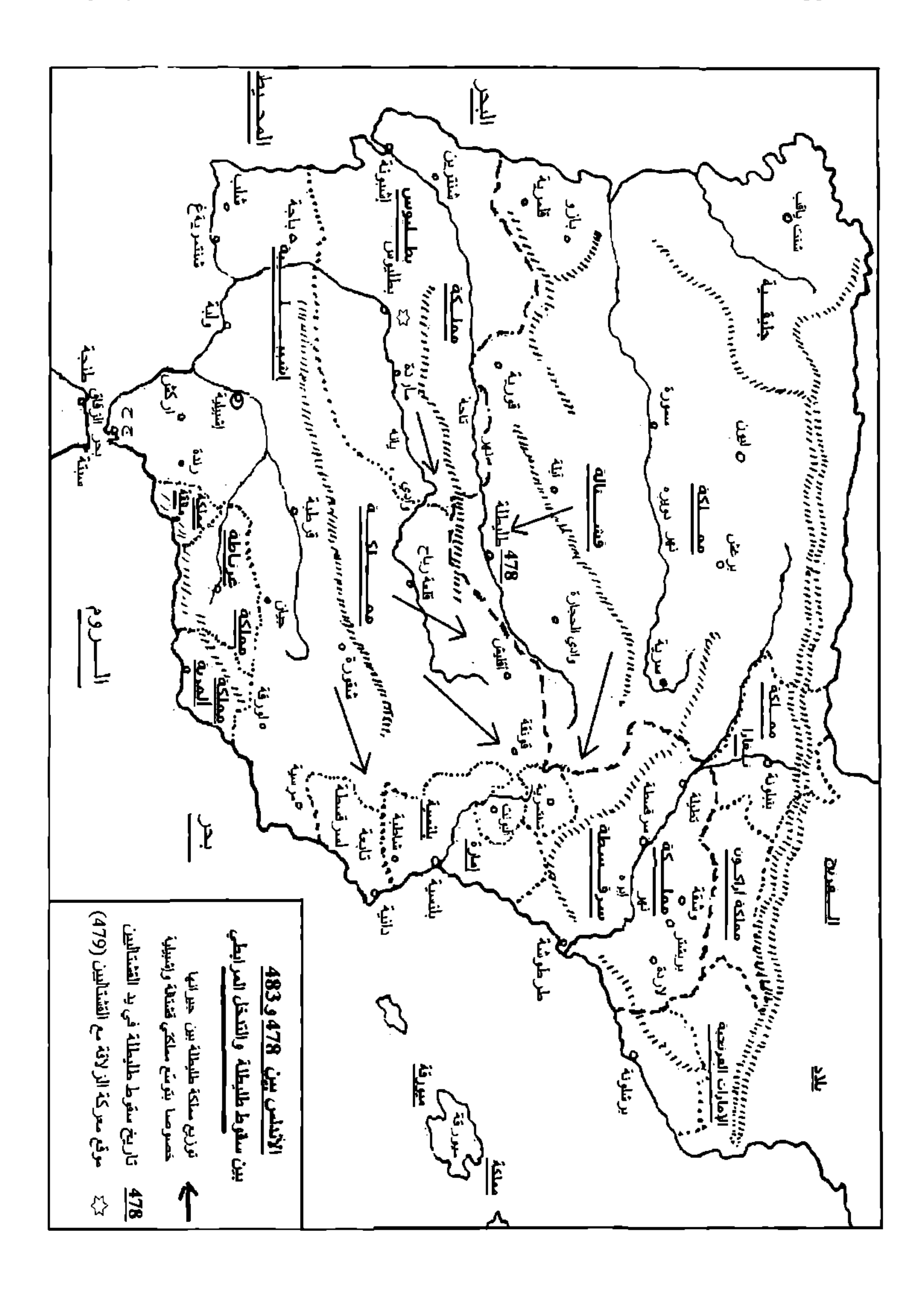
[461-....]

"إنّني - أيّدك الله- على ما بيننا من لُجَج خُضر، وفيافٍ غُبْر، لمستكثرٌ من إخائك، مستظهر بوفائك، متوفّر على إجمال ذكرك وثنائك، قياماً بما يتعيّن من مجدك وسنائك، ويعلم الله أنّه ما أملي الأبعد، وعملي الأحمد، إلاّ أن يؤمّ أفقك الطّلق - صان الله بهاءه، وحسّن أرجاءه-، من الخواصّ النبلاء، والأعيان الفضلاء، مَن يبلّغك كتابي، وينوب في إنهاء طاعتي إليك منابي.

وكان فلان قد ألمّ بي زائراً، وتلوّم لديّ مجاوراً، فأقبلته وجه البشر وألحفتُه جناح البرّ بخلال رائعة، وخصال بارعة، لنفائس المحاسن جامعة، منها - وهي أحظى وسائله لديّ، وأدنى فضائله إليّ- إدمانُه نشرَ نشر معاليك، وإعلانُه بثّ أياديك، وكنتُ متى تشوّف لمعاودة وطنه، واستشرف لمطالعة سكنه، أقوم في وجه زماعه، وأغضّ من طرْف نزاعه، استمناحاً بما يثيره من ميامنك، واستدامة لما يتلوه من آيات محاسنك، إلى أن جدّ به التّوق، واستولى على مقادته الشّوق، ولم يكن في صدّه عمل، ولا بردّه قِبَلٌ، فأصحبته كتابي هذا إليك **مجدّداً رسم الوداد**، وعامراً سبيل حسن الاعتقاد، ومعلماً بما بلوتُ من صدق تشيّعه لمجدك، وخفّة لسانه بحمدك، ومشيراً إلى ما عنده من كُنْهِ إجلال لك، وحقيقةِ استكثار منك، ثقة بأنّه يُحسن إنهاءه، ويوفّي أداءه، إن شاء الله..."

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن القصيرة كما وردت في **الذخيرة**، ق 2/م1/ ص283- 284 . قدّم لها ابن بسّام بقوله "وله [ابن القصيرة] عنه [أي المعتمد] من أخرى إلى صاحب المهدية..."؛ وصاحب المهدية المعاصر للمعتمد هو تميم بن المعزّ الزيري (454- 501).


الأندلس بين 478 و483
بين سقوط طليطلة والتدخل المرابطي
توزيع سلكة طليطلة بين جيرانها
خصوصا بتوزيع مملكتي قشتالة وأشبيلية
478 تاريخ سقوط طليطلة في يد القشتاليين
موقع معركة الزلاقة مع القشتاليين (479)

د - العلاقة بين ملوك الطوائف والمرابطين بعد سقوط طليطلة

تقديم

بعدما استولى القشتاليون على طليطلة، أصبحوا لا يقبلون الجزية مالاً من ملوك الطوائف، فقد أرسل ألفونسو إلى ابن عباد يطلبه منه تسليم "معاقل كان الموت عنده أولى من إعطائها" كما ذكر عبد الله بن بلكين أمير غرناطة في مذكراته، وقال: "وكنّا رأينا كلب النّصرانيّ على الجزيرة وأخْذَه لطليطلة وقلّة رفقه، بعدما كان يقنع منّا بالجزية وصار يروم أخذ القواعد..."[1]. أي أنّ مشروع التوسّع العبّادي الذي استمرّ حوالي نصف قرن لم يوقفه غير مشروع التوسّع القشتالي، وهذا بدوره لم يوقفه غير تدخّل المرابطين، حيث انتهى الأمر بوضع الأندلس تحت نفوذهم وانتقال الصراع في الأندلس إلى صراع مرابطي إسباني أو إسلامي مسيحي، لتجدّد نشاط العمل الصليبي في الشرق والغرب في هذه الفترة. وقد التزم المرابطون في جوازهم الأول تلبية لنداء الجهاد بما اتّفق عليه مع ملوك الطوائف من عدم التدخل في شؤونهم الداخلية، واكتفى ابن تاشفين بترك حاميات على الثغور مع النصارى لردّ أيّ هجوم محتمل.

غير أنّ أسلوب ملوك الطوائف القديم في التنازع الداخلي والتودّد إلى ملك قشتالة عادا من جديد، وتبيّن أنّ نتائج انتصار الزلاقة لا أهمّية لها إذا استمرّت هذه الحال، بل تشكّت الحاميات المرابطية في الثغور من إهمالها من طرف ملوك الطوائف فيما يتعلّق بالمؤونة. وتأكّد ابن تاشفين من تخاذلهم عندما استدعاهم سنة 481 لحصار حصن أليط (او لييط) في منطقة لورقة الذي كان ألفونسو استولى عليه بعد سقوط طليطلة في يده، وقام بعضهم بقطع المؤونة عن الجيش المرابطي المحاصر للحصن، بينما كانت قوات لابن عباد توسّع نفوذها في المنطقة انتظاراً لضمّ المناطق التي يدخلها المرابطون إلى مملكته. وعاد ابن تاشفين إلى المغرب وقد عزم على حلّ مشكلة الأندلس بإزالة العنصر الأساسي فيها وهو ملوك الطوائف، وانتظر توصّله بالتّزكية من علماء المغرب والأندلس والمشرق والخلافة العباسية التي كان يدين بالولاء لها، فكان الإجماع على ضرورة إنهاء ملوك الطوائف من الأندلس حفاظاً على بقاء الإسلام بها.

كان البدء بأمير غرناطة عبد الله ابن بلكين (مؤلف كتاب التبيان) وأخيه أمير مالقة سنة 483، ثم مملكة إشبيلية 484، ثم بطليوس سنة 487... غير أنّ العقبة الأساسية في وجه المرابطين كانت في الشرق، حيث أصبح القشتاليون والأرگونيون وحلفاؤهم من بني هود يحاولون عرقلة وصول المرابطين إلى المنطقة، حتى إن فتحهم لبلنسية لم يقع إلا سنة 495، وفتحت بعدها الإمارتان الجبليتان : ألبونت والسهلة (مركزها شنتمرية

[1] - **التبيان** 101- 102

الشرق) وذلك بين 495 و497، ثمّ إمارة بني هود سنة 503، وكانت هذه قد تعهّدت بحماية المنطقة ضد النصارى، فلمّا عجز أميرها عن ذلك وأصبحت سرقسطة على وشك السقوط بيد النصارى استدعى أهلها القوات المرابطية وفتحوا لها أبواب المدينة، فكانت آخر إمارة طوائفية تخضع للمرابطين، تبعتها الجزر الشرقية (إمارة ميورقة) سنة 509 . وفيما يلي جملة من الرسائل تخصّ هذا الموضوع :

92 - استنجاد المتوكل على الله ابن الأفطس أمير بطليوس بيوسف بن تاشفين[1]

[474 - 478][2]

"لمّا كان نورُ الهدى - أيدك الله- دليلك، وسبيلُ الخير سبيلك، ووضحت في الصّلاح معالمُك، ووقفتْ على الجهاد عزائمُك، وصحّ العلم بأنّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصر، وعلى غزو الشّرك أقدرُ قادر، وجب أن تُستدعَى لما أعضَلَ من الدّاء[3]، وتُستغاثَ لما[4] أحاط بالجزيرة من البلاء؛ فقد كانت طوائف العدوّ المطيفة بها (- أهلكهم الله-)[5] عند إفراط [6] تسلّطها واعتدائها، وشدّة كلبها واستشرائها، تُلاطَف بالاحتيال، وتُستنزَل بالأموال، ويُخرَج لها عن كلّ ذخيرة، وتُسترضَى بكلّ (نفيسة) خطيرة.

ولم يزل دأبها التشطّط والعناد، ودأبنا الإذعانَ والانقياد، حتى استُصفِيَ الطّريف[7] والتّلاد، وأتى على الظّاهر والباطن النّفاد، وأيقنوا الآن بضعف المِنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأُضرمت في كلّ جهة نارُهم، ورَوِيَت من دماء المسلمين أسنّتُهم وشِفارُهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنّما هم بأيديهم أسرى وسبايا[8]، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد همّوا بما أرادوه من التّوثّب، وأشرفوا على ما أمّلوه من التّغلّب.

فيا لله ويا للمسلمين ! أيسطو هكذا بالحقّ الإفكُ، ويَغلب التّوحيدَ الشّركُ، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكتنف هذه الملّة النّصر[9]؛ ألا ناصرَ لهذا الدّين المهتضَم، ولا حاميَ

---

[1] - الرسالة من المتوكل على الله ابن الأفطس كما وردت في **الذخيرة** ق2/ م2/ 653- 656، وفي **الحلل الموشية** 34- 36، الدار البيضاء 1979، وهي من إنشاء كاتبه أبي عبد الله محمد بن أيمن وقدّم لها بما يلي: "لمّا اشتدّ كلَب الرّوم ... استصرخ ملوكُ الطوائف بأفقنا [الأندلسي] أمير المسلمين وناصر الدّين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين.. وقد ألقوا بأيديهم، فكتب أبو عبد الله بهذه الرسالة عن صاحبه... " انظر ترجمة ابن أيمن في الذخيرة قبل نص الرسالة. قدّم صاحب الحلل الموشية للرسالة بقوله: "وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفد عليه [يوسف] جماعة من أهل الأندلس وشكوا إليه ما حلّ بهم من أعدائهم، فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم وصرفهم إلى أوطانهم، وكان ممن كتب إليه بذلك المتوكّل على الله ابن الأفطس يستصرخه حين كلَب العدوّ على بلاده، ومن بعض مخاطباته: لمّا كان نور الهدى...." وفي نص الرسالة إشارة إلى مراسلة سابقة بعدما استولى القشتاليون على قورية [473].

[2] - لا توجد إشارة إلى سقوط طليطلة مما يرجح التاريخ الوارد في الحلل الموشية حيث وضعت الرسالة هناك ضمن أحداث سنة 474.

[3] - في الحلل: لما أعضل الداء

[4] - في الحلل: فيما أحاط

[5] - ما بين هلالين (.....) ناقص في الحلل

[6] - في الحلل: العدوّ تطيف بها عند إفراط

[7] - في الحلل: حتّى نفذ الطّارف

[8] - في الحلل: في أيديهم أسارى وسبايا

[9] - في الحلل: ولا يكشف هذه البليّة إلاّ النّصر

لما[1] استُبيح من حمى الحَرَم، وإنّا لله على ما لحق عبيده من ثكل[2] وعزّة من ذلّ، فإنّها الرّزيّة التي ليس فيها عزاء، والبليّة التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أيّدك الله [3]- بالنّازلة في **مدينة قورية**[4]- أعادها الله (للإسلام)- وأنّها مؤذنةٌ الجزيرةَ بالخلاء، ومَن فيها من المسلمين بالجلاء؛ ثمّ ما زال ذلك التخاذل يتزايد، (والتدابر يتساند)، حتّى تخلصت القضية، وتُعَجِّلت[5] البليّة، وحصلت في يد العدوّ (- قصمه الله-) **مدينة سُريّة**[6]، وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع، في الحصانة[7] والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدّائرة،(وواسطة القلادة)، تدركها من جميع الجهات، دائرة بنواحيها[8]، ويستوي في الإضرار[9] بها قاصيها ودانيها.

وما هو إلاّ نفس خافق[10]، ورمقٌ زاهق، [استولى عليه عدوّ مشرك وطاغية منافق][11]، إن لم تُبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركوها[12] ركباناً ورجالاً، وتنفُروا نحوها خِفافاً وثقالاً؛ وما أحضَكم على الجهاد بما في كتاب الله (تعالى)[13]، فإنّكم له أتلى، ولا (أحرّضكم على التسرّع إليه) بما في حديث رسوله عليه السلام[14] فإنّكم إلى معرفته أهدى.

وكتابي هذا جملةٌ الشيخُ الفقيه الواعظ يفصّلها[15]، ومشتملٌ على نكتة هو يوضحها ويبيّنها[16]، فإنّه لمّا توجّه نحوك احتساباً، وتكلّف المشقة إليك طالباً ثواباً، عوّلتُ على بيانه، ووثقت (في عرض الحال عليك) بفصاحة لسانه، (وأنت بفضلك تستوعب ما يؤدّيه استيعابَ المستوفي، وتُصغي إلى ما ينهيه إصغاء الواعي، وتجد منه مضض المرتمض، وتتحرّك له تحرّك الممتعض)[17] [والسلام][18]".

---

[1] - في الحلل: ألا ناصراً ... ألا حامياً

[2] - كذا في الحلل؛ وفي الذخيرة: عرشه من ثل

[3] - في الحلل: أعزّك الله

[4] - مدينة قورية (Coria) تقع على أحد الروافد الشمالية لنهر تاجه (نهر طليطلة) تقابلها من الضفة الجنوبية للنهر مدينة قاصرش، كانت قورية في أقصى ثغور مملكة بطليوس الشمالية الشرقية، سقطت في يد القشتاليين سنة 473.

[5] - في الحلل: تخلّطت القضية وتضاعفت

[6] - في الذخيرة: سُرتة، وهو خطأ. ومدينة سُريّة (Soria) شمال منطقة وادي الحجارة على نهر دويرة كانت ضمن مملكة سرقسطة في أقصى ثغورها الغربية، وقد سقطت بيد القشتاليين سنة 471.

[7] - في الحلل: في التحصّن

[8] - كذا في الحلل؛ وفي الذخيرة: يدركها من جميع نواحيها ويستوي

[9] - في الحلل: في فيء الأرض. راجع الصفحة 249 في هذا الجزء من الذخيرة عن سقوط قورية وسرية وطليطلة.

[10] - في الذخيرة: خافت

[11] - ما بين معقفين [...] ناقص في الذخيرة

[12] - في الحلل: إن لم تدركوها... وتبادروا

[13] - ما بين هلالين (...) ناقص في الحلل

[14] - في الحلل: رسول الله صلى الله عليه وسلم

[15] - في الحلل: وفي كتابي هذا الذي يحمله إليكم الشّيخ الفقيه الواعظ مسائل مجملة يفصّلها ويشرحها.

[16] - في الحلل: نكت هو يبينها لكم ويوضحها

[17] - في الحلل: بفصاحة لسانه والسلام

[18] - ربّما كان أهمّ شواغل ابن تاشفين عن تلبية استصراخ ابن الأفطس مشكل حاجز إمارة سكّوت البرغواطي في جهتي سبتة وطنجة، إضافة إلى عدم الإجماع آنذاك بين ملوك الطوائف على استدعاء المرابطين، مع العلم أنّ شمال المضيق كان جزءً من مملكة إشبيلية الفاصلة بينه وبين مملكة بطليوس.

93 ـ رسالة جوابية عن المتوكل ابن الأفطس على رسالة تهديد من ألفونسو ملك قشتالة[1]

[478]

"... (وقد) وصل[2] إلينا من عظيم الرّوم كتاب مدّع في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يُرعد ويُبرق، ويجمع تارة ويفرّق[3]، ويهدّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتظافرة؛ ولو عَلِم أنّ لله جنوداً أعزّ بهم (ملّة) الإسلام، وأظهر بهم دين نبيّنا محمد عليه السّلام : ﴿ (أذلّةٍ على المومنين) أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون (لومة لائم)﴾[4]، بالتقوى يُعرَفون، وبالتّوبة يتضرّعون ويُنصَرون، ولئن لمعتْ من خلف الرّوم بارقة فبإذن الله ﴿وليعلمَ المومنين﴾[5] و﴿ليَميز الله الخبيث من الطيّب﴾[6] ، ﴿وليَعلمنّ المنافقين﴾[7].

و) أمّا تعييرك للمسلمين فيما وهن[8] من أحوالهم[9]، (وظهر من اختلالهم)، فبالذنوب المركوبة، (والفُرقة المكتوبة)، ولو اتّفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك لعلمتَ أيَّ صابٍ أذقناك، كما كانت آباؤك (مع آبائنا) تتجرّعه، فلم تزل تذيقها من الحِمام وضروب الآلام شرّ ما[10] تراه وتسمعه، (وأداء المال تتوزّعه)؛ وبالأمس كانت قطيعة[11] **المنصور** على سلفك إهداءَ ابنته إليه، مع الذّخائر التي كانت تفد (في) كلّ عام عليه.

وأمّا نحن (و)إن قلّت أعدادنا، وعدُم من المخلوقين استمدادُنا، فما بيننا وبينك بحرٌ نخوضه، ولا صعبٌ نروضه، إلاّ سيوفاً[12] تشهد بحدّتها رقاب قومك، وجلاداً تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين نتقوّى عليك ونستعين، (ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مَهرب)، وما ﴿تَربّصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين﴾[13] : نصر عليكم، فيا لها من نعمة ومنّة، أو شهادةٌ في سبيل الله فيا لها من جنّة، وفي الله العَوض ممّا به هدّدتَ، وفرجٌ يبتر ما[14] مددتَ، ويقطع بك فيما أعددت..."

---

[1] - وردت الرسالة في **الحلل الموشية** 36- 37، ونقارنها مع مخطوط **الحلة السيراء**، الأسكوريال رقم 488، فهرس الغزيري، لوحة 85أ (نقلاً عن دول الطوائف 90).

[2] - ما بين هلالين (......) ناقص في الحلة السيراء

[3] - في الحلة: ثم يفرّق

[4] - من الآية 56 من **سورة المائدة**

[5] - من الآية 166 من **سورة آل عمران**

[6] - من الآية 37 من **سورة الأنفال**

[7] - من الآية 10 من **سورة العنكبوت**

[8] - في الحلة: وهى

[9] - انظر رسالة عن ملك قشتالة إلى ابن عبّاد في الملحق

[10] - في الحلة: شؤماً

[11] - القطيعة إشارة إلى الجزية التي كان يدفعها النصارى للمسلمين أيام حجابة المنصور بن أبي عامر للخليفة هشام بن المستنصر، الذي اشتهر بغزواته في بلاد النصارى.

[12] - في الحلّة: إلاّ السّيوف

[13] - من الآية 52 من **سورة التوبة** "هل تربّصون بنا إلا إحدى الحسنيين"

[14] - في الحلّة: يفتر بما

94 - رسالة عن المعتمد إلى الولاة والعمال بجمع مال السلم (الإتاوة) من خدّام الدولة لعجز الرعية عن ذلك بسبب القحط والجراد[1] [478 ؟]

"الحال مع العدوّ - قصمه الله - بيّنة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف، معروفةٌ لا تفتقر إلى نعت ولا وصف، ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته فليس إلاّ مداراته وملاينته؛ وكان - فلّ الله حدّه، وفضّ جنده- قد اعتقد الخروج في هذا العام إلى بلادنا - عصمها الله - **بأكثف من جموعه في العام الفارط وأحفل**، وأبلغ في استعداده وأكمل، إلاّ أنّ الله تعالى يسّر من **إنابته إلى السلم ما يسّر**، ونظر لنا من حيث لا نستطيع أن ننظر، ووقع الاتّفاق معه على جملة من المال تقدّم إليه، ونستكفّ بها الشرّ المرهوب لديه؛ فكم حالٍ كانت بخروجه تُتلف، ونعمةٍ بأيدي طاغيته تُنتسَف، والرعيّة- حاطها الله - في هذا العام على ما يقتضيه ما عمّ البلاد من الفساد، وشملها من **جائحة القحط والجراد**، وتكليفها أداء شيء من المال الذي التُزم مرتفِعٌ، وأخذها بالمعونة على ما ناب ممتنع، فلم يبق إلاّ أن نميل بهذه الكلفة على الخدَمة ميلَ العموم، ونُجريهم فيها على أحسن مجاري التحرير والتّقويم، وهي حالٌ تقتضي من كلّ مَن أحسنَ التأمّلَ المعونة فيها، والمبادرة بحسب طاقته إليها[2]؛ وقد أدرجتُ طيَّ رقعتي هذه قنداقاً[3] تُسمَّى الخدَمةُ قِبَلك فيه، ورُسم على كلّ واحد منه ما توجبه حاله وتقتضيه

فتقدّمْ فيما نصصتُه من الحال إليهم، وكلّمهم بما يخفّف الحال عندهم ويسهّلها لديهم، ولتقبض ذلك كلّه في أعجل ما يمكن، فالحاجة إليه وكيدة، والضرورة حافزة شديدة".

95 - رقعة من المعتمد إلى رجال دولته بتحديد الحصة المالية الواجبة على كل منهم لتسديد مبلغ الهدنة مع القشتاليين[4] [478]

"الحال مع العدو - قصمه الله - بيّنة لا تخفى، ومُداراته- ما لم تُمكن مضاهاته- أولى وأحرى، والتُزم له في الصّلح المتّفق عليه جملةُ مال رُسم عليك منه[5] - بعد النّظر لحالك،

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي المعروف بابن القصيرة (ت508) كتبها عن المعتمد بن عبّاد كما وردت في **الذخيرة 2/1/252**- 253 ؛ انظر ترجمة ابن القصيرة في نفس المصدر ص239 وما بعدها؛ وقد ترجم له آخرون منهم؛ ابن الأبار: **إعتاب الكتاب** 222؛ المراكشي: **المعجب** 164 ؛ ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة** 6/ 227، (بيروت 1973)؛ ابن الخطيب: **الإحاطة** 2/ 516- 521.

[2] - وصف ابن بسّام حال ملوك الطوائف مع النصارى بما يلي: كانت طوائف الرّوم مدّة ملوك الطّوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكل إقليم، فلاطفوهم بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، فلم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأبُ النّصارى التسلّط والعناد، حتّى استصفوا الطّريف والتّلاد، وأتى على الظاهر والباطن النّفاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضّريبة، إلى ما يتبعها من هديّات وتفقات، وشيعُ العصر شاهد بالأمر.." (**الذّخيرة** ق2/م1/ 248)

[3] - القنداق يظهر أنه بيان أو لائحة مدرجة ضمن الرسالة بأسماء خدّام الدولة وما يجب على كلّ واحد أداؤه، انظر الرسالة اللاحقة.

[4] - وردت الرسالة **في الذخيرة** ق2/م1/ 252؛ وقد ذكر ابن بسّام من عواقب سقوط طليطلة فزع الأندلسيين رعايا وحكام، ورأى رقاعاً: "تُكتب يومئذ ببيوت الإشراف (المالية) خوطب بها العمال في استعجال قبض تلك الأموال منها رقعة عن المعتمد قيل فيها : الحال مع العدو... "

[5] - قد يكون هذا ما سمّاه المعتمد في الرسالة السابقة بالقنداق أي البيان الذي بعثت منه نسخة لكل واحد من رجال السلطة حدّد فيه مبلغ ما يجب عليه أداؤه.

والتحاشي من الإجحاف بمالك-، كـذا ؛ فعجِّل النظر فيه، وابعثه بكتاب تُجاوِب على ظهره بوصوله، وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك، وصدق ضميرك؛ فتداركْ بالمشاركة في هذا الخطب الملمّ المهمّ الذي لا مَحيد عنه ولا بدّ منه".

96 - جواب من ابن عبّاد على رسالة إلى ملك قشتالة تحمل طلباً بتسليم بلاده لرجال دولته[1] [478]

"من الملك المنصور بفضل الله، **المعتمد** على الله، محمد بن المعتضد بالله، أبي عمرو بن عبّاد، إلى الطّاغية الباغية أذفنش [ابن فرذلند] بن شانجه[2]، الذي لقب نفسه بملك الملوك، وسمّاها بذي الملّتين، قطع الله دعواه، سلام على من اتّبع الهدى.

أمّا بعدُ، فإنّه أول ما نبدأ به من دعواه أنه "ذو الملّتين"، والمسلمون أحقّ بهذا الاسم، لأنّ الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومجبى المملكة، لا تملكه قدرتكم، ولا تعرفه ملّتكم، وإنّما كان سَنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النّظر السّديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة قلتَ في أثنائها: ليس؛ ولا تستحيي أن **تأمر بتسليم البلاد لرجالك**؛ وإنّا لنعجب من استعمالك برأي لم تُحكّم أنحاؤه، ولا حسُنَ انتحاؤه، وإعجابُك بصنع وافقتْك فيه الأقدار، واغتررتَ بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنّا في العُدد والعديد، والنّظر السّديد، ولدينا من كماة الفرسان وجيل الإنسان، وحماة الشّجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجالٌ تدرّعوا الصّبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حدّ الشّفار، وتنعاهم الهامُ في القفار، يديرون رحى المنون بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم[3]، قد أعدّوا لك ولقومك جلاداً رتّبه الاتّفاق، وشفاراً حِداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والنّدم من عجلة الشّروه؛ نبّهتَ من غفلة طال زمانها، وأيقظتَ من نومة تجدَّدَ أمانُها؛ ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة متساعدة، إلا ذلٌّ تعلم مقداره، وتتحقق مثاره؛ والذي جرّأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمُر، ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصّنة أو من وراء جدر﴾[4]، ظنّوا المعاقل تعقل، والدّول لا تنتقل، **وكان بيننا**

---

[1] - وردت هذه الرسالة الجوابية في **الحلل الموشية** ص39- 41، وهي من إنشاء ابن عباد نظماً ونثراً، بدأ نظمه هكذا:

الـذّلّ تأباه الـكرامِ وديـننا == لك ما ندين به من البأساء
سُمناك سلماً ما أردتَ وبعد ذا == نغزوك في االإصباح والإمساء

والرسالة القشتالية المجاوب عنها واردة في الملحق تحت رقم 4.

[2] - في الأصل : أذفنش بن شانجه ؛ والصواب ما أثبتناه.

[3] - أي التمائم

[4] - من الآية 14 من **سورة الحـــشر**

وبينـك مـن المسـالمة مـا أوجَبَ القعـود عـن نـصرتهم، وتـدبير أمـرهم، ونـسأل الله سبحانه المغفرة فيمـا أتينـاه فـي أنفسنا وفيهم مـن تـرك الحـزم، وإسـلامهم لأعـاديهم؛ والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخُك وتقريعك بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرتنا إليك، والله ينصر دينه الكريم ﴿ولو كره الكافرون﴾[1]، والسلام على من علم الحقّ فاتّبعه، واجتنب الباطل وخُدَعَه".

97 - استنجاد ابن عباد بيوسف بن تاشفين أمير المرابطين[2]

(1جمادى1/ 479)

"بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً

إلى حضرة الإمام أمير المسلمين[3]، وناصر الدّين، محيي دعوة الخليفة الإمام أمير [المومنين][4] أبي يعقوب **يوسف بن تاشفين**؛ من القائم بعظيم إكبارها، الشّاكر لإجلالها، المعظّم لما عظّم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحَرمها، المنقطع إلى سموّ مجدها، المستجير بالله وبطَولها: **محمد بن عبّاد**؛ سلام الله الكريم يخصّ الحضرة العليّة، المعظّمة السّامية، ورحمة الله وبركاته.

وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غرّة جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وإنّه - أيّد الله أمير المسلمين ونصر به الدّين- أنّا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرّق جمعنا، وتغيّرت أنسابنا، بقطع المادّة عنّا من معيننا[5]، فصرنا شعوباً لا قبائل، وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقلّ ناصرنا، وكثُر شامتُنا، وتوالى علينا هذا العدوّ المجرم اللعين إذفنش، وأناخ علينا بكلكله، ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون؛ ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منّا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا، إلاّ أنّ الهوان منعهم عن ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال.

---

[1] - من الآيات 32 من **سورة التوبة**، و 8 من **سورة الصفّ**، و 13 من **سورة غافر**

[2] - ذكر صاحب **الحلل** في التقديم لهذه الرسالة أن المعتمد رأى أن يبعث إلى المرابطين يستنجدهم فخوّفه منهم ابنه وليّ عهده الرشيد أبو الحسن عبيد الله، وكذا حاشيته؛ لكن المعتمد لم يكن له بدّ من ذلك حيث قال: "لا قدرة لنا [على المواجهة] فقد تلف مجبانا، وتبدّدت أجنادنا، وأبغضتنا العامّة والخاصة... حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير.." فأخذ في المكاتبات مع يوسف، من ذلك ما كتبه من إنشائه ومنها ما كتبه عنه كتّابه، والرسالة أعلاه من إنشائه وخطه **كما وردت في الحلل** (45- 46) تليها رسالة من إنشاء الوزير الكاتب أبي القاسم بن الجدّ (**الحلل** ص47- 48)

[3] - في هذا تأكيد على أنّ يوسف بن تاشفين تلقب بأمير المسلمين قبل الزلاقة وليس بعدها، ويشهد على هذا أيضاً ما هو وارد في **البيان المغرب** 4/ ص27- 28 (وذلك سنة 466)، كما تشهد عى هذا أيضاً العملة المرابطية قبل الزلاقة.

[4] - في الأصل المعتمد: المسلمين، وهو لا يتفق مع الواقع ؛ فالقصد هنا إعادة الارتباط مع الخلافة العباسية الذي قام به المرابطون.

[5] - يقصد توقّف توافد العنصر العربي من موطنه الأصلي.

وأنـت ـ أيّدك الله ـ ملـك المغـرب أبيـضِه وأسْـوَدِه، وسـيّد حمْيَـر، ومليكهـا الأكبـر، وأميرهـا وزعيمها[1]، ونزعتُ بهمّتـي إليك، واستنـصرتُ بـالله ثم بك، واستغثتُ بحَرمكم لتجوزوا لجهـاد هذا العدوّ الكـافر وتُحيوا شـريعة الإسـلام، وتـذبّوا عـن ديـن محمـد عليـه الصلاة والسّلام، ولكم بذلك عند الله الثّواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السّامية، ورحمة الله تعالى وبركاته[2]".

98 - رسالة استنجاد أخرى بالمرابطين من إنشاء ابن الجدّ وزير وكاتب المعتمد[3]

[479]

"إلى الملك المؤيّد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدّين، وزعيم المرابطين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، نوّر الله به الآفـاق، وجمـع بـه الجيـوش والرّفـاق؛ مـن الملك المفضّل بنعمـة الله، المستجير برحمـة الله، المعتمـد علـى الله، محمـد بـن عبّـاد؛ سلام على حضـرة تجرّدَ إيمانها، واشتهر أمانها.

أما بعدُ؛ فإنّ الله سبحانه أيّد دينه بالاتّفاق والائتلاف، وحرّم مسالك الشّتات ودواعي الاختلاف، وأنعم علـى عبـاده بـأمير جديد، و﴿قوم أولـي بـأس شـديد﴾[4]، وتطـوّل علينـا بمعلوم جدّك، ومشهور جدّك، وقد جعلك رحمـة يُحيي غيثُها ربوعَ الشّريعة، وخلقك سُلّماً إلى الخير وذريعة؛ وقد طرأ علـى الإسـلام حـادث أنسَى كلّ همّ، وهمّت النّكبـات بوقوعه وهمّ، وذلك عدوّ أطمعَه في البلاد شتاتٌ وبَيْن، واختلافٌ سببُه لم تُطرف لـه في الدّعة عَيْن، يَقوَى ونضعف، ويتّفق ونختلف، وننام مطمئنّين من آفـات الزّمـان، وتناسخ الأمـان، وقـد جاءنـا إبراقُـه وإرعـادُه، ووعـدُه وإيعـادُه، لنسلّم لـه المنـابر والصّوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصّلبان، ويستنيب بها الرّهبان؛ وممّا يُطمعه استمالته إيانا بالدّعة، وإملاؤه في الرّحب والسعة، استجراراً لما أبطنَه، وإهجاماً علينا وطنَه.

وقد وطّد الله لك مُلكاً شكر الله عليه جهادك، وقيامَك بحقه واجتهادك، ولك مِن نصر الله خيرُ باعث يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنّة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدّنيا فقطوف دانيـة، وجنّات عالية، وعيون آنية، وإن أردتَ الآخرة فجهاد لا يَفتُر، وجلادٌ يَحزّ الغلاصمَ ويَبتُر؛ هـذه الجنّـة ادّخرهـا الله لظـلال سـيوفكم، وإجمـال معـروفكم، نـستعين بـالله

---

[1] - يريد ابن عباد التذكير بأن أصل بني عباد الأول مـن حميـر اليمنيـة التـي ينتـسب إليهـا المرابطـون بـدعوى أنّ صنهاجة من حمير.

[2] - أصبح عبور المرابطين إلى الأندلس ممكناً بعد أن فتحوا سبتة، بعد حصارها برّاً وبحراً تساعد أسطولهم قطعة بحرية لابن عباد، وكان الفتح في صفر 476 (**حسب الذخيرة** ق2/ م2/662- 664)، غيـر أنّ صـاحب القرطـاس ذكر وقوع الفتح في ربيع الأول سـنة 477 (ص144).

[3] - وردت الرسالة في **الحلل** ص47- 48؛ انظر ترجمة الكاتب أبي القاسم محمد بن عبد الله المعروف بـابن الجدّ في **الذخيرة** 2/ 285- 322؛ **المغرب** 1/ 341- 342؛ **الذيل** 6/ 326 (بيروت 1973).

[4] - من الآية 16 من **سورة الفتح**

وملائكته وبكم على الكافرين، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين: ﴿قاتِلوهم يعذّبْهم الله بأيديكم ويُخزهم ويَنصرْكم عليهم ويَشفِ صدور قوم مومنين﴾[1].

والله يجمعنا على كلمة التّوحيد ننصرها، ونعمةِ الإسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدّث بها وننشرها؛ والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين وناصر الدّين، ورحمة الله وبركاته[2] ".

99 - إخبار من ابن عبّاد على جناح الحمام لابنه الرشيد في إشبيلية بالنصر في الزلاقة على القشتاليين[3] [12 رجب 479]

"إلى ابني الرشيد وفقه الله، اعلم أنّه التقت جموع المسلمين بالطاغية **أذفنش** اللعين، ففتح الله للمسلمين، وهَزم على أيديهم المشركين، والحمد لله ربّ العالمين؛ فأعلِم بذلك مَن قِبَلك من إخواننا المسلمين، والسلام".

100 - رسالة عن المعتمد حول هزيمة القشتاليين في الزلاقة[4] (13رجب 479)

"[يابنيّ، ومن أبقاه الله وسلمه، ووقاه الأسواء وعصمه، وأسبغ عليه آلاءه وأنعُمه][5]؛ كتبتُ[6] (صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب)[7]، وقد أعزّ الله الدّين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم (بفضله) على يدي مسعانا الفتح المبين، بما يسّر الله في أمسه

---

[1] - من الآية 14 من **سورة التوبة**

[2] - كان اشتراط ملوك الطوائف على يوسف ألاّ يتدخّل في شؤونهم الداخلية، وقد جاء في رسالة عنهم إليه "أمّا بعد، فإنّك إن أعرضت عنّا نُسبتَ إلى كرم ولم تُنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم نُنسَب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك، فإنّك بالمحلّ الذي لا يجب أن تُسبَق فيه إلى مكرمة، وإنّ في استبقائك ذوي البيوت ما شئتَ من دوام لأمرك وثبوت، والسلام" (**نفح** 4/ 355). أورد الرسالة محمد البركة في "الدولة المرابطية، أطروحة مرقونة بكلية الآداب، ظهر المهراز. فاس2001- 2002، الرسالة رقم 7). ولمّا علم ألفونسو باتصالات ملوك الطوائف بابن تاشفين تحرّك بقواته مخترقاً مملكة إشبيلية إلى بحر المضيق وأرسل رسالة استفزازية ليوسف بن تاشفين، انظرها في الملحق رقم 5 . وأجاب يوسف بن تاشفين على طلب ابن عباد وبقية الملوك بوضع الجزيرة الخضراء تحت تصرّفه لينظّم بنفسه عملية الجواز، فكان ما طلب، واستعدّ يوسف للجواز بقواته، وكانت المعركة الشهيرة بين المرابطين والأندلسيين من جهة والقشتاليين ومن معهم من جهة أخرى (من الإسبان والفرنسيين)، وكان النصر للمسلمين وذلك في رجب سنة 479، (انظر **الحلل** 50 وما بعدها، وضمنها جواب يوسف بن تاشفين الذي طلب فيه تسليم الجزيرة الخضراء له)

[3] - الرسالة في **الحلل** (63)؛ قارن مع الرسالة اللاحقة.

[4] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق2/ م1/ 241- 242 (وفيها أنها وصلت على الجناح إلى إشبيلية أي بواسطة الحمام الزاجل) ضمن الإنشاءات السلطانية لأبي بكر محمد بن سليمان بن القصيرة (المتوفى سنة 508)؛ كما وردت مع بعض الاختلاف في **الإحاطة** 2/ 114 (ضمن ترجمة المعتمد ابن عباد)؛ **وأعمال الأعلام** ق3/ 245 (الدر البيضاء 1964). توجد ترجمة الكاتب قبل نص الرسالة في **الذخيرة** ص239- 240 ؛ وفي **إعتاب الكتّاب** 222- 223؛ **والذيل** 6/ 227؛ **المغرب** 1/ 350- 351؛ وورد حديث الزّلاقة مفصلا في **الروض المعطار** 287- 292 (مادة: الزلاقة)؛ **ونفح الطيب** 4/ ص354- 372؛ **ودول الطوائف** 287 وما بعدها.

[5] - إضافة من الإحاطة

[6] - تبدأ من هنا الرسالة في **أعمال الأعلام**، وفيه بعض النقص والخلاف في الكلمات.

[7] - ما بين هلالين (...) ناقص في الإحاطة

وسنّاه، وقدّره سبحانه وقضاه، من هزيمة **إذفونش بن فرذلند**[1] - أصلاه الله، إن كان طاح، الجحيمَ، ولا أعدمَه، إن كان أمهل، العيشَ الذّميم[2]، كما قنّعه الخزي العظيم ــ وإتيان[3] القتل على أكابر رجاله وحُماته، وأخذِ[4] النّهب (في) سائر اليوم والليلة المتّصلة به (إلى) جميع محلاته، وحضور العدد الوافر بين يديَّ من رؤوسهم ولم يُحتزّ منها إلاّ ما قرب، وامتلاءِ الأيدي ممّا قُبض ونُهب[5]؛ (واتّخذ النّاس هاماتهم صوامع يؤذّنون عليها، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها؛ والتّتبّعُ بعدُ في آثارهم، وتمادي الطّلب من وراء فرارهم)؛ والذي لا مِرْيَة فيه أنّ النّاجي منهم قليل، والمفلتَ من (سيوف الهند بـ)سيوف الجوع[6] والبعد قتيل[7]؛

ولم يُصبني - بحمد الله[8] – إلاّ جرحٌ أشوَى[9]، وعنتٌ رغّب حسن المآل عندي وزكّى[10]؛ فلا يشتغلْ (لك) بذلك بال، ولا تتوهّمْ (فيه) غيرَ ما[11] أشرتُ إليه؛ [والإذفونش بن فرذلاند إن لم يصبح تحت السّيوف فسيموت لا محالة كمداً، وإن كان لم تعلقه أسراد الحمام فغداً، فإنّ برأسه طمرّة ولجام؛

فإذا ورد كتابي هذا فمُر بجمع الخاصّ والعامّ من أهل إشبيلية وجيرانها الأقربين، وأصفيائنا المحبّين، في المسجد الجامع - أعزّهم الله - وليُقرأ عليه فيه، ليأخذوا من المسرّة بأنصبائهم، ويضيفوا شكراً لله إلى صالح دعائهم]، والحمد لله على ما صنع حقّ حمده، وهو أهل المزيد الذي لا يُرجَى إلا من عنده[12]، [والسلام]".

101 - رسالة أخرى من ابن عباد بأرض الزلاقة إلى ابنه بإشبيلية مخبراً بالانتصار على القشتاليين[13] (20 رجب [479])

"كتابي هذا من المحلّة المنصورة يوم الجمعة الموفّي عشرين من رجب، وقد أعزّ الله الدّين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين، وهزم الكفرة والمشركين، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطّب الجسيم؛ فالحمد لله على ما يسّره وسنّاه من هذه المسرّة العظيمة، والنّعمة الجسيمة، في تشتيت شمل **الإذفونش** والاحتواء على جميع

---

[1]- جلس على عرش قشتالة بعد وفاة أخيه سانشو في سنة 465/ 1072.

[2] - في الإحاطة: لعنه الله وأصلاه، وإن كان طاح للجحيم، ولا أعدمه وإن كان أهل العيش الذميم.

[3] - في الإحاطة: وأتى

[4] - في الإحاطة: واتصل

[5] - في الإحاطة: محلاته، وجمع من رؤوسهم بين يديّ من مشهوري رجالهم ومذكوري أبطالهم، ولم يختر منهم إلاّ من شهر وقرب، وامتلأت الأيدي مما سلب ونهب.

[6] - في الإحاطة: والمفلت من سيوف الجزع

[7] - في الذخيرة: مقتول

[8] - في الإحاطة: بفضل الله

[9] - أشوى: أصاب الشّوى أي الأطراف؛ فقد علق صاحب الّذخيرة على كلمة " أشوى" بما يلي: "تواتر النّبأ أنّه جرحت يده في ضنك ذلك المأزق" (ص244)

[10] - في الإحاطة: وحسن الحال عندنا والله وزكى

[11] - في الإحاطة: غير الحال التي

[12] - جملة خاطئة في الإحاطة.

[13] - الرسالة من إنشاء ابن عبّاد نفسه كما وردت في **نفح الطيب** 4/ 369 ، ووردت بتعابير مغايرة في **الروض المعطار** 291- 292 وقد اعتمدنا في المتن نص نفح الطيب.

عساكره، أصلاه الله نكال الجحيم، ولا أعدمَه الوبال العظيم المُليم، بعد إتيان النّهب على محلاته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحماته، حتّى اتّخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذّنون عليها، فلله الحمد على جميل صنعه؛ ولم يصبني والحمد لله إلا **جراحات يسيرة** آلمت، لكنّها فرجت بعد ذلك، فلله الحمد والمنّة، والسلام".

102 - رسالة عن المعتمد إلى ولاته حول ظروف معركة الزلاقة[1]

(رجب 479)

"لمّا كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، سنّى الله أمراً يسّر أسبابَه، وفتح لنا إلى الفرج والفتوح بابَه، وعطف علينا القابل للتّوب، الغافر للذّنب، والتقينا مع الطّاغية الباغية الذي أجاب الموت داعيه، وأخزى التّوفيق مساعيه، بعد غدر أبداه، وجرى فيه مداه، وكان تواعُدُنا معه لنلتقيَ في سواه، فأتى والنّقض يجرّر ذيل مَخزاه، والغيب يشهد عليه بما أرداه، والغدر يُعلمنا أنّه طعمةُ مَن نواه، فاستبشرنا أنّه ابتدأ بالغدر الذي يرديه[2]، وتعجّلَ سلوك طريق لا تَهديه، وتحققنا أنّها مقدّمة فتح سبقت، ونواسمُ سعدٍ عبقت، والنّصر لا تخفى دلائله، واليمن لا تسُرُه غلائله، فتدارك إخواننا المسلمين بالنّصاف، وتصافحوا بالاعتراف والإنصاف، وجرّت البسائط ذيول الزّرَد، وشكرت الشّفار فعل الصّقيل الفرند؛ ولمّا احلولك ليلُ الحرب وأغطش، وغار ماء ثبجها فأعطش، طلع فجرُ السعادة فأنجح، ونادى من كتب السلامة: أصبح أصبح، وعن قريب طلعت شمسها تُشرق، وتُهلك الكافرين وتُحرق، ليس دونها حجاب يستر شعاعَها، ويحجب لِماعَها؛ ولمّا تسامتت الرؤوس، وأحدق الرئيس بالمرؤوس، ظللنا نرتّب الجماجم، وكأنّها من أعجب أحلام نائم؛ ولمّا صعد المؤذّنون أكواماً بنتها أيدي الأيْد من هاماتهم، وحصدتْها بواترُ قطعتها بلاماتهم[3]، أعلنوا بكلمة الإخلاص فوق آذان وعت، ما كانت عنه صمّتْ، وأدمغة أنزلها النّدم على ما كانت به همّت؛ وقرّت العيون، وانشرحت الصّدور، وأشرقت الأرض كلّها بهذا النّور؛ وهذا - وفقكم الله - فتح الفتوح، أنذر بين يدي نجواه بنصر يعجز عنه الحصر. وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين[4]، قضى الله

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي محمد عبد الله بن عبد البرّ (**الحلل** 64- 65)؛ انظر ترجمته في **القلائد** 538 ؛ **الذخيرة** 3/ م1/ 125 ؛ سبق ذكر مصارد أخرى لترجمته.

[2] - يقصد هنا نقض الاتفاق على تأجيل يوم المعركة إلى الاثنين فابتدأها النصارى مع فجر الجمعة قبله.

[3] - أي الدروع

[4]- اعتراف بما حصل من ضغط شديد في البداية على معسكر ملوك الطوائف (مع فرقة من الجيش المرابطي) الذي كان في طليعة المعسكر الإسلامي الذي يرأسه يوسف بن تاشفين، وتسبب هذا الضغط في فرار ملوك الطوائف عدا ابن عباد.

بالشّهادة فيها لمن اهتمّ بأمانيها[1]، ثمّ أنزل سكينته، فخطبت نصالُ المسلمين رقابَ الكافرين، فأنكحتها أبكارا صانتها حجالُ المغافر، وحجبتها ستور الطّوارق عن عيون البواتر، ولا مهرَ إلاّ ما نووْه من كرم نفوس جادت متطوّعة، ومشت إلى الخيرات مسرعة، فنفلهم الله أنفالهم، ووعدهم بالنّصر فأوْفى لهم.

فتلقّوا - رحمكم الله - هذه النّعم بالشّكر كما تلقينا، وقولوا الحمد لله ربّ العالمين على نعمٍ أصبحنا فيها وأمسينا؛ والله يصلها بالتأييد، ويُتبعها بالتّوفيق والتّسديد، والسلام".

103 - التخطيط لاسترجاع قورية وتحرك القشتاليين جنوباً إلى سهل الزلاقة حيث كانت هزيمتهم[2] (رجب 479)

"... وقد علم ما كنّا قبلُ مع عدوّ الله إذفونش بن فرذلند- قصمه الله - من تطأطؤنا واستعلائه، وتقامؤنا وانتخائه، وأنّا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدّة الامتحان به فناءً، إلى أن سنّى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين[3] وناصر الدّين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، معقلي الأحمى، - أيّده الله- ما سنّى، وأدنى من نأي دياره وشَحْطِ مَزاره ما أدنى، فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب، وأستفتح إلى ما كنت أتخيّل من نصره الأبواب، إلى أن ارتفعت الموانع قِبَله، وانتُهجت السُّبل القصيّة له[4]؛ ثم أجاز- على بركة الله وعونه- يَريش ويَبري، وصار بعدُ قُدُماً يَخلق ويَفري، ويتتبّع وجوه الحزامة كيفما اتّجهت ويستقري، وأنا أُنجده بوسعي، وأُسعده على حسب ما يُطيقه ذرْعي، إلى أن صرنا - معشرَ الحلفاء- **ببطلْيَوْس** - حرسها الله - واتّفق رأيُنا بعد تشاور على **قصد قوريّة**- حرسها الله[5]- وسمع العدوّ - لعنه الله- بذلك، فصمد في

---

[1]- عللت رسالة يوسف بن تاشفين إلى أمير إفريقية هلاك المرابطين في طليعة الجيش لجهلهم بقتال النّصارى واندفاعهم للشهادة، وهو يقصد خاصة من كانوا في الطليعة في معسكر ملوك الطوائف، (انظر الرسالة في الملحق).

[2] - الرسالة من إنشاء أبي بكر بن القصيرة عن المعتمد كما وردت في **الذخيرة** ق2/م 1/ 242- 244 ، وقد جعلها بعد الرسالة المرسلة على الجناح ثاني يوم المعركة "كتبت صبيحة يوم السبت.." قارن هذه الرسالة مع الرسالة الصادرة عن يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب عن أحوال المعركة (في الملحق)، وقد ورد فيها أنّ جيش النصارى بلغ 80 ألف فارس وأزيد من 200 الف راجل، كما ورد فيها فرار ملوك الطوائف من المعركة ولم يثبت فيها غير المعتمد بجيشه إلى جانب الجيش المرابطي (**روض القرطاس** ، ط الرباط 1973، ص 150- 151)؛ **دول الطوائف** 429- 430، (نقل عنان نص الرسالة من طبعة أوبسالة) . قارن الرسالة المذكورة أيضاً مع رسالة يوسف إلى أمير إفريقية (الملحق).

[3] - في هذا تأكيد على أن يوسف بن تاشفين كان يحمل لقب أمير المسلمين قبل الزلاقة.

[4] - يظهر أنه يقصد أمرين: حصول إجماع أمراء الطوائف على الاستنجاد بالمرابطين، ودعم ملك إشبيلية للمرابطين بإحدى قطعه البحرية لفتح سبتة التي كانت بيد سكّوت البرغواطي ثم ابنه العز، وما تبع ذلك من التنازل عن الجزيرة الخضراء لتكون مجالاً لعبور المرابطين.

[5] - من مدن ثغور مملكة بطليوس شمال نهر تاجه كان القشتاليون استولوا عليها، ويظهر أنّ الخطّة في بدايتها هي تحرير قورية والتوغل في أرض قشتالة، وهذا ما تؤكّده رسالة ابن تاشفين إلى المعز أمير

محتشده إليها في جيوش تملأ الفضاء، وتسدّ الهواء، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذُكاء[1]، قد تحصّنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم، واتّخذوا من السّلاح ما يزيد في جرأتهم وإقدامهم، ولمّا أشرف على جنابها، ولسنا بها، ودنا من أعلامها، ولم يتّجه لنا بعدُ ما أردنا من إلمامها، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحمله نفجُه وتهوُّرُه على السّلوك في مدرج سيولنا...[2]

فدنونا إليه بمحلاّتنا - نصرها الله- ثمّ اضطربناها بإزائه، وأظللنا عليه براياتنا حتّى كِدنا نركزها بفنائه، ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه، فأجمع مضطرّاً على اللّقاء، وقدّم بعض أخبيته دَهِشاً في الرّقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء، وقد تيقّن أنّه إن أخذ المسلمون مصاقهم، ورتّبوا في مواقعهم كواقّهم، اصطلم عن آخره جمْعُه، واجتُثَّ أصله وفرعُه، فاهتبل فيما قدّر غِرّة، وحمل ولم يكن - بحمد الله- ما استشعره مرّة، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة بالظّهور والوفور، فتواقف قليلاً الجمعان، وتَجاولَ مليّاً الفريقان، وللسّيوف حكمُها، ومن الحتوف حدّها المفهوم ورسمُها؛ ثم صدَق أمير المسلمين وناصر الدّين- أيّده الله - الحملة، وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداء الله أن ولّوا الأدبار، واستصرخوا الفرار، واتّبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله - بقيّة اليوم والليلة، تقتلهم في كلّ غور ونجد، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالئ ونقد[3]، ولم يخلص منهم على أيدي المتّبعين - آجرهم الله- إلاّ من سيلتهمه البُعد، ويأتي على حُشاشته الجُهد؛ وأمّا محلّتهم فانتُهبت في أول وهلة، وشُربت بأسرها في نَهلة...[4]

... ولم يُصَب بحمد الله من المسلمين - وقّرهم الله - على هول المقام وشدّة الاقتحام كثير، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلاّ عدد يسير[5]، فإن كان إذفونش - لعنه الله- لم يمت تحت السّيوف بدداً، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً[6]، ونحمد الله على ما يسّره من هذا الفتح الجليل وسنّاه، ومنحه من هذا الصّنع الجميل وأوْلاه...."

المهدية (انظر الملحق)، وعبارة (حرسها الله) غير مناسبة لكون المدينة في يد النصارى، والعبارة المناسبة هي (أعادها الله).

[1] - الذُكاء هي الشمس ، وفي هذا تعبير عن كثرة جيوش القشتاليين.

[2] - بعد هذا بتر في الرسالة بالذخيرة عوّض بعبارة : (وفي فصل منها)

[3] - القصد هنا من الكالئ : المؤجل، ومن النقد: المعجّل

[4] - بعد هذا بتر في الذخيرة وضع مكانه عبارة (وفي فصل منها)

[5] - ذكرت رسالة يوسف بن تاشفين فقدان نحو العشرين من أكابر رجال المرابطين وأنّ هلاك العنصر المرابطي في المعركة يرجع إلى الجهل بقتال النصارى، والاندفاع للاستشهاد (**دول الطوائف** ص428)

[6] - ذكر صاحب ابن بسّام استغلال الفونسو نزول الظلام للفرار ، ودخل طليطلة في شرذمة من أتباعه قليلة (**الذخيرة** ق1/2/ 246)

104 ـ رسالة عن المعتمد إلى المعتصم ابن صمادح صاحب ألـمرية حـول ضـم لورقـة إلى نـفوذه وحـصار لـيـيط[1] [481]

"... إنّما أشاركك ـ أيّدك الله ـ في النّعمة بأسْوَغِها، وأطالعك في الهمّة بأبلغها، لِما أعلمه علم اليقين، وأتوسّمه توسّم الصّبح المبين، أنّك بكريم عهدك وسليم وُدّك تأخذ من ذلك بالحظّ الأوفى، وتضرب في الارتياح له بالقدح المعلّى؛ وأنفذته من **حصن لييط**[2] ـ سهّل الله مرامَه، وأعاد إلى يد المسلمين زمامه ـ، وقد جرى بين فرسان من النّصارى وبين سرعان من الجند ـ نصرهم الله ـ عند إطلالي عليه تناوشٌ أطمعَ فيهم، ودلّ بأنّه قد سُقط في أيديهم؛ ثمّ صوبحوا يوم كذا بالحرب، وكوفحوا إلى آخرةٍ بالغرب، بالطّعن والضّرب، وانصرفوا ولاذوا بالانحجار، واحتجزوا بالجدران والأسوار، ولم يكن واحد منهم يثور إلاّ إلى حِمام، ولا يُبدي جارحة إلاّ إلى سهم رامٍ؛ وفي خلال ذلك ما أمرتُ بشِربهم فغُوِّرت منابعه، وقُطعت مشارعُه، وحصلوا منّا ومن العطش تحت محاربيْن: ظاهر وباطن، وعرضةً لمُجاوليْن: مستتر وعالن.

وغير ذاهب على أحدٍ ما تقتضيه هذه الحالُ المبهجةُ بما يخالفها على علوّ كعب الإسلام، وينصب على الشّرك وأهله من سوء الانتقام، بعد البلوغ من الشّكر لله تعالى إلى الغاية القصوى من اختصاص أمير المسلمين وناصر الدّين، **أبي يعقوب حليفنا** الأعزّ ـ أيّده الله ـ بقسم من الشّكر وافر، وحظٍّ من الثّناء والنشر[كذا] ظاهر؛ فإنّه الذي نهج بنفسه الكريمة ـ سنّاها الله ـ هذه السّبيل، وتجشّمَ فيها المَجاشمَ حتّى أذلّ من المشركين العزيز وأعزّ من المسلمين الذّليل، ثم لم يَشغله ـ دام تأييده ـ عن صلة أيدينا بعد ذلك أمرٌ[3]، ولا ثناه عن النّظر لنا عُذر....[4]

.... وكان نفوذي إليها من **لورقة** بعد أن تملكتُ قِصابَها، وتولجتُ على ما اقترحتُ أبوابَها؛ وكان تخلّي **سعد الدّولة أبي الأصبغ ابن لبون**[5] عنها على أفضل حال وأجمعها، بما شئت من إلطاف وإجمال: ياسَرَ وتَساهَل، وتقاصر

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي بكر بن القصيرة عن المعتمد كما وردت في **الذخيرة 2/** 1/ 262- 264، وكانت لورقة تحت نفوذ ابن عبّاد منذ أن مدّ نفوذه إلى مرسية سنة 471 او قبيل ذلك، ثم استبدّ عليه بمرسية ابن عمّار ثم ابن رشيق، إلى أن تمكّن من استرجاع لورقة سنة 481، وذلك بعد انصرافه من حصار لييط قبيل امتداد النفوذ المرابطي على المنطقة.

[2] - يرد اسم الحصن أحياناً على صيغة: أليط (Aledo)، وكان موقعه بين بسطة والمرية غرباً ومرسية شرقاً، ويبعد عن لورقةباثني عشر ميلاً، ووجوده بيد النصارى في هذا الموضع يهدّد الربط بين هذه الجهات الإسلامية (انظر **الحلة السيراء 2/** 175).

[3] - الإشارة هنا إلى عبور يوسف لخوض معركة الزلاقة ثم العبور الثاني لحصار حصن لييط

[4] - بتر في الذخيرة عوّض بعبارة (وفي فصل منها)؛ لم يصرّح المعتمد هنا بوجود يوسف بن تاشفين في الميدان إلاّ إذا كان ذلك في الجزء المبتور، وهذا ما تؤكّده الرسالة الجوابية الصادرة عن ابن صمادح اللاحقة.

[5] - أو ابن ليون، كان أمير لورقة بعد أخيه أبي سعيد، ثم صارت للمعتمد (**المغرب 2/** 275؛ **الحلة السيراء 2/** 167

حيث كان له أن يتطاول، رأياً أدرك منه على صغره، وقِصَر ما قطعه من مسافة عمره، ما يعجز عنه الكهلُ المجرّب، ويقصُر دونه الحُوَّلُ القُلّب[1]، وتأمّلتُ ذلك منه - أبقاه الله - حقّ التأمّل، ونظرتُ إليه بعين الملتفت المحصّل، فوفَّيتُه الجزاء، وسرتُ معه حسبما سار معي إلى ما شاء، فحصل لي من النّاحية ما لا يضاهي معقلاً وبسيطاً، وعاد الشّملُ محوطاً، والأمر مبسوطاً، والعاجز الكاسل حازماً نشيطاً، ورجع الضّيق بها سعة، والهرْج بحمد الله دعة..."

105 - جواب ابن صمادح صاحب ألمرية على رسالة المعتمد خلال أو بعد حصار حصن ليبط[2] [481]

"... إلى مخاطبتك - أيدك الله- تسكن النّفس، وبمطالعتك يتمكّن الأُنس، فما تزال - والله يُعلي كعبك، ويجعل الأيّام واللّيالي أنصارك وحزبك-، تُطلع من الاهتبال، في وفق الإجمال، ما يبدو ويتبيّن مع البُكَر والآصال، لا أعدمَك الله معلوَّةً تُبديها، ومنقبةً تُنافِس هممَ الكرام فيها.

وورد كتابك مفتتحاً بما كان من صنعه تعالى الكفيل، وبلائه الجميل، ومنّه المتتابع الموصول، في احتلالك **بليبط** - يسّره الله، وأحلّ الهلاك بمن احتواه-، وما كان من ذلك التّناوش الذي أبدى مَخايل الاعتلاء، وأذن بالمَلك والاستيلاء؛ ولا شكّ أنّ مَن سعى لله وحده، ولم يرد الظّفر والظّهور إلاّ بما عنده، أنّ حزبه منصور، وآماله موصولٌ بها التّسهيلُ والتّيسير؛ والحمد لله تعالى على ما منح متعيِّن، وموضعُ الضّراعة إليه في الازدياد ظاهرٌ بيّن، على ما أولى من نعم أظهرت الإسلامَ بعد خمول، والشّكرُ له على قِسَمٍ أعزّت الدّين وقد كان جدّ ذليل.

وتوجّه على ما ذكرتَ شكرُ أمير المسلمين وناصر الدّين أبي يعقوب حليفنا الأعزّ- أيّده الله- على **ما أجرى إليه بدءًا من الخفوف بنفسه النّفيسة**[3] - نسأها الله - وما اعتمده عَوداً من الاهتبال الذي توخّاه، فهو الذي نهج هذه السّبيل، وبرّد اللوعة والغليل، وأعاد الحزب اللعين بعد عزّته الحقيرَ الذّليلَ.

ورأيتُ - أراك الله مُناك- أنّ حركتك الميمونة كانت إلى هناك من **لورقة** بعد أن تملكتَ قصابَها، وتولّجتَ على اختيارك أبوابَها، على الصّورة التي

---

[1] - هل يلمّح المعتمد هنا إلى أنه ينتظر من ابن صمادح أن يفعل نفس فعل صاحب لورقة بتنازله له عن إمارته؟

[2] - الرسالة من إنشاء كاتبه ابن الوكيل كما ردت في **الذخيرة** بعد الرسالة السابقة ص 264- 265 . توجد ترجمة ابن الوكيل في **إعتاب الكتّاب** 224 إن كان هو أبا بكر عيسى بن الوكيل اليابري الذي اشتغل في ميدان الكتابة بغرناطة أيام المرابطين (هامش **الذخيرة**)؛ قارن مع أبي بكر عيسى بن وكيل المترجم له في **المغرب** 2/ 235- 236

[3] - يظهر أنّ الإشارة الصريحة بوجود يوسف بن تاشفين في مجال ليبط هي في الفقرة المبتورة من رسالة المعتمد.

وصفتّها، من متابعة أهلها، وانطياع مَن فيها، نعمة يعلم الله تعالى أنّ نصيبي منها النّصيبُ الأوفر، وذنوبي منها الذّنوب الأكبر، وكلّ نعمة أناخت بجانبك، وحطّت رَحْلها ببابك، فإنّي فيها الخليط المساهم، والمشارك المُقاسم، على ما يقتضيه الإخاء، ويستدعيه الانتظام والصّفاء..."

106 - رسالة عن عماد الدولة ابن هود إلى علي بن يوسف المرابطي مذكّراً بعهد المسالمة بين أبويهما[1] [503]

تقديم:

بعدما تبيّن للمرابطين عجز ملوك الطوائف عن حماية الأندلس وإمكانية فقدان ثمار معركة الزلاقة خاصة بعد أن أخذ بعضهم يتعاون من جديد مع النصارى ضد بعضهم البعض عجّل يوسف بن تاشفين بخلعهم الواحد بعد الآخر كما سبق الذكر، وكان أهمّ الملوك الكبار المعجّل بخلعهم عبد الله بن بلكّين أمير غرناطة وأخوه صاحب مالقة سنة 483 ثم ابن عبّاد صاحب إشبيلية سنة 484، ثم المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس سنة 488 . وتأخّرت بلنسية بسبب استيلاء القائد النصراني المدعو الكمبيطور عليها من سنة 488 إلى سنة 495 [2] حيث تغلب عليه المرابطون. وفي هذه السنة دخلوا أيضاً **إمارة ألبونت** الجبلية الواقعة غرب منطقة بلنسية، وكان آخر أمرائها هو رابعهم جناح الدولة عبد الله بن محمد (440 - 495)[3]. وفي سنة 497 سقطت بيد المرابطين **إمارة السهلة** (شنتمرية الشرق أو شنتمرية بني رزين) الجبلية الواقعة غرب إقليم طرطوشة في عهد ثالث أمراء بني رزين يحيى حسام الدولة (496 - 497)، وكان جدّه هذيل بن عبد الملك (403 - 436) وأبوه عبد الملك بن هذيل (436 - 496) من أشهر أمراء الطوائف وأطولهم حكماً. ولم يتقدّم المرابطون آنذاك لفتح مملكة سرقسطة لكونها التزمت بحماية الثغور الشمالية الشرقية من جهتها، أي تأمين حدود المرابطين من هجمات الأركونيين والكطلانيين إضافة إلى حماية ثغور سرقسطة، وكان نفوذها يمتدّ من وادي الحجارة ومدينة سالم غرباً[4] إلى البحر شرقاً، ويشمل الثغور الشمالية:

---

[1] - ذكر صاحب **الحلل** (ص98- 99) أنّ أهل دولة الأمير علي أشاروا عليه بطلب ملك بني هود لكونهم مسالمين للروم، فوجّه إليه الأمير أبا بكر بن تيفلويت بعسكر من المرابطين، فكتب ابن هود كتاباً بعثه إلى الأمير علي بمراكش من فصوله: "وقد كان المستعين بالله خاطب اباك..." وكان المكتوب عنه آخر بني هود وهو عماد الدولة عبد الملك بن المستعين بالله الذي تولّى الإمارة بعد أبيه المستعين (478- 501)، وكان جواب الأمير علي إصدار الأمر لقائده بالكفّ عن ابن هود فأجابه بأنّ الرعية أدخلته مدينة سرقسطة (503). فكانت هذه آخر إمارة من إمارات الطوائف – قبل ميورقة - تدخل تحت نفوذ المرابطين، غير أنّ سرقسطة سقطت بيد النصارى وبشكل نهائي سنة 512 في الوقت الذي بدأ الضعف يدبّ إلى الجيش المرابطي.

[2] - انظر **الذخيرة** ق3/م1/ 92 وما بعدها.

[3] - انظر المغرب 2/ 395- 398

[4] - كذا في الحلل الموشية ص 73- 74، ويظهر أنّ المقصود عهد قوة المملكة، أما في هذه الفترة فقد فقدت كثيراً من الثغور الغربية.

تطيلة، دروقة، وشقة، بربشتر، لاردة، إفراغة، إضافة على كبرى المدن سرقسطة... ومما خاطب به المستعين الثاني ابن هود أمير المرابطين يوسف بن تاشفين : "**نحن بينكم وبين العدوّ سدّ لا يصل إليكم منه ضرر ومنّا عين تطرَف، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منّا بها**..."[1]. غير أن وفاة أميرها المستعين سنة 501 [2] أطمعت النصارى في إمارته، ولم يعد ابنه **عماد الدولة** قادراً على مواجهة ضغوطهم المتزايدة، وكانت الفترة حماسية في أوربا بعد الاندفاع الصليبي الأول نحو المشرق، فاشتدّ الضغط على المسلمين أيضاً في الأندلس، وانهزم عماد الدولة أمامهم[3]، فاستدعى أهل سرقسطة الجيش المرابطي لدخول المدينة قبل أن تقع في يد النصارى، فدخلها في ذي القعدة من سنة 503. وكان أمير سرقسطة عماد الدولة بعث إلي الأمير علي بن يوسف برسالة يذكره فيها بما وقع بين أبويهما من التزام، فأمر الأمير عليّ قائده بفكّ الحصار عن سرقسطة، لكن قبل وصول هذا الأمر إليه كان أهل المدينة فتحوا أبوابها للجيش المرابطي، وبذلك انتهت آخر إمارة من إمارات الطوائف.

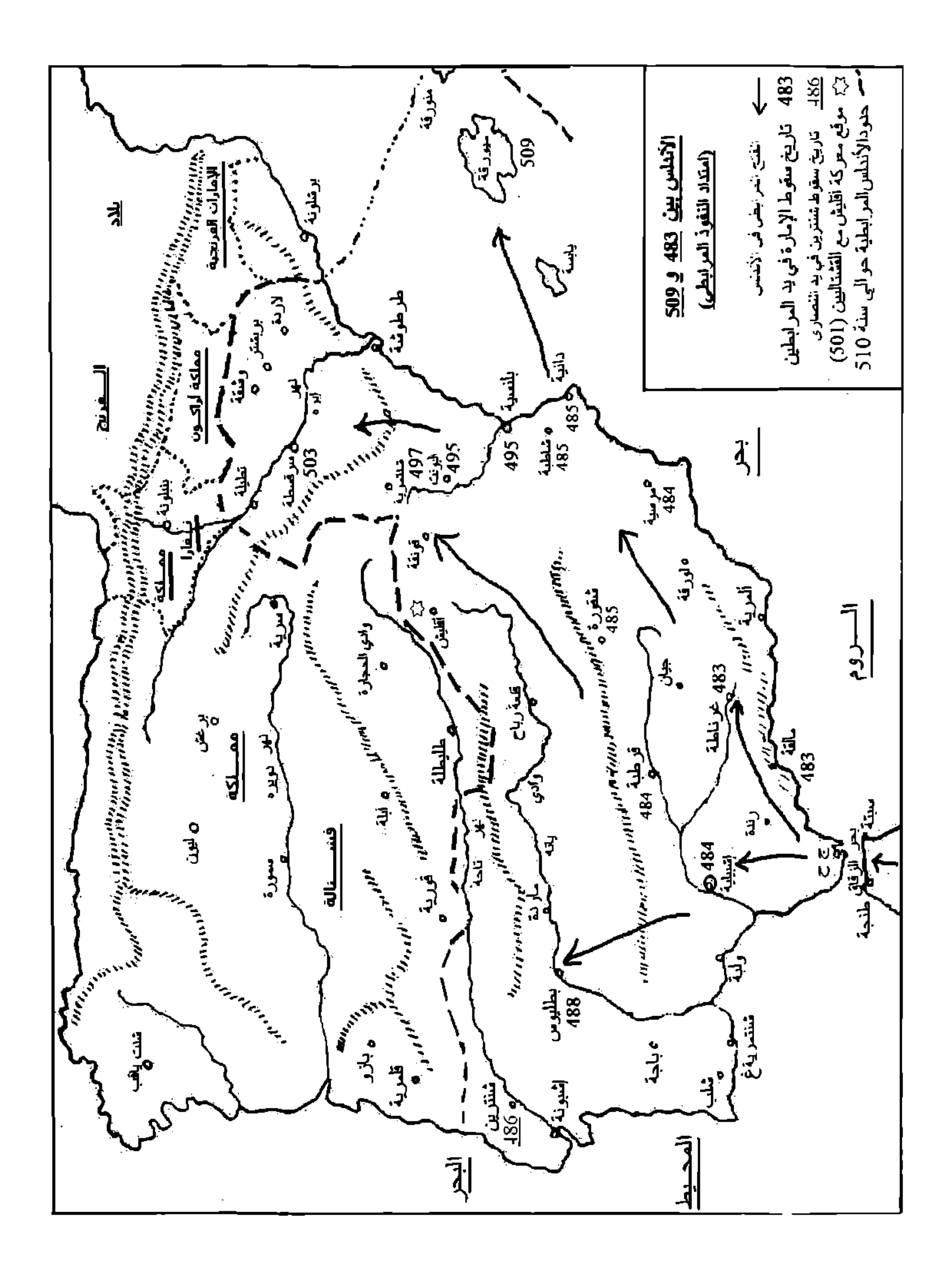
وهذا نص رسالة عماد الدولة ابن هود إلى عليّ بن يوسف كما وردت ضمن أحداث سنة 503 في الحلل الموشية:

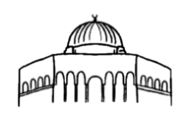
نص الرسالة[4]

"... وقد كان **المستعين** بالله خاطب أباك أمير المسلمين **يوسف** بن تاشفين رحمة الله عليه يسأله الدّعة، ويرغب في الهدوّ، والاستعانة على العدوّ، فأقام وأقمنا معه مُريحين، ومن تعب النّفاق فرحين، فنعمنا بنور الهداية السّاطع الإشراق، واغتنمنا الدّعة والأمن في هذه الآفاق؛ ثمّ دهمَنا من جهتكم داهم أبدى صفحته، ونسيم - بل عاصف- أهدى إلينا نفحته، ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا إليكم، فيتحكّم فينا الإذلال، ويتمكّن في محالّنا الاستنقاص بالحقوق والاختلال، ولم تتقدّم منّا إليكم إساءة جهرت عليكم بالقول، ولا أشارت ولا أخلّت بجنابكم ولا عدَت ولا أضرّت، بل نُفيض عليكم استمالتنا، ونستعطفكم في كلّ حال بمقالتنا؛ وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أمير المسلمين إسوة حسنة، وأيّامٌ كانت بيننا وبينه مستحسَنة، فإن يكن الله أراد أمراً أنفذه في خَلقه، فلا رادّ لمشيئته، ولا حائد عن بليّته، وسيعلم مُبرم هذا الرأي عندكم سوء مغبّته، وعظيم هينته في الفساد ورتبته؛ والله حسيبُ مَن بغى، وابتدأ بالتّضريب بيننا وابتغى، وحسبُنا الله وكفى، والسّلام".

---

[1] - **الحلل** الموشية 74 ؛ ورد الجواب على هذه الرسالة في **أعمال الأعلام** 2/ 173 – 174.
[2] - أعمال الأعلام 2/ 174 (مات شهيداً في معركة مع النصارى انهزم فيها في أول رجب)
[3] - يذكر ابن سعيد استعانته بالنّصارى لمواجهة ضغط المرابطين (**المغرب** 438/2)
[4] - **الحلل** ص 98- 99


الأندلس بين 483 و 509
(امتداد النفوذ المرابطي)
تاريخ سقوط الإمارة في يد المرابطين
تاريخ سقوط شنترين في يد النصارى
موقع معركة أقليش مع القشتاليين (501)
حدود الأندلس المرابطية حوالي سنة 510
بحر الروم
البحر المحيط
بلاد الفرنج
مملكة أراغون
الإمارات الفرنجية
مملكة قشتالة
مملكة ليون
برشلونة
طرطوشة
بلنسية
دانية
مرسية
لورقة
المرية
غرناطة
مالقة
قرطبة
إشبيلية
بطليوس
شنترين
أشبونة
طليطلة
سرقسطة
وشقة
لاردة
شنتمرية
قونقة
أقليش
قلعة رباح
شقورة
جيان
باجة
شلب
شنتمرية
ولبة
ميورقة
منورقة
يابسة
سبتة
طنجة
ليون
سمورة
قورية
ماردة
483
484
485
486
488
495
497
503
509





ملـحق

(خصصنا الملحق للرسائل التي توصّل بها ملوك الطوائف، ولبعض الرسائل المتكاملة معها، مع مراعاة ترتيب الجميع ترتيباً زمنياً في إطار مواضيعها)

الصنف الأول
رسائل في الانتصارات والتهاني وما يتعلّق بها

1 - رسالة عن بعض أمراء الثغور إلى قوم من النصارى في تحذيرهم من نقض السلم، والتهديد بقرب الحركة إليهم[1] [.....]

"أيّتها الشّرذمة الطّاغية، إنّكم لنا لغائظون، وإنّكم لتفسدون في الأرض ولا تُصلحون، ناشدتمونا الله في عقد السّلم أن تكفّوا عن المسلمين عادية الأذى والاستطالة، فحملتموهم ضغثاً على إبّالة، وانتسفتم النّعم، وهتكتم الحُرَم، وبيّتم سكون الدّهماء، واستبيتم الحرائر في ربَق الإماء، وتوغّلتم البسيطات، وتسنّمتم القلاع الممتنعات، ولم ترقبوا فينا إلاّ ولا ذمّة، ولا رعَيتم لنا سلفاً ولا حرمة، وليس إلاّ حُكم الله بيننا وبينكم، وهو بعزّته يُحيق دائرة السَّوء بكم، ويستأصل شأفتكم، ويصرف معرّتكم؛ وإنّا لنرجو أنّها علّة قد نضجت، وكأنْ بالكربة عنّا تفرّجت، فلتستشعِروا حلول النّقمة بكم، وإناختها عليكم، وتخطُّفَ المنايا لكم، وقطْعَها لدابركم؛ وإنّ الذي بينكم وبين الهلكة لأقصرُ من إبهام الحبارى[2]، في يوم تُرَوْن فيه سَكارَى وما أنتم بسكارى، ولكنْ عذابُ الله الواقع، وسخطُه الّذي ما لكم عنه دافع، ولسنا نحاكمكم إلى غير المهنّد، ولا نماطلكم ذلك إلى الغد[3]، فإنّ الله لكم بالمرصاد، ولن يتولّى كِبَركم إلاّ أقلُّ الأعداد، من أنجاد الأجناد، فتصبحوا كأنْ لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وتصيروا إلى جهنّم وساءت مصيراً، والسلام على من اتّبع الهدى، وخشِيَ عواقب الرّدى".

2 - تهنئة من إنشاء الفتح ابن خاقان لأمير بما فُتح عليه[4] [... - 461؟][5]

"أدام الله تعالى أيام الأمير للأرض يتملكها، ويستدير بسعده فلكها، وقد استبشر المُلك - أيدك الله- وحُقَّ له الاستبشار، فقد أومأ إليه السّعد وأشار، بما اتّفق له من توليتك، وخفق عليه من ألويتك، فلقد حُبِيَ منك بمُلك أمضى من السّهم المسدّد، طويل نجاد السيف رحب المقلّد، يتقدّم حيث يتأخّر الذّابل، ويتكرّم إذا بخل الوابل،

---

[1] - الرسالة من إنشاء الكاتب أبي جعفر بن أحمد [بدانية] من أدباء عصر الطوائف، كتب عن أحد أمراء الثغور [ربما الثغر الأعلى] إلى قوم من النصارى يحذّرهم من الغدر ويوعد بقرب الحركة إليهم، وردت في: **الذخيرة 3/2/766 - 767**)؛ انظر ترجمة الكاتب في ص 757- 758 من هذا المصدر.

[2] - مثل عربي، ومثله: أقصر من إبهام قطاة ومن إبهام الضّب (هامش الذخيرة)

[3] - في المتن: وقد؛ والتعديل من الهامش

[4] - الرسالة من إنشاء الفتح بن خاقان كما وردت في **نفح الطيب** 1/ 679

[5] - من المحتمل أن يكون الأمير المشار إليه هو المعتضد بن عبّاد، مهنّأً بفتح، دون تحديد أي فتح يقصد، فقد فتح عدة جهات ومدن ...

ويحمي الحمى كربيعة بن مكدّم، ويسقي الظُّبا نجيعاً كلون العندَم؛ فهنيئاً للأندلس فقد استردّت عهد خلفائها، واستجدّت رسوم تلك الإمامة بعد عفائها، فكأنْ لم تمت أعاصرُها، ولم يمت حَكَمُها ولا ناصرُها[1]، اللّذان عمّرا الرصافة والزهراء ونكحا عقائل الرّوم وما بذلا غير المشرفية مهرا؛ والله سبحانه أسأله إظهار أيّامك، وبه أرجو انتشار أعلامك، حتّى يكون عصرك أجمل من عصرهم، ونصرُك أغربَ من نصرهم، بمنّه وكرمه ويُمنه".

3- تهنئة من إنشاء ابن حيّان إلى ابن عبّاد بانتصاره على ابن ذي النّون[2] [463]

"... لو أنّ فتحاً اعتلى عن تهنئة ممنوحة بارتفاع قدر أو جلالة صنع، أو فرطِ انتقام مستأصل، أو تنزّلِ حكم من الرحمن فاصل، لكان فتحُه هذا لك، على عدوّ أسود الكبد، مُظاهر البغي على الحسد، طال واللهِ ما استحييته لا من خجل، وتنكبته لا عن وهل، فأبى له رأيه الفائل وجدّه الغائر، وحيْنُه المجلوب، وحزبه المكبوب، إلا اكتساب العار، ومماتنة محصَدِ الأقدار، فجمع الجيش ذا الألوف، وتجشّم الشقّة العَنوف، ثم لا يرزأ العدوَّ الغائظ له إلا **التسلطَ على ضعفاء رعيّته بإفساده لأقواتهم**، ونيلِه من دماء المحاويج منهم، إلى التقاط سقاط سنبلهم؛ فكم نال فُسّاقُه الذين أرسلهم عليهم من دمِ أرملة غرثى، ويتيمة كفرخ الحبارى، إلى من أصيب فوقهم من عابر سبيل وضارب لمعيشة، مؤيِّمُ نسوة، وموتِمُ صبية، أضحوا طعم ذئاب...[3]

حتّى ابتعثك امتعاضك تحت صدق العزيمة ومَهَل الرويّة، وصواب التّدبير، وتقدّم الاستخارة، مستظهراً منهنّ بعدّة ضربت عليه بالأسداد، وباعدته عن السّداد؛ وابتعثك تعالى للسّموّ إليه لمّا **دنا منك قبل اكتمالك في الاحتشاد**، وانتهائك في الإعداد، ويسّرك لرميه بأهزع الكنانة، ومظنّة النجابة، وطليعة السّعادة، **الحاجب سراج الدّولة**[4] سيّد العرب أنعم الله به عليك في من حضرك من خاصّة الغلمان، لله درّهم من حماة حقائق، ومدركي أوتار، ورحَضَة عار، اهتدوا بقمرهم السّاري، وليثهم العادي، وحاميهم الواقي **العبّادي**، مقتفياً أثرك في محمود مواقفك، طرَفَ الله عيون حسدتِك فيه، ومتّعك بما منحك من يمن طائره وسعده اللّذيْن بهما انقضّ على عدوّك انقضاض الكوكب السّاري، فخسف به وبجمعه، أحفلَ ما كان في عديده، وأوثق ما هو بجنوده؛

---

[1] - الإشارة إلى الخليفتين عبد الرحمن الناصر (300- 360) وابنه الحكم المستنصر (350- 364).
[2] - وردت الرسالة في **الذخيرة** 1/ م2/578- 580
[3] - بتر في الذخيرة عوض بعبارة (وفي فصل منها)
[4] - هو عباد بن المعتمد الملقب بالظافر وبسراج الدّولة الذي منع قرطبة من السقوط في يد جيش ابن ذي النّون سنة 463، وألحقها بإشبيلية بعد القضاء على بني جهور، ثم تمكن ابن عكاشة قائد جيش ابن ذي النون من اقتحام قرطبة وقتل واليها سراج الدولة المظفر عباد وألحق قرطبة بطليطلة حتى وفاة ابن ذي النون سنة 467 ، فأعاد المعتمد قرطبة إلى نفوذه وجعل عليها ابنه المأمون.

فطواه طيّ الرّداء، وغلّ أيدي كُماته عن إعمال القنا وأرغى فوقهم سقْبَ السّماء، فاقتسمتْهم أيدي الحتوف بين حَرّ الحديد وبَرد الماء، أولى لهم فأولى[1] ؛ قبل الله معذرة المستكرَهين منهم، وقارض سواهم بطاعتهم لظلوم فرّ عنهم فرار الظّليم، وأسلمَ بائياً بالعار قدماً تحاماه ذوو النّهى، ورأوا أنّ الموت منه أحجى، ولم يقرنوا بمعذرة الحارث بن هشام ما الفرار منه أحرى...."

4 ـ رسالة من ملك قشتالة إلى ابن عباد يدعوه لتسليم ما بيده من البلاد [2]

[478]

"من الأنبيطور[3] ذي الملتين، الملك المفضّل، أذفنش [بن فرذلند] بن شانجه[4]، إلى المعتمد بالله سدّد الله آراءه، وبصّره مقاصد الرّشاد، سلام عليك، من مشيد مُلكٍ شرّفته القنى، ونبتت في رَبعه المنى، فاعتزّ اعتزاز[5] الرّمح بعامله، والسيفِ بساعد حامله.

وقد أبصرتم ما نزل **بطليطلة** وأقطارها، وما صار بأهلها حين حصارها[6]، فأسلمتم إخوانكم[7]، وعطّلتم بالدّعة زمانكم، والحَذِرُ من أيْقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا عهدٌ سلفَ بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهضُ العزم ورائدُه، ووصل رسول الغزو ووارِدُه، لكنّ الإنذار، يقطع الأعذار[8]، ولا يعجّل إلاّ من يخاف الفوت فيما يرومه، أو يخشى[9] الغلبة على ما يسومه؛ وقد حمّلنا الرسالة إليكم [القومط][10] ألبر هانس[11] ، وعنده من التّسديد الذي يلقى به أمثالك[12]، والعقل **الذي يدبّر به بلادك ورجالك**، ممّا أوجبَ استنابته فيما يَدِقّ ويَجِلّ، وفيما يُصلح لا فيما يُخلّ؛ وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنّظرُ بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك".

---

[1]- اقتباس من الآيتين 24- 35 من **سورة القـــيامة** "أولى لك فأولى، ثمّ أولى لك فأولى"

[2] - ود ت الرسالة في **الحلل الموشية**، ط الدار البيضاء1979، ص 38- 39، ونقلها عنان من ط دوزي عن مخطوطات باريس وليدن وكَاينكَوس- مدريد (**دول الطوائف** 75- 76)؛ وقدّم مؤلف الحلل للرسالة هكذا "وكان الطاغية إذفنش في سنة 478 قد غلب على طليطلة وأعمالها... فطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلها... وخاطب المعتمد على الله أبا القاسم^كذا^ بن عبّاد يطلب منه تسليم أعماله إلى رسله وعمّاله، واشتطّ عليه في الطّلب... فمما خاطبه به: "من الكنبيطور...." والمخاطب هو محمد المعتمد بن عباد المعتضد ابن أبي القاسم محمد بن إسماعيل ...ابن عبّاد ، وأبو القاسم هذا هو جدّ المعتمد ومؤسس الإمارة.

[3] - في ط تونس: من الكمبيطور

[4] - في الأصل: إذفنش بن شانجه؛ والصواب ما أثبتناه.

[5] - كذا في ط البيضاء؛ وعند عنان : المنى باغترار.

[6] - عند عنان: وقد أبصرتم بطليطلة نزال أقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها.

[7] - جاء في جواب ابن عباد "وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجَبَ القعود عن نصرتهم [أي المسلمين]"، فيكون ابن عباد بهذا يتحمّل مسؤولية كبرى في سقوط طليطلة.

[8] - عندعنان: لكن الأقدار تقطع بالأعذار

[9] - عند عنان: خاف.... وخشي

[10] - في الطبعة المعتمدة وعند عنان: القرمط ؛ والصواب ما أثبتناه

[11] - Conde Alver Hans ......

[12] - عند عنان: الذي تلقى بأمثالك

5 - رسالة استفزاز من الفونسو القشتالي إلى يوسف بن تاشفين[1]

[478 - 479]

"من أمير الملّتين أذفونش[2] بن فردلند، إلى الأمير يوسف بن تاشفين.

أمّا بعد[3]؛ فلا خفاءَ على ذي عينين أنّك أمير (المسلمين، بل)[4] الملّة المسلمة، كما أنـا أمير الملّة النّصرانية، ولم يخفَ عليكم ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال الرّعيّة، والإخلاد إلى الرّاحة، وأنا أسومهم [سوء][5] الخسف، فأخرب[6] الدّيار، وأهتك الأستار، وأقتل الشّبّان، وآسر[7] الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم[8] إن أمكنتك قدرة[9]؛ هذا وأنتم تعتقدون أنّ الله تبارك وتعالى فرض على كلّ (واحد) منكم قتال عشرة منّا، [ثمّ خفف عنكم فجعل على كل واحد منكم قتال اثنين منّا]، وأنّ قتلاكم في الجنّة وقتلانا في النّار؛ ونحن نعتقد أنّ الله أظفرنا[10] بكم، وأعاننا عليكم، إذ لا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً؛ وبلغنا عنك أنّك في الاحتفال، على نيّة الإقبال، فلا أدري أكان الجبن يبطئ بك، أم التكذيب بما أنزل إليك؛ فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليّ ما عندك من المراكب لأجوز إليك، وأناجزك[11] في أحبّ البقاع (إليك)، فإن غلبتني فتلك غنيمة جاءت[12] إليك، ونعمة مثلت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا، واستكملت الإمارة، والله يُتِمّ الإرادة..."[13]

---

[1] - نص الرسالة في **الإحاطة** 4/ 351؛ ورد أيضاً في **الحلل الموشية** 42- 43، جاء فيه: وصل رسول أذفنش ومعه اليهودي ابن شالب لقبض مال الجزية على عادتهم في كل سنة، ونزلوا خارج إشبيلية، فوجّه إليهم المعتمد المال المعلوم مع بعض أشياخ إشبيلية... فقال لهم اليهودي: والله لا آخذ منه هذا العيار، ولا آخذه إلاّ مشحّراً [أي خالصاً]، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلاّ أجفان البلاد... وأساء الأدب، وبلغ المعتمد خبره، فدعا بعبيده وبعض جنوده وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب... فخرج إذفنش في جيش لا يحصى كثرة...قاصداً حصن طريف فوقف على شاطئ بحر الزقاق وخاطب الأمير يوسف بن تاشفين بما نصّه: "من أمير الملّتين..." (**الحلل** ص41- 43)

[2] - في الحلل: إذفنش (بن شانجة) بن فرانده، وإضافة (ابن شانجة) غير مناسبة.

[3] - أورد ابن الخطيب رسالة ألفونسو مختصرة كما يلي: "من أمير النصرانية إذفونش بن فرذلند إلى يوسف بن تاشفين؛ أمّا بعد، فإنّك اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي، وقد أذللتهم بأخذ الجزية منهم، وبالقتل والأسر، والذّلّ والقهر، وأنا لا أقنع إلاّ بأخذ البلاد؛ وقد وجب عليك نصرهم لأنّهم أهل ملّتك، فإمّا أن تجوز إليّ، وإمّا أن ترسل إليّ المراكب أجوز إليك، فإن غلبتني كان مُلك الأندلس والمغرب إليك، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك إيّاهم، فإنّ نفوسهم متعلّقة بنصرتك لهم" (**أعمال الأعلام**، (ق3) المنشور تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط**، ط. الدار البيضاء 1964، ص 239)

[4] - ما بين هلالين (....) زائد في الحلل

[5] - ما بين معقفين [....] ناقص في الحلل

[6] - كذا في الحلل؛ وفي الأحاطة: وأضرب

[7] - في الإحاطة: وأسبي

[8] - في الإحاطة: نصرتهم

[9] - في الحلل: فرصة

[10] - في الإحاطة : أظهرنا

[11] - في الحلل: وأقاتلك

[12] في الحلل: جلبت

[13] - أورد صاحب الحلل جواب يوسف بن تاشفين على ظهر رسالة ألفونسو على صيغة: جوابك يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله، وأردف الكتاب ببيت أبي الطّيّب المتنبّي:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا == ولا رسل إلا الخميس العرمرم

قارن مع **أعمال الأعلام** 3/ 239.

6 ـ رسالة من أبي عبيد البكري إلى المعتمد ابن عبّاد مهنّئاً بالانتصار في الزلاّقة[1]

[479]

"أطال الله بقاء سيّدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي الغُرّ، والنّعم الزُّهْر، وهنّأ ما مُنِحَه من فتح ونصر، واعتلاء وقَهْر؛ بطالع السّعد يا مولاي أُبْتَ وبسانح اليمن عُدتَ، وبكنف الحرز عُذتَ، وفي سبيل الظّفر سرت، وبقدم البرّ سعَيت، وبجنّة العصمة أتيتَ، وبسهم السّداد رميتَ فأصمَيت؛ صدرٌ عن أكرم المقاصد، وأشرفِ المَشاهد، وعَودٌ بأجلِّ ما ناله عائد، وآبَ به وارد، فتوحٌ أضحكت مبسَمَ الدّهر، وسفرت عن صفحة البشر، وردّت ماضيَ العمر، وأكبّت واريَ الكفر، وهزّت أعطاف الأيّام طرباً، وسقت أقداح السّرور نخْباً، وثنت آمال الشّرك كذباً، وطوت أحشاء **الطاغية** رهباً، فذِكرُها زادُ الرّاكب، وراحة اللاغب، ومتعة الحاضر، ونقلة المسافر.

بها تُنفَض الأحلاس في كلّ منزل == وتُعقَد أطرافُ الحبال وتُطلَق

شملت النّعمة، وجبرت الأمّة، وجلت الغمّة، وشفت الملّة، وبردت الغلّة، وكشفت العلّة.

كان داءَ الإشراك سيفُك واشتـ == ـدّت شكاة الهدى وكان طبيباً

فغدا الدّين جديداً، والإسلامُ سعيداً، والزّمان حميداً، وعمودُ الدّين قائماً، وكتابُ الله حاكماً، ودعوة الإيمان منصورة، وعينُ المُلك قريرة؛ فهنّأ الله مولانا وهنّأنا هذه المِنحَ البهيّةَ مَطالعُها، الشّهيّةَ مواقعُها، المشهورةَ آثارُها، المأثورةَ أخبارُها، ونصر الله أعلامه ففي البرّ تُحَلّ وتُعقد، وعضّد حسامَه فبالقسط يُسَلّ ويُغمَد، وأيّد مذاهبه فبالتحزّم تُسْدَى وتُلحَم، وأمدّ كتائبَه ففي الله تُسرَج وتُلجَم؛ فكم فادح خطْبٍ كفاه، وظلامِ كَرْبٍ جلاه، وميتِ حقٍّ أحياه، وحيٍّ باطلٍ أرداه، وكم جاحمِ ضلالةٍ أطفأ ناره، وناجمِ فتنة قلّم أظفاره، ومغلولِ أسنّةٍ أرهف شفاره، ومستباح حرمة حمى ذماره.

فلله هذه المساعي الكريمة، والمَنازع القويمة، المتبلّجة عن ميمون النّقيبة ومحمود العزيمة، فقد تمثّل بها العهدَ الأول والقرن الأفضل الذي أُخرج للنّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي سطع هذا السّراج، وانتهج هذا المنهاج؛ فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتصل لديه، إدالةً من مُشاقيه، وإذالة لمحاربيه، وإبادة لمناوئيه؛ وإنّ أجلّ هذه النّعم في الصّدور، وأحقّها بالشّكر الموفور، ما منّ الله به من سلامة مولاي التي هي جامعة لعزّ الدّين، وصلاح كافّة المسلمين، بعد أن صُلي من الحرب نيرانَها، فكان أثبت أركانها، وأصبر أقرانها:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف == كأنّك في جفن الرّدى وهو نائمُ

تمرّ بك الأبطال كلمَى هزيمةً == ووجهك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

---

[1] - الرسالة من إنشاء أبي عبيد البكري عن نفسه كما وردت في **الذخيرة** ق2/م1/ 235-237 ؛ ترجمته في ص 232 وما بعدها قبل نص الرسالة؛ و ترجم له أيضاً ابن الأبار في **الحلة السيراء** 2/ 180- 187 (رقم 139)

فلله الحمد والإبداع والإلهام، وله المنّة وعلينا متابعة الشّكر والدّوام، وفازت الكفّ الكليم، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم، وإنّها لهي التّالية للأصبع الدّامية، في المنزلة العالية؛
بصُرتَ بالرّاحة العُليا فلم ترها == تُنالُ إلاّ على جسر من التّعبِ"

7 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى أهل المغرب عن انتصار الزلاقة[1]

[رجب 479]

"... أمّا بعدَ حمدِ الله تعالى المتكفّل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاةِ والسّلام على سيّدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإنّ العدوّ الطاغية - لعنه الله - لمّا قربنا من حماه، وتواقفنا بإزائه، بلّغناه[2] الدّعوة وخيّرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتّفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الاثنين الخامس عشر[3] لرجب، وقال: الجمعة عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن؛ فافترقنا[4] على ذلك، وأضمر اللّعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنّهم أهل خُدع ونقض عهود؛ **فأخذنا أهبة الحرب لهم**، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحَر يوم الجمعة الثاني عشر[5] من رجب المذكور بأنّ العدوّ قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنّه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين؛ فانتُدبت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين، فتعشّته قبل أن يتعشّاها، وتغذّته قبل أن يتغذّاها، وانقضّت جيوش المسلمين على جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته.

وقصدنا براياتنا السعيدة المنصورة، في سائر المشاهد المشهورة، في جيوش لمتونة نحو ألفنش، فلمّا أبصر النّصارى راياتنا المشتهرة، ونظروا إلى مراكبنا[6] المنتظمة المظفّرة، وغشيتهم بُروق الصِّفاح، وأظلّتهم سحائب الرّماح، وزلزلت حوافرَ خيولهم رعودُ الطّبول بذلك الفياح، التحم النّصارى بطاغيتهم ألفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكّرة، فتلقّاهم المرابطون بنيّة صادقة خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب، ووكفت دِيَمُ السّيوف والرّماح بالطّعن والضّرب، وطاحت المُهج، وأقبل سيلُ الدّماء في هَوَج، ونزل من سماء الله على أوليائه النّصر العزيز والفرج؛ وولّى ألفنش مطعوناً في أحد ركبتيه طعنة أفقدته أحد

---

[1] - وردت الرسالة في **روض القرطاس**، ط الرباط 1973 (ص 150- 151) وفي طبعة أوبسالة (96- 98)، وقد اعتمد عنان على هذه الأخيرة في نقل الرسالة في كتابه: **دول الطوائف** ص429- 430، وبين الطبعتين بعض الاختلاف نشير إليه في حينه، معتمدين على ما نقله عنان.

[2] - كذا في أوبسالة؛ وفي طبعة الرباط: لقّناه

[3] - في طبعة الرباط: الرابع عشر، على أنّ المعركة جرت يوم 11 رجب، والقرائن تتفق على كون الجمعة هو يوم 12 رجب، فاعتمدنا طبعة أوبسالة.

[4] - في ط الرباط: فتفرّقنا

[5] - في ط الرباط: الحادي عشر

[6]- كذا في ط الرباط؛ وفي ط أوبسالة: مواكبنا

ساقيه، في خمسمائة فارس من مائة وثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل، قادهم الله إلى المَصارع والحتف العاجل، وتخلص - لعنه الله - إلى جبل هنالك، ونظر النّهب والنّيران في محلّته من كلّ جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزراً، ويحيد[1] عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً[2] ولا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثّبور والويل، ويرجو النّجاة في ظلام الليل؛ وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفّرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة، منصور الجهاد، مرفوع الأعداد، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤل والمراد، وقد سرّح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتستلم ذخائرها وأسبابها، وتُريه رأي العين دمارها ونهابَها، وألفنش ينظر إليها نظر المغشيّ عليه، ويعضّ غيظاً وأسفاً على أنامل كفّيْه.

وحين تمّت الهزيمة وتتابع الفرار، عاد رؤساء الأندلس المنهزمون نحو بطليوس والغار[3]، وتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غيرُ زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد ابن عبّاد، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيضُ الجناح، مريضُ عناء وجراح، فهنّأه بالفتح الجميل، والصّنع الجليل؛ وتسلل ألفنش تحت الظّلام، فارّاً لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطّريق أربعُمائة، فلم يدخل **طليطلة** إلا في مائة فارس؛ والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النّعمة العظيمة، والمنّة الجسيمة، يوم الجمعة الثاني عشر[4] لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة موافق الثالث والعشرين لشهر أكتوبر العجمي".

8 - رسالة عن يوسف بن تاشفين إلى تميم بن المعزّ أمير المهدية عن انتصار المسلمين في الزلاقة[5] [579]

"... الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام، وفضّلنا بمحمّد عليه السّلام، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلائه، والسبوغ من سرّ الله ونعمائه.

كان من قضائه جلّ شأوه وتقدّست[6] أسماؤه لمّا أراد قمع المردَة الطّغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب[7]، سبّب لنا إليهم المطلب، فقفونا آثارهم، وأخلينا منهم

---

1 - في ط الرباط: لم يجد

2 - كذا في ط أوبساله؛ وفي ط الرباط: شزراً، لم يجد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفاعاً..

3 - هل هو نفسه موضع الكرمات الوارد في الرسالة السابقة ؟

4 - كذا في ط أوبساله؛ وفي ط الرباط: الحادي عشر

5 - وردت الرسالة في **مخطوط الأسكوريال رقم 488** (فهرس الغزيري) الورقة 49أ- 53ب (نقلاً عن عنان في: **دول الطوائف** ص 424- 428، ولم يذكر منشئ الرسالة؛ ويمكن مقارنتها بالرسالة السابقة عن يوسف إلى أهل المغرب (رقم 7 ملحق)

6 - عند عنان: وتقدمت أسماؤه؛ وهي غير مناسبة.

7 - يقصد ممالك الطوائف التي وزعت – مع برغواطة- بلاد المغرب من نفيس إلى تلمسان، وبالقضاء عليها أعاد ابن تاشفين وحدة البلاد حتى نهر شلف أي إلى حدود بلاد صنهاجة شرقاً.

ديارهم، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين، فقوّمنا الدّين، ومهّدنا [بلاد][1] المسلمين، فصفت لنا ضمائرهم، وخلُصت إلى الله تعالى نياتُهم وسرائرهم، حتّى وصلنا طنجة الرّكاب، وأذقنا برغواطة[2] سوم العذاب، ففتح الله لنا وبها وهو خير الفاتحين، وأسرعُ الحاسبين، لا إله غيره وهو أرحم الراحمين.

ولمّا بلغَنا من استحواذ النّصارى - دمّرهم الله - على بلاد الأندلس ومعاقلها، وإلزامِ الجزية لرؤسائهم، واستئصال أقالمها[كذا]، وإيطائِهم البلاد داراً داراً، لا يتخوّفون عسكراً يخرج إليهم، فيبدّد جمعهم، ويَفلّ حدّهم، وهم مع ذلك كله يقتلون الشّيب والشّبّان، ويأسرون النّساء والصبيان؛ فخوطِبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرّة بعد المرّة، وألوَتْنا الأعذار إلى وقت الأقدار، ولم نجد للجواز باباً، ولا لدخول البحر أسباباً[3]، فانضمّ لنا منهم الرئيس الأجلّ المعتمد على الله، المولى بنصر الله - أحسن الله في كلّ الأمور عونه، وأقرّ بكلّ صالحة عينَه-، فعزمنا على الغزو، وجوّزنا للعدوّ أسوداً ضارية، وسباعاً عادية، شيباً وشبّاناً، بسواعد قويّة، وقلوب في سبيل الله نقيّة، قد عرفوا الحرب وجرّبوها، فهي [أمّهم][4] وهم بنوها، يتلمّظون تلمّظ الفهود، ويزءرون إليها زأر الأسود؛ فشحنّا بهم القوارب، وأوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى **الجزيرة الخضراء** من دياره - وفّقه الله -، ففزع النّاس من كلّ أفق إليهم، ووفدوا من كلّ قطر إليهم، متعجّبين من هيأتهم، محتقرين لزيّهم ونغماتهم، لا يروعهم منهم حاشا الخيل والدّرق، وهم مع ذلك لا يُنالون إلا بعد جفّ الرّيق ومسح العرق، وقدّروا أنّهم طعم للسيوف، وغرض للحتوف، وسعد للأرماح، ونهب للسّلاح، فكلٌّ استصغرهم، والجميع منهم احتقرهم، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم، وتنتهي إلينا أفعالهم[5]؛ ثمّ أتبعناهم جشاً بعد جيش بخيول كالفحول، عليها الكهول، وعدد من كلّ أمرد، على أجرد، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحَين والقضاء؛ ومع هذا كله إنّ أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا، وإزاحة غمّتهم بسببنا، وعساكرُنا تتزيّد، وجوازنا يتأكّد، وكان آخر من جاز منّا ومعنا قطعة من **صنهاجة بني عمّي**، فعسُر البحر حينئذ للجواز، واضطربت فيه الأمواج، فاستصرخنا الباري تعالى جدّه، وعظُم اسمه، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهّل علينا، فما استكملت من كلامي حتّى سهّل الله المركب، وقرّب المطلب، فخرجنا

---

[1] - عند عنان: ومهّدنا بها المسلمين؛ وهي صيغة غير مناسبة

[2] - يقصد إنهاء إمارة سبتة وطنجة التي كانت في يد سكوت البرغواطي ثم ابنه العز.

[3] - الإشارة إلى سيطرة سكّوت البرغواطي على سبتة وطنجة، وبعد فتح طنجة قام الأسطول المرابطي مع قطعة لابن عباد بحصار سبتة من البحر والجيش المرابطي الرئيسي من البرّ فأمكن فتحها، وبذلك فتح باب العبور إلى الأندلس.

[4] - عند عنان: المهم؛ ويظهر أنّ الصواب ما أثبتناه.

[5] - ربما كان الاحتقار من نظرة الأندلسي لكل من هو مغربي، ولكون المغاربة لا يملكون عتاداً للقتال في مستوى عتاد النصارى.

من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة، والتأم شعبتنا مع مَن جاز من عسكرنا، فعملنا على السّير؛ وكان قد تقدّم إلينا بالعدوة من قِبَل **الأذفونش** أمير النّصارى رسالة **يخاطبنا فيها بالجواز إلينا** إذا عجزنا عنه وفرقنا منه، نعطوه المراكب، ونسلّموا[كذا] إليه الشّواني والقوارب، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا[1]، فلم نلتفت إليه ولا عرّجنا عليه.

ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجلّ **المعتمد على الله** المؤيّد بنصر الله، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق، وبنينا معه على اللّحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك كلّه لِما نُقل إلينا وورد علينا من **رؤساء الأندلس** مستبطنين سريرة المخبتين، لابسين قلنسوة[2] الصالحين، وقلوبنا شتّى، حتّى لحقنا إشبيلية حضرته- عمُرت ببقائه- وقد تجمّع له من جنوده أعداد، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد، فصرنا إلى مدينة بطليوس، وأقمنا بها أيّاماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس، فأُخبرْنا وصحّ عندنا أنّ كلّ واحد منشغل مع قطعة كثيرة من النّصارى قد تغلبوهم على حصونهم، وأذلّوهم في بلادهم، وأضعفوهم، وشجّعوهم على مرادهم[3]؛ فحمدنا الله تعالى ودعوْنا بتيسير المراد، واستنقاذ العباد، فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين - صرفها الله[4]- فسمع بنا، وقصد قصْدَنا، وورد ورودَنا، واحتلّ بفنائها منتظراً لنا، فبعثنا إليه نحضّه على الإسلام، ودخوله في ملّة محمد عليه السّلام، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبيّن لنا في كتابه من إعطاء الجزية ﴿عن يد وهم صاغرون﴾[5]، فأبى وتمرّد، وكفر ونخر، وعمل على الإقبال علينا وحثّ في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ.

فلمّا كان بعد ذلك برزنا عليه أيّاماً، فلم يُجبنا[6]، فبقينا وبقوا ونحن نُخرج الطّلائع إليه ونتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، فلمّا كان يوم الجمعة ثانيه ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق[7]، وتقلّبت تقلّب الحتوف للأحداق، قد [استلأموا][8] الدّروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، وبطونهم ملأى من الخمور، يقدّرون أنّ الدائرة علينا تدور، ونحن في

---

[1] - وردت الرسالة في **الحلل الموشية** 42- 43

[2] - عند عنان: قسوة

[3] - كذا عند عنان؛ ويظهر أنّ صوابها: ومنعوهم من مرادهم

[4] - كذا، والقصد أن يصرفها إلى المسلمين كما كانت قبل، وهو دعاء غير معتاد

[5] - من الآية 29 من **سورة التوبة**

[6] - يظهر أنّ تأخّر ألفونسو في الردّ سريعاً على هذه المناوشات هو محاولة معرفة طريقة قتال المغاربة الذين لم يصطدم معهم قبل هذا.

[7] - ورد عند المقّري أن ألفونسو قسم جيشه قسمين "برز بالمختار من جنوده... وترك بقية جموعه خلفه" (**نفح** 4/ 363)، ولا ندري ما إذا كانت مؤخرته مختفية عن أنظار المسلمين أو مرئية، كما هو حال جيش المسلمين، حيث اختفى القسم الرئيسي عن أنظار النصارى، لكن ألم ينقل الجواسيس خبر هذه الخطّة لدى الطرفين؟

[8] - عند عنان: قد استلموا

أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كلٌّ منّا ساهٍ، وجميعنا لاهٍ[1]؛ فقصد أشدُّهم شوكة، وأصلبُهم عوداً، وأنجدهم عديداً، محلّة المعتمد على الله المؤيّد بنصر الله، - وفّقه الله - عمادِ رؤساء الأندلس وقطبهم لا يقدّرون عسكراً إلاّ عسكره، ولا رجالاً إلاّ رجاله، ولا عديداً إلاّ عديده[2]، وداود من أصحابنا منّا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً كهبوط السّيل، بسوابق الخيل؛ فلمّا كان معه من جنده ومن جميع الطّبقات الذين كانوا يدّخرون قِبَله الأموال والضّياع، استكّت آذانهم، واضطربت أضلاعهم، ودهشت أيديهم، وزُلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فرّوا يطلبون معقلاً يعصمهم، ولا عاصم إلاّ الله، ولا هارب[3] منه إلاّ إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرمات، لِما عاينوا من الأمور المعضلات، وأسلموه - أيّده الله- وحده في طرف الأخبية مع عدد كثير من الرّجالة والرّماة، قد استسلموا للقضاء[4]، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرائس، يعظّمون الكنائس، فحبسهم حيناً وحده مع مَن إليه ممّن ذكرناه، وبسطوا منه الأرض، ولم يبق من الكلّ إلاّ البعض، ولجأ في الأخبية، بعد أن عاين المنيّة، وتخلصه الله بنيّته في المسلمين وبلغه [الأمنية][5]، بعد أن وقف وقفة بطل مثلِه، لا أحدَ يردّ عليه، ولا فارسَ من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يَروعه أحد منهم فيُهزَم، ولا يهابهم فيَسأم؛ ثمّ قصدت كتيبته[6] سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم عسكرَ داود وأخبيته، فجالوا فيها جولاناً، وقتلوا من الخلق ألواناً، واستشهد الكلّ بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله[7].

ونحن في ذلك كلّه غافلون[8] حتّى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من وراء الشّعب، كقطع اللّهب، بجميع من معنا، على الخيل المسوّمة العِراب، يتسابقن الطّعن والضّراب؛ فلمّا رأونا ووقعت أعينهم علينا، ظنّوا أنّ الدّائرة فينا ولدينا، وأنّا طُعم أسيافهم، ولقاءُ رماحهم، فكبّرنا وكبّر الكلّ معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذي لا بدّ منه، ولا محيص لأحد عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدّنيا،

---

[1] - اعتراف بإهمال الحذر من مباغتة النصارى، وإذا كان هذا من طرف المغاربة الذين لم يعرفوا خدع قتال النصارى فكيف يعلّل هذا بالنسبة للأندلسيين؟ ما ورد في **الروض المعطار** أن جواسيس المعتمد ليلة المعركة أخبروه بعزم النصارى على القتال فأرسل كاتبه أبا بكر بن القصيرة لإخبار يوسف بن تاشفين بالأمر (ص290).

[2] - هذا تأكيد على صحة الرواية التي تذكر اختفاء معسكر يوسف بن تاشفين عن أنظار العدو.

[3] - عند عنان: ولا هارباً

[4] - هذا يعني كشف جناحه المكوّن من الأندلسيين، ولم يبق إلا الجناح المكوّن من المرابطين وبهذا كشف قلب معسكر ابن عباد.

[5] - عند عنان: أمنيته؛ وهي غير مناسبة للسجع

[6] - الضمير يعود على الأذفونش

[7] - علّلت الرسالة هذا باندفاع المرابطين للشهادة وجهلهم بحرب النصارى.

[8] - هل هذا ينفي ما تورده بعض الروايات من كون المعسكر الإسلامي كان على يقظة واستعداد للقتال، أم هو تبرير لإبطاء يوسف في التحرك لإنقاذ معسكر ابن عباد؛ هل كان يوسف ينتظر مقتل ابن عبّاد ممّا قد يجعل إمارته تدخل تحت طاعته طواعية بعد المعركة؟ يظهر أنّه لم تكن هناك ثقة بين الطّرفين، فقد ذكر أمير غرناطة أن المعتمد كان غرضه ضرب النصارى بالمرابطين وضرب المرابطين بالنّصارى؛ وكان تدخّل يوسف في الوقت المناسب لكسب المعركة.

فلنموتوا[كذا] شهداء؛ فحملوا علينا كالسّهام، فثبّت الله أقدامنا، وقوّى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى وليّ النّصر لنا، فولوا هاربين، وفرّوا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه، ولا ضربة تثخنه، وأضعف الرّعب أيديهم، فطعنّاهم بالسّمهرية دون الوخز بالإبر، و﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت﴾[1]، حتّى إنّ هاربهم لا يرى غير شيء إلا ظنّه رجلاً، وفتكت فيهم السّيوف، على رغم الأنوف، فوالله لقد كانت تقع على الدّروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزرقوا[2] الرجّالة منّا على خيلهم الرّماح، فشكوهم بها[3] فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكلّ يجرّ عنانه، كأنّه مُعقّل بعقاله؛

ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربيّ المصون، السّابق اللاحق، المُعَدّ للحقائق، وما منّا إلاّ مَن له جرناز فيه سيفان وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث مِن حادث؛ فصاروا في الأرض مجدّلين، موتى معفّرين؛ وقد تراجع النّاس بعد الفرار[4]، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلونـ[ها] بإزاء المحلاّت، حتّى علت كالجبال الرّاسيات، عدد لا يقدّر، ومدد لايحزر، والتّجريد فيهم، والأيدي متعاودة[كذا] لبطونهم؛ واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربّك بغافل عمّا يعمل الظّالمون[5]؛ وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقلّ - والإذفونش فيهم على ما أُخبرنا- قد أُثخِنوا جراحاً بإزاء محلاّتهم، يرتاد الظّلام للهروب في المقام؛ ووالله لقد كان الفرسان والرّجّالة يدخلون محلّتهم ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم، وهم ينظرون شزراً نظر التّيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جنّ اللّيل وأرخى سدوله، ولّوا هاربين، وأسلموا رحائلهم صاغرين، فكم من دِلاص[6] على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة؛ ولقد ارتبط كلّ فارس منّا الخمسة الأفراس أو أزيد، وأمّا البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأمّا الثّياب والمتاع فناهيك، والأسرّة بأوطية الحرير، والثّياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكلّون في الانتقال، ولا يسأمون من تشريط الأموال؛ ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أمّ قشعم[7]؛

فصحّحنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نيّاتنا وسرائرنا، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين، لم يستشهد منّا إلا الفرقة التي قدّر الله عليها بذلك[8]، وقدّرنا أنّ الكلّ

---

[1] - من الآية 119 من **سورة التوبة**؛ وعند عنان " وضاقت الأرض بهم" ، والتصحيح من المصحف الشريف.
[2] - أي ضربوهم بالمزاريق وهي رماح قصيرة.
[3] - أي ضربوهم بها
[4] - يقصد من فرّوا نحو بطليوس من الأندلسيين.
[5] - اقتباس من الآية 44 من **سورة إبراهيم** " ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظّالمون"
[6] - الدلاص: الدرع الملساء
[7] - أمّ قشعم: الحرب
[8] - هي فرقة داود بن عاشة التي كانت في المقدمة مع الأندلسيين.

منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى، وتراميهم للشّهادة، قدّس الله أرواحهم، وكرّم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنّة ميعاداً بيننا وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شُهدت نجدته في المغرب، وانقلب خير منقلب، ولحقنا إشبيلية حضرتَه - عمُرت ببقائه- وأقمنا عنده أيّاماً ورفعنا عنه مودّعين لا توديع قاطع، ولا يمنعنا منه متى أحبّ مانع، ولحقنا الجزيرة الخضراء[1]، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها[2]، وأن يسهّل المراد، ويوفّقنا للسّداد؛ ومتى تنفّس منهم متنفّس، أو رجع إلى أحدهم نفَس، يذكرون ما لقُوا، ويتذاكرون ما بقُوا، و﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي له إنّ كيدي متين﴾[3]، حتّى لا يبقى على أديم الأرض منهم حيّ، ولا يحسّ منهم إنسي، والحمد لله ربّ العالمين على ما قضى، وخوّل وأعطى، وهذا كلّه منّاً منه علينا لا منّاً منّا عليه، وصلّى الله على محمد خاتم النبيّين، وقائد الغرّ المحجّلين، إلى جنّات الله النّعيم، وآله الطّيّبين، وسلّم تسليماً، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته".

9 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي عبد الملك ابن عبد العزيز عن دخول المرابطين بلنسية[4] (15 رمضان495)

"كتبت منتصف الشهر المبارك، وقد وافى بدخول بلنسية- جبرها الله- الفتح، بعدما خامرها القبح، فأضرم أكثرها ناراً، وتركها آية للسائلين واعتباراً، وتغشّاها سواداً، كما لبست عليه حداداً، فهي تنظر من طرْف خفيّ، وتتنفّس عن قلب يقلّب على جمر ذكيّ، غير أنّه بقي لها جسمُها الأنعم، وتُربُها الأكرم، الذي هو المسكُ الأذفر، والذّهب الأحمر، وحدائقها الغُلب، ونهرها العذب؛ وبسعد أمير المسلمين وناصر الدّين، وإقباله عليها ينجلي عنها ظلامها، ويعود عليها حَلْيُها ونظامُها، وتروح في الحلل، وتبرز كالشّمس في بيت الحمَل؛ فالحمد لله مالكِ المُلك، مطهّرها من الشّرك، وفي عودتها إلى الإسلام عزٌّ وعزاء، عمّا نفذ به قدر وقضاء".

---

[1] - يظهر أنه بعث هذه الرسالة من الجزيرة الخضراء.

[2] - هل هي نيّة يوسف تجاه ملوك الطوائف لإقصائهم؟ لاحظ الاية الكريمة لاحقاً "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون..."

[3] - من الآية 182 من **سورة الأعــــراف** "والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون"

[4] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق3/م1/ 101- 103، بعد تفصيل الحادث الذي طرأ على بلنسية باستيلاء الكمبيطور عليها من ص92 - 101؛ ويبدو أنّ المكتوب إليه هو أخو رئيس بلنسية السابق عبد الملك بن عبد العزيز.

10 - رسالة للكاتب أبي الفضل جعفر بن محمد ابن شرف في فتح بلنسية من طرف المرابطين[1] [495]

"مَن ذكَر - أعزّك الله - عهدَك الكريم والتزامَه، وأبصر مجدك العميم وانتظامه، ووضع نفسه حيث وضعها ماضي الذمام، وأنزلها منك حيث أنزلتها تلك الأيام الكرام، وعلم أنّ ربطك مبرَم الشّدّ، وضبْطك محكَمُ العَقد، وإن وافاك أكبر من رضوى[2] جسداً، وأكثرُ من حُزوَى عدداً، تخطّى بقدم العهد، وتحظّى بقِدم الودّ، حتّى زار الصفائح بالصّحائف، وباشر الكتائبَ بالكتب اللطائف، وحيّاك بلسان الأقلام، تحت لسان الأعلام، حين أشرق وجهُ الدّين فأسفر، وزهق حزبُ الملحدين فنفر، وأقبل الفتح في لمّة التأييد، يرفل في ثوب النّصر الجديد، وجاء الوعد النّاجز، **ببلنسية** تجذبها أعنّة الأقدار، وتسوقها أحكام الجبّار، فالآن قد نُشر الميْت من لحده، وعاد الحسام إلى غِمده؛ فسبحان مَن سبّب ما سبّب، وأدّب بالموعظة من أدّب، محّص الذلّة فأزالها، وقدّر العثرة فأقالها، وأعاد نعمة كان قد أذهب خضراءها وأباد غضراءها، وفتح باباً سدّ رتاجه، وصدّ منهاجه، حتّى خرّ شامخُه، وذلّ باذخُه، ثمّ نشر ميْته، ونجّد بيته، فهبّت ريح النّصر، ومدّ بحر الظّفر بعد الحسر؛ فقلْ - أعزّك الله - في فتح عمّ الله ببهجته قلوب المومنين، وخصّ بالفضل فيه **أمير المسلمين** وناصر الدّين، ووفى به ضمانه، وأرجحَ بفخره وأجره ميزانَه، حتّى اقتدح بحسامه، ووسم بأعلامه، وورَّخ بسعيد أيّامه، دعا مانعه فأجاب، وجلّى عاتمَه فانجاب، فتحٌ سالت تلاعُه بماء النّعمة، وجالت سَوامُه في ضمان العصمة...[3]

ومن زكاة الجاه التي هي من الفروض، وأداء المفروض، مشاركةُ موصلِه جارنا القديم، وصديقِنا الحميم، له هناك أطلالٌ رسمُها داثر، وجدُّها عاثر، يرجو تجديد خرابها، وتعميرَ يبابها، وإليك إسنادُه، وعليك اعتماده، ومن كان منك بعين فقد أوى إلى ركن، واعتصم بحصن، فلك الفضل في تصديق أراجيه، وإظهار جميل الرأي فيه..."

---

[1]- الرسالة من إنشاء الأديب الكاتب أبي الفضل جعفر بن محمد ابن شرف كما وردت **الذخيرة** ق3/م2/ 868 - 869. انظر عن ترجمة ابن شرف في الذخيرة قبل الرسالة أعلاه؛ وفي **القلائد** 252؛ و**بغية الملتمس** رقم 610؛ **والمغرب 2/** 230.

[2] - جبل ضخم من جبال تهامة؛ وحزوى : موضع في ديار بني تميم (**الروض المعطار** 269- 270؛ 195 على التوالي)

[3] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

الصنف الثاني:

رسائل لابن عبد البر النمري وابن طاهر أمير مرسية (سابقاً) عن علاقاتهما بابن أبي عامر أمير بلنسية والسلطة المرابطية

11 - تهنئة من الكاتب ابن عبد البرّ النّمري إلى أمير بلنسية بتعيين ابنه وليّاً للعهد[1] [.....]

"**أحوال الدّنيا** - أعزك الله - مبنية على التداول والتعاقب، ومساءاتها ومسرّاتها جارية مجرى التبادل والتقارب، فمن عبرة تفضي إلى عبرة، ومن مساءة تُعقَب بمسرّة، ومن محنة تفترّ عن منحة، ومن تَرحة تُقلع عن فرحة، ولله تعالى في جميع الأحوال المختلفة والأقدار المتصرّفة حقوق من الصّبر على السّرّاء والضّرّاء، وعلى الأولياء المختصّين فروضٌ من المشاركة والمظاهَرة في كلّ ما ناب من حَزَن، وثاب من حسَن، قد جرت بها العوائد، واستوى فيها الغائب والشّاهد، فتلك تُرعَى بالدّعاء والتهنئة، وهذه تُتلقّى بالإطراء والتعزية؛ والله يجعل أيام مسرّاتك الأكثر إسعاداً، وأوقات تهنئاتك الأوفرَ أعداداً.

وأُنهيَ إليّ من تقليدك العهد وإمضائك العقد **للنّاصر**[2] سيدي وأسنى عددي- أبقاه الله- على بلنسية - عمّرها الله- عمّرها الله بدوام عزّك، وحماها باتّصال نصرك- مكانَ المعتصم[3] - رحمه الله-، فقلت: مُلكٌ تردّدَ في عنصر، وخاتمٌ تنقّلَ من خنصَر إلى خنصر؛ وقد سددتَ - أيدك الله - ثلماً، وشفيتَ كلماً، وسُمتَ الخطوب رغماً، وأوسعتَها همّاً..."

12 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب لاردة المظفّر [ابن هود يوسف حسام الدولة أخي المقتدر][4] [473]

"... إنّ الله تعالى يصرّف الأمور كيف يشاء، له النّعماء والبأساء، فإن عافى واصل المنن، وإن امتحن أحسن، لأنّه يمنح الأجر الذي هو أسنى، ويعود بعوائده

---

[1] - الرسالة في **الذخيرة** 3/ م1/ 216- 217

[2] - هل هو عبيد الله الذي تركه أبوه نائباً على المرية بعد مقتل زهير العامري سنة 429، وسماه الناصر، ثمّ توفّي وحلّ محلّه معن بن صمادح؟ (النظر **البيان** 293- 294)

[3] - هل كان المعتصم ابناً لعبد العزيز ووليّاً لعهده قبل موته ثم عيّن مكانه أخوه عبيد الله المذكور في الهامش السابق؟

[4] - الرسالة من إنشاء ابن طاهر إلى المظفر صاحب لاردة كما وردت في **الذّخيرة** ق3/ م 1/ 36- 37؛ وقد لاحظ محقق الذخيرة زيادة في الأصل لكلمة (أخاه)، وعلل حذفه لها لكون المظفر صاحب لاردة هو حسام الدولة يوسف أخو المقتدر وليس أخا عماد الدولة، فاعتمدنا رأيه. توجد ترجمة ابن طاهر في نفس المصدر ص 24 وما بعدها.

الحسنى، وما المرء إلا كالنّصل، يُشحَذ بالصّقل، تنفُذ عليه الأقدار، ليقع الاختبار والاعتبار، ويبدو له الزّمان وأهله، وحيث منبتُ الفضل وأصلُه.

وكان لك - أيّدك الله- من التهمّم بجانبي، والارتماض لنوائبي، ما أطاب ذكرك، وأبان قدرك، وأخبر أنّ الجميل من سجاياك، وأنّ محاسن الدّهر بعضُ حُلاك؛ ولمّا تخلّصتُ من تلك الأشراك، وأذِنَ الله منها - وله الحمد- بالانفكاك، أسرعتُ إلى قضاء حقك وإنّه لأعزُّ الحقوق، وتوفيةِ الشّكر لك بباهر مجدك السابق غير المسبوق، والثّناءِ على أنعم الله تعالى قبل كلّ شيء وبعده التي جلّت عن الإحصاء، وجلت من الغمّاء؛ وقد أوليتَ ما أثبتَ لك في الرقاب رقاً، وما تخبّ به الركائب غرباً وشرقاً، وإنّ المستقلّ بي والجاذبَ بضَبْعي لمحيي ميْتِ الوفاء، ومُحرز جزل الثّناء، قسيمي في المهمّ، وظهيري على المُلمّ، **الوزير الأجلّ أبو بكر**[1]، فإنّي تبوّأتُ في ذراه محلاً وداراً، ورأيت الخطوب تعتذر اعتذاراً..."

13 - رسالة من ابن طاهر إلى الحاجب عماد الدّولة[عبد الملك بن هود][2] [473]

"كتبتُ- أيّدك الله - عند وصولي بلنسية، متخلصاً من يد المحنة، متلبّساً لله فيها أعظم المنحة، أن تداركَ في غمراتها، وجلّى المسودّ من هفواتها، فلله الحمد كثيراً، والشّكر نضيراً؛ وإنّي بلوتُ من إجمالك في حالتيْ شدّتي ونجاتي ما عقل اللّسان، وقبض البنان، وأخجل الحوادث حتّى كفّت من اعتدائها، وألوتْ تعثّر في استحيائها؛ فإن أثنيتُ فمقصّرٌ عنك الثّناء، وإن دعوتُ فإلى الله يُرفع الدّعاء.

وتلقاني بطريقي كتابُك الرّفيعُ فتملّكني برّه، وحيّاني بِشرُه، وعظُم عندي قدرُه؛ فلله ما تبديه من فضل وما تُسرُّه، ولله درُّ **الوزير الأجلّ أبي بكر**، جوزيَ بوفائه، وفسح الله له في ظلّه وبقائه، فإنّه ما اكتحل في كربتي بنوم، ولا تمتّعَ بمسرّة في يوم، ولقد كنتُ قذى عينه، حتّى حلّني من وثاقها بيديه[3]..."

14 - رسالة من ابن طاهر إلى [المقتدر] ابن هود ربما في موضوع سابقتيها[4] ؟[473]

---

[1] - هو أمير بلنسية (457- 478).

[2] - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في **الذخيرة** ق3/م1/ 35- 36، ربّما بعد تسريحه من معتقل ابن عباد في حصن أقوط سنة 473 بعد شفاعة أمير بلنسية له لدى ابن عباد، فشكر جملةً من الرؤساء فعلَ أبي بكر صاحب بلنسية (**الذخيرة** 1/3/ 34). وربما كان سبب تسمية عماد الدولة بالحاجب لكونه ولي عهد أبيه، فمصطلح الحاجب أصبح منذ عصر المنصور ابن أبي عامر يطلق غالباً على الشخص الثاني في الدولة أو الإمارة، ومن ذلك وليّ العهد.

[3] - وهذه إشارة إلى أنّ رئيس بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز هو الذي تدخّل لافتكاكه من معتقل ابن عبّاد.

[4] - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 34- 35، كتبها ابن طاهر إلى ابن هود ربما في موضوع سابقتها، وابن هود المعاصر لأزمة أبي عبد الرحمن بن طاهر أي سلب مرسية من يده واعتقاله هو المقتدر سليمان (438 - 474).

"... إنّ الأيّام - أيّدك الله - تَلوَّنُ ألوانُها، وللمساءة إحسانها، ما تذر شِعباً إلاّ تصدَعه، ولا وصْلاً إلاّ تقطعه، إن أمرّت عهداً نقضته، أو بنت بنياناً قوّضته، على أنّها قد تعود، ويكون لها الأثر المحمود، ورمتني - أيّدك الله - بسهامها، وجرّعتني غُصص حِماحها، [وعلى قرب من مرامها][1]، فكان لله سِترٌ وقى، وصنعٌ أبقى، مكّن النّفسَ من رجائه، ووطّن الصّبرَ على قضائه، طمعاً في الحظّ من ثوابه، وتبلُّج الفرج من أبوابه، إلى أن تبدّى فجرُه، وتأتّى أمرُه، والحمد لله بحقه، منقِذي من الخطْب وربقِه، هو المبلوّ بعواطفه، المدعوُّ بعوارفه؛ وفي كلّ حال - أيّدك الله- أخطرتني ببالك، ومددتَ عليّ من ظلالك، ووصلتَ من سببي، ونفّستَ من كُربي، وأوجدتّني من ذراك مَفزعاً، وأوردتّني من نعمك مَشرَعاً، لا زال برُّك شاملاً، ولا انفكّ سعدك كاملاً، فإنّك محيي الهمّة ومُقيمُها، ومُولي النّعمة ومُديمُها، وكم أحييتَ من همم، وأوْليتَ من نعم؛ فكافأ الله الوليّ السّنيّ واحِدي **الوزير الأجلّ أبا بكر** مكافأة ماجدٍ جدّ في سعيه، وجرّد من رأيه، لدرء مهمّتي وكشفه، حتّى انتضاني في كفّه، فخلطني بالعليّةِ نفسه، ومهّد لي في جنابه وأنسه، أيّده الله على شكره، وفسح في عمره..."

15 - رسالة من ابن طاهر إلى القادر ابن ذي النون في نفس سابقاتها[2] [473]

"حُكمُ الزّمان - أيّدك الله- تَعثّرُ الإنسان، ولولا دفاع الله لهوتْ قدمُه، واستوى عدمُه، لا يبالي حيث انتحت نوائبُه، ولا من ازورّ جانبُه، يُلفي الدّهر عابساً، ولثوب العذر لابساً.

وكتابي من **بلنسية** وقد وافيتُها موافاة الآمن بقراره، خارجاً من ليل الحوادث واعتكاره، مستبشراً بنهاره، مستشفياً من آثاره؛ فالحمد لله بما أولاه، حمداً يبلغ رضاه؛ وما أنا - أيّدك الله - في أمري، وما يسّره الله من انجلاء ضُرّي، بأجذلَ منّي، لتوقف الأيّام عن مكانك، وقد أوضعتَ في بنيانك، تظنّ أنّ ما تُتلفه، لا تصرفه، وكم لله من لطف خفيّ، وكرم حفيّ، وهو المسؤول بأحبّ أسمائه، أن يعيد عزّك إلى بهائه[3]؛ وإنّ مَن تلقى راية المجد ابتداراً، وأخذني من أيدي الخطوب اقتساراً، لعلمُ الوفاء الذي إليه يُشار، وشخصُ السيادة الذي به يُستنار، واحدِي **الوزير الأجلّ أبو بكر**، أدام الله عزّه، وأحسن جزاءه، ووصل اعتلاءه..."

---

[1] - إضافة من نسخة أخرى منقولة من الهامش لمحقق الذخيرة.

[2] - الرسالة من ابن طاهر كما وردت في **الذخيرة** ق3/1/ 37- 38. وكانت فترة حكم يحيى القادر المكتوب إليه بين سنتي 467 و478.

[3] - كان أهل طليطلة ثاروا على القادر ففرّ من المدينة إلى ثغوره الشرقية، وطلب دعم ملك قشتالة لإدخاله إلى طليطلة.

16 - رسالة من ابن طاهر إلى صاحب المرية عن اهتمام صاحب بلنسية به [جمادى2/ 473][1]

"... ولمّا تخلّت منّي - أيّدك الله- يد الزّمان ونوائبه، وتجلّت عنّي غمراته وغياهبه، ابتدرتُ مطالعتك ابتدار الفرض، وهصرتُ من مجاذبتك بالغصن الغضّ، فاتقاً لكمامة الفضل، وعامراً لشريعة الوصل، وحمدُ الله تعالى مقدّمٌ في السرّ والجهر، على ما درأ من الحوادث النّكر:

وإذا جزى الله امرءاً حسَناً == فجزى أخاً لي ماجداً سمحا
ناديتُه في كربتي فكأنّما == ناديتُ عن ليلٍ به صُبحا

ذلك **الوزير الأجلّ أبو بكر**[2] مثبتُ رسم الوفاء، وباني مجده على قمّة الجوزاء، نبّهَ لي كرمَ مسعاه، دائباً وولاه، لم يكتحل سوى الأرَق، حتّى استنقذني من لُجّة الغرَق، ووافى بي على المنى، وأحلّني من برّه المحلَّ الأسنى؛ فأنام الله عنه عيون الأيّام، ولا أنساني له شكر ذلك المقام..."

17 - رسالة من ابن طاهر إلى الأمير يوسف بن تاشفين معتذراً عن صعوبة الانتقال إليه[3] [479 - 495]

"كتبتُ - أيّد الله **أمير المسلمين**- وقد وافى الخبر المبهج بأنّ الجزيرة المهتضمة - حماها الله- حلّها إمامها العادل، وسيفُه العامل، وليثُها الخادر، وقرْمُها المبادر، فكان عندي كالماء للظمآن، والنّجم للحيران، فقلت: خبرٌ- واللهِ - جلى الشّكّ من اليقين، وشفى صدور قوم مومنين، فالحمد لله ربّ العالمين، إذ يُقيم الله به للحقّ مناره، ويحمي من الإسلام نماره؛ فأنفُ الكبر أجدع راغم، ووجه الظّلم أسفعُ قاتم؛ ووددتُ أن أسعدَ بلقائه، وأستظلّ بلوائه، وأُلِمَّ بجوانبه، وأسيرَ في كتائبه، فأنالَ حظّاً جسيماً، ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوزَ فوزاً عظيماً﴾[4]؛ ولولا أنّ العدوّ - قصمه الله - بهذه الأقطار، يجوس خلال الدّيار، فلا تُمكن المسالك، ولا تتورّد المهالك، لكنتُ أولَ وارد مع الوُرّاد، ولقضَيتُ فرض الجهاد، وملأتُ عيني ممّن ملأ البسيطة عدلاً، وزاد الفضيلة فضلاً، وإنّ العين لتفيض من الدّمع، لما جنّت بي الأيّام في القطع، وعسى اللهُ أن يفسح المهَل، ويرفع الوجَل، ويُبرئ العلل، ويُبلغ الأمل..."

---

[1] - الرسالة من إنشاء ابن طاهر كما وردت في **الذخيرة** ق3/ م1/ 34، وقد قدّم لها ابن بسام بقوله: وعند انجلاء تلك الظلماء [انظر الهامش اللاحق] خاطب جماعة من الرؤساء وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين [وأربعمائة]، فمن ذلك رقعة خاطب بها صاحب المرية قال فيها: "ولمّا تخلّت..." انظر ترجمة أبي بكر عبد العزيز في **الذخيرة** 3/ 1/ ص40- 44.

[2] - هو صاحب بلنسية أبو بكر (457- 478) ابن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن الحاجب المنصور بن أبي عامر، وهو الذي توسط لدى ابن عباد لإطلاق سراح ابن أبي طاهر من معتقله بحصِن أقوط إثر استيلاء ابن عمار قائد ابن عباد على إمارته بمرسية سنة 471، فانتقل ابن طاهر إلى بلنسية معززاً مكرّماً عند صاحبها أبي بكر.

[3] - وردت الرسالة في **الذخيرة** ق3/ م1/ 88- 89 ؛ ويظهر أنها كتبت قبل تحرير المرابطين لبلنسية وجهاتها من يد الكمبيطور سنة 495 ، وقد كان ابن طاهر مقيماً في الجهة الشمالية الشرقية من الأندلس.

[4] - من الآية 72 من **سورة النساء**

الصنف الثالث: في مواضيع الودّ والتعازي والحوادث

18 - رسالة من الكاتب ابن طاهر إلى حسام الدولة أبي مروان ابن رزين صاحب السهلة جواباً على رسالة وديّة منه[1] [495 - ...]

"كلّ المعالي - أدام الله تأييد الحاجب ذي الرئاستين- إليه ابتسامها، وفي يديه انتظامها، وعليه إصفاقها، ولديه إشراقها؛ وإنّ كتابه الرّفيع وافاني فكان كالزّهر الجنيّ، والبشرى أتت بعد النعِيّ، سرى إلى نفسي فأحياها، وسلّى عنّي خطوب الكروب وجلاها، فلتأتينّه منّي بالثّناء الرّكائبُ، تحمله أعجازها والغوارب؛ وأمّا ما وصف به - أيّده الله - الأيّام من ذميم أوصافها، وتقلّبها واعتسافها، فما جَهلتُه، ولقد بلوتُها خُبراً، ولقد رددتها على أعقابها نُكراً، فلم أخضع لجفوَتها، ولم أتضعْضع لنَبْوَتها، وعلمتُ أنّها الدّنيا قليلٌ بقاؤها، وشيكٌ فناؤها، وفي ذلك أنشدوا:

تفانى الرّجال على حبّها == وما يحصلون على طائل

ومع ذلك ما عدمتُ من الله ستراً كثيفاً، ولا صنعاً لطيفاً، له الحمد ما ذرّ شارق، وأوْمَضَ بارق.

ورأيتُ ما انتَدب إليه - أيّده الله - بسنائه، من الشّفاعة عند القائد الأعلى[2]- أعزّه الله - والصّدقُ مُوَاعِدُه، وقد كان بدأني بالإجمال لو عاد عائدُه، وبيد الله تعالى الأمور يقضيها، عليه التوكّل فيها، وفهمتُ ما أومَى إليه من التنقل إلى ذراه، والورود على نَداه[3]، وأنّى لي بذلك وقد قيّدتني الهموم فما أستطيع نهْضاً ولا أتقدّم، ولو أطقتُ ذلك لأعدتُ العمر غضّاً جديداً، ولقِيتُ الكمال شخصاً وحيداً، عند من تُقرّ بسوابقه العجَمُ والعرب، وتوكّل خلائقه بالضّمير وتُشرَب[4]..."

19 - رسالة تعزية من إنشاء ابن عبد البرّ النمري ربما في وفاة هذيل ابن رزين[5] [436]؟

لقد طرقت نائبة من الموت وفاجعة من الكَرْب في قطب الآمال ومدارها، وسناء الهمم ومنارها، وتاج الرئاسة وسوارها، الحاجب حسام الدّولة[1] ، كان، رضي الله عنه

---

[1] - وردت الرسالة ضمن ترجمة ابن طاهر في **الذخيرة** ق3/ م1/ 48- 49؛ كانت فترة إمارة يحيى حسام الدولة بين 496 و 497، وهو الذي أخذ المرابطون من يده إمارة السهلة.

[2] - كان ابن رزين توسّط لابن طاهر عند القائد المرابطي أبي عبد الله محمد بن الحاج ابن عائشة ليردّ عليه أملاكه، فأعلمه بكون أمير المسلمين منع ذلك (انظر **القلائد** ص165؛ والرسالة رقم63 سابقاً).

[3] - تلميح إلى عدم الاستجابة لشفاعته.

[4] - في هامش الذخيرة أنّ كلمة (بالضمير) لم ترد في بعض النسخ؛ وعلّق ابن بسّام على الرسالة بقوله: "وكان ذو الرئاستين قد رأى لو انتقل ابن طاهر إلى ذراه، أن يستفيد برأيه ونُهاه، وهيهات! أبو عبد الرحمن كان أصوَنَ لفضله، وأفطنَ بالزّمان وأهله، من أن ينخدع بمنتقل ظلّه...."

[5]- وردت الرسالة في **الذخيرة** ق3/م1/ ص 222- 223؛ وهي من إنشاء ابن عبد البر وترجمته قبل نص الرسالة في ص 125 وما بعدها؛ وفي **العبر** 4/ 342.

وأرضاه، وجعل الجنّة مأواه؛ فوا لهفا عليه مردّداً، ويا أسفا له مؤبّداً، ماذا خطفت يدُ الحِمام، وأصْمَت به سهامُ الأيّام، أيّ سماء للعلى فطرت، وأيّ نجمٍ للمنى كدّرت، وأيّ بحر من الأسى سجّرت، وأيّ عين للبكاء فجّرت، ما يقاس به مثيل، ولا يُضاف إليه عديل؛ وقد كان لي أن أصرف المقال، وأضربَ الأمثال، وأجتلبَ من التّعازي ما جاءت به الآثار، ووردت به الأخبار، غير أنّه - أيّده الله[2]- أعلى في الفضل يداً، وأثبَتُ في العلم قدماً، وأرجَحُ حلماً إذا طاشت العقول، وأشدُّ كظماً إذا اضطرمت في الصّدور النّيران، من أن أورد عليه ما لم يُحط به علماً، ولم يتوصّل إليه فهماً..."

20 - تعزية من إنشاء ابن عبد البرّ إلى المظفّر محمد ابن الأفطس في وفاة أبيه المنصور[3]

[437]

"وصل كتابه[4] - أيّده الله - بما شرّد غَمضي، ونعى بعضي إلى بعضي، وأطبقَ سمائي على أرضي، وأقضّ مضجعي، وأسال مدمَعي، وعظّم ثُكلي وجزعي، من فظيع الخَطْب الوارد، وشنيع الرّزء الوافد، **بوفاة المنصور** سيّدي ومولي، كان، - أوسَعه الله جنّته ورضوانه، ولقّاه رحمته وغفرانه-؛ فيا لها مصيبة قصمت ظهري، وذهلت فكري، وفللت حدّي، وأرغمت خدّي، ودفعتني إلى الجزع وحدي:

فلو كنتُ في الباكين حولك كنت قد == تأسّيتُ فاستشفيْتُ والعين تدمع
ولكنّي أبكي فريداً وأشتكي == ويداً فما ينفكّ عنّي التّروّع
هو الرزء أفضى بي إلى كلّ غاية == من البثّ لا أسلو ولا أتورّع
لئن حسُن السُّلوان والصّبر بامرئ == فأحسنُ حالاتي سلوٌّ ممنّعُ

(....)[5] ومثلُ مولاي الرئيس الأجلّ تلقّى هذا الخطب الذي يهُدّ الجبال، ويقطع الآمال، ويخلع الفؤاد، ويصدع الأكباد، بما حضّ الله تعالى عليه من الصّبر، وندب إليه من استجزال الذّخر، فهو القائل تعالى: ﴿إنّما يوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب﴾[6]؛ وأنت في نافذ فهمك وثاقِبِ علمك لا تُبصَّر، بل تُذكَّر، وكان من الحقّ الأوجب والفرض الألزم أن أقيم قدمي مقام

---

[1] - عند ابن خلدون أن حسام الدولة هو عبد الملك وجعل وفاته سنة 450 (**العبر** 4/ 342)؛ وفي **البيان المغرب** أنه بويع سنة 403 وتوفي سنة 436، وخلفه ابنه عبد الملك (جعله ابن خلدون أخاه)، وتلقب بجبر الدولة، **وكان في أيام أبيه يسمى حسام الدولة**. وتوفي سنة 496، فخلفه ابنه حسام الدولة يحيى بن عبد الملك، وخلعه المرابطون قي 8 رجب 497 (**البيان** 3/ ملحق ص309- 310). أمّا الكاتب ابن عبد البر فقد توفّي سنة 474 (**الذخيرة**3/1/ 126)، فيكون المتوفّى المعزّى فيه على الراجح هو هذيل بن رزين، ولهذا افترضنا للرسالة تاريخ 436.

[2] - يظهر أنه الأمير الجديد في السهلة ابن المتوفى وهو ذو الرئاستين عبد الملك بن هذيل (436- 496).

[3] - كانت فترة إمارة عبد اللّه بن محمد بن مسلمة الملقب بالمنصور لمملكة بطليوس بين سنتي 413 و 437، فخلفه ابنه محمد الملقّب بالمظفّر . وردت رسالة التعزية في وفاة والده المنصور في **الذخيرة** ق3/ م1/ 223-224

[4] - في نسخة أخرى: كتاب مولاي (هامش الذخيرة)

[5] - في الذخيرة: (وفي فصل منها)

[6] - من الآية 11 من **سورة الزمر**

قلمي، وأكتفي بالرّكاب عن الكتاب، وقلَّ ذلك منّي في هذه النّائبة الهادمة، والنّازلة القاصمة، إلاّ أنّي على علمك عن الإرادة مردود، وفي عِقالات الآلام والأعراض مصفود؛ جعل الله هذا المصابَ الخطير آخر ما يقرَع لك باباً، ويخرق إليك عن كرهٍ حجاباً..."

21 - رسالة من ابن طاهر إلى الوزير أبي بكر عبد الملك بن عبد العزيز عند الحادث في قونكة[1] [487- 495 ؟]

"كتبتُ - أعزّك الله- والحدّ فليل، والذّهن كليل، بما حدث من عظيم الخرْق على جميع الخلق، فلتقُم على الدّين نوادبُه، فقد جُبّ سنامُه وغاربُه، ولتَفضْ عليه مَدامعُه وعَبراتُه، فقد غشيَه جِمامُه وغمراتُه، وكان منيعَ الذُّرى، بعيداً عن أن يُلحَظ أو يُرَى، تحميه المناصل البُتر، والذّوابل السّمر، والمسوّمة الجُرد، ومشيخة كأنّهم من طول **ما التثموا** مُرْد[2]؛ فأبى القدَرُ إلاّ أن يفجَع بأشمخ مدائنه ومعاقله، ولا يترك له سوى سواحله[3]؛ وكانت **لطيطلة** أختاً[4]، فاستلبها فجأة وبغتاً؛ وقبْلُ ما سلب الجزيرة وسطى عقدها: **بلنسية** - جبرها الله - وأرجو أن يُتلافى جميعها من نظر أمير المسلمين - أيّده الله[5]- ما يُعيدها، فيملأها خيلاً ورجالاً، وينفر بهم خفافاً وثِقالاً، عليهم من قواده شيبُها وشبّانها، وفيهم من أجناده زنجُها وعُربانُها[6].

من كلّ أبلجَ واضح ذي سَورة == يمشي إلى الهيجاء مشْيَ عضنفر
يَلقى الرّماحَ بوجهه وبنحره == ويُقيم هامتَه مقام المِغفر

حتّى يُستقلّ جدُّها العاثر، ويُحيَى رسمُها الدّاثر، فتبتهج الأرض بعد غُبرتها، ويكتسي الدّهر بزهرتها؛ وما قصّر **القائد الأعلى**[7] في الجدّ والتشمير، والاحتفال بالأبطال المغاوير، حتّى بلغ بنفسه أبلغ المجهود، "والجود بالنّفس أقصى غاية الجود"[8]، ولكن نفذ حكمُ من له الحُكم، ورمى قضاؤه فما أخطأ السّهمُ؛ واللهُ لا يُضيع له مقامه في العالم السّالف، وما أوردَ المشركين فيه من المتالف، فما انقضى فتحٌ حتّى أعقبه فتح، كالفجر يتبعه صبح؛ مدّ الله بسطته، وثبّت وطأته، ولا زال هذا الصنيع الجميل عن هذا الدّين مُرامياً، وله حامياً، بعزّته".

---

[1] - ربّما كتبها ابن طاهر في الفترة بين سقوط بلنسية في يد القائد القشتالي الكمبيطور سنة 487 وتاريخ تحريرها من طرف المرابطين سنة 495. (نص الرسالة في **القلائد** 194)؛ هل حدث هذا بعد سقوط مملكة ابن عباد في يد المرابطين، فاستولى ألفونسو على قونقة وما جاورها لتيسير التحرّك نحو إمارة بلنسية لقطع الطريق على المرابطين نحوها ؟ (قارن مع ما ورد في **دول الطوائف** 335)

[2] - لعلّه يشير إلى المرابطين الملثّمين

[3] - يظهر أنّ في هذا إشارة إلى نجاة السواحل الشرقية إلى هذا الوقت من تسلّط الأعداء، فالقشتاليون وهم ألدّ الأعداء وأقواهم بعيدون عن السواحل خاصة الشرقية

[4] - كان سقوطها بيد القشتاليين سنة 478 (راجع **الروض المعطار** 393).

[5] - الإشارة هنا إلى يوسف بن تاشفين

[6] - تشير الرسالة هنا إلى تنوع الجيش المرابطي بين العنصر السوداني الذي كان يمثّل الجيش النظامي، والعنصر الصنهاجي الصحراوي باعتبار أنّ صنهاجة من أصل عربي حميري كما كان شائعاً. ومن جهة أخرى تشير إلى شدّة قتال الجيش المرابطي سواء من كان منهم في سنّ الشباب أو من تجاوزها، وهم جيل ربّته الصحراء.

[7] - لعله يقصد ابن الحاج ابن عائشة المذكور سابقاً.

[8] - عجز بيت أوله : يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها == (من هامش القلائد)

الصنف الرابع: منوّعات

22 - رسالة عن المامون بن ذي النون إلى قائده ابن عكاشة لاختياره كاتباً غير مناسب[1] [.......]

... قد عهدناك منتقباً لأمورك، نقاداً لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب البلِه الجلف، وأسندتَ إليه الكتْبَ عنك دون أن تطلع عليه، وقد علمتَ أنّ عنوان الرّجل كتابُه، ورائدَ عقله خطابُه؛ وما أدري من أيّ شيء يتعجّب منه، هل من تعليقه "إن شاء الله تعالى" بالماضي، أم من حسن تفسيره للقرآن الكريم ووضعه مواضعه؟ أم من تورّعه عن تأويله إلاّ بتوقيف من سماع عن إمام؟ أم من تهويله لما طرأ على من يخاطبه؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنّه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهوله شيئاً؟ ولو أنّ حقيراً يخفى عن علم الله تعالى لخفي عنه هذا الحصن، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام، خارج عن سلك النّظام، لا يعبره إلاّ لصّ فاجر، أو قاطع طريق غير متظاهر، حُرّاسه لا يتجاوزون الخمسين، ولا يرون خبز البُرّ عندهم إلاّ في بعض السّنين، باعه أحدهم بعشرين ديناراً؛ ولعمري إنّه لم يُغبن في بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه، وأراح من الشين بنسبته والنّظر في خداعه[2]؛ فليت شعري ما الّذي عظّمه في عين هذا الجاهل، حتّى خطب في أمره بما لم يخطب به في حرب وائل.."[3]

23 - تقديم النّصح لأحد الأمراء[4]

"... أفاز الله يا سيّدي الأعلى قِدحك، وجعل لمرضاته كَدحك، وسدّد إلى أغراض الصواب سهامك، وأوردَ على حياض السّحاب أعلامك، وفتحَ المبهماتِ بعزمك، وأوضَحَ المظلمات بنجمك، وأبقى المحاسن ببُقياك، وسقى مواطن العلياء بسقياك.

---

[1] - كان للقائد ابن عكاشة كاتب اسمه عبد الحميد بن لاطون أمره أن يكتب إلى المامون في شأن حصن دخله النصارى فكتب "... وقد بلغني أنّ الحصن الفلاتي دخله النصارى إن شاء الله، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، بل هي الحادثة الشّاهدة بأشراط الزّمان، فإنّا لله على هذه المصيبة التي هدّت قواعد المسلمين وأبقت في قلوبهم حسرة إلى يوم الدّين". فلما وصل الكتاب إلى المأمون كتب إلى ابن عكاشة الرسالة أعلاه

[2] - هذا يتعلّق باسم الحصن الذي رُمز له فقط بالحصن الفلاني (الهامش السابق)

[3] - كان جواب ابن عكاشة بما يلي:".. وإنّ المذكور ممن له حرمة قديمة تغنيه عن أن يمتّ بسواها، وخدمة محمود أولاها وأخراها؛ ولسنا ممّن اتّسعت مملكته، وعظمت حضرته، فنحتاج إلى انتقاء الكتّاب، والتحفظ في الخطاب، وإنّما نحن أحلاس ثغور، وكتّاب كتائب لا سطور؛ وإن كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يلقيه على القلم، فإنّه يحسن كيف يصنع في مواطن الكرم، وله الوفاء الذي تحدّث به فلان وفلان، بل سارت بشأنه في أقصى البلاد الرّكبان، وليس ذلك يقدح عندنا فيه، بل زاده لكونه دالاً على صحّة الباطن والسّذاجة في الإكرام والتّنويه".

[4]- وردت الرسالة في **الذخيرة** 1/ م2/ 635- 637 ، وهي من إنشاء البزلياني ربما عن الأمير حبوس إلى أمير آخر قد يكون عبد العزيز صاحب بلنسية أو من يجاورونه من أمراء الثغر الأعلى (لاردة، سرقسطة..)؛ وموضوعها يوحي بتقديم النّصح له للتآلف مع بقية الأمراء المجاورين له والبعد عن التقاتل فيما بينهم، بحيث يمكن أن تتكامل مع الرسائل السابقة عن الأمير حبوس في هذا الموضوع.

كتابي يا سيّدي، وأجلُّ عُددي،- كتب الله لك السّلامة، ووهب لك الكرامة،- ولو تقدّمني في الاعتراف بمآثرك مُطنب، أو أفحمني في أوصاف مفاخرك مُسهب، ما شقّ غباري في ودادك مُجار، ولا تعلّقَ بآثاري في اعتقادك مُبار؛ وكيف وقد حُزتُ الغايتين من تفضيلك وإعزازك، وأحرزتُ الفضيلتين من تبجيلك وإحرازك، وما انفردتُ من زماني بفائدة تُوازيك، ولا استبددتُ من إخواني بفائدة تُساويك؛ وبحسب ذلك ضنّي بك وشُحّي، ومحبّتي لك ونصحي، وما أذكرك ما لا تَذكر، ولا أبصّرك ما لا تبصر؛ فأيُّ علمٍ إلاّ سلكتَ شعابه، وأيُّ حِلمٍ إلاّ ملكتَ رقابه؛ وإن كنتُ لا أورد عليك إلا ما يؤثر عنك، ولا أوفِد إليك إلا ما يظهر منك، فللسّاعي مرادُه، وللدّاعي اعتقادُه، وللمجتهد أجرُه، وللمقتصد عُذرُه، فما أستصبح إلاّ من قمرك، ولا أستوضح إلا بغُررك، ولا أعشو إلاّ لنارك، ولا أمشي إلا بأنوارك، والله يبقيك للأفضلِين أسوة، ويُحْييك للأكرمين قُدوة.

واتّصل بي يا سيّدي ما وسوس به الشّيطان من الأمر حتّى عمد؟ له البيان في الفتق لأثر مسحوب وقدر مكتوب، وأنت الذي نجّذته التجارب، وشحذته النّوائب، وارتضعَ أخلافَ الحروب، وامتضغ أصناف الخطوب، وعجَم قناة الزمن، واقتحم غمراتِ المحن، بقلب غير منخوب ولا وهِل، وعقلٍ غير مسلوب ولا وكِل، وذكاءٍ تنكسف له ذُكاء[1]، وآراءٍ ينكشف لها الغطاء، وعلمٍ بما تأتي وتذر، وفهمٍ بما تورد وتُصدر، ومذاهبَ مثّلها لك التّحقيق، ومطالبَ شرحَها التّوفيق؛ فهي بعصمة الله محفوفة، وبنعمته مكفوفة، وعلى إرادته متوقفة، وفي طاعته متصرّفة؛ **فكم لك في المشركين من البلاء الجميل**[2]، وعلى المسلمين من الغَناء الجزيل، فكم علمٍ خلدتَ، وحزمٍ أيّدتَ، وكم فضلٍ أبديتَ وأعدتَ، وكم طولٍ بنيتَ وشيّدتَ، وكم رايةٍ للدّين رفعتَ، وغيابة عن المسلمين قشعتَ؛ أفلآن يُدعَى للهوادة، ويُسعَى لغير العادة، حين أمّلتَ للزّيادة، واكتهلتَ في السّيادة، وأرجَ بفخرك كلُّ نادٍ، ولهجَ بذكرك كلُّ حادٍ، عديم أتراب وأقران، ونديم آداب وقرآن، لم تفتكَ من الفعال فضيلة، ولا شانك إلى الكمال وسيلة، ولا أعرّفك من المعالي ما لا تعرف، ولا أصفك من المفاخر بما لا توصَف؛ الألسنة عن واجبك حسيرة، والأمكنة بمناقبك معمورة؛ والله تعالى يزيدك علوّاً ومجداً، ويقيدك سموّاً وجدّاً، وأنت لا تألو المسلمين نصحاً، ولا يُعدمهم سعيُك نجحاً، ولا يُفقدهم هديُك صفحاً؛ **فعياذاً بالله أن يُسفك بك دم**، ويُهتك بسببك مَحرم، أو يَهلك بطلبك مسلم، وأنت العالم بأمر الله، والقائم بسنّة رسوله، والحاكم بما يرضاه، والعاصم بتنزيله، والمقتدي بسبيله، والمهتدي بدليله؛ فلا أتلو عليك من آدابه إلا ما أحكمتَ تأويله، ولا أجلو لك من تبيانه إلا ما قدّمتَ تحصيله، فما مِثْلك من أهل الفضل يذكّر بقول الله عزّ وجلّ ﴿ والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[3]".

---

[1] - ذُكاء: من أسماء الشّمس

[2] - هذا ما يرجّح وجود المكتوب إليه في منطقة الثغور مع النصارى أو قريباً منها

[3] - من الآية 72 من **سورة التوبة**.

24 - فصل من عقد أمان ربما عن المعتصم بن صمادح أمير المرية[1] [443 - 484]

"... **أما بعدُ**، فإنّ الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك، ولكنّا - بما وهب الله تعالى لنا من الإشراف على سرائر الرئاسة، والحفظ لشرائع السياسة-، تأمّلنا من ساسَ جهتَك قبلنا فوجدنا يد سياسته خرقاء، وعينَ حزَامته عوراء، وقدم مداراته شلاّء، لأنّه مال عن ترغيبك فلم ترجُه، وعن ترهيبك فلم تخشَه، فأدّتك حاجتُك إلى طلاب الطّعم الدّنيّة، وقلّةُ مهابتك إلى التهالك على المعاصي الوبيّة؛ وقد رأينا أن نظهر فضل سيرتنا فيك، ونعتبر بالنّظر في أمرك، فمهّدنا لك التّرغيب لتأنَس إليه، وظللنا لك التّرهيب لتَفرَق منه، فإن سوّت الحالتان طبعَك، وداوى الثّقاف والنّار عودَك، فذلك بفضل الله عليك، وبإظهاره حسن السياسة فيك، وأمانُ الله لك مبسوطٌ منّا، ومواثيقُه بالوفاء لك معقودة علينا، وأنت إلى جهتك مصروف[2]، وبعفونا والعافيةِ منّا مكنوف، إلاّ أن تَطيشَ الصّنيعة عندك، فتخلعَ الرّبقة وتَمرُقَ من الطّاعة، فلسنا بأول مَن بُغِيَ عليه، ولستَ بأول من بدَتْ لنا مَقاتلُه من أشكالك إن بغَيتَ، وانفتحت لنا أبواب استئصاله من أمثالك إن طَلِبتَ..."

25 - عقد أمان آخر ربما عن ابن صمادح أيضاً[3] [.........]

"... أمّا بعدُ، فإنّكم سألتم الأمان أوَانَ تلمّظت السّيوف إليكم، وحامت المنايا[4] عليكم، وهمّت حظائر الخذلان أن تُفرج لنا عنكم، وأيدي العصيان أن تُتحفنا بكم ؛ ولو كِلنا لكم بصاعكم، ولم نرعَ فيكم ذمّة اصطناعكم، لضاق عنكم[5] ملبسُ الغفران، ولم ينسدل عليكم سترُ الأمان، ولكنّا علمنا أنّ كهولكم الخُلوفَ عنكم، وذوي أسنانكم المُعاصين[6] لكم، ممّن يهاب وسْمَ الخلعان، ويخاف (سطو)[7] السلطان، وأنّهم لا

---

1 - العقد من إنشاء أبي حفص بن برد الأصغر أحمد بن محمد بن أبي حفص أحمد بن برد الأكبر كما ورد في **الذّخيرة** ق1/ م1/ 499؛ أورده ابن بسّام ضمن نماذج (فصول) في التحميد والتصلية والشكر.... قد يكون العقد مكتوباً عن أمير المرية الذي استوزره أميرها كما ذكر ابن سعيد (**المغرب** 1/ 91)، راجع عن الوزير ابن برد كاتب الرسالة: **الذخيرة** 1/2/ 486 ؛ **المغرب** 1/ 86- 88، 91؛ **جذوة المقتبس** 107. وقد يكون تاريخ العقد في أوائل عهد المعتصم لقوله "تأمّلنا من ساس جهتك قبلنا..."، أي أنّه يحاول أن يستميل رجال دولته لا أن ينفرهم منه وهو في أول عهده.

2 - يقصد إعادته إلى تسيير شؤون الجهة التي كان بها، محذّراً إياه من العصيان.

3 - كاتب هذا العقد هو كاتب سابقه ابن برد الأصغر؛ كما ورد في **الذّخيرة** 1/1/ 500- 501، ونقارن نصه فيما يلي مع **المغرب** 1/ 88

4 - في المغرب: الحتوف

5 - في المغرب: عليكم

6 - في المغرب: وذوي الأسنان العاصين لكم

7 - ما بين هلالين (....) كلمة ناقصة في المغرب

يراسلونكم في ميدان معصية، ولا يزاحمونكم [في][1] منهل حيرة، ولا يُماشونكم إلى موقف وداع (نعمة) ؛ ولولا تحرُّجُنا أن نقطع أعضادهم بكم، ورجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديباً لكم، لشربت دماءَكم سباعُ الكماة، وأكلت لحومَكم ضباعُ الفلاة؛ وقد أعطيناكم بتأميننا إيّاكم عهد الله تعالى وذمّته، ونحن لا نخفرهما أيّام حياتنا إلاّ أن تكون لكم كَرّة، ولغدْرتكم ضَرّة، فيومئذ لا إعذارَ لكم[2]، ولا إقصار عنكم، حتّى تحصِدَكم ظُباةُ السّيوف، وتقتضيَ ديونَ أنفسكم غرماءُ الحتوف[3]..."

26 - نموذج من نص بيعة قد تخصّ عزّ الدولة عبد الله بن المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية[4] [484]؟

"بايع الإمامَ **عبدَ الله**[5] فلانٌ بانشراح صدر وطيب نفس، ونصاحة جيب، وسلامة غيب، بيعة رضىً واختيار، لا بيعة إكراه وإجبار، على السّمع والطّاعة، والمؤازرة والنّصرة، والوفاء والنّصيحة، في السّرّ والعلانية، والجهر والنّيّة، والعمل على موالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، من بعيد وقريب، وغريب ونسيب، ويُقسم على الوفاء به، والقيام بشروط بيعته، بالله الذي لا إله إلاّ هو الرّحمن الرّحيم، عالم الغيب والشّهادة، والقائم على كلّ نفس بما كسبت؛ ويعطيه على ذلك كلّه ذمّة الله وذمّة محمد رسوله، وذمّة الأنبياء والمرسلين، والملائكة والمقرّبين، وعباد الله الصالحين.

ومتى خلعتَ ربقةً بخترٍ أو غدر، أو طوَيتَ كشْحاً على نكث أو حنث، فعليك المشيُ إلى بيت الله الحرام ببطحاء مكة من مستقرّك ثلاثين حجّة، نَذْراً واجباً لا يقبل الله تعالى إلاّ الوفاء به، وكلّ زوجة لك مهيرة، أو تنكحها إلى ثلاثين سنة فطالقٌ تحتك طلاقَ الحرَج ثلاثاً، وكلُّ أمَة أو غِرّة أو عبد لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم؛ وكلُّ مالٍ لك من صامت أو ناطقٍ[6] أو تملكه إلى ثلاثين سنة غير عشرة دنانير أو قدرها فصدقةٌ على الفقراء والمساكين، وقد برئ الله تعالى منك ورسوله وملائكته؛ والله بجميع ما انعقد عليك في هذه البيعة شهيد، وكفى به شهيداً، وعلى الأعمال والنّيات مُثيباً".

---

[1] - ما بين معقّفين [....] كلمة مضافة من المغرب

[2] - في المغرب : إليكم

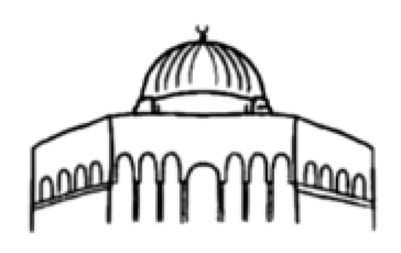
[3] - - في المغرب: وتقضي ديون أنفسكم غرّة الحتوف

[4] - من إنشاء أبي حفص ابن برد الأصغر أحمد بن محمد بن أبي حفص بن برد الأكبر كما وردت في **الذخيرة** 498/1/1- 499؛ أوردها ابن بسام كنموذج للبيعة ضمن فصول أخرى في التحميد والتصلية والشكر...

[5] - ذكر أنّ المعتصم بن صمادح أخذ البيعة لابنه عز الدولة أبي محمد عبد الله، وأوصاه أن يرحل إلى بجاية إن سقطت إشبيلية بيد المرابطين، وكانت وفاة المعتصم سنة 484، ويظهر أن أصل الرسالة أعلاه هي بيعة بالإمارة وليس بولاية العهد، فتكون بذلك في نفس السنة 484. غير أنّ الأمير المذكور لم يلبث أن ترك ألمرية إلى بجاية، راجع عنه وعن الوزير ابن برد كاتب الرسالة: **الذخيرة** 2/1/ 486 ؛ **المغرب** 1/ 86- 88، 91؛ 2/ 201 - 202؛ **جذوة المقتبس** 107 ؛ **نفح الطيب** 3/ 367- 368، وفي هذه المصادر سمي خليفة المعتصم بأبي محمد عبد الله ولقبه عز الدولة.

[6] - المال الصامت هو غير المنقول (عقارات..)، والناطق هو الذهب والفضة.





اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيِّك
محمـــد ﷺ وارحمها وفــرّج كربتهـا

البيبليوغرافيا

القرآن الكريم............ ؛ المصحف المطبوع بالقاهرة 1964 على طريقة ورش
ابن الأبّار البلنسي........؛ إعتاب الكتّاب، ، جامعة دمشق 1961
ابن الأبّار .... ؛ التكملة لكتاب الصلة، تح. الهراس، (دون تاريخ)
ابن الأبّار................ ؛ الحلة السّيراء ، حسين مؤنس، القاهرة 1985
ابن أبي زرع .... ؛ الأنيس المطرب بروض القرطاس في تاريخ المغرب ومدينة فاس، الرباط 1973
ابن بسّام الشنتريني..... ؛ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ق1، 2، 3/ 1997)، ق4 / 1979
ابن بشكوال .... ؛ كتاب الصلة ، القاهرة 1966
ابن خاقان، الفتح.........؛ قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الزرقاء الأردن، 1989
ابن خاقان ....؛ من نصوص كتاب: كتاب المتين، لابن خاقان. مدريد 1997
ابن الخطيب ل الدين....؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1، 2/ القاهرة 1973- 1974
ابن الخطيب .... ؛ أعمال الأعلام ، ق 2، ن. بروفنصال ، بيروت 1956
ابن الخطيب .... ؛ أعمال الأعلام..... القسم الثالث. المنشور تحت عنوان : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تح. الكتاني وغيره؛ الدار البيضاء 1964
ابن خلدون ع الرحمن... ؛ كتاب العبر وديون المبتدإ والخبر...... ج4. بيروت 1968
ابن منظور .... ؛ لسان العرب
ابن عبد الملك........... ؛ الذيل والتكملة، ج6، تح. إحسان عبّاس. بيروت 1973
ابن عذاري المراكشي.. ؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،
ج 1، نشر كولان وبروفنصال، دار الثقافة، بيروت، (د. ت)
ج 2 ، نشر بروفنصال، دار الثقافة، بيروت (د. ت)
ابن سعيد الغرناطي..... ؛ المغرب في حليّ المغرب، تح. شوقي ضيف، القاهرة 1978
البلوي، أبو القاسم........؛ العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 6148
الحميدي .... ؛ جذوة المقتبس . مكتبة الخانجي، القاهرة
الحميري .... ؛ الروض المعطار، تح. إحسان عباس، بيروت 1980
مجهول .... ؛ الحلل ا لموشية في الأخبار المراكشية، الدار البيضاء 1979.
المراكشي................. ؛ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة 1950

المقري .... ؛ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب؛ ج1، 3، 4 / بيروت 1968
النباهي، أبو الحسن .. ؛ كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،
(منشور تحت عنوان: تاريخ قضاة الأندلس)، بيروت 1983
الضبّي .... ؛ بغية الملتمس. بيروت 1997
عبد الله بن بلكين.......؛ كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة، أو مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك
بني زيري بغرناطة، نشر بروفنصال، القاهرة 1955
الفيروز أبادي .... ؛ القاموس المحيط
القلقشندي............... ؛ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت 1987

المراجع

بيرميخو،خواكيس فالفي؛ سكوت البرغواطي ملك سبتة،(ترجمة
عبد اللطيف الخطيب). مجلة "تطوان" ع11/ 1971
حسن إبراهيم حسن.... ؛ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.
الجزء الرابع. القاهرة 1967.
عنان، محمدعبد الله... ؛ دول الطوائف. القاهرة 1960.

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية [1]

[1] - الأرقام الواردة هنا هي أرقام الرسائل، وإضافة حرف (م) إليها في هذا الفهرس إشارة إلى رقمها في الملحق.

الأعلام البشرية [1]

ابن، أبو

[1] - تشير الأرقام في الفهارس إلى رقم الرسالة المتضمّنة للعلَم؛ والرقم الموضوع بين معقفين يشير إلى ورود الاسم في العنوان دون نص الرسالة، وقد لجأنا إلى هذا بسبب البتر الحاصل في الرسائل والذي كان سبباً في ضياع كثير من الأعلام، هذا إضافة إلى استعمال رموز مثل (فلان) عوض الاسم الحقيقيي في كثير من الأحيان، وسيأتي بعد هذا فهرس الملحق.

ف، س، ش، و، ي

فهرس الجماعات والقبائل

الأعلام الجغرافية

أ، ب

ج، د، و، ز

ط، ل، م

ع، غ، ق

س، ش، و

فهرس أعلام الملحق

الأعلام الفردية والجماعية

ابن، أب

أ، ب، ت، ح، د، ر

م، ع، ف، ي

الأعلام الجغرافية

فهرس المواضيع والرسائل

العناوين .... ص

ثانيا: رسائل عن ملوك الطوائف

أ - إمارات الجنوب الشرقي والشرق

ب - ممالك الثغور (سرقسطة، طليطلة، بطليوس)

ج - مملكة بني عباد بإشبيلية

ج ـ مملكة بني عباد بإشبيلية

د ـ العلاقة بين ملوك الطوائف والمرابطين بعد سقوط طليطلة

رسائل الملحق

الصنف الأول:

رسائل الانتصارات والتهاني وما يتعلق بها

الصنف الثاني:
رسائل لابن عبد البر النمري وابن طاهر أمير مرسية (سابقاً)
عن علاقاتهما بابن أبي عامر أمير بلنسية والسلطة المرابطية

الصنف الثالث: في مواضيع الود والتعازي والحوادث

الصنف الرابع: منوّعات

البيبليوغرافيا والفهارس

مساهمات المؤلف في الكتب والدوريات

أولا؛ المساهمة في المؤلفات

1 - المساهمة في كتابة ثلاثة فصول عن المرابطين والموحدين والمرينيين (بتنسيق مع الأستاذ محمد كنبيب) في:

(**La Grande Encyclopédie du Maroc** (Histoire). 1988

2 - المساهمة في تأليف الموسوعة الحضارية المغربية "**معلمة المغرب**"... سلا 1989- 2010 (أكثر من 70 مادة، انظر عناوينها في آخر كتابنا: نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي)

3 - المساهمة في تأليف كتاب " **البحر في تاريخ المغرب**"، (إصدار كلية الآداب - المحمدية).. 1996

4 - المساهمة في تأليف كتاب "**الأرشيف وكتابة تاريخ المغرب**" (إصدار بلدية مدينة صفرو) 1999

5 - المساهمة في تأليف كتاب:

Le Maghreb Al Andalus et La Méditerranée Occidentale (VIII^e^ - XIII^e^ Siècle). TOULOUSE . 2007

6 – المساهمة في تأليف كتاب : "**السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي**" ، (إنجاز كلية الآداب بالرباط والجمعية المغربية للبحث التاريخي.. سنة 2010)

7 - المساهمة في إنجاز : "**المغرب في عهد الوطاسيين**- من خلال وصف إفريقيا للحسن الوزّان.(منشورات جمعية الحسن الوزّان للمعرفة التاريخية) القسم الأول من "سلسلة دراسات وابحاث تاريخية"........................... الرباط 2011

ثانيا ؛ مقالات منشورة في الدوريات

* **في مجلة كلية الآداب – عين الشق**

1 - حول مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية" في: "حوليات كلية الآداب" .... ع / 3

* **في مجلة كلية "الآداب والعلوم الإنسانية" بالقنيطرة**

2 - علاقات السلم والتجارة بين الغرب الإسلامي وأوربا المتوسطية من خلال رسائل ديوانية" ع1/ 1999

3 - محتويات مصادر تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط................................ ع2/ 2000

4 - حول تحقيق رسائل الغرب الإسلامي (ق6- 8)...................................... ع3/ 2002

5- ملحق برسائل الغرب الإسلامي (الفترة الموحدية الأخيرة)........................ ع4/ 2004

6 - الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الانقسام؛

1) مساهمة أتباع العباسيين في إضعاف نفوذ الدولة الموحدية.................. ع 6/ 2006

7 ـ الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الانقسام،

2) محاولات "الترميم" الموحدية ع8/ 2008

8 ـ ذيل على رسائل موحدية ـ في تعازي رجال السلطة.............................ع9 / 2009

*** في مجلة المناهل**

9 ـ مصادر جديدة للرسائل الموحدية..................................... العدد 53 / سنة 1996

10 ـ ذيل على رسائل موحدية: في موضوع الشكاوى .... ع 55 / سنة 1997

11 ـ الجهاد المريني في الأندلس (أو مشيخة الغزاة المرينيين).......................85 / 2009

*** في مجلة أمل**

12- المغرب بين الصمود والتراجع، قراءة وثائقية

(القرون 6، 7، 8هـ).. ع21 سنة 2000

13- الغرب الإسلامي من خلال رسائله

[تعريف بأطروحة].. ع/22- 23/ 2001

*** في مجلة دعوة الحق**

14 - ذيل على رسائل موحدية؛ رسائل شاطبية........................ ع/ 350، مارس 2000

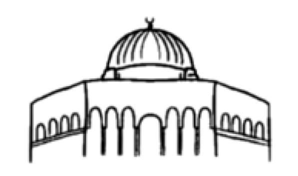
15- من نوادر المكتبة المنونية ....ع 370 / 2002

16- الإشارات الدينية في الرسائل الموحدية .... ع377 / 2004

*** في مجلة فكر (المغربية)**

17 ـ العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي (العصر الوسيط)

أولا؛ بين الغرب الإسلامي والغرب المسيحي.................................... ع.7/ 2008



اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِـ أمة نبيِّك
محمـــد ﷺ وارحمها وفـــرّج كربتها









اللهم نجِّ المستضعفين من المؤمنين في
كل مكان ، اللهم الطف بِ أمة نبيّك
محمد ﷺ وارحمها وفـرّج كربتها

المؤلف

أستاذ جامعي، كلية الآداب- القنيطرة. المملكة المغربية

صدر له من الكتب:

1- رسائل موحدية- مجموعة جديدة، في جزءين.............................. (1995 –2001)
2- سائل ديوانية موحدية...(2006)
3- الغرب الإسلامي خلال القرنين7، 8 هـ ، دراسة وتحليل لرسائله، (في أربعة أجزاء)........ (2006 -2007)
4- مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي (جزآن) ط- 1، 2 ، 3..................................... (2007 -2012)
5- نصوص محللة في تاريخ الغرب الإسلامي ....(2008)
6- الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن: دراسة تاريخية لديوانيات ريحانة الكتاب لابن الخطيب.(2008)
7- المغرب والأندلس خلال القرن السابع/13م من خلال ديوانيات فصل الخطاب.................(2008)
8- رسائل ابن عميرة الديوانية (دراسة وتحقيق) ....(2008)
9- الشرفاء الأدارسة أولاد سيدي عبد الله بن عزة ....(2008)
10- قضايا تاريخية خلال العصرين الموحدي والمريني ....(2010)
11- نصوص تاريخية عن الغرب الإسلامي:
(عصور الموحدين، المرينيين، الحفصيين، النصريين)..(2011)
12- رجال الإدارة والأعيان في العصر المريني (من خلال رسائل شخصية لابن الخطيب).............(2011)
13- العلاقات المغربية الأندلسية في القرن الرابع ....(2011)
14- العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط
(القرون 6- 9هـ)، الأجزاء 1، 2 ، 3 ....(2011)
15- رحلات لابن الخطيب بالأندلس والمغرب (ثلاثة نصوص مع قراءة تاريخية)......................(2012)



تركّز اهتمام الباحثين في عصر الطوائف بالأندلس على الجانب الأدبي خاصة، إذا استثنينا بعض الأبحاث المحدودة في مواضيع أخرى، ونظراً لاهتمامنا بمادّة المراسلات الديوانية منذ إنجازنا في أواخر القرن الماضي للبحث المتعلّق بالرسائل الموحدية والفترة اللاحقة، فقد ظهرت لنا فكرة تجميع المراسلات الديوانية الخاصة بعصر الطّوائف وتحقيقها ودراستها دراسة أولية من أجل التعرّف على الأوضاع السياسية والعلاقات بين ملوك الطوائف داخلياً ومع الإسبان وجهات إسلامية خارجية، ونأمل أن نكون قد قدّمنا بهذا العمل خدمة متواضعة للبحث التاريخي ...